فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

420-419

آذار 2021

ملف الراحل الكبير الفريد سمعان

ندوة (الثقافة الجديدة)
"البنية الاجتماعية/ الطبقية في العراق
وتحولاتها منذ 2003"

مقالات
قاسم حنون
حسام الدين فياض
سلام عادل الكيم
عبدالقادر احمد
صباح قدوري
لطفي حاتم
حيدر الغريباوي

نصوص قديمة
فالح عبد الجبار

نصوص مترجمة
جيمي رينجر

حوارات
مع الدكتور محمد الربيعي

أدب وفن
رشيد الخيُون
شريف هاشم الزميلي
سماح عادل- عمر القطان
إيغور شوشارين
الشاعر الكوري كو أون
فنجنسو رومانيوولو
شاكر السامر
عبد الرحيم التوراني
عبدالرزاق الربيعي
صادق الطريحي
بيان الصفدي
فاضل سوداني
جواد الزيدي
معتز عناد غزوان
عدنان حسين أحمد

الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": حسب الله يحيى

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 419-420
آذار: 2021

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
Culture1944@yahoo.com

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment- Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير:
thakafajadida4u@gmail.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى او على صفحات المواقع الالكترونية.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
* يجوز للباحث اعادة نشر بحثه المنشور في المجلة شريطة أن يشير الى المصدر عند اعادة النشر.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

ملف الراحل الكبير الفريد سمعان

8- الشاعر الكبير ألفريد سمعان... وداعا! ..... الثقافة الجديدة
9- الشاعر والمناضل الشيوعي ألفريد سمعان، وداعا! ..... الحزب الشيوعي العراقي
10- رئيس الجمهورية يعزّي بوفاة الشاعر ألفريد سمعان..
11- رئيس الوزراء: العراق فقد نخلة شامخة..
12- حوار ينشر لأول مرة مع الشاعر الراحل الفريد سمعان ..... حاوره : صباح المندلاوي
17- راهب في رحاب الضوء ..... زهير بهنام بردى
19- الهوية والشعر ..دراسة في تجربة الفريد سمعان ..... صبحي ناصر حسين
25- الفريد سمعان .. مسرحياً ..... عقيل مهدي يوسف
29- الإنسان.. ألفريد سمعان ..... حسن البحار

ندوة (الثقافة الجديدة)

33- "البنية الاجتماعية/ الطبقية في العراق وتحولاتها منذ 2003
ساهم في أعمال الندوة الاساتذة: حسن عبد الله بدر، حيدر سعيد، رائد فهمي، سناء عبد القادر مصطفى، علاء جواد كاظم، علي جواد وتوت، كاظم حبيب، مازن مرسول، مظهر محمد صالح .

مقالات

96- الماركسية والثورة ..... قاسم حنون
107- أوغست كونت مؤسس علم الاجتماع الوضعي ..... حسام الدين فياض
116- اليسار الأوروبي بين التنظير والممارسة السياسية ..... سلام عادل الكَيم
125- مهدي عامل وحركة التحرر الوطني العربية ..... عبدالقادر احمد
136- محاسبة تكاليف (المعضلية): محاسبة حماية البيئة انموذجاً ..... صباح قدوري
145- التوسع الرأسمالي ودولة (العدالة الاجتماعية)..... لطفي حاتم
150- حول امكانية الاستفادة من النواتج العرضية للرز الخام المستورد ..... حيدر الغريباوي

نصوص قديمة

159- قضايا فكرية أولية للنقاش ..... فالح عبد الجبار

نصوص مترجمة

166- نحو وسائل تواصل اجتماعية اشتراكية...لـ جيمي رينجر.....ترجمة : عادل مطلوب

حوارات

180- (الثقافة الجديدة) تحاور الاستاذ الدكتور محمد الربيعي.....اجرى الحوار: سوران قحطان

أدب وفـــــن

202- دفاع عن المعلم والتعليم ..... حسب الله يحيى
203- الفَارابِي.. يومياته بين العِراق والشَّام ..... رشيد الخيُّون
212- مدينة الحلة وهيغل في ذاكرة التاريخ ..... شريف هاشم الزميلي
221- محمود سعيد: قراءة الرواية تضع لبنة احتجاجية (ج2) ..... سماح عادل- عمر القطان
230- غوغول الذي فقد وطنه وضحك على كلماته المرة لـ إيغور شوشارين .... ترجمة: عادل حبه
234- قصائد زن للشاعر الكوري كو أون ..... ترجمة : سهيل نجم
237- اصدقائي من اجل الَبشَرَة ،لـ فنجنسو رومانيوولو ..... ترجمة: عبدالوهاب الدايني
238- (قصص قصيرة)أنتِ حُرّيتي ..... شاكر السامر
246- (قصة)جنازة صديق مات بكورونا ..... عبد الرحيم التوراني
250- (نصوص) متاهات ..... عبدالرزاق الربيعي
252- (نصوص)بريدُ المُتَرجِمَةِ السَّيّدةْ ..... صادق الطريحي
255- باب الوداع ..... بيان الصفدي
256- المسرح وضده محاورات ذاتية للفنان د.فاضل خليل ..... فاضل سوداني
261- فضاء الصورة والمدونات البصرية العراقية ..... جواد الزيدي
266- منمنمات وسماء الاغا .... تحولات في زمن الابداع ..... معتز عناد غزوان
270- رؤوف مُسعد يشهد نُعاس البحر فيمشي فوق الماء ..... عدنان حسين أحمد

كلمة العدد

آذار.. شهر الربيع والأمل المتجدد !

كعادته، آذار شهر عامر بمناسبات هامة تتعاقب كل عام.

أولى هذه المناسبات هو يوم الثامن من آذار **عيد المرأة العالمي**.. فمن معين الحياة نروي زهور الربيع ونقدمها اضمامات عاطرة الى المرأة العراقية، وكل نساء العالم في يومهن العالمي للنضال من اجل المساواة الحقة. ونتطلع الى ان يتواصل نضال المرأة العراقية من اجل انتزاع حقوقها المشروعة في الحرية والمساواة والعدالة.

ومن المعين نفسه، ينبع **الاحتفال بعيد نوروز**، تمجيدا لانتصار الشعب الكردي على الاستبداد، انتصار "**كاوة الحداد**" وهو يرفع مطرقته على الملك الجائر "ضحاك"؛ ففي الحادي والعشرين من آذار كل عام تتوهج النيران على ذرى جبال كردستان، مبشرة بالربيع، ومضيئة دروب الكفاح ضد اشكال الجور والظلم.

وآذار هذا العام، كما الاعوام السابقة، له ايضا حلاوة خاصة. ففي آذار هذا العام وكل عام يوقد الشيوعيون العراقيون وأصدقاؤهم وكل انصار الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية في بلادنا شمعة جديدة في تاريخ الحزب. وها هو في هذا العام يحتفي بذكراه السابعة والثمانين، عمر النضج والحكمة، ويطلق التحضيرات الأولية لعقد مؤتمره الوطني الحادي عشر.

أزمة النظام المحاصصي – الطوائفي تتفاقم

بمقابل ذلك، فقد شهدنا منذ بداية عام 2021 استمرار تفاقم وتعمق الأزمة البنيوية التي تعيشها البلاد منذ سنوات عدة. فلم تعد مجرد ازمة حكومة أو ازمة علاقات بين المتحاصصين فقط، بل هي ازمة بنيوية ومتعددة الصُعد: اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية ... الخ. إنها أزمة نظام المحاصصات الطائفية – الإثنية الذي قاد البلاد الى ما هي عليه اليوم. بهذا المعنى فان الخلل كامن في بنية النظام السائد، وفي طبيعة المشاريع والاستراتيجيات التي طبقت بعد 2003 بما فيها استراتيجيات الاحتلال الأمريكي وممارسات القوى المتنفذة، والتي لا يمكن أن تنتج غير هذه البنية، حيث بيّنت التجربة انها تعاني تناقضا عصيا، لا يمكن حله إلا بتفكيك نظام المحاصصات، وخلق الارضية لنظام جديد هو النظام الوطني والديمقراطي في الوقت نفسه.

وعندما **يتكرس** الطابع **الطائفي - المناطقي** لبناء الدولة، ينشأ **تناقض** بين **الدور السياسي** التقليدي لها، والمتمثل في **تأمين** ديمومة النظام المسيطر دون عوائق، وبين **دورها الاقتصادي** المتمثل في تأمين "**الريع**" لـ"الاقطاعات الطائفية - القومية - المناطقية" الطامحة الى السلطة والثروة، والتي تحتل مواقع السيطرة على المفاصل الاقتصادية والسياسية والأمنية الاساسية.

إن بلادنا تواجه منعطفا سياسيا - تاريخيا يتسم بدقة متناهية، وخطورة كبيرة، وآفاق مفتوحة وذلك

في ظل وقائع عديدة وحجم المشكلات الاجتماعية - الاقتصادية المتفاقمة على مدى سنوات، سواء على مستوى مكافحة البطالة لتنشيط التشغيل أم على مستوى "امتصاص" الفقر في المجتمع الذي غذته جائحة كورونا، ام مكافحة الفساد، أم على مستوى تجاوز مظاهر التخلف المريع الذي تعانيه الخدمات من مختلف الانواع، اضافة الى انعدام الامن والأمان الذي يقاسيه المجتمع.

الانتفاضة الشعبية.. اللحظة المضيئة!

في مواجهة تحديات هذا الواقع المرير فإن من يتابع ما جرى ويجري في بلادنا خلال السنوات الأخيرة، سيلاحظ بروز ديناميات اجتماعية متعددة وجديدة نوعيا. وهذا ما نلاحظه بشأن الدور الذي نهضت وتنهض به الحركة الاحتجاجية التي ارتقت الى انتفاضة شعبية، اندلعت في تشرين الاول/ اكتوبر 2019 وظلت متوقدة. فبالرغم من طيف واسع من الاجراءات التي اتخذها النظام المحاصصي/ الطوائفي السائد في بلادنا ومحاولات احتوائه لهذه الانتفاضة باستخدام تكتيكات تجمع بن "العصا والجزرة" فان التجربة الملموسة بيّنت ان موجات الانتفاضة ظلت تتصاعد.. وقاعدتها المجتمعية تتوسع ودخلتها قوى جديدة متنوعة المشارب والمرجعيات، وتجذّر سقف مطالبها، رغم ان الاشهر الاخيرة شهدت بعض الانحسار، نتيجةً لانتشار جائحة كورونا وعوامل اخرى لا يتسع المجال للدخول في تفاصيلها هنا. وبرغم كل ذلك فإن المتابع لتاريخ هذا الحراك، سيلاحظ أن الاحتجاجات بدأت مطلبية/ خدمية، لكنها سرعان ما تحوّلت الى احتجاجات سياسية/ اجتماعية تطال النظام السياسي السائد. فلم يعد المتظاهرون يقبلون بإصلاحات شكلية "ترمم" نظام المحاصصات، وتكتفي بإعادة توزيع الادوار والمناصب والثروة والنفوذ بين قوى هذا النظام وأقطابه ورموزه، بل استعادة بلدهم من سارقيه وفاسديه، وإجبار هذا النظام وسلطته -ان عاجلا أم اجلا - على الخضوع لإرادة الشعب وتحقيق مطالبه العادلة والمشروعة في الحرية والديمقراطية والكرامة والعدالة الاجتماعية وبناء الدولة المدنية الديمقراطية العصرية كبديل لدولة الطوائف والهويات الفرعية.

رغم كل الصعوبات.. الأمل يتجدد!

إن خلاص الوطن من ازمته البنيوية المتعددة الصُعد غيرُ مستحيل على الذين يرون في التغيير طريقا الى عراق متحرر من الفساد والعسف والاحتراب الطائفي والتمييز والاستقطاب الاجتماعي.

فبعد 18 عاما على رحيل النظام الدكتاتوري البغيض، وفي ظل الاوضاع السائدة يبدو ان الحاجة ملحة أكثر من أي وقت مضى للرهان على طريق آخر وبديل آخر هو البديل العابر للطوائف، البديل المدني –الوطني - الديمقراطي... بديل المواطنة الحقة، حيث يشعر الجميع أنهم متساوون في الحقوق والواجبات، ويعيشون في دولة مدنية ديمقراطية معاصرة تقوم على العدالة الاجتماعية.

في اذار 2021 يتجدد الامل بعراق جديد، عراق خال من الازمات والفساد وخيبات الامل والتهميش والإقصاء والاستعصاءات الدائمة وتناسل الازمات ومكائد حيتان السلطة وحروب المتحاصصين من القوى المتنفذة.

ورغم كل الصعوبات نستقبل آذار الجديد، آذار 2021، **حاملين** مشاعل الشهداء والأحياء، **نسير** على دروبهم المضيئة، ونردد: إن الدماء التي أرخصتموها والجهود التي بذلتموها هي خلاصة المحبة، والوعي، والإرادة الصادقة والعزم الذي لا يلين.

من المؤكد أن النكوص وقبول الأمر الواقع ليس خيارنا... وفي آذار هذا العام، كما الاعوام السابقة، سنبقى متسلحين بالأمل وبمضاء العزيمة من أجل بناء عراق حر ومستقل وسيّد نفسه!

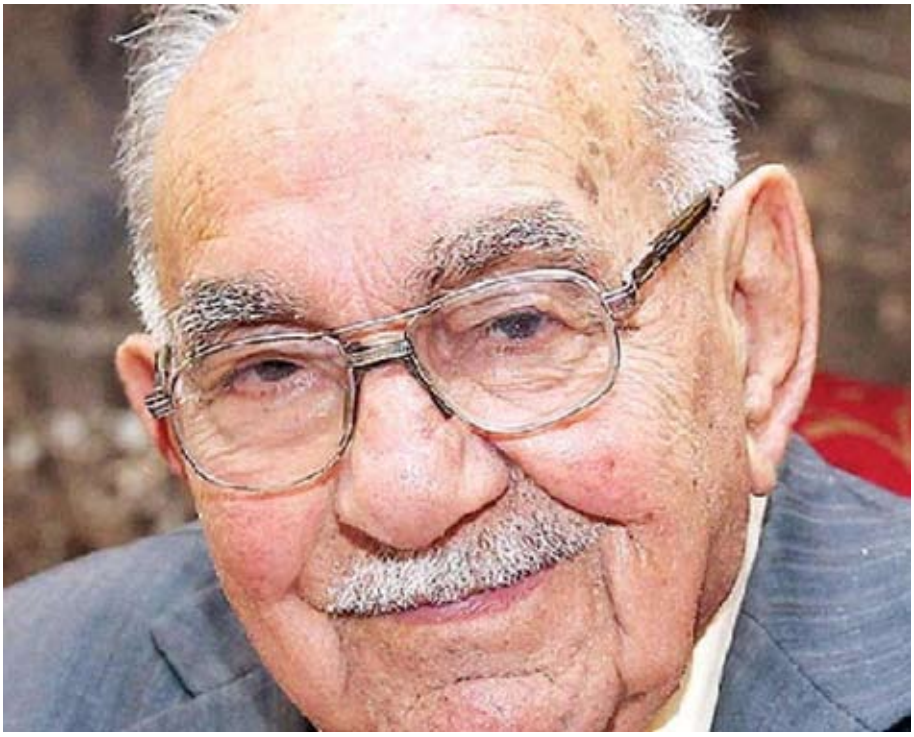

ملف الراحل الكبير ألفريد سمعان

اعداد حسب الله يحيى

سيرة:

ألفريد سمعان قامة نضالية وفكرية وإبداعية عراقية، ولد في مدينة الموصل عام 1928، وتوفي في 5 ك 2/ 2021 في عمان. تخرج في كلية الحقوق ببغداد سنة 1961.
درس التخطيط في معهد الامم المتحدة – دمشق 1971، له دراسة اقتصادية في صناعة السكر في العراق.
عمل محامياً وصحفياً في (طريق الشعب) و(الثقافة الجديدة)، وأميناً عاماً للاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق لعدة دورات. سجن مراراً. وكان أحد المعتقلين الذين ركبوا قطار الموت، متوجهين الى نقرة السلمان.

مؤلفاته:

الحطاب والاسد، مسرحية/ ليمونا، الجمعة الحزينة/ قصة، في طريق الحياة، رماد الوهج، كلمات مضيئة، طوفان، أغنيات للمعركة، عندما ترحل النجوم، مراحل في درب الآلام، الربان، هم يعرفون، أم شروق، القطار، لائحة اتهام، الطيور.

الشاعر الكبير ألفريد سمعان.. وداعاً!

عام 2021 أبى إلا أن يفتتح مواسمه بخبر محزن. ففي الخامس من كانون الثاني/ يناير الحالي غادرنا في رحلته الأبدية المناضل الكبير الاستاذ الشاعر: ألفريد سمعان، أحد نجوم الثقافة الوطنية والديمقراطية... وبرحيله تنكس الثقافة العراقية الحرة والديمقراطية قامتها، وبفقده نودع مبدعا كبيرا، ووطنيا نبيلا ويساريا صادقا.

لقد كان فقيدنا العزيز، انموذجاً للشخصية العراقية الوطنية التي التزمت بمبادئها وقيمها التقدمية. فقد كان على الدوام يحلم بوطن ترفرف عليه رايات العدالة والمساواة، وهو الذي أسهم إسهاما كبيرا في نضالات شعبنا العراقي من أجل الاستقلال والكرامة والحرية والديمقراطية وإنهاء الاستغلال بمختلف أشكاله، والدفاع عن مصالح الشعب والكادحين على وجه الخصوص. لقد عاش ألفريد سمعان حياة خصبة دفاعا عن القضية الكبيرة للكادحين وبسطاء الناس، لذا كانت حياته على امتدادها الواسع عبر تسعة عقود ونيّف درسا كبيرا لكي يعيش الشاعر والمناضل والإنسان حياته كما يجب أن تعاش.

وتجسّد ذلك من خلال مسيرته النضالية الطويلة التي كانت محفوفة بالكثير من المخاطر والتهديدات، مثلما كانت شديدة الوطأة في عذاباتها المرّة وسجونها الانفرادية. فقد سجن رفيق دربنا ألفريد سمعان بسجن (نقرة السلمان) وعاش محنة (قطار الموت) وحرص على الثبات والاخلاص العميق لمُثله العليا ولأفكاره التنويرية.. وجسّد عمله الصحفي في مجلتنا (الثقافة الجديدة) وفي صحف: (اتحاد الشعب) و(طريق الشعب) و (الفكر الجديد)، وعمل على اغناء هذه المنابر الفكرية عن طريق رفدها بفكره النيّر وعطائه المستمر.

لقد كانت حياة الأستاذ ألفريد سمعان، على امتدادها الواسع، درسا كبيرا لأجيال عديدة من رفاقه وأحبته، وعزاؤنا ان الفقيد الكبير ترك لهؤلاء، وغيرهم أيضا، إرثا طيبا من المواقف الأصيلة والذكريات الطيبة والسلوك الإنساني الرفيع والروح الشفيفة التي لا تساوم على القيم والمبادئ الكبرى للرعيل الذي انتمى إليه الفقيد. وسيظل هذا الإرث يتحدث عنه، ويذكّر به، ويبقيه حياً دائم الحضور بيننا.

إن هيئة تحرير (الثقافة الجديدة) التي فجعت برحيل الفقيد الكبير ألفريد سمعان، تتوجه بصادق التعازي القلبية الحارة لعائلة الفقيد وإلى أقاربه وكل رفاقه ومحبيه، مقرونة بمشاعر التضامن الصادقة. ولشاعرنا الجميل (أبي شروق) مجد المثقف العضوي الكبير وسحر كلماته وذكراه المتوقدة دوما.

وداعاً (أبا شروق).. نم مغردا في مملكة الشعر... ستظل حاضرا على الدوام... فكرا وممارسة وسلوكا أخلاقيا رفيعا... وفوق ذلك مبدعا راقيا ظل وفيا لأفكاره ومُثله ولم ينحنِ امام العواصف مهما عظمت!

(الثقافة الجديدة)

2021/ 1/ 6

الشاعر والمناضل الشيوعي ألفريد سمعان.. وداعاً!

ينعى الحزب الشيوعي العراقي فقيده الشاعر والمناضل ألفريد سمعان، الذي توفي صباح اليوم في العاصمة الاردنية عمّان عن عمر تجاوز التسعين سنة.

ولد الرفيق ابو شروق سنة 1928 في نينوى. وكان شاعرا موهوبا، اصدر ما يربو على عشرين مجموعة شعرية. كما عرف كاتبا مسرحيا وقاصا. وكان اضافة الى نشاطه الابداعي الادبي والثقافي والإعلامي حقوقيا، تخرج في كلية الحقوق ببغداد سنة 1961، كذلك درس التخطيط في معهد الامم المتحدة بدمشق، وحصل على دبلوم عال فيه سنة 1971.

وقد كتبت عن أعماله الادبية عدة دراسات نقدية ورسائل جامعية، وترجمت أعماله الى عدة لغات حيّة.

وكان ابو شروق مناضلا مقداما في صفوف الحزب الشيوعي العراقي، الذي انضم اليه وانخرط في مسيرته الكفاحية، وهو في مقتبل العمر، وكان ضمن الرعيل الاول من اعضائه. كما كان بين الشيوعيين الذين عاصروا الرفيق فهد في السجن، وبين من ودعهم الرفيق فهد، وهو يُنقل الى حيث ارتقى سلم الشهادة.

لقد ناضل الفقيد ألفريد سمعان بشعره الوطني والثوري وبالنشاط السياسي المباشر، ودفع ثمن ذلك غاليا: سنين طويلة في السجون، خاصة سجن نكَرة السلمان. وتعرض على الدوام الى الملاحقة والاضطهاد من طرف السلطات الرجعية وأجهزتها القمعية.

وعرف الرفيق الراحل بنشاطه الدائب في اوساط الادباء والفنانين وعامة المثقفين، وفي العمل المهني الخاص بهم ولخدمة مصالحهم ومصالح الثقافة العراقية وقضية تطورها. وانعكس ذلك في انتخابه اكثر من مرة الى منصب الامين العام لاتحاد ادباء العراق، غداة الخلاص من النظام الدكتاتوري سنة 2003.

لقد فقد العراق والثقافة العراقية، برحيل ألفريد سمعان، قامة ادبية ونضالية سامقة، كانت لها بصمتها المنيرة في النضال الوطني، وفي الابداع الشعري والعطاء الثقافي على حد سواء.

المواساة الحارة لكريمة الفقيد، وللعائلة الكريمة جميعا، راجين لهم جميل الصبر.

وخالص التعزية لرفاقه وأصدقائه وتلامذته ومحبيه الكثيرين.

ويبقى ألفريد سمعان بعطائه الغزير ونضاله الباسل وانجازه الثرّ راية وطنية شيوعية ترفرف عاليا في سماء الوطن الغالي، عراقنا العزيز.

اللجنة المركزية
للحزب الشيوعي العراقي
2021/ 1/ 5

رئيس الجمهورية يعزّي بوفاة الشاعر ألفريد سمعان

"تلقينا بألم بالغ رحيل الشاعر والكاتب الكبير ألفريد سمعان بعد مسيرة طويلة حافلة بالإبداع، كان فيها أحد أبرز المساهمين في المشهد الشعري العراقي، ومثّلت نتاجاته صوتاً وطنياً معبراً عن هموم الوطن وشعبه.

وبوفاته تفقد الساحة الأدبية واحداً من أعمدتها الأصيلة.

أعزي الشعب العراقي والأوساط الثقافية برحيل الفقيد. ولعائلته ومحبيه جميل الصبر والسلوان، ولروحه الرحمة".

برهم صالح
رئيس جمهورية العراق

رئيس الوزراء:
العراق فقد نخلة شامخة

"تلقينا بألم بالغ، نبأ رحيل الأستاذ ألفريد سمعان، الذي أمضى عمره حاملا لمبادئ الحرية والكرامة والعدالة، لقد فقد العراق نخلة شامخة من نخيله الباسقات، غرست فسائلَ ستُزهر إبداعاً ووطنية ونضالاً.

الرحمة للفقيد، والعزاء لكل من عرفه ولمس مواقفه الراسخة بالمحبة والنبل والإنسانية".

مصطفى الكاظمي
رئيس مجلس الوزراء

حوار ينشر أول مرة مع الشاعر الراحل
ألفريد سمعان
الحرية أمنية تستحق أن يدافع الإنسان عنها

حاوره: صباح المندلاوي *

ألفريد سمعان.. قامة باسقة في سماء الادب العراقي والعربي. شاعر وكاتب مسرحي وقاص وإداري كذلك، تولى الامانة العامة لاتحاد الادباء والكتاب في العراق لعدة سنوات. كما انه مناضل تقدمي، واجه التعذيب ببسالة في ظل السلطات الدكتاتورية، وتنقل في سجون العراق سياسياً صامداً. كما انه احتمل الظروف المُرة كافة.. وكان (قطار الموت) المشؤوم احدى تلك الممارسات التي مورست لقتل (500) مناضل تقدمي في قطار حديدي مقفل، يراد به موت من فيه، وهو في طريقه من بغداد الى مدينة السماوة ثم الى سجن نقرة السلمان.

وقد جرى هذا الحوار مع الراحل ألفريد سمعان في بغداد عام 2004 وينشر أول مرة.

*** بعد رحلة طويلة مع الشعر والادب، كيف تقيمون المشهد الثقافي العراقي اليوم؟**

- اجل انها رحلة طويلة اكثر من نصف قرن، كانت متعبة وشاقة مرّت موحشة، وعبرت ادغال ومنعطفات لم يتردد عليها النور كثيرا، وافرزت شروخاً عميقة من المشاكل والمتاعب والمناورات، مناورات اشخاص يتوهمون الخصومة ويأخذون انفسهم بالعتاب حين ينجح سواهم ويتجاهلون عن عمد عطاءات الآخرين، وهم يعرفون كيف وصلوا ولماذا وبأية اساليب.. لعلهم ينفردون بالمجد على الرغم من زوال لقب (أمير الشعراء).

ونعود الآن للمشهد الثقافي الذي يشكل امتداداً لمسيرة استطيع أن أحددها ما بعد الرصافي والزهاوي والكاظمي وهي ترتبط بالأجواء التي تهيأت بعد انتصار قوى الخير والانسانية على قوى الشر الفاشية والانهيار المخزي لترسانة هتلر العسكرية والبشرية للسيطرة على العالم والاستحواذ على الثروات والمقدسات وكتم اصوات الشعوب المنطلقة الى غد متألق.

لقد انتشرت اضواء الحرية ومدت رعشاتها على ابناء الوطن وبدأت الجماهير تحس بأن الغد يجب ان يحمل صورة جميلة وان تنتهي كل موبقات المحتلين وأذنابهم. قوافل من الآراء بدأت تزحف وتتغلغل في عروق المثقفين، جاءت عبر الكتب والمجلات والدوريات والافلام السينمائية والاذاعات والتطلعات المشروعة التي تركب سفن المعرفة، وتعبر امواج الضلال القديم.. رموز المشهد الثقافي في البلاد العربية يعدون السير ويغمرون المجلات والصحف بمقالاتهم وتصوراتهم وتنبثق من كلماتهم روح التمرد والحنين الى التغيير، وكانت السياسة بها حاجة الى اصواتهم: طه حسين وسلامة موسى والعقاد والمازني والرافعي وعمر فاخوري وخليل مطران ورئيف خوري وسعيد عقل وجبران خليل جبران.. شعراء المهجر، اذكر اسرة النشر للجامعيين علي احمد باكثير وجودت السحار ويوسف ادريس وامين يوسف غراب واحمد الصاوي، واذكر تدفق الكتب من لبنان، وجاء الدور العراقي، الجواهري الكبير وعبد المجيد لطفي وعبد الرزاق الشيخ وعبد الملك نوري، والبياتي وبلند الحيدري.. كانت نافورات تقدمية تغمر الساحات وتنتشر في كل مكان، كانت هناك حركة دائبة وانشغالات عديدة. حوار مفتوح في المقاهي والمنازل والدوائر والاذاعة والتجمعات الثقافية على قلتها. احزاب وشباب يتبادلون وجهات النظر، يتفقون ويختلفون، يتضامن كل واحد على جهة ويتخاصمنّ، لكنه سعيد بما يجري وسعيد بما يعاني. يتعطش للمزيد من المعرفة وممارسة التجربة ومواصلة رحلة الادراك. وهذه كانت القاعدة.

ولم يهدأ الصراع فقد تنوعت الثقافات واشتدت ضربات الطبول عنفاً. احزاب تريد ان تتنفس في كل البلاد العربية، وتناضل من اجل الاستقلال.. سوريا ولبنان ورغبات جارفة تمردت على كل شيء، لا سيما الافكار القديمة والمتحجرة التي تتحداها موجات من المبادئ الجديدة المتألقة.. كان كل ذلك في الاربعينات.

وجاءت ثورة 14 تموز المجيدة، وتفتحت ابواب جديدة للمعرفة التي بدأت تنتشر بحضور ملموس، وتأخذ حقها في الحرية التي جاءت بعد التضحيات الجسام، وبرزت اسماء جديدة، شباب ريان مندفع، يشعر بأن عليه مواصلة المسيرة وتجاوز الواقع وتثبيت خطوات جديدة واركان راسخة لقيم متألقة خلقتها الظروف الجديدة وتأسيس اتحاد الادباء، الذي ضم باقة كبيرة من افضل ادباء العراق واكثرهم تألقاً وابداعاً.. لقد تفتحت الازهار وتألقت المشاعل وانتصرت الحقيقة.

*** كيف تنظرون الى المشهد الشعري الراهن؟**

- ان اليوم هو امتداد للأمس الذي اضطره الى الانغلاق على نفسه، وطي دفاتره خشية ان تطاله سياط الجلادين.. بعد وصول طوابير البعثية بقطار امريكي، كما قال رئيس وزرائهم علي صالح السعدي عام 1963 بدأ المشهد الثقافي ينكمش على نفسه وينزوي خلف متاريس الصمت ولكنهم عملوا على تحريك الخمول الفكري وكانت الكارثة.. لقد تحولت كل النتاجات الى قصائد ومقالات وتمثيليات واغانٍ، كلها روافد تصب في بحيرة تأليه القائد وتمجيد انتصاراته الفارغة واحتواء كلماته التي كانت تدق كالمطارق في اذهان الشعب العراقي. ومن المؤسف ان الكثير من الاقلام النظيفة انغمرت في المشهد ومضت مع التيار، لأسباب شتى، لا سيما بعد ان تهيأ لها (الراتب الثقافي) الذي كان (يتكرم) به عدي صدام حسين على الادباء والفنانين. لقد تسلل بعض المال الى جيوبهم وقبلوه صامتين، بعيدا عن الحياء، وبيعت الكلمة في سوق النخاسين. مرة قال صدام تعقيباً على بيع غورباتشوف مذكراته الى احدى المجلات الالمانية بربع مليون دولار (يا لرخص الزعامات)، وأنا أقول (يا لرخص الكلمات الراكعة).

لقد كان هناك مشهد ثقافي آخر خارج الحدود تحصن بالحرية المتاحة له، مستغلاً عجز النظام عن ملاحقته. واستطاع هذا التيار ان يجوب عواصم العالم، ويترنم بأماني الشعب، ويعلن سخطه على الحكام المارقين. وكان له نشاط ملموس ومواقع عديدة بينها مواقع لم يحلم بالوصول اليها، وقد ترجمت تلك العطاءات ونشرت بأكثر من لغة، بفعل التسهيلات التي قدمت له من مختلف المنظمات التي تنتصر للحرية والتجمعات الإنسانية، وقد قدم الحزب الشيوعي العراقي لهم ساحة مفتوحة، وبرزت أسماء تركت أصداءها الطيبة في مختلف بقاع العالم. كان المثقفون المصريون واللبنانيون يملئون المقاعد الثقافية في بلدان العالم، إلا ان العراقيين اصبحوا منافسين مؤهلين لذلك.

بعد كل هذا أقول إني أتلمس قنوات رائعة، وأرى المثقفين العراقيين قد فتحوا شرفاتهم للعالم، على الرغم مما تعرض له الآخرون من خيبة امل، بسبب سد الأبواب في وجوههم.. ولكن الأفكار الناضجة والامكانيات الإبداعية تظل تدق النوافذ، واعتقد ان السنوات القادمة ستشهد زخما ثقافيا جادا وعميقا، وسوف تظهر وجوه جديدة تملأ القلوب فرحاً واعتزازاً وان ما اختبأ بين المرافئ العتيقة والدواليب والرفوف سوف يظهر ويتألق ويبدع.

*** وكيف ترى المشهد الشعري العراقي الراهن؟**

- يبدو لي ان في العراق ينابيعَ تتدفق منها أسماء الشعراء اذا صح التعبير، وان موجات القصائد تتناثر وتنتشر هنا وهناك، وتغمر صفحات الصحف والمجلات، وتطلق الإذاعات ووسائل الاعلام الأخرى. انها تشكيلة جميلة تمزق استار الصمت، وتتوغل في منعطفات الروح وتقف على منصة اتحاد الادباء، ومنابر المحافظات والقاعات الأخرى، وتتزاحم الكلمات وتشتبك في حوار فني متألق عبر الافكار. وهناك شعراء العمود مع قلة حظوظهم في النشر لكنهم يتواصلون ويواصلون عطاءهم في أروقة المناسبات، عن طريق تمجيد موقف او رثاء عزيز. معالجة واقعية وشباب الحداثة يرسلونها برقيات ملونة، وليس هناك اتفاق على انها جميعاً تدخل رياض الحداثة، ربما تقف على التعبة، وربما لا تمت بصلة، ويبدو احياناً ان هناك تناسخاً للقصائد وبعض الممارسات المتهافتة لصياغة شكل من التركيبات اللغوية المعقدة، تطرح الدهسة وتعتمد الصدمة اسلوباً للمخاطبة، يفشل الكثير منها في الوصول للقارئ، ولذلك تراه ينظر اليها بريبة ويحجم عن المتابعة.. ولا يخلو الجو من عطاءات باهرة تبشر بانطلاقة جديدة لعناصر تمتلك مع الحداثة قدراً من الجدية، يضعها في مقدمة الصفوف على ان تواصل (تعبها) لإغناء ثقافتها واحتواء تجارب الآخرين، وعدم الاستخفاف بالعطاءات الرائعة التي امتدت على دورب الأجيال، وتألقت فيها نجوم، او الترنّم بادعاءات عريضة جداً، تحاول عن طريقها ان تلعب الدور الأول ولن يكون هذا لها.

إنّ النظام البائد حجب وجوهاً واقفل الأبواب على المشهد الشعري الحقيقي واستبدل باقات زهور الحديقة اليانعة بحزم من الاغصان اليابسة، لا تنمو عليها سوى الاشواك، وهذا لا يعني انكار مواهب ظلت تعطي بهدوء وسط غمامات الرعب والإرهاب.

وهنا لا بدّ ان نتذكر عشرات الشعراء المبدعين الذين اختفوا وراء ثلوج أوربا او رمال البلاد العربية أو وجودوا لهم مكاناً في غابات الوهم. إن عددا كبيرا منهم يستحق الاحترام لمشاركته في رفع العجلات، نحو طريق الحرية، كما زرع أناشيد الغد المنتظر على الشفاه الحزينة.

إنّ المشهد الشعري يزداد تألقاً يوماً بعد يوم، ولن تظل الاعمدة القديمة وحدها مدعاة اعتزاز وعلى المبتعدين عن الساحة بشتى الدعاوى، لان الوطن به حاجة اليهم.

*** ما هي تصوراتكم لاتحاد الأدباء في مرحلتنا الآنية والمستقبلية؟**

- هناك تعاطف عميق وواسع مع إعادة تأسيس اتحاد الادباء، وعودة المياه الى مجاريها، وزحف قوى الخير لإشغال المواقع التي احتلتها وجوه، لا تمتلك حظا من الإمكانيات العالية، ولا تحسن الحديث الا عن (البطل).

إنّ الجهود تبذل من باقة من الادباء الجادين الذين يسعون بجهود مضنية من اجل إعادة التأسيس على انقاض عهد ذليل متفسخ فكرياً.. وقد وضعت قواعد لإعادة

العضوية وتجديد عضوية الآخرين. وتلتقي الإرادة الطيبة على رفع صوت الاتحاد عالياً، وقد بدأت بإحياء مهرجان خاص للجواهري، وكانت خطوة مهمة جمعت القلوب واجهضت نبرات التعصب والانتقام، وسوف يكون ادباء العراق في القريب العاجل على موعد مع التركيبة الرئاسية الجديدة التي تتحمل مسؤولية شاقة ومتعبة، وعلى رأسها غسل آثار الماضي المقيت وإرساء قواعد جديدة، والنهوض بالنشاطات الثقافية المتواصلة والاهتمام بأدباء المحافظات وتمكينهم من طرح وجهات نظرهم، والمضي بعيدا في تطوير الطاقات الشابة ودفع العناصر الجيدة الى امام.. من اجل أدب إنساني متطور.

*** كيف تنظر الى جدلية العلاقة بين المثقف والسياسي؟**

الموضوع يتطلب اقتراباً من هذه المقولة. والملاحظ ان الاهتمام ينصب عليها في هذه الأيام، وانا اعتقد ان هناك محاور يلتقي عندها كل من المثقف والسياسي؛ فالمثقف السياسي كان وما زال موجودا منذ خطت الحركة الوطنية خطواتها الأولى، وكان المثقف يرهق نفسه ليواصل السير مع الأجواء السياسية، ويساهم في الاندفاع الثوري. في حين أجد السياسي نفسه مع المثقفين، لانهم الاعمدة التي يتكئ عليها في التعبير عن طموحاته، ورسم شعارات المستقبل، ولا أخطئ اذ أقول ان تعانق السياسي مع المثقف يشكل عصب الحركة السياسية، ويمنح الطموحات قوة واندفاعاً اكبر، ما جعل السياسي يجاهد ليضع نفسه وطاقاته في اطار ثقافي يساعده على المواجهة والتحدي والانتصار.

إنّ السياسة وجه من أوجه الثقافة، تصب في بحيرة المعرفة، وانطلاقة نحو مستقبل انساني ناضج، يحظى باحترام الجميع، ويساعد على تلوين وجه الحياة بألوان زاهية.

*** وما هي مشاريعكم المستقبلية؟**

- تغمرني السعادة لأني أعيش حياة جديدة تفتحت فيها الآمال من جديد. ان الحرية أمنية تستحق ان يدافع الانسان عنها، ويبذل من اجلها كل ما يستطيع، وان يعمق جذورها في الأرض، وينشر اضواءها في السماء، وان يدعو الجميع لكي يترنموا بها، ومعايشة انتصارها.

وقد أصدرت اكثر من مجموعة شعرية خلال السنوات الثلاث الماضية، ولديّ ديوان جديد سوف يصدر خلال أيام بعنوان "اشرعة الصدى البعيد"، وما زلت اساهم بقدر المستطاع في الصحافة الوطنية ومتابعة النشاطات الفكرية في شتى الميادين، وأتمنى على الرغم من شعوري بالتعب ان أستمر في ذلك بمستوى صحي جيد، وقناعات تزداد عمقاً ـ يوماً بعد يوم ـ من اجل بناء وطن عظيم، ومجتمع انساني رائع..

*** كاتب ومخرج مسرحي، نقيب الفنانين العراقيين سابقاً**

راهب في رحاب الضوء
الى الشاعر والمناضل ألفريد سمعان

زهير بهنام بردى

كلّما أمشي إليك
أبصرك تمشي مثل ملاكٍ وفوقك نهار
يهذي
وينحني بخشوع لقربانٍ يطلعُ من يديك
وظهرك حديقة ضوء حين تسير
وبصرك ماء
ومن تجاعيد يديك
رائحة موسيقى في عزفٍ متفرّد من أنامل
تنقرُ فمَ نحلاتٍ
كانت تسعى إليك
كنت أراكَ لوحَ حكمةٍ
وأعلى
فأعلى
وأعلى
من اعالي الكلام
أرى فيك أشياءً تصلحُ لكلّ شيء
أرى طيناً
يخرجُ من أنقاض بلاد
تضيءُ لها قمرا من رائحة أسمال بيوت
الطين
وطحينا يحكي شتاءً
صاخبا في زيتونٍ مالح
لأطفال مخيّم مهمل
وصيف صحراء
تمشي بقضبان كأنها عكّاز مكسور في أخطاء
فنجان بخت قديم في نقرةِ السلمان
وأنت من شغفك
وحطام البرد
العراق تنشد
نشيد اناشيد أوروك
وترتّل وطني حرّ
وفي شفتيك اراه
كقيثارة بابل
تعزف وتمشي الى الشمس
وأرى وردا أحمر
ينهضُ من بيان الحب في قرابين كلام
تردّده في منشورٍ يتأمّل عيدَ ميلاد غد لشعبٍ
تعيس

توقدُ الهواءَ خبزا
والبلادَ قمحا
ودون رداءٍ
تصعدُ الى الماء
وتصوغه قلادةَ أصابع طفل
قربَ قاعة مدرسية
يلوّحُ لقوسٍ مضيء
في أعياد أوروك
ووتر ينهضُ من رخامه
ليعزفَ قيثارةَ بابل
وأنت تحفّ بك الأرض
في شارعِ الموكب
وتردّد بإفراط أصابعك المنجل
أحبّك يا وطني
تكتبها بابجديّة جاكوج
في شهر عسل ربيع أبدي
فأسمع حكمتك
تهبطُ من لوح عشاء
فوق حائطِ سجنٍ قديم
يهذي بكلام
من حكمةِ سفرالخلق
أذهبُ الى بصيص رمل قديم
حيث كنت تكتب
خلف القضبان
وارى مذودا

يرتّل
ويهزّه وطن
وأرتالا من ملائكة الأرض
وجمع حبّ يتقدّم
بالنخل اليك
أسمعك أنت هناك
أيّها الراهب
اسمع شيبك
وبراءة فمك
وماء فصح
وصلاة قديس
يتكلّم معنا
مذ اغتسلنا معا
في جرن عماد النهرين
وردّدنا
يكفينا سنتمر من الماء
يكفينا أنت ياوطن والفراشات تصعد بشكل
مثير
الى أناملنا وبعض قطرات ضوء
ونبض وطن من الحب بموسيقاه
لنغسلَ أجسادنا
وتختصر القربان في سطرٍ واحد
يا قديس الكلام
وعاشق وطن حر
بلا قضبان

الهوية والشعر
دراسة في تجربة ألفريد سمعان ×
شاعر الجيل يكشف عن الهوية الشعرية لشاعر الأجيال

عرض ونقد/ أ.د.صبحي ناصر حسين

أما شاعر الاجيال فهو الكبير ألفريد سمعان، صاحب الدواوين والمجموعات الشعرية التي بلغت ثمانية عشر ديواناً. وشاعر الجيل هو عمر السراي بست مجاميع شعرية. والكتاب هو الاصل دراسة اكاديمية منح مؤلفها عنها شهادة الماجستير من الجامعة المستنصرية.

وقد يعجب البعض بالتصدير الذي زين الكتاب من مشرفة هذه الرسالة أ.د. نادية العزاوي، فهذا استحقاقٌ للباحث. اما الذي يعرف عمر السراي وقدراته الابداعية الشعرية والنقدية، فلا يعجب. ولعلني لا أضيف كثيراً الى سيرة الشاعر الكبير ألفريد سمعان، فأقول ان الديوان الاول له صدر عام 1952.

ليس بداية لولادة شاعر مثله، اذ سبق هذا المطبوع نشر شعري كثير في الصحف والمجلات، وهذا شأن معظم المبدعين. ومع ذلك فإن أخذنا بتاريخ اول عمل شعري وتاريخ اخر ما طبع له 2015، فانه عمر واجيالٌ طويلة لاكثر من خمسين سنة. عاصر ألفريد سمعان حكومات واحزاباً كثيرة، تفاعل مع حركاتٍ كثيرة بالسلب والايجاب، ورأى بعينيه مجتمعات وفعاليات عديدة. بيدَ انه اقتحم الاصعب والاقسى حينما انتمى الى الحزب الشيوعي العراقي، فتأدلج، وشرب العكر والمر جراء ذلك، ذلك انه آمن بالوطن، آمن بالشعب وبمعاناة الشعب المعدم، وتماهى مع العامل والفلاح والكاسب والعاجز.

بمجموعها وبمعاناتها وبالسجون والمعتقلات التي قضى فيها ردحاً طويلاً من الزمن اشتد عوده، وقوي ايمانه. فكانت مع الموهبة الابداعية التي تملكها – سيما الشعر – كتلة صلدة في صناعة ابداعه الشعري فجاءت معادلة غريبة، اذ كلما طال به العمر، واشتدت معاناته، جاء شعره تعبيرا متينا عن هذا الاندماج.

ربّ سائل يسأل: كيف يجرؤ شاعر بتجربة عمرية قصيرة ان يكشف هذه الهوية للشاعر طويل الباع؟

فاذا نظرنا الى الباحث عمر السراي نظرة فاحصة، يزول العجب، فالباحث شاعر ايضا. وهذا يقوي عود التلقي الابداعي عنده، اي ان الشاعر بمسافة زمنية قصيرة كشف كل هذا، بهذا التلقي الابداعي والنظر النقدي الثاقب، فاقتحم عمر السراي الزمن بأسلحته الحداثية الفعالة، فجاء العمل مبدعاً بهندسة رصينة.

بناء الدراسة في مهاد وثلاثة فصول مع نتائج. اما في المهاد فقد اعتمد الباحث على مخزون ثقافته بالدرجة الاساس في جلاء مفهوم التشكلات المعرفية للهوية، وكان بمقدوره الاكتفاء بذلك، لكن السياق الاكاديمي حثّه على الاستعانة ببعض المصادر، لدعم ما قد طرحه، وهو اعتماد يسير نسبة الى ثراء ما قدمه لفائدة منهجه في فصوله الثلاثة.

ولتجاربنا في الاشراف على رسائل الماجستير واطاريح الدكتوراه، والقيام بمناقشة المئات منها، لا نغالي اذا قلنا ان هذا التمهيد يفوق كثيرا منها في المتانة والرصانة، وقلة النقول من بطون الكتب، وليس يعيبنا ان نقول الحق الذي يأتي مبدعاً.

(موجهات الهوية) تصدر الفصل الاول، وقد ابتدأ – كما يجب – بالشاعر القديم وبيئته التي كانت حاضنته لتوجهه الشعري، بيدَ ان الشاعر المعاصر يستحضر تفاصيل مخزونه الفكري مضيفا إليه دوافعه المعرفية والفنية التي توجه تجربته نحو تشكيل هوية معينة.

وهذا الفصل على ثلاثة مباحث: الاول، الموجهات الوطنية ، الذي يتفرع الى قسمين: الاول، الموجهات العراقية الخاصة. والثاني، الموجهات الاممية العامة.

وبالنسبة للموجهات العراقية، مثلت الثورات العراقية منبعا ثرا لتحقيق الموجه الوطني لهوية الشاعر، كوثبة كانون، وثورة الرابع عشر من تموز 1958، وتمثلاتها (الوطن، الشعب، الزعيم، الجيش)، بصراعها مع قوى الشر: (الاستعمار، الاقطاع، الخونة، الذيول)، اما الموجهات الاممية، فقد شكلت هذه المنطقة مصدراً لتشكيل الهوية الوطنية عند الشاعر. ولعل المثال الساطع والموقف الوطني لجمال عبد الناصر، إزاء العدوان الثلاثي، ووقوف الشعب المصري ضد المستعمر المحتل. كذلك ثورة الجزائر والجزائريين ضد الاستعمار الفرنسي، واتخاذ (جميلة بو حيرد) رمزاً بطولياً لاحرار الجزائر والمناضلين.

اما المبحث الثاني (الموجهات الحزبية) فقد انتمى الشاعر ألفريد سمعان من منتصف الاربعينيات الى الحزب الشيوعي العراقي، والمبحث

نفسه في ثلاثة عنوانات الاول: الرفاق موجهين حزبياً. ففي نصوص الشاعر اشارات واضحة لتأثير رفاقه المنتمين معه للحزب الشيوعي، فهوية واحد من رفاقه المنشقين عن الحزب في ماضيه، ليست الهوية نفسها بعدما صار خارج تلك الايديولوجية، فذلك الماضي نبيل، ولعل حاضره لا يكون كذلك. وظهرت في نصوص شعرية اخرى ثورات للرفاق من المنتمين والموالين، ويتخذون من الصراع الوطني طريقا لتكوين هوية الوطن. وفي الموجهات الحزبية العراقية، فانها كانت بمفهومها العراقي المرتبط بارض الوطن، وذاكرته المتشعبة، هي الدافع والموجه للشاعر، متخذا تاريخ الحزب النضالي، وكذلك اقوال المؤسس والقادة نماذج لهذا الغرض. وكانت نصوصه الشعرية تستثمر طاقة الموجه الحزبي العراقي للشاعر، الذي يرتبط بانفتاح التحرر من الديكاتورية. كذلك شكلت المناسبة الحزبية العراقية موجها جليا للنص الشعري المكتسب للهوية المستمرة في الدفاع عن الانتماء الفكري.

وفي (الموجهات الحزبية الاممية) انطلق الشاعر من وجود ارض فكرية للحزب الذي انتمى اليه، بدلالة رؤى منظريه وقادته مثل (ماركس) و(لينين) اذ كانت هذه الموجهات – عموما في الوطن العربي – وعند الشاعر موجهات اممية، ولم تكن بالضرورة منتمية للارض العراقية. ورغم البعد الجغرافي برزت فاعلية هذا الموجه فكانت سمة فاعلة في النصوص التي غاصت في جذر الوعي الطبقي.

والمبحث الثالث في الموجهات هو (الموجهات الاجتماعية) فمعروف ان صلة الادب بالمجتمع صلة وثيقة، وهي نظرية ذهبت اليها الناقدة الفرنسية (مدام دي ستال) وثبتت عليها نتائج خطيرة، فالنتاج الادبي هو نتاج وعي مجتمعي، اذ يعكس الاديب مشاعر مجتمعه. واول الموجهات الاجتماعية لشاعرنا هو (الصداقة) وقد برز هذا الموجه في مجموعة من النصوص الشعرية مثلت فضاءات العلاقات الاجتماعية المتمثلة اصلا بالصداقة، يبث فيها صديق للشاعر لواعجه، مما يثير عند الشاعر جذوة الابداع الشعري. واستطاع الباحث ملاحظة هذا الموجه عتبة نصية في عنوان احدى قصائد الشاعر هي قصيدة (للأصدقاء). وهذه القصيدة هي ضمن الموجه الاجتماعي الذي يكون هوية النص اي هوية الاصدقاء. والموجه الاجتماعي الثاني (العائلة) اذ يحدث الانطلاق من العائلة لإذكاء جذوة النص للتوجه نحو النص. ولدى الشاعر نصوص كثيرة اتخذ الموجه الاجتماعي من فضاء العائلة. وقد برز دور الموجه الاجتماعي العائلي في دفع النصوص لتكون هويته التي لا تخرج عن اطاره الضيق ليشكل حلقة اوسع بتجاوزه الشخصية المستهدفة. وفي فقرة (هموم المجتمع موجها اجتماعيا) يتخذ الشاعر من المجتمع طريقا لتكوين هوية النص، تتجاوز الذات الخاصة بالشاعر لتكون شخصية اجتماعية عامة في مدار اشتغالها الاوسع. اما الموجه الاجتماعي الثالث (هموم المجتمع) فيتوحد ذات الشاعر مع هموم الجمع عندما تتوحد

في نقاط اشتغالها مع الهموم المرافقة للبسطاء والجائعين، فعذابات بني الارض هي عذابات الشاعر، فيوظف نصه ليكون معبّراً عن الاخر المتضامن معه في طريق الانسانية. ولا يعدو الشاعر ولا نتاجه الادبي شعريا الا ان يكون فكرة لذات تحاول ان تتمركز خارج اطار وجودها المحدد بواقعها الخارجي، فيكون النص ناطقا باسم الجماعة التي ينتمي اليها.

وعنون الباحث الفصل الثاني (تمثلات الهوية) باضاءة نقدية غنية ليقدم ثلاثة مباحث: الاول المرأة بوصفها هوية. والثاني الموروث بوصفه هوية. والثالث المكان بوصفه هوية. وللمرأة حضورها المشير الى خصائص هويتها داخل المتن الشعري، وقد شغلت مساحة واسعة في حضارة وادي الرافدين، فكانت الأم الالهة الرابعة في ترتيب (ننماخ) اضافة الى (انانا) الهة الحب. وقد تتبع الباحث تمثلات المرأة في شعر ألفريد سمعان فكانت: المرأة المعشوقة، والمرأة المقاومة، والمرأة الخاصة. وقد حضرت المرأة بصورة عامة في شعر الشاعر في بواكير قصائده، على الرغم من انشغاله في الجانب السياسي من حياته، خصوصا في المرأة المعشوقة.

كذلك يبرز شعره في دور المرأة المقاومة، سيما في موقعها الحزبي. لكن المرأة الخاصة تختلف عن السابقتين، فالمراة الخاصة هي الزوجة عنده. والمبحث الثاني في الفصل (الموروث بوصفه هوية) وللموروث اهمية في تمثيل الهوية وظهورها في القصائد الشعرية، فهي المدونة السردية الحاضرة العامة للشعوب التي تحمل هويتها من خلال استحضار المدونات الماضية. وقد تتبع الباحث تجليات الموروث، فوجدها في ثلاثة مواطن، حققت بمجموعها تمثلا للهوية، وهي الموروث الاسطوري والموروث المسيحي والموروث الاسلامي. ويبدو ان الباحث قدم الموروث المسيحي، لكون الشاعر ألفريد سمعان من الديانة المسيحية. فالهوية في الموروث الاسطوري عند الشاعر تبرز في مسرحية شعرية حملت عنوان (ليمونا)، فهي تعتمد عرض الافكار عبر الشخصيات التي توضع مباشرة للحديث مع القارئ، من دون وجود سارد يتداخل في نقط معينة مع الكاتب الاصلي، إلا ان الفكرة والصراع المتنامي بين الشخصيات لا يخلو من خصوصية واعية، فهي التي تصنع الهوية. ولم يوقف الشاعر الهوية الموروثة ، بل تجاوز الامر لتقف عند تكوين بعد يستجلي تأسيس عرق يرتبط برباط الدم والوراثة ، وهي فكرة للانتماء الى فئة تتمترس على الاعتماد على هوية الولادة لمجابهة هوية الموت الذي يهدد الوجود.

تمثلت هذه الفكرة في قصيدة (سيدة النجاة) يستدعي فيها الشاعر القوى الروحية لمجابهة القوى الارهابية على ارض الواقع. اما الهوية والموروث الاسلامي فيجسدها الشاعر بالرافدين المسيحي والاسلامي في قصيدة (صلوات)؛ ففي المقطع الاول يستدعي رمزية الحسين بمدلوله الاسلامي عبر النسب المتمثل في (سبط الرسول) ثم يعرج في المقطع الثاني على عنصرين يمثلان

هوية مسيحية (دقت الاجراس) و(اسراب المشاعل) لإعادة تشغيل النص بوساطة الهوية المسيحية. والمبحث الثالث: المكان بوصفه هوية. فالمكان يشكل جزءا مهما من الحياة، فضلا عن تعبيره عن تكون حيز يشغله كل جسم، وهو يحاول ان يكتسب صفة وجوده في دائرة الاحجام. ويكون التصرف الشعري نابعا من ارض المكان الذي تمارس الذات فيه، فضلا عن مشاعر الالفة او الاغتراب، وهما يشكلان مسيرا داخل توجه النص. وليس الشعر في نظرنا اقل شأنا من السرد وآلياته في مسألة المكان. وصار بإمكان الباحث متابعة تجليات المكان بوصفه هوية من خلال ثلاثة اتجاهات ظهرت في التجربة الشعرية المرصودة لهذا البحث وهي: السجن مكان للاستلاب، والطبيعة مكان للألفة، والمدينة مكان للاغتراب. وفيما يخص السجن قضى الشاعر ألفريد سمعان ردحا طويلا في السجون والمعتقلات واماكن (التوقيف) فصار السجن عنده هوية تصمه بالنفور والكراهة، فصارت اشعاره شحنة من المشاعر ضد هذه الامكنة البغيضة، وصارت اماكن لرسم الرعب والغربة والحرية المستلبة، خصوصا الاستلاب فقد ظهر في غالب قصائده مركبا، يتجلى في الابتعاد عن الحرية، وفي الاقتراب من المختلفين فكرا داخل اسوار السجون.

اما الطبيعة فكانت مرتعا وخيالا للشعراء منذ الازل، شكلت عند الشاعر هوية تتآلف فيها الاجزاء المكونة لتفاصيل النصوص من خلال قصائد عديدة للشاعر. اما المدينة (مكانا للاغتراب) فالمدينة والمجتمع المتمدن اكثر تعقيدا من المجتمع الريفي واكثر غنى واكثر قوة, غير انه يبقى فريسة انقسامات داخلية. بمعنى اخر ان المدينة ارتبطت بالمنفى بالمعنى الكلاسيكي المبتعد عن الاهل، وهناك اشعار كثيرة تمثلت عند الشاعر ومنها امكنة داخل المدن.

والفصل الثالث هو الفصل الاخير (وسائل تشكيل الهوية) بمبحثين: الاول (الهوية والمعجم اللغوي)، والثاني (الهوية والعتبات).

تمثل الهوية مفهوما عاما يجد خصوصيته في اشتغاله في مناطق متعددة من الحقول المعرفية. ويعد الادب من الحقول التي وجدت الهوية متسعا لها في نظامه التكويني بوصفه حقلا ثقافيا ونسجا ينقسم الى اجناس عدة، يكون الشعر جنسا رئيسا منه. ودراسة الهوية من خلال الشعر هي دراسة تقتضي التمعن في الوسيط الذي حمل مكنونات هذه الهوية. في مبحث (الهوية والمعجم اللغوي) فانه ليس اعتباطا ان يتم الاهتمام بلغة الشعر بصورة مباشرة، فالشعر فن لغوي، واللغة ليست لبوسا للمعاني التي تهيم في ذهن ما قدر ما هي جسد يحقق بصياغته الخاصة للمعاني الدالة.

وتتضح مفاهيم الهوية من خلال المعجم اللغوي في دواوين ألفريد سمعان، ونهضة هذا المعجم لتمثيل هوية النص الشعري بانها انتقت اللغة الشعرية معجمها بما يجسد طبيعة الفكرة التي يريد النص ايصالها باقتناص الطاقة الدلالية للمفردة والجملة الشعرية، وهما يكونان هذه الهوية عبر النقل من الدلالة

المعتادة الى الدلالة الموظفة في سياق القصيدة. وفي مبحث (الهوية والعتبات) فان العتبات تمثل منطقة خصبة لدراسة النصوص الادبية، بوصفها مكملات نصية تحقق باشتغالها مع المتن النصي خطابا موازيا يجد الباحث في تتبعه هدفا تحليليا يرتبط بهدف دراسته المنشودة. والعتبات تعني المرفقات المحيطة بالنص الذي هو مفاتيح اجرائية اساسية يستعين بها المتلقي لاستكشاف الاستراتيجية التي يمكن ان يسير عليها النص بغية استنطاقه وتأويله في تشكيل الدلالة وتفكيك الدوال الرمزية وايضاح الخارج، قصد اضاءة الداخل.

وينهض هذا المبحث على ثلاث فقرات؛ الاولى (الهوية والعنوانات الخارجية) اذ توزعت تجربة ألفريد سمعان الشعرية على ثماني عشرة مجموعة. والوظيفة الاساس للعنوان ان تقدم النص مراعية تلقيه او تداوله، فضلا عن وظائف اخرى. وهذه الوظائف هي الوظيفة التعبيرية, والوصفية، والايحائية، والاغرائية.

اما الفقرة الثانية فهي (الهوية والعنوانات الداخلية) وقد احتوت مجموعات الشاعر على (238) عنوانا داخليا، وقد صنع الباحث جداول بارعة دقيقة لهذه العنوانات وفق كونها: كلمة واحدة او جملة اسمية او جملة فعلية او شبه جملة. مع تحليل احصائي لهذه الجداول وفق دلالات مسمياتها.

والفقرة الثالثة (الهوية والاهداء) اذ يعد الاهداء منطقة ثرة لحضور مفاهيم الهوية، فقد ينتقل مؤلف النص من زاوية التعبير عن ذاته الى زاوية صناعة عالم متخيل لا يعبر عنه إلا في الاهداء، فهي التي يعبر بها المؤلف عن ذاته بصورة مباشرة، فيوجه جانبا من عوالمه المتخيلة الى اشخاص او امكنة او ازمنة او حيوات او مفاهيم عامة، مما يجعل منطقة الإهداء ارضا حرة للبحث عن هوية المؤلف.

اما خاتمة الكتاب، فكما سبك المؤلف تمهيدا نقديا غزيرا ماهرا، فقد فعل الشيء نفسه في (الخاتمة) فلم تكن هذه الخاتمة الا عصارة وبحثا جديدا مستخلصا من البحث الطويل.

- الهوية والشعر/ دراسة في تجربة ألفريد سمعان. تأليف: عمر السراي.
- الطبعة الاولى 2016 – دار بغداد – العراق.

ألفريد سمعان .. مسرحياً
مسرحية (ليمونا) أنموذجاً

د. عقيل مهدي يوسف *

يذهب الباحث والشاعر عمر السراي في رسالته الموسومة (الهوية والشعر) في تجربة ألفريد سمعان، الى الوقوف عند نصوص ألفريد، وتبيان ارتباطاتها بالذات، وعلاقتها بالآخر.

وسبق لي ان قدمت مسرحية (ليمونا) التي ضعت لها عنواناً فرعياً، باسم (الملك الاشوري) وهي تجربة شعرية تعتمد (التفعيلة) شبيهة بما درج عليه الشاعر في قصائده الحرة.

يحصر الباحث عمر السراي الموجهات الخاصة بشعر ألفريد في اطار: الهوية، والوطنية، والحزبية، والاجتماعية وهي تقدم تمثلاتها الخاصة بالمرأة والموروث والمكان، مقترنة بواقع تاريخي خاض فيه الشاعر مخاضات شائكة وتعرض لمعضلة المطاردة والسجون والخضوع لاجهزة العقاب البوليسي الصارم.

في مسرحيته ليمونا، اتخذ من فكرة تاريخية اشورية قديمة يبين من خلالها علاقة الصراع ما بين الملك وطبقة المستضعفين والملكة وكبير حراسها.

نجد الشاعر يتماهى مع المكان الذي يجد فيه ذكرى الاجداد الاشوريين وما قدموه للحضارة البشرية من اضافات فاعلة في صياغة الوعي البشري بتلك المرحلة المتقدمة من تاريخ حضارات العراق، واقتران جغرافية المكان بالزمن التاريخي ومتابعة اثر ذلك في وعي الانسان العراقي وتمثلاته العقائدية والاخلاقية، وكذلك تتبع طرق انعكاس بلاغة اللفظ وتركيبه ودلالته التي نجدها ماثلة في بناء نصه المسرحي المعبر عن عالم متخيل عماده اللغة.

وبالتالي يسحب الكيان الوجودي المادي الى ذاته الشعرية التقدمية، والمتحزبة او ما يخص (الهوية) التي يسندها (السراي) للوجود الاجتماعي والخطاب التاريخي والوعي الذاتي الذي يربط الكينونة الانسانية بالوجود، في النص.

البطل يحمل مواصفات خاصة، الامر الذي يقتضي حضور الزوجة الملكة وهي تمثل الجانب السلبي من الصراع الدرامي، وهي تقف بالضد من زوجها الملك الذي تختلف عنه من حيث اصولها العرقية ومرجعياتها الاجتماعية خلافاً عن الملك المتعاطف مع الفقراء، وبذلك نجد تداخل مرايا الشخوص، فكل منهم يرى معه شخصية غريمه في اطار واحد. وهو يشتبك معه في عراك محموم، تبعاً

لموقفه الاخلاقي والسياسي والثقافي، او ما يعرف بعلاقة الذاتي بالموضوعي لدى الابطال.

يحفل قاموس (ألفريد) بمفردات مثل: غرب، مستعمر، خونة. يقابلها: شرف، وطن، احرار، وامكنة مثل قطار الموت، ونقرة السلمان، واسماء زعماء مثل:

لينين، فهد، عبد الناصر، جميلة بو حيرد، عبد الكريم قاسم، والمجدلية مريم، والمسيح، وكذلك الشاعر البلغاري (فابتزاروف).

وأذكر انني حين قررت تقديم النص في المتحف الوطني العراقي، كأنني قد استبقت التاريخ وانا انظر بقربي تمثالا آشورياً مقطع الى اجزاء بطريقة احترافية مذهلة، كان معداً لتهريبه الى الخارج.

حسب ما اكد لنا مدير المتحف حين ذاك الدكتور مؤيد سعيد، بقوله: ان هذه السرقة تدل على ان من اشرف عليها هم علماء اثار لدقة تقطيعها وترقيمها.

وضعت خطة للعرض، وتبنيت الاسلوب (الالقائي) مع تمسرح، وحركات مؤسلبة وايقاعات موسيقية يقوم بأدائها الاذاعي اللامع الفقيد (احمد المظفر).

وما عرف عنه من وعي واجتهاد وجمالية في الصوت وكاريزما خاصة

بالاشتراك مع المذيعة المبدعة ميسون الموسوي، والعازف علي المصري .

هذا الاسلوب المسرحي الذي يعرف (بالرتسيتال) لم يكن معهوداً في مسرحنا العراقي وقد حاولت ان اقدم هذه التجارب لقصص تخص القاص محمود جنداري في مجموعته (مصاطب الالهة) وكذلك قصص الكاتبة (لطفية الدليمي) عن قصة "مذكرات امرأة".

ترنم ابطال المسرحية من داخل جدران التاريخ السومري والاشوري والبابلي وتوزع الجمهور في زوايا المتحف او قرب جدارياته التي تخص الملوك الاشوريين وهم يجلبون الاسرى من فلسطين.

فضلاً عن تفصيلات اثرية واحجار منقوش عليها الكثير من نصوص قانونية وعقائدية وصور تشكيلية محفورة، والات ومسلات مذهلة.

توظف مسرحية (ليمونا) الموروث المثيولوجي الاشوري والسومري القديم في ارض الرافدين. يدون المؤلف في النص ملاحظة يذكر فيها ان جميع اسماء الشخصيات غير حقيقية، اما الاسم التاريخي الحقيقي، فهو للملك (ايلو شوما) في فترة كان فيها السومريون قد استعبدوا الاشوريين، والاسماء في النص تندرج على النحو الاتي:

(ليمونا) البطلة ابن راع

و(سالي) شخصية الحبيب العاشق لها وهو راع

و(ايلو شوما) الملك، وهؤلاء يمثلون قوى الخير.

اما اسماء قوى الشر فهم:

(شيرا) زوجة الملك، وهي من اصول سومرية، يمكن تشبيهها من حيث المواقف والافعال بالقوى الشيطانية، التي ترد في الاساطير اليونانية والرومانية عن تلك الارواح الانثوية المرعبة، بشعرها الثعباني المخيف، الحاملة لاسم (الفيوري) وهن يمثلن ربات الانتقام.

تحلق حول العرض المؤلف ألفريد سمعان مع رفاقه واصدقائه، وجلهم من كبار السن ليتابعوا من قرب مؤامرات (دندا) المرافق الاكبر للملك الذي تربطه علاقة شائنة بالملكة (شيرا) الفاسدة. وبعد احتدام الصراع الدراماتيكي، بروحه الغنائية، واطاره المثيولوجي، يقود الملك انتفاضة العبيد، على الطغاة، ولكن الموقف يبقى ملتبساً، شائكاً، يصوغه المؤلف على هذا النسق:

وتحولت اشور

لكن المؤامرات لم تنته.

وكأن البطلة ليمونا جاءت على شكل (صدى) لقصيدة (الصرخة الاخيرة) للشاعر ألفريد سمعان، وهي ترسم الصورة الاتية:

المجدلية دمعة ورقاء / في الشفق الحزين /

نشرت غلائلها على اكليل سيدها المسيح /

تتجمع الاشواك في يدها الحنون / وتستضيف دم الجريح / فوق الرداء /

وتنثر الصلوات في وجه السماء/ ياربنا / ارحمه لم تأت به / للشوك والدم والعذاب.

هنا كأنك تجد في النص المسرحي هذا صوت الشاعر المميز على مستوى التلفظ

والبناء والدلالة والايقاع الداخلي لقصيدة النثر التي تعبر عن مواقف المجابهة مابين الملك والشعب من جهة، والملكة وعشيقها المرافق الاكبر للملك من جهة اخرى.

ونجد صدى اخر قد تحول الى (حدث) درامي لفظي كما جرى في قصيدته المسماة: ترنيمة الى فابتساروف ..

ياشهيد البلغار حسبك مجداً/ ان تحيي ذكراك كل الشعوب / ياصديقي ولست اول نجم/ اطبقت جفنه غيوم الحروب.

ولو نظرنا الى العنوان ليمونا الذي اسميناه الملك الاشوري لهذا النص المسرحي، لوجدناه يقوم بوظائف يوجزها عمر السراي بالاتي:

تعيينية ووصفية، وايحائية واغرائية، وحين نطبقها على نص (ليمونا) تتوزع هذه الوظائف على الوجه الاتي:

التعيينية: هي ما يخص اسم الكاتب ألفريد سمعان.

الوصفية: ما يخص ليمونا بطلة المسرحية.

الايحائية: ما يخص الوصف غير المباشر.

الاغرائية: ما يجذب المتفرج ويستهويه لمشاهدة العرض او قراءة النص.

من خلال هذه الاضاءة الشعرية التي تخص النص المسرحي ركزت فيه على مرجعية مثقف يساري وظف ايديولوجيته الخاصة ليسقطها على المستعمر المعاصر ولكن بقناع سومري قديم لبلاد اشور، وتحديد رقعة جغرافية في شمال الوطن، تخاض فيها صراعات بين رجال ونساء في استقطاب، يتوزع ما بين الخونة وبين الجماهير الحرة التي يقودها الملك الزعيم وهم يكشفون عن انفعالات متباينة من حيث الحب والحقد، والحياة والموت.

يترسم النص خطى الوعي الطبقي والاممي لموجهات نقاد الواقعية الاشتراكية امثال: بليخانوف، وفيشر، ولوكاش، وجوركي، وربما نجد اثر ذلك ايضاً في مجموعته القصصية (الجمعة الحزينة).

وهذه المنطلقات الفكرية والايديولوجية تمثل غبطة ألفريد سمعان في آثاره الشعرية والادبية، وهو يرسخ رؤية شعرية حديثة، ملتزمة بقضايا الوطن.

*** مخرج وناقد مسرحي ، عميد كلية الفنون الجميلة - سابقاً**

الإنسان.. ألفريد سمعان

حسن البحار*

تتبع خطواتك، تنظر إلى الطريق، تحمل غضبكَ مهموما تفكر بالردّ الحاسم على مَن تجاوز عليك دون سبب، ما زلت تردد مع نفسك: ”من يطفئ نار تحملك“، تنظر إلى السماء، تردد مع نفسك: ”ما الحل؛ فالذي نشر عنكَ في مواقع التواصل الاجتماعي (الفيس بوك) كلاما قاسيا يكشف القصد منه، لا شيء غير احباط نشاطاتك الثقافية التي اثارته سبب عدم توجيه دعوة حضور له في ذاك المؤتمر، كنت كما أنت، قادرا على الردّ بالمثل، لكن ما يمنعك هو الأخلاق الأدبية والخصم ليس له قيمة أدبية عالية، ماذا بعد؟“، تتعثر بحجرة، تعود بالنظر إلى الأرض، إلى من حولك، لا شيء غير الشمس الحارقة والغبار المتطاير من حولك، نار صدرك تتفجر، خطوات أكثر، تصل باب اتحاد أدباء وكتّاب العراق، تصادف صديقك، يسألك عن سبب حالتك: ”تبدو مكشوف الغضب والبعثرة“..

هكذا كنت، هكذا وقفت وسط ساحة الاتحاد أمام صديقي الذي لحظة ما سمع مني السبب، قال وابتسامته تستفزني: ”اذهب إلى الأمين العام الأستاذ (ألفريد سمعان)“.

تركتُ صديقي مع بساطته وانسحبت إلى هناك، تأخذني خطواتي بين السياج والسياج، حالة دوران وسط الساحة، سيجارتي تحرقني كما النار في صدري، لم أقرر بعد ماذا عليّ أن أفعل؟ كيف أحطّ كل ثلوج الأرض فوق ناري التي تتقد كلما مضى الوقت والشمس تجلد (شيبتي)، مع آخر دخان من سيجارتي، دخلت قاعة الاتحاد، على يساري كانت غرفة مغلقة، معلق فوق بابها لافتة من البرونز مخطوطة فيها (الأمين العام).

سألت نفسي: ماذا أقول له؟ وما سيكون ردّه؟ هل سيتعامل معي بالطريقة التي أريدها: يأمر خصمي على حذف منشوره المسيء، والاعتذار لي علنا، هل سيفعل؟ وأنا حديث الانتماء الى الوسط الأدبي، وخصمي - الذي تجاوز عليّ بلا سبب - له من السنين التي تتجاوز نصف عمري في اتحاد الأدباء

ككاتب مميز له اسمه الذي نقشه بتعب أفكاره الإبداعية؟ ماذا لو لم يتفاعل معي ويظن أنه أمر شخصي ويقابلني بابتسامة مستفزة كصديقي، ويزيد ناري، مسني التردد، عدت من حيث دخلت، في الساحة كانت الشمس أكثر حرارة والأجواء أراها مشحونة في وجهي الذي شعرت به بدأ يتحجر، الغضب يأخذ مني كياستي، بدأت أقصف الأرض، ألعن ضعفي من المواجهة مع خصمي والذي أبرره لأمرين الأول شيخوخته والثاني كتبه التي قرأت منها وتعلمت وأراها أمامي في المكتبات، عاد ولا أعرف من أين عاد صديقي وشجعني على أن أعود إلى غرفة الأمين العام، ولا أخرج إلّا وقلت كل شيء، فعلت ما أمرني به، دخلت واثق الخطوة، طرقت الباب، مرة، مرتين، لا أحد يردّ، كتمت أنفاسي، أنصت، لا شيء يوحي هناك من في الداخل، مسكت عروة باب الغرفة، ضغطتها إلى الأسفل، فتح الباب، مددت رقبتي، فرأيت وجه الأمين المبتسم والهادئ مقابلة عينيَّ.

- عفوا أستاذ.

ردّ ويده تلوح لي بالتحية: ''تفضل، تعال، ادخل''.

- عفوا أستاذ سأشغلك لدقيقة من فضلك. قلت وأنا واقف وسط الغرفة أمام طاولته التي توسطها جالسا مقابلة لي..

ردَّ: تفضل. اجلس..

جلست بهدوء عجيب، لقد لمس الهواء البارد الذي يملأ الغرفة القادم من جهاز التبريد تعرق جلدي ونار صدري، مسترخيا، أنظر بتركيز إليه، هو يقلب بالأوراق ويسألني عن أواي وعن آخر نتاجاتي الكتابية، ويطالبني بالاستمرار في الكتابة وأنه مع الجد التام في موضوع الحياة التي لا تستمر من دون ثقافة ومواقف، مأخوذًا بهدوئه وبشاشته وكلامه الواضح أردد: ''نعم''.

ماذا أفعل؟

هل أدخل مباشرة في مشكلتي واقطع حديثه، أو انتظر حتى ينتهي من كلامه؟

سيطول الوقت وربّما يشعر بالضجر مني، انا بي حاجة إلى الوقت والتركيز إلى حزمات من الأوراق التي يرسم عليها توقيعه، واخرى يقرأ فيها، لكنه لم ينقطع من الحديث معي حتى دخل شاب أسمر البشرة، يحمل الشاي قدمه له، لكنه قال لي هذا الشاي لك، اشربه، والتفت إلى الشاب، شكرته وطلب منه الشاي، وعندما خرج الشاب سألني: ''مرتاح''، شعرت فرصتي لأقول له كل شيء، قلت مستعجلا:

- نعم، لكن...

- إذن عليك أن تتعب وتعاني حتى تكتب أجمل ما عندك.

- أنا الآن أشعر بالتعب والأعياء،

أريد أن أشكووو

- إذن هناك مشروع رواية جديدة؟

- نعم، أستاذ، لكنني هنا لأقول لكَ هناك من أساء لي.

- أعرف، وقد سمعت بهذا، ونصيحتي لكَ، أن تهدأ، وتسمعني جيدا، هذا الرجل نحن نحبه ونحترمه، وهو يحبكَ وأنا متأكد من كلامي، اسمعني لو لم تكن مثيرا في نشاطك بالمهرجان الأدبي ولم تكن كتابتك الإبداعية فيها ما يثير القراء لما كنت كثير الحضور وهذا الذي اثاره، إذن تقدم بعلمك واجتهد كثيرا وستجده يأتيك معتذِرا.

- أستاذ، أناا..

- اشرب الشاي؛ سيبرد، وإن برد سأطلب لك غيره.

- شكرا، مازال ساخنا، لكنني..

هذه اللحظة دخل الشاب الأسمر ومعه الشاي، وضعه على الطاولة وسأل الأمين العام ان كانت به حاجة أخرى، أجابه: ”لا، شكرا لك“. والتفت لي مبتسما قال: ”متى نجد روايتك الجديدة بيننا“. قلت: ”لا أدري بالضبط، لكن ليس أقل من خمسة أشهر“. قال: ”خذ وقتك، فالكتابة تحتاج التأني والتروي وطرد كل السلبيات من حياتك لتكتب ما تريد

أن تكتب، وتكون حرا في أحلامك وخيالك".

- سأفعل..

- أعرف ستفعل.

قالها وتحرك بهدوء، واقفا مدّ يده مصافحا يدي، فشعرت أنها نهاية المقابلة وأن شكواي لم تصل بالصورة التي أريد، لكن لحظة ما تفارقت اليدين قال: "سيأتيك من تجاوز عليك معتذرا، لكن أوصيك بالهدوء وعدم التوقف عن النشاط الثقافي والكتابة".

قلت: نعم، وخرجت من الغرفة وأغلقت الباب، ورجعت إلى الساحة وقفت وبدأت أدخن أعيد في رأسي ما سمعته للتو من (الأمين العام) لأجد ما يخفف عني قهري من خصمي الذي تجاوز عليّ بلا سبب، وأنا هكذا في رأسي اتجول جاء الشاب الأسمر يحمل معه فنجان القهوة وقف أمامي، قال: "قهوتك"، خلفه يقف صديقي الذي كان سبب هذه المقابلة، قال: "هل أخذت حقك"، ولا أدري ماذا أردّ غير أنني قلت له، "سترى".

في اليوم نفسه، حذف المنشور المسيء لي من صفحة خصمي، وفي اليوم الثاني جاء خصمي محملا بالندم يطلب السماح.

سريعا ذهبت إلى الأمين العام (ألفريد سمعان) دخلت غرفته أقدم له الشكر على ما فعله لأجلي، كان ردّه: "تأكد أنني لم أفعل".

*** روائي وكاتب عراقي**

ندوة مجلة (الثقافة الجديدة):
"البنية الاجتماعية/ الطبقية في العراق وتحولاتها منذ 2003"

ورقة عمل مجلة (الثقافة الجديدة) بعنوان "البنية الاجتماعية/ الطبقية في العراق وتحولاتها منذ 2003"

تتعاظم الحاجة أكثر من أي وقت مضى، الى دراسات أكثر انضباطا للتكوينات الاجتماعية في بلدان "العالم الثالث" ومنها بلدنا العراق، والى تحليل أكثر ملموسية للبنية الاجتماعية والوزن النوعي لكل طبقة وفئة وشريحة فيها، بشكل صحيح ومعلل. ويمكن القول إنه وعلى بالرغم من "السيل الهائل" من الدراسات التي ظهرت خلال العقود الاخيرة، فإننا مازلنا حتى اللحظة، مع استثناءات ليست كثيرة طبعا، على دراية بواقع هذه المجتمعات هي أقرب الى "المعرفة العادية" منها الى المعرفة العلمية، في أحيان عديدة، هذا عدا عن اختلاط المفاهيم واضطرابها. ومن هنا تتأتى ضرورة التأمل في واقعنا، رؤيته كما هو، وليس تفصيله وفقا لمقاسات نظرية مخططة في الذهن، غير قابلة للنقاش، تبدو وكأنها كلية القدرة.

شهدت العقود الاخيرة "تحولات عميقة" في البنية الاجتماعية والطبقية، وتزايد الوزن النوعي للعديد من الفئات والشرائح وتعاظم دورها "الفعال" في تحديد اتجاهات "التطور"، بعد أن ظلت لفترة طويلة على "هامش التاريخ". كما ظهر على "المسرح" طبقات وفئات وشرائح جديدة بدأت تلعب دورا نشيطا في مختلف مستويات التشكيلات الاجتماعية، لكن برغم هذا الدور وتعاظمه فإنها ما زالت بدون تحديد دقيق. ويبدو وكما تشير التجربة، أن هناك فجوة بين الواقع الملموس لهذه الفئات والشرائح وبين رؤية الفكر النظري لها، الذي ما زال، على ما يبدو غير قادر على توصيفها بدقة وتحديد "هويتها". ولهذا فإن إحدى "ثغرات" هذه الفجوة بين الواقع وفكر الواقع تمثلت بظهور العديد من المصطلحات والمفاهيم و"المقولات"، كلها تريد أو تحاول أن تعبّر عن هذه الظواهر مفهوميا. لذا فإن دراسة هذه الطبقات والفئات ضرورية جدا، فإنتاج معرفة صحيحة بأي ظاهرة أو عملية هو أفضل بكثير من الادعاء بمعرفتها سلفا.

بعد كل هذا توجب القول إنه حان الوقت لتجاوز المفاهيم "الجاهزة". تلك التي ليس لها أي رصيد، في الواقع العملي، والسعي الى إعمال الذهن في العديد من الظواهر والسيرورات الاجتماعية، بشكل دقيق، وتوصيفها توصيفا ملموسا ومعللا علميا.

لا شك أن موضوع ندوتنا او الطاولة المستديرة الموسومة: "البنية الاجتماعية/ الطبقية في العراق وتحولاتها منذ 2003" هو موضوع واسع النطاق ومتعدد الأبعاد ومتشابك، هذا إضافة الى انه يعد واحدا من أهم المواضيع التي كَثُر حولها الجدل وتفاوتت بشأنها الآراء والمقاربات، وكانت ولا تزال وستبقى نيرانها الفكرية والسياسية والاستراتيجية مشتعلة، ويبدو ان أوارها لن يهدأ قريبا. فالقضية الاساسية في

صراع الطبقات والقوى التي تعبر عنها هي قضية السلطة والاستحواذ عليها وتوظيف الدولة وأجهزتها المختلفة لتحقيق اهداف هذه الطبقة (او الائتلاف الطبقي) أو تلك. طبعا، هناك من يسعى للتمويه على المقاربة التي تؤكد أن ما يجري في العراق ليس صراعا بين الطوائف والإثنيات المتحاربة بل صراع طبقي في جوهره.

يبدو أن التطور التاريخي للتجربة "التنموية" في بلادنا منذ ان اطلق الحاكم المدني لسلطة الاحتلال بول بريمر "المانيفست الاقتصادي" في منتصف 2003 وما "فرخه" هذا المشروع من طبقات فئات وشرائح اجتماعية وقوى جديدة ومتنوعة أثار وما زال يثير العديد من التساؤلات الاضافية حول طبيعة التشكيلة العراقية وطبيعة السلطة "الجديدة" الناشطة فيها، وموقع الدولة في هذه السيرورات المعقدة والمحاولات الكثيرة لإعادة تأويله في ضوء صعود الفكر النيوليبرالي الذي نافح ضد أي دور للدولة في الاقتصاد، وان ينحصر في دور الدركي فقط، والرهان على الخصخصة بطبعة صندوق النقد الدولي والبنك الدولي.

لهذا لم تعد هذه الموضوعات ومعالجتها منهجيا ترفا نظريا بقدر ما هو تعبير عن الحاجة الى تأصيل منهجي ونظري لقضايا وإشكاليات عملية تواجه الكثير من "البلدان النامية" ومنها العراق؛ ففي بلادنا مثلا يأتي هذا الاهتمام ارتباطا بالتحولات المتسارعة في البنية الطبقية/ الاجتماعية للمجتمع والقاعدة الاجتماعية للحكم والتميزات التي شهدتها والاستقطابات التي حصلت وأدت الى بروز لوحة جديدة من الاستقطاب الاجتماعي والسياسي. وكل هذا يستدعي التحليل الملموس لهذه الظواهر، وما يرافقها من اشكاليات تطرح تحديات منهجية ونظرية وسياسية عملية، الأمر الذي يتطلب البحث في اسباب وعوامل نشوئها وآفاق تطورها، ارتقاؤها وإمكانيات تراجعها، باعتبارها ظواهر ملموسة في جسد الاقتصاد والمجتمع.

ومن المؤكد ان دراسات موضوعية لطبيعة السلطة والدولة وشكلها ومضمونها والصراعات حولها، هذا اضافة الى التحولات الطبقية الحاصلة وصعود ملحوظ لفئات وشرائح مختلفة الى قمة الهرم الطبقي/ الاجتماعي، كالبيروقراطية والطفيلية والكومبرادور عمل يكتسي أهمية راهنة، ذلك لأنها تمثل من جهة فئات وشرائح ذات ملامح خاصة محددة داخل التركيب الاجتماعي، ولأنها تجسد من جهة ثانية مشاكلها الاجتماعية بارزة الوضوح والحدّة. ولهذا فإن الدراسة المنهاجية لهذه القضايا ينبغي ان لا تظهِر وتوضح التناقضات والسمات الخاصة بتشكل وانبثاق هذه الفئات كفئات مهيمنة في البنية الاجتماعية – الاقتصادية فحسب، بل وكذلك دراسة وتحديد المقدمات الضرورية لتجاوزها وشروط ذلك.

نحن إذن امام لوحة اجتماعية/ طبقية تمتاز بعدة معالم، من بينها تعدد الطبقات والفئات والشرائح الاجتماعية التي تمثل طرائق وأشكالا مختلفة للإنتاج، وايضا درجة تمايز هذه الطبقات الفئات والشرائح بعضها عن البعض الآخر من الناحية الاجتماعية، وما تعرضت وتتعرض له العديد منها الى عمليات طحن وإعادة صياغة. وأهم هذه العمليات الاجتماعية هو الانقسام والتفكك والنمو المتزايد للشرائح والفئات الاجتماعية الوسطي وتنامي الجهاز الحكومي بجميع حلقاته وتعاظم مظاهر العسكرة، والفقر والبطالة... الخ. ومن هنا تصبح دراسة دور جهاز الدولة وطبيعة السلطة والصراع الدائر

حولها، بأشكال مختلفة، مهمة ملحة.

واستنادا الى الملاحظات اعلاه يمكن القول إنّ مسألة "من سيربح المعركة" الدائرة حول السلطة ذات علاقة جدلية بنتائج الصراع الطبقي عموما والصراع بين تلك الأنماط، وطبعاً بين الطبقات والفئات والشرائح الاجتماعية والبنى السياسية التي تمثلها.

إن الفهم الدقيق لطبيعة السلطة في العراق بعد 2003 يستلزم التوقف عند عدة قضايا وإشكاليات من بينها:

- تحديد الملامح الاساسية للخريطة الطبقية – الاجتماعية وكيف تبلورت بالملموس منذ 2003؛

- وبالنظر لطبيعة الاقتصاد العراقي الذي هو اقتصاد ريعي الطابع وتعتمد البلاد على الريوع النفطية بالأساس وهذه الاخيرة هي التي تحدد اتجاهات الانفاق وحركة المجتمع وصيروراته، فلا بدّ من بحث تأثيرات الدخول الريعية على الاقتصاد والطبقات الاجتماعية بعد 2003.

- ثم ما هي معالم واتجاهات التبدلات الحاصلة في الخريطة الطبقية الاجتماعية في العراق بعد 2003 وما الذي تحمله من دلالات فعلية؟

- وما هو محتوى وتجليات الصراع على الجبهة الاقتصادية في المرحلة الراهنة؟

- وأخيرا، الفئات الهامشية، البروليتاريا الرثة، حثالة البروليتاريا، رعاع المدن... الخ، ومسألة اصولها الطبقية والانحدار الاجتماعي لهذه الفئات والشرائح. إن تحديد جذور هذه الفئات والشرائح يحب أن يرتبط بتحليل خاصية تطور التكوين الاجتماعي في بلدان "الاطراف" ومنها العراق. لذا فإن إنتاج معرفة منتظمة بصدد "الفئات الهامشية" يجب أن يرتبط بتحليل خاصية التطور الرأسمالي في العراق، حيث سمة الريعية وبالتالي رثاثة الاقتصاد والمجتمع هما السمتان المميزتان.

*****

عقدت مجلة (الثقافة الجديدة) مساء يوم الجمعة، المصادف 12/ شباط/ 2021، ندوة تحت عنوان (البنية الاجتماعية/ الطبقية في العراق وتحولاتها منذ 2003)، استضافت فيها عددا من الشخصيات الاكاديمية في الاقتصاد وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، من داخل العراق وخارجه. وقد عقدت الندوة عبر الدائرة الالكترونية المغلقة، وقد أدارها رئيس تحرير المجلة الدكتور صالح ياسر.

وقد ساهم في أعمال الندوة الاساتذة:

(1) الدكتور حسن عبد الله بدر (دكتوراه اقتصاد متخصص في حقل النظرية الاقتصادية)

(2) الدكتور حيدر سعيد (مفكر وباحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات)

(3) الاستاذ رائد فهمي (سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي)

(4) الدكتور سناء عبد القادر مصطفى (دكتور في الاقتصاد الصناعي)

(5) الدكتور علاء جواد كاظم (باحث اكاديمي في الانثربولوجيا الثقافية)

(6) الدكتور علي جواد وتوت (باحث اكاديمي في سوسيولوجيا السياسة)

(7) الدكتور كاظم حبيب (بروفسور في العلوم اقتصادية واستاذ جامعي متقاعد)

(8) الدكتور مازن مرسول (باحث اكاديمي في سوسيولوجيا السياسة)

(9) الدكتور مظهر محمد صالح (باحث وكاتب اقتصادي اكاديمي، مستشار الحكومة العراقية في السياسة المالية والنقدية)

وبعد ان رحّب بالسادة المساهمين في اعمال الطاولة، وشكرهم على تلبية الدعوة، بدأ د. صالح ياسر مداخلته قائلا:

"من المعروف أن بنية المجتمع العراقي ومكوناته الطبقية تعرضت إلى تبدلات متواصلة فرضتها جملة من العوامل والاسباب، ومن بينها عدم تبلور رؤية تنموية تعرف ما تريد، وأطلقت حراكاً اجتماعياً أفضى، مؤقتا، إلى طمس المعالم والحدود الفاصلة بين الطبقات والفئات والشرائح الطبقية وأعاق عملية تبلورها بالوجهة المطلوبة.

وإذا ما بحثنا في مسار الاستقطابات الطبقية ـ الاجتماعية الملموسة في بلادنا، فانه يمكن القول ان حصيلة السنوات الـ 18 الأخيرة بيّنت تفاقم التفاوتات الاجتماعية وتعمق الفرز الطبقي والاجتماعي، اضافة الى تعاظم مستويات الفقر والتهميش الاجتماعي. وتعود أسباب ذلك الى النظام المحاصصي الطوائفي ـ الاثني وما أسسه من علاقات الاجتماعية، وفي مقدمتها علاقات الملكية وبنية السلطة التي افرزت هذه الاوضاع، حيث تم تحويل الثروة من الفقراء الى حيتان السلطة وحاشيتها وتمركزها، ما عزز مواقع فئات وشرائح محددة. ولا بد من التأكيد هنا على أن ما جرى ويجري من استقطاب ليس قدرا محتوما بل هو نتاج النظام المهيمن وبنية السلطة ومنظومة علاقات الانتاج المهيمنة وهيكل الملكية السائد، وأيضا بنية الاقتصاد العراقي وطبيعته الريعية والمتخلفة والأحادية الجانب، نتيجة لانخراطه المبكر في قسمة العمل الدولية الرأسمالية واحتلاله موقع المتخلف والتابع.

ولا شك أن موضوع الطاولة المستديرة الموسومة: "البنية الاجتماعية/ الطبقية في العراق وتحولاتها منذ 2003 وحتى الان" هو موضوع واسع النطاق ومتعدد الأبعاد ومتشابك. هذا إضافة الى انه يعد واحدا من أهم المواضيع التي كَثُر حولها الجدل وتفاوتت بشأنها الآراء والمقاربات. وكانت ولا تزال وستبقى نيرانها الفكرية والسياسية مشتعلة. ويبدو ان أوارها لن يهدأ قريبا. فالقضية الاساسية في صراع الطبقات والقوى التي تعبر عنها هي قضية السلطة والاستحواذ عليها، وتوظيف الدولة واجهزتها المختلفة لتحقيق اهداف هذه الطبقة (او الائتلاف الطبقي) أو تلك.

لذلك يحدونا الامل في ان تساهم المناقشات والرؤى التي سيطرحها المشاركون في هذه الندوة في الاجابة على الاسئلة التي طرحتها ورقة العمل، بما يجعلنا على معرفة افضل بواقعنا الاقتصادي ـ الاجتماعي المتحرك، لكي يتم العمل على تغييره، وليس تفسيره فقط.

ومن المؤكد ان دراسات موضوعية لطبيعة السلطة والدولة وشكلها ومضمونها والصراعات حولها، هذا اضافة الى التحولات الاجتماعية ـ الطبقية الحاصلة، وصعود ملحوظ لفئات وشرائح مختلفة الى قمة الهرم الطبقي/ الاجتماعي، كالبيروقراطية والطفيلية والكومبرادور عمل يكتسي أهمية راهنة، ذلك لانها تمثل من جهة طبقات وفئات وشرائح ذات ملامح خاصة محددة داخل التركيب الاجتماعي، ولأنها تجسد من جهة ثانية مشاكلها الاجتماعية بارزة الوضوح والحدّة.

نكرر شكرنا لكم، اساتذتنا الكرام، على تلبيتكم دعوتنا متمنيا لكم جميعا الصحة الوافرة والعافية المستدامة، مقرونة بالمزيد من التألق في عملكم ونشاطكم البحثي".

بعد ذلك انطلقت المناقشات وكان أول المتحدثين د. حسن عبد الله بدر

"الانفاق الحكومي الاستثماري والفئات الميسورة"

د.صالح: ارحب بكم مجددا زميلي العزيز د. حسن عبد الله بدر. وأتساءل، ترى ما هو الاثر الذي تركه الانفاق الحكومي في العراق الذي بلغ ارقاما فلكية، وبخاصة الاستثماري منه، على تشكل واغتناء الفئات الميسورة في العراق في السنوات الأخيرة، وما أحدثه من اصطفافات طبقية – اجتماعية؟ وما هي الرؤية التي حكمت هذا النمط "الاستثماري"؟

د.حسن عبد الله بدر: في العراق، اذا كان هناك اجماع واحد بين الاقتصاديين العراقيين، على اختلاف آرائهم المعروف، فهو الاتفاق على هذا الموضوع أو هذه العلاقة: ان ما تقوم الدولة به من انفاقات يؤثر ليس فقط على البناء الاقتصادي للبلد، بل وعلى تكوينه الاجتماعي. وهذه العلاقة كانت تُلاحظ حين تشرع الدولة بمحاولة البناء الاقتصادي منذ بداية الخمسينات. ما اريد قوله، باختصار، ان التغيرات الاجتماعية الكبيرة التي حدثت بعد 2003، مبعثها هو هذه الانفاقات الهائلة من جانب الدولة. وخاصة الاستثماري منها.

هذه هي الفكرة العامة، وهي معروفة، وأنا قلت حتى ما قبل 2003 كان هذا هو الاتجاه العام، وذلك تبعا لطبيعة الدولة نفسها.

والعراق، تاريخيا أيضا منذ بداية الخمسينات، استطيع ان اقول، مقارنة بكثير من البلدان النامية، كان ينجح في تخصيص نسبة معقولة من دخله القومي، او من ناتجه المحلي الاجمالي تحديدا، الى الاستثمار. وأحيانا، استطيع ان اقول إن النسبة كانت اكثر من معقولة حين كانت تزيد على 20%. وبعد 2003، حدث الامر نفسه حيث نجح البلد ايضا في تخصيص نسبة كبيرة من دخله القومي لأغراض الاستثمار، لكن توجد مفارقة بصدد الانفاقات الاستثمارية. بالفترات من 2003 الى الآن عندما كان الوضع الاقتصادي اعتياديا. كان يُخصص للاستثمار نسبة كبيرة من الدخل، لكن دون ان يقابل هذا الانفاق الاستثماري المعَّلن بناء فعلي في مجال السلع الاستثمارية، إذ يُعلن عن تخصيصات استثمارية دون ان يقابلها تكوين فعلي للسلع الرأسمالية أو الانتاجية. والمقصود بالسلع الرأسمالية هي السلع المخصصة لأغراض الانتاج، مثل الآلات والمعدات ووسائل النقل والبناء وللأغراض الانتاجية.

وهكذا لم تتكون في هذه الفترة طاقات انتاجية، وخصوصا في قطاعيْ الزراعة والصناعة التحويلية على اساس انهما القطاعان المنتجان للسلع، لم تتحقق هذه الطاقات، ولذلك، كنا وما نزال نشبع حاجاتنا من سلع الاستهلاك، ومن سلع الاستثمار عن طريق الاستيراد. هذا الحال

كان يحدث حين كان وضعنا الاقتصادي طبيعياً، حين كنا نصدر كميات معقولة من النفط بأسعار وصلت، ذات مرة، لـ 100 دولار. المفارقة حين يكون الوضع على غير ذلك، حين تنخفض ايراداتنا من النفط، كان يُخصص أيضاً للاستثمار مبالغ معينة، ولكن كانت تجري عملية مناقلة لتلك المبالغ واستعمالها لأغراض التشغيل والأغراض الاستهلاكية على أساس أن الضرورات الاستهلاكية كانت أكثر إلحاحاً في حينه. وهكذا لم تكن تتحقق سلع رأسمالية حقيقية في كلتا الحالتين: لا حين يكون البلد في وضع اقتصادي طبيعي، ولا في وضع آخر غير طبيعي. إذ يُعلن عن إنفاقات أو تخصيصات دون ان يتحقق بناء رأسمالي بالفعل. ومما يدعم هذا القول ما كان يصدر من تصريحات ووثائق من مختلف اجهزة الدولة بهذا الصدد. فاللجنة المالية النيابية تقول، غير مرة، ان هناك نفقات استثمارية تزيد على 300 مليار دولار ضاعت هباءً.

وعلى هذا النحو الذي من شأنه أن لا يؤدي أي انفاق الى بناء فعلي، كانت هذه الاموال العامة المخصصة للاستهلاك والاستثمار تتسرب الى فئات المجتمع، وذلك تبعا لطبيعة الدولة. وانا اذكرُ، في المادة (المقالة أو الورقة المقدمَّة للمنتدى)، اكثر من 11 قناة تتسرب من خلالها الأموال العامة، او موازنة البلاد، بعيداً عن اغراضها المقصودة اصلا. ومن ضمن هذه القنوات رواتب الموظفين والجنود "الفضائيين". وكمثال على ذلك: لو كان لدينا 200 الف موظف، ويأخذ كل واحد منهم مليون دينار في الشهر الواحد، فسيتسرّب حوالي ملياري دولار، وهو مبلغ كبير، وخاصةً حين ننظر إليه كجزء من مدخرات البلاد او كجزء من الفائض الذي يمكن ان يُخصص للبناء او للاستثمار. التسرب الآخر يحدث من خلال عدم تسديد الايجارات للعقارات الحكومية، احد الاقتصاديين، وهو الدكتور همّام الشماع، يذكر ان ما لا يُسدد من ايجارات العقارات الحكومية تصل قيمته الى حوالي 2 مليار دولار في السنة. كما يشير هو نفسه الى ان الاحزاب الحاكمة لا تسدد اثمان ما تشتريه من المنتوجات النفطية، وهو يقّدر قيمة ذلك بحدود ترليون دينار في الشهر، أو حوالي 12 مليار دولار سنوياً على السعر القديم للدولار. المصدر الآخر للتسرب، وهو مشهور جدا، هو ما يتسرب من أموال من خلال بيع العملة وخروجها الى الخارج. تهريب النفط، الذي لا ينتهي الحديث عنه، هو قناة أو مصدر آخر معروف ايضا. المصدر الكبير الآخر هو الضرائب والكمارك: عدم تسديد إلا نسبة محدودة منها لأغراض تمويل الميزانية. هذه 6 او 7 من بين القنوات التي اذكرُها، وهي بالتأكيد لا تمثل كل شيء، وربما لا تمثل حتى القنوات الاساسية التي من خلالها تتسرب اموال الدولة المخصصة أصلا للاستثمار والتشغيل، بعيداً عن مقاصدها.

في ضوء كل هذه التسريبات - القنوات، واستنادا الى المصادر التي رجعتُ اليها، وجدت ان الفئات الميسورة الآن او بعد 2003 تتمثل، أولاً، في الرئاسات الثلاث وملاكِها، ومن ثم ذوي الدرجات الخاصة والموظفين من الدرجة الرابعة حتى الدرجة الاولى، وكذلك منتسبي الدفاع والأمن. هذه الفئة تتمتع بمستوى معيشي مرموق، ونفوذ اجتماعي في الوقت نفسه

مقارنة بباقي فئات المجتمع، ويتسرب إليها جزء هام من أموال الدولة. الفئة الكبيرة التالية هي ما اسميته التجار، ولكن بالمعنى الواسع لان التجار في العراق لديهم صلات بالمقاولين والمجهزين، والى حد ما الصناعيين والزراعيين. بمعنى ان اكثر من استفاد هم فئة التجار وصلاتهم بالمقاولين والمجهزين والى حد ما، اذا جاز القول، ما نسميه البرجوازية الصناعية والزراعية. الدكتور صالح ياسر، في احدى مقالاته، يقول، في اطار العلاقة بين هذه الفئات، ان هناك كبتا في مجال امتداد أو انتقال اموال التجار وغيرهم الى القطاع الانتاجي الزراعي والصناعي. في ورقتي، أشرتُ الى هذه النقطة، ولكنّي حاولتُ تفسيرها (الكبت أو عدم الانتقال) بأن رأس المال الخاص، بالظروف العراقية بعد 2003، لا يتوجه الى القطاعين الزراعي او الصناعي لا لعدم اهميتها او عدم ايمانه بذلك بل لانه يفتقد احساسه بوجود جدوى اقتصادية في هذين القطاعين مقارنة بباقي القطاعات. بعبارة أخرى اكثر تحديدا: في ظروف البلاد الحالية، المنتِج العراقي في الصناعة والزراعة تكاليفه عالية فلا يستطيع ان يجاري المنتِج الاجنبي بكلفته الواطئة، وبالتالي سعره الواطئ. تكاليف الانتاج لدينا عالية لاسباب معروفة، لانعدام الامان ولتكاليف الطاقة، وغير ذلك، اضافة الى ان سعر الصرف كان غير محابٍ للاستثمار الانتاجي، لان سعر الدينار كان يجعل من الافضل ان نستورد.

هذه، باختصار، هي اللوحة التي حاولتُ ان ارسمها بالنسبة الى الفئات الميسورة في مجتمعنا العراقي حاليا، والتي تعتمد على قنوات التسريب التي ذكرتها، والتي بدورها تعود الى إنفاقات الدولة، وخاصة الانفاق الاستثماري.

الدولتية وأثرها في التحولات الاجتماعية والطبقية

وبعد ذلك اعاد الدكتور صالح ترحيبه بالدكتور حيدر سعيد، قائلا:

من المعروف أن إعادة الإنتاج الموسع للطبقات الاجتماعية (وللعلاقات الاجتماعية) تستلزم عمليتين لا يمكن تواجد إحداهما بمعزل عن الأخرى، بل هما في وحدة جدلية: الاولى، هي عملية إعادة إنتاج موسعة للمراكز التي يحتلها الوسطاء. والثانية، هي عملية إعادة إنتاج للوسطاء أنفسهم وتوزيعهم على هذه المراكز.

تتحكم مشكلات التمثيل والتوسط في ما يسمى بـ "الاستقلال النسبي" للدولة.

إن معنى هذه العبارة (الاستقلال النسبي للدولة) هو أن سياستها تمثل محصلة الممارسة السياسية العملية، والتي يتعين عليها وباستمرار أن توفق بين مصالح مجموعات مختلفة ومتصارعة، والتي تكون شديدة التأثر بتاريخ طويل لمثل هذه التسويات والآيديولوجيات التي تقف وراءها. ولذلك فإن سياسة الدولة ليست بالضرورة عقلانية بأي معنى من المعاني البسيطة.

والسؤال المطروح هنا هو: ما أثر الدولتية [مركزية الدولة] Etatism على التحولات الاجتماعية والطبقية في العراق مع اشارة خاصة الى الطبقة الوسطى باعتبارها قاطرة النمو؟

د.حيدر سعيد: اعتقد ان الموضوع المطروح شديد التعقيد. ليس من السهل الخوض فيه لعدة اسباب. فمن جهة نحن نتحدث عن مجموعة من الاشكالات النظرية التي لا تزال خاضعة للجدل، رغم السجال الذي حدث في هذه المجال. هل نستطيع التحدث عن تشكيل طبقي كمجتمع مثل المجتمع العراقي مناظر للتشكيل الطبقي في المجتمعات الاوربية.

هناك جملة من الإشكاليات النظرية، في تقديري نحن لم ندرس المجتمع العراقي ميدانيا، خصوصا في الفترة الاخيرة. أنا ساهمت في كتابة تقرير التنمية البشرية في المرتين، والذي صدر عن بيت الحكمة، ومركز الاحصاء لديه ارقام مهمة جدا، ولكن في تقديري لا نزال ـ كباحثين - ربما لم نستعمل هذه الارقام. الصعوبة الثالثة اننا جميعا نتصور ان المجتمع العراقي لا يزال في طور انتقالي. يعني لا نستطيع ان نقول ان هذه المرحلة التي وصلها المجتمع العراقي هي مرحلة الاستقرار، وبالتالي يصبح قابلا للدراسة. نحن لا نزال نعتقد ان هذا كله مخاض سينتج شيئا، وبالتالي لا نستطيع ان نؤسس على هذه الانتقالية ان صح التعبير. حنا بطاطو يقول ان العراق ما قبل الحديث فيه التراتبية الاجتماعية، تقوم على اساس المكانة وليس على أساس الطبقة. وهو يعتقد ان انتقال العراق الى الحداثة حتى ما قبل الدولة يعني ربما من اواخر القرن التاسع عشر، حينما ارتبط العراق بالسوق الرأسمالية العالمية ثم اتت الدولة الحديثة بالجهاز البيروقراطي الموسع الذي نشأ. وهذه كلها تحولات ضخمة. ويعتقد (بطاطو) انه نشأت طبقة في العراق مع نشوء فكرة الملكية. هو يعتقد ان طبقات العراق دخلت فيها روح مجموعات المكانة التقليدية. بمعنى انه لن نستطيع ان ننتج طبقة بالمعنى الحديث. واعتقد ان ظهور الدولة الحديثة هو اهم معطى يشهده المجتمع العراقي. واقف عند مجموعة تحولات خاصة في علاقة الدولة بالاقتصاد. نحن نتحدث عن رحلة طويلة بدءا من ظهور اول انتاج للنفط اواخر العشرينيات من القرن الماضي، ثم بما عرف باتفاقية المناصفة في الخمسينيات، ثم رحلة التأميم الصعبة من بداية الستينيات الى السبعينيات، ثم الى ما بات يعرف منذ سنة 70 ما يسميه الباحث الايراني المهدوي بـ "الاقتصاد الريعي". واعتقد ان هذا اهم عامل. سنستعمل المفهوم الذي استخدمه الدكتور عصام الخفاجي مبكرا في السبعينيات لوصف الحالة العراقية، حينما قال نحن امام رأسمالية دولة، طبعا رأسمالية الدولة هو مفهوم وليس من نتاج الدكتور عصام؛ فالمفهوم المذكور ابكر طبعا لكن د.عصام هو من استعمله في السبعينيات لوصف الحالة العراقية. بمعنى اننا امام

نظام كان يسمي نفسه اشتراكيا، لكن في الحقيقة امام نظام رأسمالي، وسائل الانتاج فيه مملوكة من قبل الدولة. وأعتقد ان هذه النقطة هي التي يجب أن ننطلق منها لتحليل الحالة الراهنة. انا اعتقد انه خلال السنوات السابقة تدرجنا من تحليل خصوصية التشكيل الطبقي في العراق ووصلنا الى ما سمي برأسمالية الدولة. وانا استعمل مفهوم الدولتية. والدولتية في تقديري هي مفهوم اوسع من رأسمالية الدولية، لانه ليس مفهوما اقتصاديا فقط. الدولتية مفهوم مرتبط بمركزية الدولة والقطاع العام الواسع، ولكن يرافق ايمانا مجتمعيا بمركزية الدولة. وهذا عامل اساسي في تحديد الحراك المجتمعي. وأود هنا ان طرح مجموعة من الاسئلة. السؤال الذي يشغلني هو: هل يسمح هذا النظام بتشكيلات طبقية ام لا. انا اعتقد أن ما يجري في ظل هذا النظام هو محاولة التقرب او الافادة من الريع الذي تسيطر عليه وتديره الدولة، بالتالي نحن نتحدث عن فئة مرتبطة بنيويا بالدولة، بوصفها مالكة لوسائل الانتاج. وسأستعمل هنا اجرائيا تعبير الطبقة الوسطى، وكما قلت هناك الكثير من الباحثين يعترضون على مفهوم الطبقة الوسطى، ويعتبرونه مفهوما غير تحليلي لا يفسر شيئا. لكن انا اعتقد اننا اذا استعملناه بهذا الشكل، وهي الفئة المرتبطة بنيويا بالدولة، وتحاول الافادة من الريع الذي تديره وتشرف عليه الدولة؛ فنحن نستطيع ان نتحدث عن نشوء طبقة وسطى بهذا المعنى في الاقل منذ الخمسينيات. هنا سنتحدث عن علاقة الدولة وسيطرتها على عوائد النفط، بدءا من الخمسينيات منذ ما عرف باتفاقيات المناصفة ثم عمليات التأميم التي وصفتها بعملية طويلة تنتهي بالسبعينيات، عندما حصل ما يسمى بالتأميم الشامل. هذه الطبقة بما انها مرتبطة بالدولة فإنها، في تقديري، تقوى وتضعف مع قوة الدولة وضعفها، فربما نمت هذه الطبقة في الخمسينيات، وربما بدأت تضعف اواخر الثمانينات حينما بدأت الدولة تضعف بسبب اعباء الحرب مع ايران، وبعض الاجراءات الليبرالية التي اتخذت في ذلك الوقت في اطار ما سمي بالثورة الادارية سنة 1987 والتي كانت عمليا واحدا من مؤشرات ضعف الدولة وضعف الطبقة الوسطى في العراق.

الفلسفة التي جاء بها الامريكان للعراق منذ 2003، اعتقد انهم اتوا بفلسفة نيوليبرالية للعراق، كان هناك ترويج لفكرة الاقتصاد السياسي للاستبداد. بالتالي ليصل المجتمع العراقي الى الديمقراطية، يجب اضعاف الدولة لصالح مجتمع قوي، وصولا الى ما يسمى في الادبيات النيوليبرالية "دولة الحد الادنى". طبعا لم تنجح هذه الفلسفة بسبب المقاومة من النخب السياسية العراقية. في النهاية نحن لم ننته الى دولة الحد الادنى، بل بالعكس جرى بشكل منهجي، على الاقل في حقبة رئيس الوزراء نوري المالكي، توسيع منهجي للقطاع العام. توسيع في التوظيف وصلنا الى ارقام على الاقل ثلاثة اضعاف نسبة الموظفين. أي الى 6 او 7 ملايين شخص يتسلمون مرتبات من الدولة، سواء موظفين او متعاقدين او متقاعدين او منتسبين للقوى الامنية. وهذا واحد من الارقام العالية جدا في العالم. المنظمات الدولية والامم المتحدة تحسب نسبة العائلة في مجتمع كالمجتمع العراقي بـ 6 افراد

كمعدل. إذا هؤلاء الـ 6 او 7 ملايين، كل واحد منهم لديه عائلة من 6 افراد، فهذا يعني ان كل فرد في المجتمع، يتسلم مرتبا من الدولة. في تقديري ان هذا كان واحدا من ادوات السيطرة على المجتمع العراقي. الازمة حدثت مع ازمة الفساد في 2008 ثم انخفاض اسعار النفط حينها بدأت الدولة تضعف مرة اخرى الى درجة عدم القدرة على تسديد المرتبات، وضعفت الطبقة التي نمت ما بعد 2003.

آخر نقطة، هذا الوضع في تقديري، حين بدأت الدولة تضعف بسبب انحدار عوائد النفط، في تقديري ان الحركة الاحتجاجية التي بدأت منذ 2010 وصولا الى ثورة تشرين في 2019، في تقديري ان الحركة الاحتجاجية في 2010 كانت اول رد فعل مباشر على انخفاض اسعار النفط، وضعف قدرة الدولة. وانا كتبتُ بحثا كاملا في هذا الاتجاه. وباعتقادي ان الحركة الاحتجاجية تنشط حين تضعف الدولة. اريد هنا ان اطرح سؤالا نظريا: أليست هناك تفاوتات ضمن هذه الفئة؟ نحن نتحدث عن بلد نسبة التفاوت بالمرتبات تصل الى حوالي 300 ضعف بين ادنى واعلى مرتب في العراق. وهذا يقودني الى سؤال آخر: هل هذه التفاوتات تنتج طبقة ام لا؟ جوابي انها لا تنتج طبقة لان الاختلاف ليس بعلاقة ملكية وسائل الانتاج وثانيا ليس هناك تضامن او وعي طبقي. لقد قلت سابقا ان ثورة 2019 صارت ثورة بسبب دخول الطبقة الوسطى المتوسطة والعليا لها. يعني انها لم تعد مطلبية لأنها اتت من خارج الفئات الوسطى، ولا هي كانت مطالب للفئات الوسطى الدنيا. واذا كنا نذكر اول مظاهرة في ثورة تشرين، كانت لحملة الشهادات، وكانوا يطالبون بالتوظيف. واعتقد ان هذا هو اساس الثورة.

"البروليتاريا الرثة" تهيمن على موارد وإدارة الاقتصاد الوطني العراقي

بعد ذلك وجّه د. صالح سؤاله للدكتور سناء عبد القادر مصطفى قائلا:

أرحب بك مرة أخرى اخي العزيز د. سناء. البروليتاريا الرثة ظاهرة مهمة، لما تركته من ارتهان وآثار ومخاطر على التطور، بسبب طبيعة وخصوصيات نشوئها.

وسؤالنا هنا زميلي العزيز د. سناء هو: ما هي العلامات المميزة للبروليتاريا الرثة في بلادنا وكيف استطاعت ان تهيمن على موارد وادارة الاقتصاد الوطني؟ ونأمل ان تركز ايضا على الآليات التي اعتمدتها "البروليتاريا الرثة" والتي مكنتها من الاستحواذ على جزء كبير من الريع النفطي في العراق؟

د. سناء عبد القادر مصطفى: اول ما ابدأ بتعريف البروليتاريا الرثة (Lumpenproletariat)، فحسب تعريف (كارل ماركس) أنها الفئات المعدمة والفقيرة التي انفصلت عن طبقتها الاصلية وتشمل المشردين والافاقين والصعاليك والمجرمين وبقية الاشخاص الذين لا ينتمون الى طبقة اجتماعية محددة، ومكانتها في قاع المجتمع. وفي اكثر الأحيان أن البروليتاري الرث هو الشخص الذي لا يملك اي دخل خاص

به كالراتب الشهري او يحصل على مساعدة اجتماعية من الدولة بأي شكل من الاشكال. وكما عرفها (لينين) فإنها تشمل الفئات المنفصلة او الخارجة عن طبقتها، وفي تناقض مع المجتمع وهم الافاقون والصعاليك والمعدمون والمجرمون والعاهرات وما اشبه ذلك. وحصل مصطلح البروليتاريا الرثة على انتشار واسع في ظروف تطور الرأسمالية التي تجندهم من مختلف الطبقات حسب التعريف اللينيني حيث تتميز بعدم قدرتها على التنظيم السياسي والصراع الطبقي، ولكنها تميل الى المغامرة من اجل الاستيلاء على السلطة بالتحالف مع الفئات البرجوازية الصغيرة. ومثال على ذلك انقلاب 1963 في العراق وتأسيس الحرس القومي الذي يعتبر احد تنظيمات البروليتاريا الرثة التي صالت وجالت في العراق من قتل وتعذيب المعارضين والتحرش الجنسي واغتصاب النساء وكذلك انقلابا 17 و30 تموز 1968 اللذين جاءا بحزب البعث الى السلطة، وبالاضافة الى ذلك الفئات المغامرة التي جاءت بمعية الاحتلال الامريكي للعراق في ربيع العام 2003. وتشكل البروليتاريا الرثة الاساس الاجتماعي للفوضوية التي من اهم منظريها من البرجوازية الصغيرة هو الروسي (باكونين) و(ف. فيتلينغ) الالماني اللذان نظرا الى الفوضوية بواسطة هدم سلطة الدولة وتدهورها عن طريق الاضرابات العفوية الهدامة. وتستخدم البرجوازية الفلاحين مع البروليتاريا الرثة والفئات الفاشية في كسر الاضرابات العمالية المطالبة بحقوقها والقضاء على البناء الرأسمالي. ويمكن وصف البروليتاريا الرثة بالاضافة الى ما ذكر اعلاه بأنها تلك الفئات التي تقع دون او تحت البروليتاريا من حيث السلم الاجتماعي، ولا يحظون بأي نوع من انواع الوعي الطبقي، ولا يمكن الاستفادة منهم في العملية الانتاجية، ولا حتى اجتماعيا في النضال الطبقي لانهم يشكلون عائقا امام تطور المجتمع، كما هو الحال في العراق. وهم حثالة الفئات الدنيا من المجتمع فأنها قد تنجرف هنا وهناك في الحركة الثورية بفعل ثورة بروليتارية لكنها بحكم وضعها الحياتي المعيشي تصبح اكثر استعدادا لبيع نفسها لمكائد الفئات الرجعية كما وصفها (كارل ماركس) و(فريدريك انجلز) في "بيان الحزب الشيوعي" الصادر في 21 شباط سنة 1848. وهناك تسميات اخرى للبروليتاريا الرثة على سبيل المثال لا الحصر: الفئات الدنيا او فئات القعر الاجتماعي او جماهير نصف البروليتاريا او شبه البروليتاريا او حثالة البروليتاريا او الغوغائيين او الرعاع. وهذه مفاهيم مرادفة للبروليتاريا الرثة التي تسميها الادبيات الماركسية اللينينة وجميعها تعني واحدا هي البروليتاريا الرثة.

ويشرح (فرانز عمر فانون) Franz Omar Fanon (1925 - 1961) الأسباب الرئيسة لتكوين تلك الفئات الاجتماعية، إذ يكتب "أن الفلاحين الذين لا يملكون أرضا والذين يطرح عليهم تزايد السكان مشكلة لا سبيل لحلها، يهجرون الريف وينزحون الى المدن، فتراهم يتكدسون في أكواخ الصفيح ويحاولون أن يتسربوا الى الموانئ والمدن التي أوجدها الاستعمار فيشكلون هناك البروليتاريا الرثة".

ولدينا مثال على هجرة الفلاحين من الناصرية والبصرة والعمارة الى بغداد في خمسينيات القرن الماضي، وتحديدا ما يسمى بمدينة الثورة، او ما يسمى وراء السدة او الشاكرية كذلك.

انتقل الى المسألة الاخرى. قامت البروليتاريا الرثة في العراق بتأسيس جامعات أهلية معترف بها من قبل وزارة التعليم العالي العراقية، بعد ان نالت البروليتاريا الرثة شهادات الدكتوراه في مختلف الاختصاصات، من خلال شراء الشهادات المزورة من سوق مريدي في مدينة الثورة في بغداد او من خلال تقديم الرشوات الى الجامعات المعترف بها: جامعتا بغداد والبصرة وغيرهما، او الى القائمين على وزارة التعليم العالي، كما هو الحال في زمن احد الوزراء عن طريق شراء الذمم او بالترغيب او بالتهديد. ولدينا امثلة في وزارة التعليم العالي في هذا المجال، وبهذا نصل الى الواقع العملي الذي يكشف لنا بأن الاقتصاد الوطني العراقي يدار معظمه من قبل البروليتاريا الرثة، التي تملك ثقلا نوعيا في الحكومة العراقية، وفي مجلس النواب واللجان الاقتصادية التابعة للاحزاب السياسية التي تستحوذ على عقود الوزارات التابعة لها، بالاضافة الى المراكز الادارية المهمة في اجهزة الدولة العراقية، التي يجلس فيها اعضاء هذه الاحزاب وتابعوهم وحتى في الجيش العراقي والشرطة الاتحادية والحشد الشعبي.

يمتد الاخطبوط المافيوي للبروليتاريا الرثة بقدراته المالية الى سوق البورصة العراقي ومزاد العملة في البنك المركزي العراقي وشركات الاستيراد والتصدير وشركات البناء وبيع العقارات والموانئ البحرية وحتى البرية. هذا وتملك البروليتاريا الرثة مكان قدم وسط الزعامات الدينية والعشائرية وتملك مليشياتها المسلحة المتوسطة والخفيفة وحتى الثقيلة كما في البصرة الدبابات والمدرعات، وتمد تلك الزعامات بالاسلحة والاموال الطائلة من أجل كسب ودها واسنادها. ولهذا السبب قاموا بتفعيل قانون العشائر العراقي الذي كان سائدا قبل ثورة 14 تموز 1958، الى حياة العراق الاجتماعية، وانتشر بشكل واسع الفصل العشائري السيئ الصيت، الذي استغلته البروليتاريا الرثة لصالحها. وخير مثال على ذلك النزاعات المسلحة بين العشائر في وسط وجنوب العراق، التي اخذت تزداد في السنوات الخمسة الاخيرة.

لقد تمكنت البروليتاريا الرثة من الاستحواذ على جزء كبير من الريع النفطي في العراق من خلال وزاراتها السيادية بشكل مباشر او غير مباشر، وتستثمر ثروة الشعب العراقي المنهوبة في خارج العراق في دول الجوار او

في الدول الاوربية والولايات المتحدة الامريكية، سواء بواسطة الطريق الرسمي القانوني عبر المصارف الرسمية او عبر غسيل الاموال. والانكى من ذلك ان مصارف دول الجوار تستقبل الاموال دون السؤال عن مصدرها، كما هو الحال في ايران والاردن والكويت والامارات العربية المتحدة وقطر ولبنان وتركيا وبريطانيا، وذلك من خلال التعاون مع الجهات المافيوية الموجودة في تلك الدول، ضاربين بعرض الحائط جميع القوانين الدولية الخاصة بغسيل الاموال ومثال على ذلك، 70 % من رأس مال بنك الاسكان في الاردن هو من الاموال العراقية التي غسلت.

ولم تتوانَ البروليتاريا الرثة عن استخدام اجهزة الاعلام الرسمية وغير الرسمية التابعة لها من اجل ترسيخ موقعها السلطوي من خلال شراء صحفيين وكتاب واعلاميين وانصاف المثقفين يدبجون لها المقالات في الصحف اليومية والمجلات والبرامج الاذاعية والتلفزيونية، ويكيلون المديح لها على طريقة وعاظ السلاطين، وهي بدورها تغدق عليهم من أموال السحت الحرام. وبهذا الشكل انخفض المستوى الثقافي في البلاد الى مستوى الحضيض. أما المشاكل اليومية للشعب العراقي التي يعاني منها منذ العام 2003 جراء تدهور الخدمات الصحية والبلدية وقطاع الكهرباء لعدة سنوات والبطالة ونقص المياه وانتشار الامية بسبب تسرب التلاميذ من المدارس والدراسة ونقص عدد المدراس الذي تجاوز الألفين مدرسة، بالإضافة الى التفجيرات اليومية وسوء الامن والنظام. والقائمة تطول لأن البروليتاريا الرثة لا تفكر ولا تشغل حتى بالها بإيجاد حل لهذه المسألة، لأنها لا تدخل ضمن مشروعها الذي يتخلص في سلب ونهب الشعب العراقي.

ومن الصفات الاخرى للبروليتاريا الرثة في العراق أنها تغلف نفسها بغلاف وهالة دينية وتستخدم الدين غطاء لها لأنها في الاساس بعيدة كل البعد عن القيم الاخلاقية، حتى تستغل الناس البسطاء وتستخدمهم في مشاريعها اللاانسانية هذا من جهة. ومن جهة اخرى تقوم بمسخ العلاقات الاجتماعية الرصينة وادخال علاقات اجتماعية تقوم على المصلحة الذاتية وحب الذات والانانية وكذلك تقوم بإفراغ المجتمع من الخصال الجيدة لترسم لها "خصائل" النصب والاحتيال والتنكيل بالغير واتهام الغير بتهم كيدية تؤدي بهم الى السجن او تقوم بتصفيتهم جسديا كما يحدث الآن في العراق.

ان جميع البرامج التنموية للاقتصاد الوطني العراقي التي تضعها الحكومة لا تدخل في عداد مصلحة البروليتاريا الرثة، وانما تقوم الاخيرة بعرقلة تنفيذها وهذا ما نراه في الواقع العملي فالقطاع الصناعي العام والخاص الوطني الذي يكمن هدفه في تنمية وتطور الاقتصاد الوطني العراقي، ويقلل من استيراد السلع من الخارج، لا يلبي مصالح البروليتاريا الرثة التي تجني المبالغ الطائلة من عمليات الاستيراد. ولهذا تراها تدعم الاخير اي الاستيراد. وستحاول بكل جهدها عرقلة خطة التنمية الوطنية للفترة الزمنية 2018 الى 2022، الصادرة من وزارة التخطيط،

لأنها وضعت من قبل كوادر مختصة في الوزارة، وبمشاركة كافة الوزارات والجهات الرسمية وغير الرسمية، وكوادر من القطاع الخاص ومنظمات المجتمع المدني. ذلك لان البروليتاريا الرثة لا تؤمن بالتخطيط العلمي مهما كان نوعه، قصيرا كان او متوسطا او بعيد المدى لاقتصاد ما، ولا بخطط تنموية استراتيجية تمتد لسنوات طويلة. فإلى العام 2003 كما هو واضح ومعروف لدينا من خطط وزارة التخطيط العراقية. جل ما تؤمن به البروليتاريا الرثة ويهمها هو الحصول على ربح بأسرع وقت وبأسهل طريقة، وهي نفس طريقة اللصوص وقطاعي الطرق والشقاوات والبلطجية وما شاكل ذلك. ان كل ما يعنيها هو ان يستمر الاقتصاد العراق ريعيا واستهلاكيا حتى تحقق مآربها وتكون من ضمن النخب الحاكمة وما الانتخابات البرلمانية الاخيرة في العام 2018، الا خير دليل على سيطرة البروليتاريا الرثة على مقاليد الحكم في العراق والاقتصاد العراقي من خلال شراء الاصوات الانتخابية الى شراء المقاعد النيابية وآخرها مفهوم ومصطلح "الكتلة الاكبر" والذي هو خطأ من الناحية اللغوية وقواعد اللغة العربية، وهذا دليل على أميّة الكتل السياسية، وعدم إلمامها بأبسط قواعد اللغة الأم، اذ يجب ان تكون الكتلة النيابية الاكثر عددا. وهنا تتجلى اولى سمات سيطرة البروليتاريا الرثة على مقاليد الحكم في العراق، وعدم الاتفاق حول الرئيس ونوابه، ومن ثم رئاسة الوزراء، وهذا ما نلاحظه من خلال عادل عبد المهدي ومحمد توفيق علاوي.. الخ.

ونتيجة لكل ما قيل اعلاه يدور اقتصاد العراق والحكومة في فلك وحلقة مفرغة من المشاكل وفي جملة من المشاكل المتنوعة التي ليس من السهولة حلها، وفي مقدمتها أزمة اقتصادية اجتماعية وصحية مركبة وضخمة. وخير مثال على ذلك هو انتفاضة تشرين سنة 2019، في وسط وجنوب العراق ومظاهرات عارمة، أدت الى استشهاد 800 شهيد، واكثر من 25 الف جريح ومعاق. ومن جملة أسباب انتفاضة تشرين 2019 هو سوء الخدمات الصحيّة والبلدية والبطالة والبنى التحتية وعدم توفر الماء الصالح للشرب وانقطاع الكهرباء لساعات طويلة في اليوم. هذا ما جنته البروليتاريا الرثة، ومن ثم الهجوم على المنتفضين، واغتيال الكثير من الناشطين السياسيين وحتى ظاهرة الموظفين الفضائيين هي كذلك ظاهرة قامت بها البروليتاريا الرثة، وآخر شيء هو تصريح وزير المالية في لقاء متلفز في يوم الجمعة المصادف 6 /2 /2021 حيث قال: "نمتلك ما يكفي من الأدلة عن مزاد العملة في البنك المركزي، والذي كان سابقاً جزءاً مهماً في نشر الفساد. وهناك كتل سياسية كبرى متورطة به، وتتخذ من أسماء وشخصيات مشاركة في المزاد واجهة لها". واضاف "لا أملك الحصانة القضائية وحتى إجراءات الحماية القانونية غير كافية لكشف هذه الأسماء"، مشيرا الى ان "الفساد قلّ كثيرا بسبب قلة الموارد المالية في التعيينات وغيرها، لكنه يبقى متجذراً بسبب تراكمات الاعوام الماضية". كل هذا بسبب البروليتاريا الرثة.

السوسيولوجي العراقي في مواجهة أسئلة البنية الطبقية في العراق

د.صالح: أرحّب بك مرة اخرى عزيزي د.علاء.

احد الاغراض الاساسية من علم الاجتماع في تحليل وتفسير قيام المجتمع وبناه الطبقية وما يطرحه تطورها من اسئلة، تحتاج الى تفسير، عدة قضايا من بينها السؤال المهم وهو: لماذا اتخذت البنية الطبقية لمجتمع ما في لحظة محددة هذه الوجهة دون غيرها. وهذا يتطلب دراسة الروابط والصلات بين مختلف البنى والعلاقات الاجتماعية في علاقتها ببعضها البعض، وعلاقة الاجزاء بالكل الاجتماعي. وثمة العديد من المناهج والمقاربات السوسيولوجية لن ننشغل بتفاصيلها هنا، بل سنركز سؤالنا على الاتي:

ما هو الدور الذي يمكن أن يلعبه السوسيولوجي العراقي في مواجهة اسئلة البنية الطبقية في العراق؟

د. علاء جواد كاظم: بداية اقدم شكري وتقديري لرئيس تحرير واسرة مجلة (الثقافة الجديدة) لهذه الدعوة الرائعة، وثانيا سعيد وفخور انني التقي هذه العقول الجميلة والرائعة .....

مداخلتي ستكون حول: "السوسيولوجي العراقي في مواجهة سؤلات وتحديات عالم ومجتمع متغير".

سأبين من خلالها سريعا ـ اشكاليات ـ الباحث السوسيولوجي في مواجهة تحديات بنية طبقية متسارعة في تحولاتها الاجتماعية في العراق. وبتصوري ان هذا الموضوع مهم لأننا لا يمكن مناقشة اشكالية مجتمع، ولا معضلات بنيته الطبقية، ما لم نحسم، وبشكل نهائي وعلمي ومعرفي طبيعة وماهية ومعنى كل المقولات، فضلا عن بناء وتقديم تصور منهجي وعلمي عن المجتمع وانسانه وقضاياه. وهذه كلها مهام السوسيولوجي بالعمل المشترك مع كل الباحثين في العلوم الانسانية.

بداية، وسريعا جدا سأتذكر واياكم مقولة مهمة تنسب لسان سيمون قائلا فيها لتلميذه أوكست كونت: "قد يسيطر الربان على الزورق او المركب لكنه لا يسيطر على البحر، كما ان مجرد استمرار هذا الزورق بالعوم لا يعني انه يسيطر على حركة الماء"!

تنطبق هذه المقولة على علم الاجتماع وباحثيه وبشدة. الربان هو الباحث السوسيولوجي، والبحر الهائج هو المجتمع وتحولاته الكبرى والقائل هو مؤسس السوسيولوجيا الحقيقية (سيمون)، والتلميذ هو (كونت) السوسيولوجي المغرق بذاتية لا تصدق، والذي احال علم الاجتماع الى علم محافظ رجعي، نسبي ذاتي ..

طيب من هو السوسيولوجي هنا؟ هو:

كارل ماركس، وسان سيمون ، وكونت ودوركايم وماكس فيبر، وبروديو، وهابرماس والوردي ود.فالح عبد الجبار.. الخ، نجح بعضهم وفشل الكثير منهم.. وهذا ما تخبرنا به السوسيولوجيا العراقية الفقيرة بكل معنى الكلمة، بعد ان غيبتها دكتاتورية مقيتة، ابتلعتها لمدة نصف قرن استمرارا الى اليوم. ولذا اسأل نفسي دائما ماذا فعلنا نحن باحثي العلوم الانسانية والاجتماعية؟ وماذا قدمنا لانفسنا وللناس وللمجتمع؟!

اما المجتمع فهو البحر في تحولاته. المجتمع المحكوم بالصراعات الطبقية والمصالح، واحكام الايديولوجيا الرجعية والتقدمية على الناس وتحكمها بهم. المجتمع هو تاريخ مليء بالصراعات والدم، هو احتلال، ولصوص وانتهازيون وانتلجنسيا نرجسية، وطبقات فارغة، ثورات وانتفاضات كبرى، وعجلة اغتيالات بدأت منذ نصف قرن ولم تنته، هو حركة "ذات" غير مكتملة تحلم بالوصول الى بر الأمان... الخ.

بتصوري، الان كنتيجة اولى ان الربان العراقي يقف عاجزا مذهولا خائفا مفلسا، امام حركة المجتمع وتحولاته وجماهيره، وعن تفسيره وفهمه وعن فهم الاسس النظرية والمنهجية التي يجب ان ينطلق منها... ولهذا السبب سأقول اننا بحاجة ماسة الى سوسيولوجيا جديدة (حقيقية). هذه الكلمة (حقيقي) اكثر أهمية من السوسيولوجيا نفسها، تنقذ ما تبقى. بالطبع انا واقعي جدا ولا اقول بحاجتنا الى علم اجتماع جديد، بل الى تصور جديد او فهم عميق وحقيقي للحياة والعالم.. او سنبقى نراوح في نفس المكان لعشرات السنين الاخرى.

دعوني الآن بالتحديد ان استند الى واحدة من الاشارات الكبيرة التي تقدم بها اوكست كونت قبل 200 عام عندما قال في كتابه (دروس في الفلسفة الوضعية) في الجزء الرابع: إن "الازمات الاجتماعية والسياسية عقلانية بالدرجة الاولى، ويجب ان يكون دواؤها ذا طبيعة عقلية، فالأفكار هي التي تحكم وتبلبل العالم، ونظام الافكار لدى الانسان في مجتمع معين يسبق ويلحق نظام الدولة والمجتمع"، طبعا لدي اعتراضات كبيرة على هذه الرؤية المثالية (البرجوازية) لكنها تتضمن ما نحتاج اليه هذه الفترة. نحن بأمس الحاجة الى افكار عظيمة، تقود الحياة الاجتماعية، ويستند اليها التحول الاجتماعي.

ولذا لا يمكننا الخروج بنتيجة واقعية ومنطقية بدون عقل سوسيولوجي عظيم يمسك بإخلاص بحركة الحياة ومصائر الناس ويقدم تصورا عظيما، وليس سوسيولوجيا سفسطائيا، فارغا و"كلاوجي" ..! نحن بحاجة الى عقل مجنون عظيم مثل عقل كارل ماركس وسيمون، وفوريه، وفوكو ودريدا وبورديو.

الان دعني اقسم سريعا الباحثين السوسيولوجيين المشتغلين في العلوم الانسانية الى نوعين :

1. السوسيولوجي الملتصق بالنظرية، والذي يعتقد ان هذه النظرية هي كل ما يملكه كسوسيولوجي من وسائل وادوات تفكير، والذي يرى ان المجتمع نظام نظري، لا يمكن ان يتغير، طالما ان نظريته ثابتة ستايتيكية، لا يحيد عنها، ولا يحلم لا بمجتمع جديد، ولا حتى انسان جديد، ويعتقد ان الحياة قد توقفت هاهنا (وهذا السوسيولوجي التقليدي).

2. السوسيولوجي الملتصق بنفسه وأهوائه هو، النرجسي، الانتهازي، الذي يؤمن ان "المجتمع)" لا يستحق الدراسة ما دام انه قد تخارج على تصوراته، وان لا أمل بالجماهير، ولا بقوانين التطور. وبالتالي لا يحلم لا بإنسان جديد ولا بمجتمع جديد، يفكر بما يعلي من نرجسيته وانظمته الذاتية واللغوية (وهذا هو السوسيولوجي الانتهازي) الحديث.

3. السوسيولوجي الحقيقي، الملتصق بمجتمعه وبتحولات هذا المجتمع وبالحقيقة في حالات ثباتها، وفي تحولاتها العميقة وحتى في تشظيها، الملتصق بالجماهير، بسيكولوجيا وثقافة وهزائم وانكسارات وانتصارات هذه الجماهير، بالمجتمع كما سيكون وليس بالمجتمع كما هو الآن.. الملتصق بالنظرية والمجتمع ونفسه وموقفه هو من الحياة. السوسويولوجي الحقيقي هو الذي يعيش في تصوراته التقدمية عن مجتمع قادم، الذي يؤمن بالناس وافعالهم وتصوراتهم.

دعني أبين سريعا ان الباحث الحقيقي الذي افكر به الآن، هو ذلك الذي يدرك وبعمق شديد خارطة البنية الطبقية في العراق، ويدرك اننا لسنا امام مجتمع طبقي، لكي نقسمه الى طبقتين كلاسيكيتين (بروليتاريا وبرجوزاية) ولسنا مجتمعا صناعيا منتجا، لكي نناقش فكرة (وسائل الانتاج وقوى الانتاج)، وليس لدينا افكار عظيمة لكي نفكر بطريقة (كونت)، وليس لدينا نظام طائفي متمايز لكي نفكر بطريقة ماكس فيبر، ونرى اي منهما سيذهب بنا للجنة على الارض والرزق. ولسنا مجتمعا ريعيا بالمعنى العميق للكلمة..! كيف يمكن ان نستثمر هذه الاعتراضات النظرية...؟! كذلك علينا ان نفكر في كيف اثرت العولمة في ترتيب خارطة البنى الطبقية والقوى الاجتماعية في العراق ..؟!

لهذا اميل الى استنتاج الاتي:

1. يجب ان ننظر الى السوسيولوجي والباحث في العلوم الانسانية لا بوصفه مختصا بل بوصفه (فاعلا اجتماعيا اساسيا) طبيب مجتمع، لأنه اذا وضع تفسيرات اصيلة وحقيقية، وتمكن من تشخيص الازمات الاجتماعية، سينهي الكثير من المشاكل. وكما انتقدنا (الطب في العالم المتقدم) عندما فشلوا في السيطرة على فايروس سخيف، ابتلع ارواح ملايين البشر، ننتقد العلوم الانسانية التي فشلت في اكثر من مرة في ايجاد تفسير عميق، او تصور جديد، او تشخيص عميق لطبيعة المجتمع العراقي، وبنيته او نظامه الطبقي.

2. إن قبول الباحث السوسيولوجي بواقع اجتماعي كما هو او التعامل مع المجتمع بصورته كما هو على انه واقع محض، يتعالى على التفسير، فان هذا يتضمن نوعا من الانتحار. نعم، لان معناه انه قضى على نفسه بوصفه سوسيولوجست..!

3. يجب ان يفكر السوسيولوجي وكل الباحثين في العلوم الانسانية وفورا في كل الاسئلة المطروحة، ويعيد النظر في كل هذه المقولات التي تضمنتها اسئلتنا: العلاقة بين المجتمع والدولة، القوى المتصارعة، والصراع الطبقي، التطور اللامتكافئ، نمط الانتاج الاسيوي، الطبقة الفارغة، الوعي الاجتماعي.. ووو)، او سنقف امام مجتمع لا نملك شيئا غير اعتباره مجتمعا متشظيا، كما قال استاذنا (د.متعب السامرائي) رحمه

الله. لاننا – بدون ذلك – سنبقى ندور نطوف حول المشكلة (طبيعة المجتمع) بلا فائدة ترجى.

السوسيولوجيا ورصد التغيرات في البنية الطبقية

الدكتور صالح: اكرر ترحيبي بالدكتور علي جواد، وهو باحث معروف في سوسيولوجيا السياسة. ولأن ثمة تداخلا عميقا وعلاقة جدلية بين السوسيولوجي والاقتصادي فان سؤالا يطرح نفسه هنا، وهو هل يمكن للباحثين في السوسيولوجيا او علم الاجتماع رصد التغيرات في البنية الطبقية في العراق؟ علما ان هناك مقاربات سوسيولوجية عديدة في هذا المجال... نطمح منك عزيزي د. علي الى ان تسلط مزيدا من الضوء على هذه الاشكالية.

د.علي جواد وتوت: أبدأ القول إن نظريات النقد الحديث تطالب من يوجه النقد بتقديم البدائل، وقد ذهب الدكتور علاء عبر ورقته التي سبقت مداخلتي هذه، بعيداً في نقد السيسيولوجيا، وفي نقدٍ جارح وغير منصف لجهود السوسيولوجيين العراقيين، عبرَّ عن جلدٍ للذات. لا نعرف له مبرراً.

سوف اوجز ببضع دقائق فقط تصوري عن هذه الإشكالية. لم يكن المفكر الاقتصادي (غونار ميردال G. Myrdal) أمريكياً، بل من دولة السويد، البلد الذي لا يوجد فيه تمييز عنصري، لقد احتاجت امريكا الى باحث من خارجها، ليس لعدم وجود باحثين في السيسيولوجيا الامريكية، فمدارس السوسيولوجيا الحديثة يتزعمها

سوسيولوجيون أمريكان غالباً، وأميركا هي من تتسيد السيسيولوجيا الآن، لكن في بعض الاحيان بالذات مع المجتمعات المتنوعة فإنك بحاجة الى باحث من خارج الجماعة ليقدم تحليلا نظريا أكثر موضوعية ودقة لوصف تلك الجماعة. فقد شخّص ميردال معضلة أميركا بموضوعية، عندما تناول قضية التمييز العنصري. هكذا لو ان لكل الباحثين العراقيين واولهم شيخنا الوردي لو توفرت الفرصة التي توفرت لـ (حنا بطاطو) من وثائق الامن السري والشرطة الجنائية العراقية، لأبدع أيّما ابداع في ظني.. فعلى سبيل المثال يتابع باحثون عراقيون في الولايات المتحدة اليوم وثائق حزب البعث التي صادرتها قوات الاحتلال منذ 2003، وتم الكشف عن بعضها مؤخراً.. ونأمل ان تصدر قريبا دراسات معمقة جدا لما حدث في السنوات الـ 37 لحكم البعث المقبور.

وفي عودة إلى ورقتي سأقول ان المقولات الغربية لم تنجح في تفسير معضلات المجتمع في العراق. واقول (المجتمع في العراق) وليس (المجتمع العراقي) لأنه ولأكثر من مئة عام، لم تبلور الدولة العراقية هوية عراقية محددة.

لأننا في العراق نعيش في دولةٍ دون عداد فإن مشكلاته، بل أزماته ستظل دون حلّ! بفعل أن هذه الأزمات والمشكلات لا تُعطى حجمها الفعلي في معظم الأحيان. كما أنها لن تلقى الاهتمام المفترض. فهذا الغموض ولا شكّ يشكّل عقبةً كأداء في تقصيّ وجود البنية الطبقية وفقاً لأي تنظير علمي؛ فالباحث لا بدّ له من مؤشرات إحصائية تساعده في التعرّف الى الخطوط التي تفصل بين شرائح المجتمع المتجاورة طبقياً.

ولأننا في بلد اعتمد الريع منذ سبعينات القرن الماضي، فنحن في (دولة ريعية) بامتياز، الدولة الريعية وكما يعرفها مهداوي (باحث إيراني)، يتراجع فيها الانتاج الاقتصادي الى أدنى حدوده، ففي مجتمع لا يصل فيه إجمالي الناتج المحلي إلى ما دون (15 %) بمعنى أنه ينتج أقل من 15% من أسباب معاشه، مجتمع كهذا لا يدخل في عملية الفرز الطبقي.. كما أن هذا يشكل عقدةً ثانية تحول دون إمكانية تقصّي أي باحث للبنية الطبقية في العراق.

ومع كل الاشكالات والغموض الذي يحيط بمفهوم الطبقة (كما تعرفون)، فهناك تنظيران هما الاشهر، والاكثر ذيوعاً في تفسير الطبقة وقضاياها، هما التنظير الماركسي والتنظير الفايبري (نسبةً إلى ماكس فيبر).

في ورشة علمية حول (كتابة الاوراق السياسية) التي تقدم لصانع القرار، جرت في عمان عام 2006 كان المحاضر الاول فيها المفكر والباحث السياسي الانكليزي (توبي دوج)، ألقى على مسامعنا نصيحة ذهبية، (لا توجهوا النقد للجهة التي دعتكم للكتابة والبحث)، غير أني لن التزم بنصيحة (دوج) هنا اليوم، ولهذا أقول أنّ المقاربة الحديثة لمفهوم البنية الطبقية تشير الى تراجع التفسير الماركسي في رصد هذه البنية.

ماركس الذي أكد على المقترب الواحد (الاقتصاد)، وأشار إلى أن لا تحدد في ضوء ظروف العمل أو الدخل أو الدخل أو الاستهلاك، بل تحدد أساساً في ضوء نمط الإنتاج، ذلك أن العلاقة بين هذين المتغيرين (الموضوعي والذاتي) هي التي تولد الوعي الطبقي. ولقد كان ماركس واعياً تماماً بأهمية الوعي الطبقي وتشكيله، الأمر الذى دفعه إلى نفي صفة الطبقية عن الفلاحين مثلاً بسبب افتقارهم لوعي عام مشترك. ولكن على كل الأحوال تبقى حقيقة أن ماركس قد حدد الطبقة بكونها جماعة من الأشخاص تنجز عملاً واحداً في إطار عملية إنتاجية واحدة، وتختلف باختلاف وضعها الاقتصادي وموقعها من عملية الإنتاج، وهذا يعيدنا الى الحسابات الحقيقية، عندما كان هناك فعلاً انتاج اجتماعي في العراق، بالتزامن مع وعي افراد طبقة معينة أسهم في تبلور تلك الطبقة.

أما بالنسبة للفكر الوظيفي، فقد كانت له تصوراته المختلفة نحو البناء الطبقي للمجتمع، وله نظرته المختلفة لمفهوم الطبقة الذي يعني عند واحد من رواد هذا الاتجاه وهو ماكس فيبر. ويرى فيبر أن العامل المادي ليس العامل الأوحد المهم في تحديد مكانة الفرد، بل إن هذه المكانة إنما تتحدد استنادا الى عوامل أخرى، لها ذات الأهمية التي يحتلها العامل المادي، وهي العوامل الثقافية والدينية والسياسية، وأن الصراع

ليس حتميا بين الطبقات، وذلك لأن شريحة أو فئة اجتماعية يشكل أفرادها مكانات اجتماعية تترتب عليها أدوار اجتماعية مختلفة، وأن الصراع لا يقع بين الطبقات الاجتماعية بقدر ما يقع بين الأدوار المختلفة في المراكز والمكانة الاجتماعية، وهو ما يشكّل منافسة وليس صراعاً.

إن التاريخ الاجتماعي للمجتمعات المعاصرة يفرز وجود تقسيمات طبقية، مرّة بدت متبلورة وواضحة جدا كما هو الحال في مجتمعات أوربا في القرن التاسع عشر. وفي مرة اخرى مائعة بشكل كبير كما هو الحال اليوم، ما يجعل من الصعب على الباحث في السوسيولوجيا اليوم ان يميز بين الطبقات بالمعنى الحديث او المقاربة العلمية للمفهوم، حتى المجتمعات الحديثة صارت تميل لذاتها وفق عوامل جديدة.

في ظني ان هذه الطاولة هي للبحث في مستقبل الطبقة الوسطى وتوصيفها ايضاً، باعتبارها الحامل الاساس للديمقراطية، ولأنها يتبلور فيها امكانية التغيير المجتمعي المطلوب، فهذه الطبقة كما تعلمون بدأت بالنمو مع اطراد النمو الاقتصادي الذي صاحبه نمو اجتماعي واقتصادي وسياسي في مجتمعات اوربا في القرن التاسع عشر، أفرز طبقتين: طبقة أصحاب رأس المال، وطبقة العمال. وظهرت بين هاتين الطبقتين الطبقة المتوسطة التي تميزت عن الطبقة العاملة بتمتعها بمدخرات مالية وعقارية أتاحت لها فرصة التخلص من شعور فقدان الامن الذي تعيشه الطبقة العمالية.

تحاول البلدان الديمقراطية اليوم استبعاد الفروق الطبقية القديمة استبعادا نهائيا تقريبا، وتحاول تخفيف الفوارق الاجتماعية القائمة بين البيئات المحلية الريفية والحضرية وغيرها، وحتى البيئات الصناعية، بل تؤكد إرادتها في محاولة اخفاء الفروق بين الطبقات.

أما العراق فيمر اليوم بأزمات بل بكوارث مرعبة ليس أقلها وجوده ككل، لا يبدو منظورا اي انتماء طبقي على مستوى الوعي، فان حاولت ان تنظر بعين الباحث العلمي سيكون من الصعب عليك تمييز مثل هذا المعنى. لكن سأذهب الى هذا المثل البسيط في وقت الحرب الاهلية الطائفية في الأعوام 2006 و2007 و2008، تابعت بدقة التعامل الاقتصادي الذي كان يجري بوتيرة متواصلة بين تجار مدن الوسط والجنوب "الشيعة"، وتجار الغرب والشمال "السنة"، ما هذه المفارقة؟ أليس هذا تناقضا جليا في حد ذاته؟ لماذا يكون الاقتصاد هو الجامع، ولماذا لا يكون هو الجامع للجماعة العراقية؟

من يتتبع موازنات العراق للسنوات العشرة الماضية من 2007 تقريبا سيشاهد ان كل واحدة منها زادت عن 60 مليار دولار. هذه الموازنات التي وصلت في بعض الاحيان الى اكثر من 120 مليارا، كما هو في الاعوام 2012 و2013. ارقام صادمة لكننا كعراقيين ومن خلال تفاصيل حياتنا اليومية نعرف أن البنية التحتية لا توازي نظيراتها في دول العالم الفقيرة، لا توازي البنى التحتية في الاردن ولا لبنان ولا حتى في سوريا، والخدمات بأدنى شروطها. الفساد يستهلك جزءاً كبيرا من اموال هذه الميزانية الضخمة. الفساد الذي يقدره احد التقارير الدولية بان 30 سنتا من كل دولار يصرف في اعمار العراق. علينا ان نضع

في اعتبارنا ان القطاع الخاص كان يعاني لزمن طويل من وطأة الدولة، ممثلة بالنظام الدكتاتوري السابق؛ فالدولة هي أكبر ملاّك (رأسمالي) في العراق.. فهي تملك معظم رأس المال العراقي، وهي من تقرر من يعمل ومن لا يعمل. هكذا جعلت هيمنة الدولة على الاقتصاد وهيمنة الدكتاتورية على الدولة، جعلت التمايز الطبقي يتراجع الا بمقدار ارتباطه بالنظام السياسي وليس بالاقتصاد.

حينما أتت سلطة الاحتلال لا شك ان القطاع الخاص شهد تطوراً كبيراً، وتخلص من سيطرة الدولة، وانخرط بمشاريع اعادة الاعمار التي رفعت كفاءته واكسبته خبرات مهمة لغاية اليوم، لكن هذا لا يبرر انتشار الفساد في هذا القطاع. يعرف الجميع ان سلطة الاحتلال عندما أتت ارادت خلق طبقة جديدة موالية، تكون الحامل لأفكارها، وأنا هنا لا أزايد على حضراتكم من أصحاب التوجه الماركسي، لكن انتم تعرفون ان خلق طبقة جديدة، أصبح أمراً واقعاً من سياسيين ومقاولين ومترجمين. هؤلاء أسهموا في انتشار الفساد في قطاعات عدة، كما هو عليه الحال في الوقت الحاضر. اللافت للنظر ان معظم أفراد هذه الطبقة، وصلوا الى ما وصلوا اليه من خلال سلوكيات مختلفة للفساد.

أختم بالسؤال الاتي: بعد كل هذا هل يمكن الحديث عن جمود في البنية الطبقية في العراق أم عن تغيرات لا يمكن ملاحقتها في هذه العجالة، لأن الواقع يشير إلى عدم تقديم دراسات وافية خلال السبعة عشر عاماً الماضية، كما أن أرقاماً دقيقة عن البنية الطبقية في العراق، لا توجد لكي يكتب أو يقدّم تنظير موضوعي عن هذه القضية.

طبيعة العلاقات الإنتاجية السائدة في بنية الاقتصاد العراقي

وبعد ذلك توجه الدكتور صالح بالحديث الى الدكتور كاظم حبيب قائلا:

اكرر الترحيب بكم عزيزي د. كاظم. تنطلق دوما في مقارباتك العلمية من فرضية قوامها: انه ومن اجل دراسة البنية الطبقية للمجتمع العراقي يستوجب ابتداء دراسة طبيعة العلاقات الإنتاجية السائدة في الاقتصاد والمجتمع، ومن ثم بنية الاقتصاد العراقي، فهذه العلاقات الإنتاجية ومن ثم البنية الاقتصادية هما اللتان تنشأ منهما وعنهما البنية الاجتماعية. كما يمكن وبحدود معقولة تشخيص مستوى الوعي الاجتماعي الفردي والجمعي في المجتمع. وتلعب طبيعة الدولة وسياساتها ومجمل البناء الفوقي، دوراً محورياً في التأثير المباشر على البنيتين الاقتصادية والاجتماعية، وعلى مستوى وبنية الوعي الاجتماعي.

وتعني هذه الملاحظة أنك تركز الاهتمام هنا على العلاقة الجدلية بين البنية الاقتصادية والبنية الاجتماعية في المجتمع العراقي. وتعطي دورا محوريا لطبيعة الدولة وسياساتها ومجمل البناء الفوقي في التأثير المباشر على هاتين البنيتين، وايضا على مستوى وبنية الوعي الاجتماعي.

نتطلع منكم استاذنا الفاضل الى إضاءة تفصيلية لهذه الاشكاليات، في وحدتها الجدلية وتأثيرها المباشر على بعضها البعض، لتنتج لنا المشهد الذي أخذ صورته الحالية، وليس غيرها، المتمثل من بين عديد من السمات تلك السمة الاهم: السمة الريعية المميزة للاقتصاد العراقي، وما اقترن بها من خصائص مميزة ومشوهة للاقتصاد والمجتمع.

د. كاظم حبيب: شكراً جزيلاً للعزيز الدكتور صالح على التقديم والعرض.

في الحقيقة أي دراسة للمجتمع ينبغي ان ترتبط مباشرةً بعدد من المسائل المهمة جدا، المسألة الاولى ما هو نمط الانتاج السائد في البلد، المسألة الثانية ما هي بنية الاقتصاد الوطني ومستوى تطوره، والمسألة الثالثة ما هي طبيعة السلطة السياسية ومنهجها السياسي وسياساتها الاقتصادية والاجتماعية والخارجية، ثم نأتي على رؤية ومتابعة النتائج أو العواقب الناتجة عن ذلك في البنية الاجتماعية أو الطبقية للمجتمع، وفي الوعي السياسي والاجتماعي للفرد والمجتمع. هذه كلها ترتبط ببعضها بعلاقات جدلية متبادلة التأثير ومؤثرة على مجمل عملية التطورية الجارية في البلاد. هذا هو الجوهر الاساسي الذي يفترض أن يكون المنطلق في البحث عن البنية الطبقية. فما هو نمط الانتاج السائد في العراق حاليا؟ أنا اعتقد أن الاخوة المشاركين كلهم أشاروا بوضوح جدا إلى أن هناك اقتصادا او مجتمعا ما يزال يعيش في علاقات انتاجية ما قبل الرأسمالية وعلاقات انتاجية رأسمالية طفيلية غير انتاجية من حيث المبدأ والواقع، علاقات تجارية كومبرادورية، علاقات مقاولات، علاقات مالية، وعلاقات عقارية مضاربة. ونادر جدا ان تكون هناك علاقات اقتصادية انتاجية سليمة في الصناعة والزراعة. كما أن هناك انتاجا سلعيا صغيرا يلعب دورا مهما في الاقتصاد العراقي. فالعلاقات الانتاجية الرأسمالية القائمة في العراق هي علاقات رأسمالية حتى الآن طفيلية. علاقات رأسمالية تجارية مؤثرة جدا، ومعرقلة لتطور العملية الاقتصادية كلها، ومعيقة

لعملية التنمية الصناعية والزراعية، بل حتى مؤذية للإنتاج السلعي الصغير. الاقتصاد العراقي وحيد الجانب ومشوه، اقتصاد ريعي نفطي، والريع يشكل نسبة عالية من الدخل القومي ونسبة عالية جداً من الميزانية العامة، ومن صادرات العراق. الاقتصاد الريعي يخلق معه جملة من المسائل السلبية على المجتمع والاقتصاد الوطني بما في ذلك الاستبداد وهيمنة الدولة على المجتمع والتحكم بالموظفين والمتقاعدين ورواتبهم، إضافة إلى نشوء الفساد والإفساد وإهمال تنمية القطاعات الاقتصادية الأخرى. كل هذا الجوانب السلبية نجدها في واقع المجتمع العراقي الراهن، العلاقات الانتاجية الرأسمالية القائمة في العراق هي علاقات مشوهة ومتخلفة ومضرة بالاقتصاد الوطني، وبالبنية الطبقية للمجتمع. فهي ليست نيوليبرالية تماما، فيما عدا إبعاد دور الدولة عن العملية الاقتصادية وتفكيك قطاع الدولة الاقتصادي الإنتاجي، وهي ليست ليبرالية، لأنها تهمل دور القطاع الخاص في العملية الإنتاجية، وهي بالتالي ليست ذات طابع تقدمي للمجتمع الديمقراطي الذي نسعى إليه. وبالتالي هذا الواقع جعل

الاقتصاد الوطني ضعيفاً متخلفاً ومشوه البنية الاقتصادية، لا سيما تدهور دور ومكانة ومساهمة الصناعة والزراعة في تكوين الدخل القومي. أثر هذا الواقع بشكل واضح جدا على البنية الاجتماعية. فما هي بنية المجتمع الطبقية الراهنة في العراق؟ اعتقد جازما، على حسب قناعاتي الشخصية، بأن هناك تراجعاً شديداً جدا وواضحاً تماماً في بنية الطبقة العاملة او العمال، الذين ارتفع عددهم في السبعينيات الى حدود عالية نسبياً، في حين لا نمتلك اليوم سوى طبقة عاملة ضعيفة جدا من حيث العدد والدور والمشاركة، وهي موجودة في الغالب في قطاعات غير إنتاجية، في مجالات خدمية، وقلة قليلة في الصناعة والزراعة وفي الخدمات الانتاجية.

الشيء الثاني الملاحظ في الزراعة، إن لم يعد هناك شباب يعملون في الزراعة، إذ أن اكثرهم من كبار السن، والتهمت القوات المسلحة والميليشيات المسلحة وقطاع خدمية متخلفة أخرى نسبة عالية من الشباب العراقي. كما تراجع الانتاج الزراعي كثيرا الى حدود معينة، كما فقدت الارض الزراعية المستخدمة خصوبتها وبدأت تتراجع في معدلات الغلة. وسبب ذلك يكمن في واقع التوجه الشامل صوب الاستيراد والمنافسة الفعلية للإنتاج الزراعي المحلي. من هنا نجد أن هناك تراجعاً ايضا في حجم الفئات الفلاحية الشبابية ودورها في المجتمع ودورها في الاقتصاد الوطني.

أشير هنا إلى المسألة الاخرى في البنية الاجتماعية، كانت لدينا في الستينيات والسبعينيات برجوازية صناعية متوسطة لا بأس بها، أما الان فقد تقلصت وتراجعت إلى حدود بعيدة، فقد ضعف حجمها وحجم رساميلها ودورها. كما ضعف وعيها وضعف التزامها بما ينبغي ان تقوم به. وما يمكن أن يشار إليه هو أنها تخشى من عدم تحقيق الربح وتريد الربح السريع من خلال القطاعات غير الانتاجية الخدمية والقطاعات الطفيلية: التجارة والعقار والمال والمضاربات والى اخره.

لدينا البرجوازية الصغيرة التي اتسعت قاعدتها الى حد ما، ولكن كثير منها، ومن أصول فلاحية بشكل خاص، ومن الطبقة العاملة، قد انحدروا الى مواقع الفئات الاجتماعية الأكثر رثاثة من أشباه البروليتاريا، فحالتهم في العراق هي اسوأ بكثير من حالة الفئات التي يطلق عليها بالبروليتاريا الرثة، سواء في اوضاعهم الاجتماعية أو هامشيتهم الاقتصادية والثقافية والسياسية. ويلعب هذا الواقع دوراً كبيراً جدا في التأثير عليهم وعلى مواقفهم. لدينا فئات اخرى انتعشت في العراق، وهي فئة التجار الكومبرادور التي ترتبط مصالحها بالاستيراد بشكل خاص وبمحاربة التصنيع وتحديث الزراعة والتقدم، وفئة المقاولين وفئة المضاربين بالعقار وفئة الماليين من ذوي النعمة الحديثة بشكل خاص، إضافة إلى الفئة البيروقراطية الكبيرة العاملة في أجهزة الدولة. هذه الفئات الخمسة التي كانت موجودة قبل ذاك، لكنها تقدمت كثيراً جداً وهيمنت منذ عام 2003 الى الآن، فقد نما دورها واشتد ساعدها واتسعت وتنامت ثروتها لاسيما من السُحت الحرام. هذه الفئات هي المهيمنة مع جمهرة من شيوخ العشائر ومجموعة صغيرة من بقايا كبار الملاكين القدامى وجمهرة من شيوخ الدين وهي

المتحكمة بالدولة بسلطاتها الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية. فالدولة القائمة حاليا هي دولة فئات اجتماعية متنوعة، ولكنها كلها فئات اجتماعية رثة وطفيلية من حيث الفكر والسلوك والممارسة. وهي تلعب دورا سلبياً في التأثير على بنية وتطور الاقتصاد والمجتمع، وتتخذ مواقف سيئة جدا من التنمية الاقتصادية، اضافة الى تأثير الخارج الكبير جداً، وبشكل خاص ايران وتركيا، إذ لهما تأثير كبير جدا على عملية التنمية الصناعية والزراعية من خلال إغراق السوق المحلي العراقي بتصديرها السلع الى العراق وتأثيرها على مجمل العملية التنموية وإعاقة إقامة المشاريع الصناعي والتنمية الزراعية. انا اعتقد بأن هذا الانحسار الكبير في بنية البرجوازية المتوسطة، وكذلك في بنية الطبقة العاملة له تأثير كبير جدا على مجرى التطور الاجتماعي والاقتصادي في العراق، إذ أن هاتين الفئتين، أو هاتين الطبقتين، الطبقة العاملة والطبقة البرجوازية المتوسطة، هما حاملتا المجتمع المدني والديمقراطي الذي تسعى اليه جملة من القوى الطبقية، ومنهم فئة المثقفين والمثقفات. وأنا اختلف مع الاخوان الذين يقولون بأن هناك طبقة وسطى. اعتقد بان هناك فئات اجتماعية متعددة، ليست هناك طبقة وسطى، هناك طبقة برجوازية وسطى وبرجوازية كبيرة وبرجوازية صغيرة، لكن ليس هناك طبقة وسطى تجمع هؤلاء جميعا، وقد كتبنا وتناقشنا مع الزميل الدكتور مظهر محمد صالح ومع آخرين بهذا الصدد.

هناك فئة اجتماعية اتسعت قاعدتها في العراق، وهي فئة المثقفين والمتعلمين من الرجال والنساء، ولكن هذه الفئة المثقفة والمتعلمة لم تلعب حتى الان دوراً كبيراً وملموساً في العملية الثقافية، دع عنك الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، لأن النظام السياسي القائم هو نظام طائفي فاسد متخلف ومشوه. وبالتالي رث بكل معنى الكلمة: رث اخلاقي، رث سياسي، رث اجتماعي، رث اقتصادي، رث ثقافي، رث ديني ومناهض للثقافة الحرة والديمقراطية. لذلك لا يستطيع الإنسان ان يتوقع من هذا النظام السياسي الطائفي الفاسد ان يساعد على بروز فئة اجتماعية كالمثقفين والمتعلمين لتلعب دورا مهما في الحياة الاجتماعية والثقافية العراقية، وفي تنوير المجتمع أيضا.

اذن، نحن نتابع نمواً كبيراً جداً في الفئة الاجتماعية الرثة الاكثر بؤسا وفاقة وحرمانا، وهي التي في واقع الحال شكلت قوام قوى الانتفاضة التشرينية مع جماعات من المثقفين والمثقفات. وكان لأوضاعها المعيشية السيئة والبطالة والفقر المدقع من الأسباب التي دفعت هذه الفئات الاجتماعية التي تعيش في المناطق العشوائية في مناطق الثورة والشعلة وغيرهما، وأصحاب البسطات أيضا، الدور المميز في انتفاضة 2019 - 2020 والتي لم تنته بعد. هذه الفئات ليست من تلك الفئات الرثة التي تشكل قوام الدولة بسلطاتها الثلاث، بل هي انتفاض عليها.

السؤال الذي يدور في بالي، ما هي العوامل التي تسببت في بروز هذه الظواهر في الموقف من التنمية وفي الموقف من الاقتصاد الوطني، وفي الموقف من الحياة والديمقراطية والحياة العامة؟ انا اعتقد

أن هيمنة الدكتاتورية المطلقة على الدولة لسنوات طويلة جدا، ومصادرتها للحريات العامة وحقوق الانسان، إضافة إلى عوامل اجتماعية وتاريخية وتقاليد وعادات وسلوكية، لعبت دوراً كبيراً جداً في نشوء هذا الواقع العراقي المتخلف حاليا، في نشوء الحروب التي خاضتها هذه الدولة في زمن البعث وصدام حسين، وكذلك السياسات التي مارستها الدولة الطائفية الجديدة قد لعبت دوراً كبيراً ومميزاً في ايقاف عملية التنمية. اشار أحد الزملاء الى أن هناك توجها باستثمارات كبيرة في الاقتصاد الوطني. هذا ليس صحيحاً، لم توجه استثمارات كبيرة للاقتصاد الوطني بعد 2003، هذه التخصيصات التي وضعت لم تنفذ، بل سرقت ونهبت ودمرت الادوات والمكائن التي استوردت. هذه حقائق الوضع في العراق. لذلك انا اعتقد أن الدكتاتورية لعبت دوراً كبيراً جدا في تدمير الاقتصاد الوطني، وكذلك الحروب التي مارستها هذه الدولة والاهمال الكبير للاقتصاد الوطني وخاصة للتصنيع والزراعة هو الذي لعب دوره في تشويه البنية الاجتماعية للمجتمع. هذا التشوه الراهن، هذا التخلف الراهن في المجتمع، هذا الوعي المتخلف، هذا الوعي الغيبي والخرافي الذي اشتد لدى الجماهير، لعب دوراً كبيراً، إضافة إلى الاستبداد والقسوة في التعامل مع البشر. لقد برزت مظاهر توحش في المجتمع، هذا التوحش هو ليس جزءاً من طبيعة المجتمع، بل الدولة وعوامل كثيرة أخرى، هي التي نشرت هذا التوحش في المجتمع، وكذلك الدور الدولي والإقليمي. لاحظوا ان قوات الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا اللتين خاضتا الحرب في العراق على رأس تحالف دولي، خارج الشرعية الدولية، لعب دوراً كبيراً جداً في تدمير الدولة ومؤسساتها وأجهزتها، ومن ثم في تدمير البنية التحتية أثناء الحرب وما بعدها. وبالتالي هذا العراق الذي عانى من كل ذلك، وجد تعبيره في البنية الطبقية للمجتمع، في هذا التدهور، في هذا التراجع للطبقة العاملة والفلاحين الشباب وللبرجوازية الصناعية المتوسطة، ولاستثمارات الدولة في القطاعات الانتاجية او لاستثمارات القطاع الخاص في القطاعات الإنتاجية. من هنا انا اعتقد أن أوضاعنا الاقتصادية والوضع الطبقي في المجتمع العراقي هو في وضع مشوه، فلا حدود طبقية واضحة، إذ ليست هناك عملية تبلور واضحة في بنية الطبقات الاجتماعية في العراق. ليس هناك تبلور واضح في الطبقة العاملة وفي فئات الفلاحين وفي فئات البرجوازية الصغيرة، حتى في شرائح الفئات الرثة. لذلك يحاول البعض أن يطلق على بعض الفئات بالميسورة، في حين أن هؤلاء لهم فئات اجتماعية ينضوون تحتها ومصالح اقتصادية ورؤى وفلسفة وايديولوجية، لذلك اعتقد أن هذه المسائل بحاجة الى دراسة موسعة ومعمقة من جانبنا، ربما نستطيع ان نتوصل الى نتائج أكثر عمقاً في التحليل وأكثر دقة في معرفة طبيعة الاقتصاد الوطني وطبيعة المجتمع العراقي واتجاهات تطوره. أستطيع أن اقول باختصار إن هناك علاقة طردية واضحة بين طبيعة البنية الاقتصادية والبنية الاجتماعية، إذ كلما تطور الاقتصاد الوطني وتراجع تشوهه وريعيته، تحسنت بنيته الاجتماعية. إن تطور بنية الاقتصاد

الانتاجية وعلاقتها بالخدمات الإنتاجية، خاصة الصناعة والزراعة وايضا بنية التصنيع وبنية الزراعة، كلها تلعب دوراً كبيراً جداً على البنية الاجتماعية، والعكس صحيح أيضاً، إذ كلما تراجعت تلك البنية الاقتصادية انعكس ذلك على البنية الاجتماعية للمجتمع العراقي. ويمكن ملاحظة ذلك خلال السنوات الاربعين الاخيرة بشكل خاص. نحن نعاني من تراجع شديد جدا وتشوه أكبر في البنية الاقتصادية، ومن ثم في البنية الاجتماعية وفي طبيعة علاقات الانتاج السائدة في العراق، فهي علاقات متشابكة ما قبل الرأسمالية ورأس مالية طفيلية ورأس مالية مضاربة وفاسدة. الفساد الموجود في العراق لم يعد ظواهر بل نظام ثابت ومتقدم يشمل الدولة والمجتمع بشكل واسع جدا، وهذه مصيبة كبيرة، لأن الظواهر تستطيع ان تقضي عليها، ولكن حين تكون نظاماً، عندها ينبغي تغييره بالكامل، لأنه مرتبط بنظام الحكم كله. وبالتالي بالمجتمع الذي تراجعت قيمه ومعاييره كثيرا. هناك ردّة حقيقية في المجتمع العراقي، ردة اقتصادية اجتماعية فكرية سياسية رهيبة جدا بحاجة الى تغيير. ولذلك فإن الانتفاضة التي حصلت لن تستطيع ان تنجز الكثير ما لم تتوحد قواها، ما لم تتوضح اهدافها، ما لم تنشأ لها احزابها وقواها السياسية، وبالتالي ما لم تتكون قيادة حقيقية لتلك الانتفاضة، حتى لو سميناها ثورة مجازاً، فهي ليست المشكلة، ولكن هذه الانتفاضة لا يمكن لها أن تحقق أهدافها ما لم نحقق شروطا معينة لنجاحها ومستلزمات اساسية لكي تستطيع ان تحقق ما تسعى اليه وما تريده.

المُهمَّشون الجُدد: طحن المُعدم وتوسيع تهميشه

د. صالح: أُجدِّد الترحيب بكم الزميل العزيز د. مازن

نعود مرة أُخرى الى موقع الفئات الهامشية في البنيةِ الاجتماعية/ الطبقية لبلدانِ "الاطراف" ومنها بلادنا. ان مسألة الاصول الطبقية والانحدار الاجتماعي لهذهِ الفئات في البلدانِ النامية ما زالت تُثير نقاشات صاخبة. لهذا ومن المفيد أولاً أن نشير الى حقيقةٍ مهمة جداً، وهي أن تحديد جذور هذه الفئات يحب أن يرتبط بتحليلِ خاصية تطوَّر التكوين الاجتماعي في بلدان "الاطراف"، أي تحليل خاصية ظهور الرأسمالية هنا، تحديد أصولها، والنتائج، والعواقب المرافقة لها.

ويمكن ملاحظة ذلك في العديدِ من القضايا من بينها ان الرأسمالية "المحمولة" من الخارج لم تحطم البنى التقليدية، بل وعملت في أحسنِ الاحوال على تكيَّفها وفقاً لاحتياجاتها، وقد خضعت هذهِ البنى لتطورٍ بطيء ومؤلم دون أن تتعرَّض لتحطيمٍ كامل.

وسؤالنا الملموس هُنا هو حول ما يجري في بلادنا من تعاظم عمليات التهميش والاستقطاب الاجتماعي التي افرزت المزيد من المُهمشَّين الجُدد، حيث تتم عمليات طحن المعدم وتوسيع تهميشه... نتطلع من جنابكم الى توصيفٍ من عمقِ الازمة لهذهِ العمليات الجارية على قدمٍ وساق في المجتمعِ العراقي وما تتركه من آثار.

د. مازن مرسول: في الحقيقةِ طُرِحت العديد من الأفكارِ من خلالِ الأوراق التي قُدِّمت من قبلِ الاخوة، ولربما نتفق مع عددٍ منها ونختلف مع العددِ الآخر. عموماً ما أود طرحه هو توصيفات تتعلَّق بأزماتِ المجتمع العراقي، كانسان يعيش ومندمج في هذا المجتمع، هذهِ التوصيفات جاءت تحت عنوان المُهمَّشون الجُدد: طحن المُعدم وتوسيع تهميشه. توصيف من عمقِ الأزمة في المُجتمعِ العراقي.

لا يمكن عد فترة حكم النظام البعثي السابق، مرحلة طبيعية سادت فيها بعض التناقضات والصراعات ومآلات ذلك على المجتمعِ العراقي، بل رسَّخ هذا النظام أسسه وممارساته بصورٍ أعادت صياغة شكل المجتمع وشكل الدولة ومؤسساتها والبنية الاجتماعية من جديد، صور قائمة على التبعيةِ الجبرية، المتضمنة قهرا واضحا لشرائحِ المجتمع المُختلفة بدكتاتوريةٍ فردية مقيتة جمعت حولها عشيرة السلطة العميقة التي أدارت البلاد وفق دوغمائية مُرعبة، كمَّمت الأفواه وبعثرت الهوية وسلخت الفرد العراقي من منظومتهِ الثقافية، بجعلهِ مُجرد تابع ومُنفذ لِكُلّ ما تُمليه عليه أيديولوجيا نظام الحزب الواحد.

ووفق هذهِ التركيبة البنيوية المُهيمن عليها من قبلِ استراتيجيات وتسلُّط حزب البعث، تمزَّق هذا المجتمع واتسعت الفوارق بين طبقاتهِ بشكلٍ عميق، وتبعثرت مُقَوِّمَات بناء مجتمع بالمعنى الحقيقي والدقيق، بالتأسيسِ للفقرِ المُدقع لعامةِ الشعب واتساع طبقة المهمشين وسحقهم اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً وسياسياً وصحياً، مقابل زيادة تخمة الطبقة المُتنفذة المُهيمنة، مع إخفاءٍ قصدي

للطبقةِ الوسطى وفق مُنطلقات عمل أرغمت الفرد العراقي على الرضوخِ للاضطهادِ بطمسِ معالم العيش كإنسان وجعلهِ عبداً مُطيعاً ليس إلا، وفق اَلنَّزْر اليسير الذي يحفظ حياته من مُتطلباتِ العيش.

ما بعد الانهيار

وبالرغم من توالي وترسَّخ أزمات هذا المجتمع في عهدِ القهر البعثي السابق، إلا أن الأمر لم يتغير كثيراً بعد انهيار هذا النظام وزوال دكتاتورية الفرد الواحد، إذ عبر المجتمع العراقي من مرحلةِ الاضطهادِ المقيت الذي تخلَّلته الحرب العراقية الإيرانية وانتكاساتها للنسيجِ المجتمعي العراقي وغزو الكويت وتداعيات الحصار الاقتصادي وحربِ الخليج بتدميرِ ما تبقى بهذا المجتمع بنيوياً وهويَّاتياً، إلى مرحلةٍ جديدة أُخرى شهدت الخلاص من السياسةِ العبثية للنظامِ السابق، إلا أن المسألة وفق هذا الخلاصَ لم تكن بالسهولةِ التي يمكن معها التأسيس لنظامٍ سلطوي جديد قائمٍ على النزاهة والحكم الرَّشيد وتلافي تَعَثُّرَات ما مضى، وإنما شهدت المرحلة تعقيدات عديدة انبرت على أساسها تناقضات تتعلَّق

بإدارة سلطة البلاد والتكالب عليها، وبروز المد الهويَّاتي الواسع في مجتمعٍ يحتكم إلى اَلتَّنَوُّعِ العرقي والمذهبي والطائفي واللغوي والقومي والديني والهويَّاتي والاجتماعي، ومرارة المجتمع في تمني العيش وفق مُقدَّرات جديدة تختلف عن كُلّ ما سبق.

ووفق ذلك، ابتغينا التركيز بتوصيفٍ دقيق على ما مرَّت به الفئات الفقيرة والمُهمَّشة في المجتمعِ والتي تم ترحيلها من مرحلةِ حكم نظام البعث إلى مرحلةِ ما بعد 2003.

فهل تلاشت واختفت هذهِ الفئات بزوالِ نظام البعث في العراق وتلاشي مُمارساته التي همَّشت الفرد العراقي وأسهمت بصورةٍ كبيرة في مسخِ وجوده في هذهِ الحياة؟

أم أن الأمر بقي على حالهِ مع اتساعِ هذهِ الفئات وحدوث حراك أفقي وعمودي فيها بالانتقالِ داخل الطبقة الواحدة من مرحلةٍ إلى أُخرى أو الزحف نحو الطبقات العليا وفق مُعطيات ما حدث؟

لذلك فالكلام هنا سيكون عن طبقةِ الفقراء والمُهمشين التي أوجدها النظام البعثي السابق، والتي بقي العديد من اَلْأَفْرَادِ فيها على حالهم ومُعاناتهم رغم انهيار النظام ودخول مرحلة ما بعد 2003، الأمر الذي ازداد معه إفقار العديد من أفرادها بعد زوال دكتاتورية الفرد الواحد.

لم تأت الأمور وفق ما كان متوقعا لها أن يكون ما بعد 2003 على كافةِ المستويات، فالذهنية العراقية آنذاك كانت تُمني النفس بعد الخلاص بأعجوبةٍ من بطشِ النظامِ السابق، بتحولاتٍ عميقة تقلب الوضع رأساً على عقبٍ، وتُغيِّر صور المجتمع المُتهالك إلى مجتمعٍ ينفض غبار الماضي عنه، إلا أنها اصطدمت بتعقيداتٍ جديدة بل التأسيس لـ تناحراتٍ مُتَعَدِّدَة هويَّاتياً وعرقياً وطائفياً وسياسياً، وجد المجتمع نفسه بمواجهتها لمعرفةِ ما يجب عليه ان يسير وفقه، إذ وجد هناك صراعاً جديداً برز بحسبِ الفراغ في السلطةِ وضرورة اَلتَّصَدِّي لسدةِ الحكم، والذي جلب معه الصراع على اَلتَّسَيُّدِ والإسهام بحكمِ البلاد، بما تحمله تلك الجهات المُتصدية من أيديولوجيا معينة حاولت أن ترتفع بها على حسابِ الجهات الأخرى، وبروز اَلتَّشَدُّد والانغلاق الفئوي العميق لهذهِ الجهات بمحاولةِ ترسيخ هوية المذهب والطائفة والعرق واللغة والقومية والدين على حسابِ مصلحة الوطن والمجتمع، الأمر الذي انعكس بصورةٍ سريعة ومُعقدة على مُجرياتِ بنية المجتمع وسلوكياته وأفرز صدامات وتحزبات واقتتالات طائفية عقَّدت من صورةِ الموقف.

فكل هذهِ التناقضات المُعقدة الجديدة ولَّدت هذا التبعثر الطبقي وتغييب الطبقة الوسطى بشكلٍ كبير، وبات هناك بون شاسع بين الطبقة المطحونة المُتمثلة بالفقراءِ وبين من هم في الطبقاتِ العليا من مُمتلكي الأموال ومتنفذي السلطة، الأمر الذي ولَّد قطيعة مباشرة وعداء وصراعا بينهما مُستمراً إلى الآن، إذ وجدت الطبقة الفقيرة أن كل أحلامها بالخلاصِ قد تبعثرت بتفاقم الأوضاع وازديادها سوءاً بفعلِ التناحراتَ والمُحاصصات السياسية القائمة على الفئوياتِ والارتداد الديني والمذهبي المُعقَّد، وتخوَّف أصحاب الطبقات العليا من ثورةِ وغضب المسحوقين، الأمر الذي شكَّل عدم ارتياح لهم ومحاولات لكبحِ الطبقة الفقيرة واشغالها بأمورِ الحياة واَضطهادها مرة

أُخرى بعد أن كانت مُضطهدة سابقاً.

لذلك أكد هذا التشكل البنيوي والسلطوي والاجتماعي الجديد ما بعد 2003 خرافة انحسار الطبقة الفقيرة والمُهمَّشين، فلم تختف هذه الطبقة بعد أن كانت لها قاعدة أساسية عانت ما عانت وأفرزت تناقضات كبيرة للواقع المُعاش في عهدِ النظام البعثي السابق، وإنَما ترسَّخت فيها صور جديدة للفقرِ بحسبِ تقادم الزمن وتغير صور الحياة، وتم تأصيل هذا الفقر بفعلِ السياسات التي تناوبت على حكمِ المجتمع العراقي بعد 2003، فكيف نتوقع من مجتمع يتمكن من اَلْقَضَاءِ على التهميشِ والفقرِ الذي كان يحيط بأفرادهِ، في ظِلّ صراعات سياسية وطائفية وعرقية وتدخلات أجنبية، أدَّت إلى اضطرابِ موازين العيش والحياة فيه؟

الفساد وزيادة الإفقار المجتمعي

وبالرغم من صورِ الفساد القديمة التي جسَّدها النظام الحاكم بحكمِ المجتمع وفق آليات واستراتيجيات فاسدة أطاحت بالبنى الحياتية لهذا المجتمع وهزمت الإنسان العراقي وأدَّت إلى تشرذمهِ هوياتياً وقطَّعت أوصال حياته، إلا أن الأمر تفاقم بعد انهيار هذا النظام بل ابتكرت صور عدة للفسادِ في الحصولِ على مُكتسباتِ السلطة والانضمام لها والتلاعب بمُقدراتِ عيش المواطن العراقي ونهب ثرواته للملذاتِ الشخصية والفئوية وشيوع المُمارسات السلوكية الفاسدة في ثنايا المجتمع، بفعلِ ضعف القانون وسباته في أحيانٍ كثيرة وعدم التوزيع العادل للثرواتِ وتأصيل الظلم الاجتماعي. كل صور الفساد تلك، أسهمت بشكلٍ أو بآخر في توسيعِ قاعدة الفقر والتهميش، وإدخال الفقراء في دوَّامةِ العيش وصعوبة الخلاص من أوضاعهم المُزرية.

إذ إن حرمان الأفراد من أبسطِ حقوقهم والتعالي عليهم وإدخالهم في دوَّامةِ البحث عن لُقمةِ العيش بتبديدِ ثرواتهم وتجييرها لصالحِ مُتنفذي ومُتسلِّطي هذهِ البلاد، يُمثل أبشع أنواع وصور الفساد، الأمر الذي أسَّس لثقافةِ الفساد بصورها المُختلفة وتجليات هذهِ الثقافة على مستوى العيش الإنساني والتوافق مع الواقعِ وطبيعة النظرة للمستقبلِ.

الديمقراطية المُعلَّبة والمُهمَّشون الجُدد

يمكن القول إن الطبقة الفقيرة أو مُعدمي المجتمع العراقي هم الوحيدون الذين تمسَّكوا بجدوى الديمقراطية عند طرحها كمشروع خلاصي للعراق في بدايةِ الأمر، على عكس ممن هم خارج هذهِ الطبقة الذين لم يعيروا لها أهمية وأيقنوا بصعوبةِ تطبيقها في مجتمع يعج بِكُلّ هذهِ التناقضات والصراعات وصور الفساد وَالتَّمَزُّق الهويَّاتي الكبير.

فلا يمكن السير نحو الديمقراطية في مجتمع لم يفقه منها شيئاً، فليس الأمر بهذهِ السهولة مع وجودِ هذا اَلتَّنَوُّع الكبير في المجتمع العراقي والذي لم يتحوَّل إلى قوةٍ ساندة لهذا المجتمع بل عامل تجزئة شرذم بقايا أواصره وألحق الخراب والتفكك بالنسيج الاجتماعي.

وفي الحقيقةِ لم يجن المجتمع كافة من تجربةِ الديمقراطية إلا بعض صورها الشكلية، والمُتمثلة بممارسةِ حق التصويت والاقتراع عبر الصناديق، وغير ذلك لم

يحصل هذا المجتمع على مكاسبِ تطبيق هذهِ التجربة، وهل كانت مُناسبة لأوضاعٍ مثل أوضاع المجتمع العراقي، وهل جنىً ثمارها بتحقيقِ العدالة الاجتماعية وضمان حقوق الأفرادِ والقضاء على الدكتاتوريات المقيتة وَالتَّسَلُّط والاضطهاد، وبالتالي إعادة الاندماج الاجتماعي والقضاء على اَلتَّمَزُّقِ والتفاوت الطبقي في ما بين الأفراد وانحسار الفقر بشكلٍ كبير جداً؟

فلم يشعر الفردُ العراقي بشكلٍ أكبر بشيءٍ اسمه الديمقراطية إلا بممارسةِ التصويت، لذلك لم تكن كتجربة ناجحة بمعنى النجاح الذي يضمن للمجتمعِ السير وفق أسس سليمة، وإنما انطوتَ على تَعَثُّرَاتٍ عدة شملت الصراع على السلطةِ ورفض التنازل عن العديدِ من المُكتسباتِ الفئوية والطائفية للمصلحةِ العامة.

كل ذلك جعل الديمقراطية كتجربة ممكن أن تنجح في المجتمعِ العراقي بعد انهيارات 2003، مجرد كذبةَ وحدث غير مُكتمل أو وجوده في غيرِ محله، فمن الصعوبةِ تطبيق هذا النموذج أو التجربة في مجتمعٍ لديه هذهِ الخارطة القيمية والعرقية والطائفيَّة والدينية في العراق، إذ أن نجاحها محكوم بضرورةِ وجود أجواء لازمة لها، وعياً بها من قبيلِ مثلاً، الابتعاد عن الفئوياتِ وَالتَّحَزُّبَات والتخندق قبائلياً وعشائرياً، وضرب هيبة الدولة والولاء للطائفةِ والمذهب والمُعتقد والدين دون الوطن الأوحد، إذ لا يمكن تحقيق ديمقراطية بوجودِ انتماءات قبلية اجتماعية في الميدانِ السياسي تُحدَّد من هم الأكثرية والأقلية وتوزع المكتسبات على أساسِ هذا النهج الطائفي.

وبطبيعةِ الحال تشوَّهت صورة الديمقراطيةِ كنظام ممكن أن يُحيل المجتمع إلى صورٍ أُخرى، وبالذات لدى البروليتاريا والمُهمَّشين، الذين عدَّوا هذهِ التجربة من الأمورِ التي صدَّع بها مُتسيدي السلطة الجدد رؤوس الأغلبية من المجتمعِ، فهي من مستلزماتِ طرح سياساتهم لِلمجتمعِ وإيهام أفرادهِ بأنها ستنقذهم مما كانوا عليه، رغم إيمان هؤلاء المُتسيِّدين الخفي بان لا جدوى منها إطلاقاً في ظِلّ تَبَنِّيهِمْ للسياساتِ الإقصائية القائمة على اَلتَّحَزُّبِ الطائفي والعرقي والمذهبي والمصالح الخاصة دون العامة. الأمر الذي جعل المهمشين يعانونِ من اغترابٍ حقيقي وغياب الثقة كاملاً بشيءٍ اسمه المُمارسة السياسية وبمُتسيدي السلطة.

وبطبيعةِ الحال فان علاج ذلك لا يتحقق بالكلام، وإنما بالتطبيقِ الفعلي الذي يتطلَّب إلغاءَ كل الفروق المُمنهجة على مستوى الطائفة والعرق والملة والمذهب والدين واللغة والقومية والمعتقد والثقافة، وإدماجها كوحدة كُلِّية تنظر للصالحِ العام دون الخاص، والإيمان بتطبيقِ هذهِ اَلتجربة سيفسح المجال واسعاً لاجتثاثِ كل تناقضات الماضي، وإعادة صياغة السلطة وفق الصورة التي تؤمن بتحقيقِ العدالة وإلغاء الفوارق الطبقية وإزالة مُعاناة الأفراد والقضاء على الفقرِ وترك التناحرات السلطوية والمصلحيةَ جانباً.

الطبقة الوسطى وراهنية انحسار الدور

بعد أن قُوِّضت الطبقة الوسطى بشكلٍ مُرعب في عهدِ النظام البعثي السابق وتشرذمت بصورةٍ واضحة، بات هناك ان بوناً شاسعاً بين الطبقة الفقيرة

الرثة والطبقات العليا، بفعلِ السياسات الإقصائية المُتَّبعة من قبلِ نظام حزب البعث ودكتاتورية الفرد الواحد التي أسَّست للأزماتِ وخلقت ظروف انوجادها، فاتسعت صور التهميش وانجرفت أعْدَاد كبيرة ممن كانوا في الطبقةِ الوسطى إلى قيعانِ البروليتاريا الرثة، وعند انهيار هذا النظام كان من المؤمَّلِ أن تعود الطبقة الوسطى لحيويتها بزحفِ عدد من فقراءِ الطبقة الدنيا إلى هذهِ الطبقة بتحسَّنِ أحوالهم مادياً واجتماعياً وثقافياً، وقد تم ذلك لكن ليس بالطريقةِ التي يُطمح منها إلى القضاءِ على مستوياتِ الفقر بشكلٍ واسع، اذ عادت الطبقة الوسطى تُمارس حياتها بشيء من اَلتَّحَفُّظِ والخوف على مواقعها ومكانتها، دون ان يكون لها موقف مؤثِّر تجاه الطبقات الفقيرة وكيفية الحث على انتشالها من واقعها، أي انتعش وجودها لكن ليس بالمستوى الطموح الذي يقضي من خلالهِ على تناقضاتِ العيش في الطبقةِ المسحوقة.

هناك تذبذبٌ كبير في الصعودِ نحو الطبقة الوسطى والعودة نحو الطبقات الفقيرة وَالتَّعَرُّض للطحنِ، وجاء هذا التذبذب بحكمِ توالي الأزمات وندرة الثبات والاستقَرار في كافةِ ميادين حياة المجتمع العراقي، الأمر الذي خلق خشية بنسبةٍ أكبر لدى العديد من أفرادِ هذهِ الطبقة لئلا يفقدوا مراكزهم ومكاناتهم بشكلٍ أوسع، بحيث إن عملها ونشاطها الآن ليس بالمستوى المطلوب الذي يُعوَّل عليه لإعادةِ التوازن للمجتمعِ العراقي.

لذلك باتت الطبقة الوسطى اليوم مُكبَّلة بظروفِ البقاء وارتباطها بالدولةِ والسلطة، الأمر الذي جعل منها مُجرد وجود هامشي قد لا يكون ذا فائدة مرجوَّة، فلم نلحظ دوراً محورياً لهذهِ الطبقة سوى الحراك الذي مارسه بعض أفرادها صعوداً نحو الطبقات العليا، بفعلِ الوصول إلى المراكزِ المُتنفذة في السلطةِ أو اكتساب الثروات ليصبحوا من مُلَّاكِ المجتمع، أو الهبوط نحو الطبقة الفقيرة بفعلِ عدم استقرار الأوضاع حياتياً وتذبذب سُبلِ العيش وضياع عناصر الضمان في كُلّ ميادين الحياة، واستمرار هذا التذبذب صعوداً وهبوطاً ببقاءِ تأزُّم الأوضاع وفقدان بوصلة الثبات للمجتمع.

ودخول العراق في مرحلةٍ جديدة ما بعد 2003 كان يُعوَّل عليها انتعاش هذهِ الطبقة لدورها الجوهري في المجتمع وصياغة التركيبة الواضحة له، إلا أنها عاشت نوعاً من الانزواءِ رغم الهزَّات العنيفة وفق نزوع لا يمكن معه تجسيد المصلحة العامة، فهي طبقة مُخدَّرة، مُفرَّغة هشة غير ضامنة لوضعها نوعاً ما، الأمر الذي لم يُشكِّل وجودها وعودتها للحياةِ أي أثر يُذكر من ناحيةِ التأثير على موقع الطبقة الفقيرة والبروليتاريا، بحكمِ ما تحمله من ثقلٍ كبير يُفترض أن يوجد في المجتمع، باعتبارها الرافد الحقيقي له بما تملكه من رأسمالٍ ثقافي واجتماعي وفق أُسس قياديةٍ تُشكِّل طليعة لهذا المجتمع، إذ تُعاني حالياً من غيابٍ أو انحسار الدور الحقيقي والأصيل لها كموجِّه للمجتمع بحسبِ ما تمتلكه من قدراتٍ بشرية قادرة على تَخَطِّي الأزمات لو اجتمعت ظروف الانطلاق عندها، اذ بقيت مُكبَّلة بظروفِ البقاء وارتباطها بالدولةِ والسلطة.

البروليتاريا والوعي الجديد
(المُهمَّشون الجُدد)

ربما كانت الأوضاع في عهدِ النظام السلطوي البعثي السابق قبل عام 2003 تختلف من ناحيةِ وعي الأمور بالنسبةِ للطبقةِ الرثة أو البروليتاريا، فلم يكن هناك بحكم خصائص ومُنطلقات المرحلة آنذاك، أيَ قدرة على اَلتَّحَكُّم بالوعي في إدارةِ مُجريات الحياة، إذ كان الإنسان العراقي بشكلٍ عام لا سيما الفقراء والمسحوقين على الأغلبِ مُغيَّبي الوعي وممسوخي الشخصية، وهم عبارة عن أدواتٍ تستعملها السلطة لتلبيةِ أمورها ومُتطلباتها. بمعنى قد تعطَّل العقل العراقي عن التفكيرِ والرغبة في بناءِ الشخصية والانطلاق في الحياة، إذ طُمست الشخصية وأصبحت تابعة خاضعة مُضطَهدة، غير قادرة على النهوضِ والشعور بالتقويضِ وَالتَّفَزُّم، بفعلِ الجبرية الحياتية والقهر الذي مورس عليها إبان تلك الفترة، على عكسِ مرحلة ما بعد 2003 بدأت الشخصية العراقية تُعيد جذوتها ومحاولتها لِتَبَنِّي أدوار الحياة وانتعشت ملكة الوعي لديها، إذ أصبح هناك نوع من التمييزِ أو قدرة على الوعي بزوالِ الاضطهاد ودكتاتورية الفرد الواحد، ومحاولة التفكير بأمورِ العيش وبطلان ما تنمَّطت عليه حياتهم في السابق، إلا أن الوعي العراقي للمُهمَّشين الجُدد بِكُلّ ما حمله من رغبةٍ في التغييرِ نحو الأفضل ونفض غبار الماضي ومقاومة الاضطهاد الجديد والدكتاتوريات، قد اصطدم بتعقيداتٍ تولِّي السلطة من جديدٍ والتناحرات العرقية والطائفية والمذهبية والمصلحية، الأمر الذي أجبره على التفكيرِ بما هو أفضل له، لكن دون جدوى حتى مع اللجوءِ لوسائلِ الضغط التي مُمكن أن تُعيد نصاب الأمور له بالاحتجاجاتِ والتظاهرات المُطالبة بالإنصافِ والحقوق، لذلك بات وعي المُهمَّشين الجُدد هذا مقموعاً بشكلٍ كبير، لا يُحسب له حساب، فهو وعي غير مُترجم على أرضِ الواقع بفعلِ التناقضات التي وجد الافراد أنفسهم بضمنها، وبالمقابلِ ولَّد هذا الوعي الجديد اضطراباً لمُتسيِّدي السلطة والخوف دائماً من ثورةِ اَلْجِيَاع والمُهمَّشين والفقراء هذه، والتي تُنذر بفوضى وخراب مجتمعي كبير، إذ بات هناك نوع من اَلتَّضَادِّ والصراع بين رأس الهرم السياسي والطبقات الفقيرة، ما دام هناك فشل سياسي ينجم عنه فوضى في التعاملِ مع الثرواتِ ومصادرة حقوق وإفقار مجتمعي واسع.

الطحن الاقتصادي المُمنهج

من غيرِ المعقول أن نتوقَّع رفاها اقتصاديا واضحا واقتصادا قويا في ظِلّ هذه الأزمات وعمليات الشد والجذب بين مُتسيِّدي السلطة والزاحفين نحوها وَمُلَّاك الثروات والطبقات الدنيا، الأمر الذي أثَّر بشكلٍ نوعي على مستوياتِ الدخل الفردي وتغيير خارطة الحياة وتحصيل العيش. فصناعة الفقر جاءت مُترافقة مع استمرارِ هذهِ الأوضاع المأساوية للفردِ العراقي من الذين قبعوا في قيعانِ الطبقات الرثة مروراً من عهدِ النظام البعثي السابق واستمراراً مع الأوضاعِ الحالية، إذ إن احتكار السيطرة على ثرواتِ البلاد والفشل في توزيعها بالشكلِ العادل

وهدرها بسببِ قضايا الفساد وتعقيداته، فضلاً عن التناحراتِ والتناقضات التي أعاقت سير الحياة في المجتمعِ العراقي بشكلٍ كبير، كل تلك المُلابساتَ ضربت اقتصاد البلاد في الصميم، فلا تنمية وتقدَّم وتطوَّر واستثمار ناجحَ مع كُلّ هذهِ المُعيقات، ولا ارتفاع في مستوياتِ الدخل الفردي وزوال مُعوقات الحياة مع ضياعِ حقوق المواطن ونهب ثروات البلادَ والدخول بدوامةٍ كبيرة من الفسادِ.

لذلك طُحن الفرد العراقي اقتصادياً، وبخاصةٍ أولئك المنتمين للطبقةِ الفقيرة، هذهِ الطبقة التي اتسع تهميشها وازدادت محنها وتوالت الأزمات عليها وضاقت سبل العيش في وجهها، الأمر الذي كوَّن نوعاً من النقمةِ على من هم في السلطةِ، مع يأس شديد من تحسَّنِ الأوضاع ومحاولاتٍ تعديل كل معوج، وبالرغمِ من الوعي الشديد بأهميةِ أن تتغيرَ الأحوال لهذهِ الطبقة من قبلِ أفرادها وانبروا يحاولون الحصول على فرصِ الوجود لهم بحياةٍ آمنة مستقرة تختلفَ عن سابقتها، وترجموا ذلك بعددٍ من الاحتجاجات والصيحات هنا وهناك، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشلِ بِتَضَافُرِ عوامل الفساد للإطاحةِ بهذا المجتمع وتوزيع مغانم ثرواته.

وقد أدَّت عملية سحق الفرد العراقي اقتصادياً بضمنِ طبقة المسحوقين إلى اشتدادِ الصراع بين أفراد هذهِ الطبقة ومن يمتلك الثروات ويديرها في البلادِ، وبخاصةٍ ان العراق يتمتع بثرواتٍ هائلة من الممكنِ أن تؤدي إلى عُلُوّ شأن الإنسان العراقي لو وظِّفت بالصورةِ النوعية وفق تنظيم دقيق مع زوالِ كل تعقيدات التكالب على السلطةِ والفساد واستغلال خيرات البلاد.

وكخلاصات أخيرة لهذهِ الورقة يمكن القول إن التهميش والإفقار القصدي الذي كان عليه أفراد الطبقة الفقيرة في المجتمعِ العراقي، قد ترسَّخا بشكلٍ كبير بعد انهيارَ النظام البعثي السابق عام 2003، فلم يؤد زوال النظام الدكتاتوري إلى اختفاءِ ملامح الفقر نهائياً أو تقلُّص طبقة المُعدمين هذه، وإنما بسببِ اَلتَّخَبُّط بالسياساتِ الحالية أدى ذلك إلى بقاءِ الفقر وسحق الفقراء بطريقةٍ قد صوَّرت لهم بأنه لا سبيل للخلاصِ من هذهِ الأوضاع المأساوية، بل آمن العديد منهم بحتميةِ سوء الأوضاع وصعوبة الفرار من جبريةِ هذا الطحن والسحق الاجتماعي بكافةِ أنواعه، واختلف وعي الطبقة الفقيرة في عهدِ النظام السابق عنه في ظِلّ سياسات الأنظمة الحالية، إذ كان الفقير سابقاً قبل عام 2003 تابعاً ومُستلب الشخصية ومُغيَّبا بشكلٍ كبير، فهو مُجرد أداة وحطب للحروبِ قد استعملها النظام آنذاك لتحقيقِ مكاسبه والوصول إلى غاياتهِ، وبحكمِ سطوة واضطهاد وجبروت ذلك النظام واَلخوف العميق منه، لم يكن يتجرأ أي فرد آنذاك على التصرَّفِ بسلوكياتٍ معينة أو يبدي رأيه أو يُعبَّر عن شخصيتهِ، إذ وفق النهج الدكتاتوري المُتبع سُحقت هذهِ الطبقة وَهُمِّشْت وتم إقصاؤها وعاشت حياة ملؤها الفقر المُدقع وتردي أوضاع العيش الإنساني وفقدان الهوية وتبعثرها وضياع كرامة الإنسان العراقي، إلا أن مرحلة ما بعد 2003 أفصحت عن زوالِ دكتاتورية الفرد

الواحد وتبلور وعي حقيقي لهذهِ الطبقة بمحاولةِ وضع جميع مُتطلبات حياتها على طاولةِ التشريح لمُعالجةِ ما يعتريها من تعقيداتٍ وتناقضات، وبدأت مرحلة حرية التعبير عن الرأي وان كانت بشكلٍ منقوص، ومحاولات إيصال أصوات وصرخات الفقراء لمُتسيِّدي السلطة، وتم وعي المرحلة على أنها لا تفي بتلبيةِ كل هذهِ المتطلبات، حتى مع دخولِ التجربة الديمقراطية التي أثبتت فشلها بشكلٍ كبير في تغييرِ أحوال المجتمع العراقي ونقله نقلة نوعية تختفي معها سياسات البطش والاضطهاد وضياع الحقوق، الأمر الذي ولَّد صراعاً حقيقياً بين البروليتاريا الرثة والطبقة العليا من متنفذي ومُتسيِّدي الهرم السلطوي، بل باتت هذهِ الطبقة الفقيرة تُشكِّل مصدر إزعاج وقلق كبير للسلطةِ والانظمة الحاكمة في العراق، بسببِ سلوكياتها الاحتجاجية المُطالبة بالتغييرِ وتحسين أوضاع الحياة في العراق وتطويق كل أدوات تنقيةِ المجتمع وازالة العثراتِ منها وتعرية جوانب الفساد ومحاولة القضاء على صورهِ، الأمر الذي جعل هناك ندِّية في التعاملِ العلاقاتي هذا، مع غيابٍ واضح وحقيقي لدورِ الطبقة الوسطى التي عادت للظهورِ بعد أحداث 2003 بتشكُّلها واتساعها، لكن دون تأدية الدور الجوهري لها وفقا لعدَّة اعتبارات منها ما يتعلق بِالتَّأَزُّم الواضح الذي تمر بهِ البلاد وكثرة التعقيدات السياسية والاقتصادية والحراك السريع صعوداً نحو الطبقة العليا وهبوطاً نحو الطبقة الفقيرة والتذبذب في ذلك، وتزاحم صور الفساد، والخوف والقلق الكبير من فقدانِ المكانة المُرتبطة بهذهِ الطبقةِ لدى الكثير من الأفرادِ وفق كل ملابسات ما يحدث من عدمِ استقرار على كافةِ الجوانب، وبطبيعةِ الحال كل ذلك شهد تراجعا كبيرا لدى أفراد الطبقة الفقيرة عن الاستمرارِ بالصراعِ للحصولِ على ضماناتِ العيش بحكمِ تأزُّم واقع الحياة المعيشية وانشغالهم بـ الَّهم الأكبر المُتمثَّل بضروراتِ العيشِ الإنساني، بل الإحباط الذي بات مُخيِّماً على غالبيتهم بلا جدوى التعامل مع الأنظمةِ الحاكمة ولا جدوى الحصول على مُكتسباتٍ من هذا البلد ومن خيراتهِ، واستحالة زوال التناحرات والفئويات والتناقضات بوجودِ فئات حاكمة ومُتنفِّذة تبحث عن المصلحةِ الشخصية دون العام.

وبتراكم هذه الظروف أصبح هناك تجسيد حقَيقي لمدياتِ الفقرِ والتهميش، والتي باتت تُشكِّل ثقلاً كبيراً على عاتقِ المجتمع، عقبات قصدية تم وضعها أمام محاولات تطوَّر وتقدَّم المجتمع، فالمآلات التي نتجت وستنتج من ترسيخ الفقر وازدياد إفقار أفراد الطبقة المُهمَّشة، سيكون لها أكبر الأثر على جوانبِ المجتمع الأُخرى، الأمر الذي أنذر بخرابٍ مجتمعي كبير قوَّض أُس الحياة ومحاولات تغيير الواقع ورسَّخ في مُخيَّلةِ العديد صعوبة تحقيق ما يؤدي إلى نهوضِ هذا المجتمع وتقدَّمه، إلا عند زوال صور التناحر والتخندَّق المصلحي والفئوي والعرقي والطائفي وتبدَّد صور الفساد وتطبيق التجربة الديمقراطية بنسبٍ مقبولة تتيح للمجتمعِ القدرة على النهوضِ ربما من جديد.

النظام الاقتصادي في العراق والإشكالية الطبقية

د.صالح ياسر: أرحّب بكم مجددا عزيزي د. مظهر محمد صالح.

يبدو أن التطور التاريخي للتجربة "التنموية" في بلادنا منذ ان اطلق الحاكم المدني لسلطة الاحتلال حينذاك، بول بريمر، "المانيفست الاقتصادي" في منتصف 2003 وما "فرّخه" هذا المشروع من طبقات وفئات وشرائح اجتماعية وقوى جديدة ومتنوعة قد أثار وما زال يثير العديد من التساؤلات حول طبيعة التشكيلة الطبقية وطبيعة السلطة "الجديدة" الناشطة فيها وموقع الدولة في هذه السيرورات المعقدة والمحاولات الكثيرة لإعادة تأويله في ضوء صعود الفكر النيوليبرالي الذي نافح ضد أي دور للدولة في الاقتصاد، وان ينحصر في دور "الدركي" فقط، والرهان على الخصخصة بطبعة صندوق النقد الدولي والبنك الدولي.

ويبدو أن مشروع السيد بريمر كان يهدف الى أن يكون بمثابة الاطار النظري للمشروع "التاريخي" الذي سعى التحالف الاجتماعي الجديد الذي تشكل على خلفية الحرب والاحتلال، لتوطيد مواقعه والتطلع نحو الاندماج في النسق الرأسمالي العالمي والحصول على موقع محدد في تراتيبية هذا النسق البالغ التعقيد، حيث تأخذ الدورة الانتاجية بموجب ذلك مسارات جديدة وتناسبات مجتمعية جديدة وتحالفات جديدة ايضا.

وبات اقتصادنا منذ تلك اللحظة يخضع الى "قيادة مركزية خارجية"، أي الى المستوى

الدولي ممثلا بالمنظمات الاقتصادية الدولية ومانحي القروض والمستثمرين الاجانب والشركات الاحتكارية المتعددة الجنسية.

وسؤالنا هنا: هو عن اثر الدالة الانتاجية وواقعها [القطاع الانتاجي] على التحولات الاجتماعية الطبقية التي حصلت بعد 2003، خصوصا من جهة تأثير السياسات اللبرالية الجديدة واقتصاد السوق المنفلت على الاقتصاد والمجتمع في آن واحد؟

الدكتور مظهر محمد صالح: من الصدف اللافتة ان المنعطفات السياسية التي حصلت في العراق في العام 2003 ومخاضاتها الاقتصادية والاجتماعية اللاحقة، جاءت متوافقة زمنياً والتغيرات الكبرى التي شهدتها الرأسمالية العالمية وانتقالها الى محاور استكملت فيها شروطها المعولمة كافة Global capitalism وهي تستقر في قمة تغيراتها التي بلورت ظهور الطبقة الرأسمالية العابرة للوطنية The transn-tional capitalist class وهي طبقة تأسست على ولادة سلاسل علاقات دولية لامركزية وفئات من المديرين والوكلاء والشبكات والمصالح ذات العلاقة العابرة

للوطنية وقوى عمالية موزعة على تلك السلاسل الانتاجية العابرة للبلدان، ولا يجمعها اي تنظيم عمالي، يدافع عن حقوق العمل. في حين يستظل نسق الانتاج العابر (اللامركزي) بمؤسسة (مركزية) تمسك في نهاية المطاف بقاعدة المعلومات وسلاسل الانتاج والتبادلات المالية عبر وكالات يتعاظم من خلالها التراكم الرأسمالي العابر لمصلحتها المركزية. وتوفر المراكز المذكورة في الوقت نفسه لتلك الشبكات اللامركزية روافع امتصاص الفائض الكامن في كل زاوية او ثغر انتاجي في العالم. اي ان أنظمة العولمة العابرة للوطنية تعمل (في نطاق سيطرة وهيمنة رأسمالية مركزية على الاقتصاد العالمي) بطريقة لا مركزية تقوم على تفكيك مراحل الانتاج والتجميع العابر للامم، والتي اطلق عليها الدكتور صالح ياسر حقا (القيادة المركزية الخارجية للرأسمالية).

فالعراق والتغيرات الاقتصادية والطبقية التي حصلت فيه بالتزامن مع العولمة، كان لا بد لها من ان تعكس اشد التحولات الاقتصادية اغتراباً وعبوراً للاقتصاد الوطني تماما.. ولكن يبقى السؤال هو .. كيف؟

يمكن القول بأن الاشارات الاولى جاءت على وفق ما يسمى بالدولة الصغيرة small state assumption والتي عبّر عنها الدكتور حيدر سعيد باصطلاح (الحد الادنى للدولة) لتأخذ سلطة الدولة دورها الابتدائي والمركزي في العراق الليبرالي الجديد بمنحى وفهم مختلف تماماً، ينسجم مع النسق الاقتصادي للعولمة.

فالدولة الصغيرة التي امست جزءاً من مبادئ اجماع واشنطن Washin-ton Consensus 1989 وهي ترنو الى فك القيود الرقابية الحكومية والتحرر من أي قيود أو ضوابط على ادارة الاقتصاد بالإضافة الى خصخصة الشركات المملوكة للدولة SOE,s .

فالخصخصة (التي لم تكتمل في بلادنا) قد استبدلت بنمط جديد هو اخطر من الخصخصة نفسها تمثل بإحلال قوى السوق وتذويبها في كيان الدولة لنحصل على مايسمى بالزبائنية الاقتصادية ec-nomic clientism . وهي نمط من التعايش السياسي الاقتصادي بين المتنفذين في ادارة الدولة الريعية والقطاع الخاص لتعظيم دائرة غامضة من التراكم سأطلق عليها: التراكم الرأسمالي الموازي pa-allel capital accumulation وذلك باستنفاد الريع النفطي من خلال الانتفاع من فرص الانفاق الحكومي والخضوع الى مايسمى بقيد الموازنة الهشة soft budget constraint (اي اختراق الانفاق الحكومي لتخصيصات الموازنة دون ان يرتب مساءلة قانونية).

وهكذا ولدت الزبائنية الاقتصادية بين اصحاب المصلحة واطرافها من الدولة والسوق، لتصبح عندها (الزبائنية المذكورة) ظاهرة عابرة للوطنية transnational cl-entism.

وعليه، وفي ضوء ما تقدم يمكن توصيف النظام الاقتصادي في العراق بكونه (نظاماً ريعياً مركزياً وبسوق ليبرالي معولم تتوافر له ضوابط شديدة الهشاشة).

ففلسفة الدولة الصغيرة بعد العام 2003 جاءت كما نوهنا آنفا كتعبير عن

تغيير نمط الانتاج الحكومي او ضمور دالة الانتاج الحكومية السلعية وتفكيكها. اذ ورثت الدولة عبر اجيالها قطاعاً عاماً ممثلاً بمشروع الدولة الصناعي والانتاجي الكبير، وهو نمط من انماط رأسمالية الدولة التي أوقفها قيد الدولة الصغيرة في العام 2003، وعد تفكيك دالة الانتاج الحكومية بمثابة المفهوم المناسب لاجماع واشنطن في تعريف الدولة الصغيرة او الحد الادنى للدولة. وهكذا عطلت دالة الانتاج الحكومية (الصناعية) وضربت بالصميم من خلال تجميد الحياة المصنعية للدولة، لتفهم الدولة الصغيرة على انها تعطيل وتفكيك المصنع الحكومي واي انتاج رسمي حقيقي باستثناء انتاج الخدمات الهشة ضعيفة الارتباط بالنشاط الحقيقي نفسه، ان وجدت. بل ظل قرابة نصف مليون عامل صناعي حكومي من اصل 750 الف عامل في القطاع المملوك للدولة SOE,s معطلين عن العمل خلال العقدين الماضيين تقريباً، وهم ما زالوا يتقاضون اجورهم ومرتباتهم بشكل (منح شهرية) تدفع من الموازنة العامة للدولة تعويضاً عن (تآكلهم الفني) وحتى اللحظة. ولم يعد لتلك المصانع والنشاطات الحقيقية في الغالب من وجود تكنولوجي او قيمة اقتصادية باستثناء بعض النشاطات المصنعية المرتبطة بقطاع الطاقة (النفط والكهرباء). وهكذا تبلور الموديل الريعي – الليبرالي السائد ليقوم على مقايضة عوائد النفط بالاستيرادات الاستهلاكية بالغالب وتحويل الريع الى ارباح تراكمية في دوائر انتاج العولمة.

ولكن يبقى التساؤل هو ما الذي حدث في اقتصاد الحكومة المنتج باستثناء القطاع النفطي؟ يمكن القول ان الدولة قد تحولت الى دولة صغيرة في تعطيل الانتاج الحقيقي، ولكن ظلت كبيرة في توزيع عوائد الريع النفطي على نشاطات خدمية تشغيلية حكومية تضم الملايين من قوة العمل، ولا تتعدى خدماتها 1200 خدمة، ويشغلها حالياً ـ كما نوهنا ـ اكثر من اربعة ملايين موظف حكومي، وهي في حقيقة الامر لا تستحق اكثر من 500 ألف موظف او وظيفة، فجلهم منغمس بالوظيفة العاطلة، وتسودهم مظاهر البطالة المقنّعة والانتاجية الهابطة التي لا تتعدى 18 دقيقة عمل يومياً، من اصل ساعات العمل الثمانية يومياً. فقد

تضاعفت اعداد الموظفين الحكوميين بحوالي 5 مرات خلال العقدين المنصرمين وزادت الرواتب والمعاشات قرابة 7 مرات، في حين لم يزدَد انتاج النفط نفسه إلا مرتين ولكن زادت متوسطات الريع النفطي على 5 مرات، عبر دورة الاصول النفطية وتحولت الدولة الصغيرة بمفهومها الى دولة ريعية غير منتجة بامتياز.

اما الاشكالية الاساسية الاخرى في مركبات الدولة الصغيرة في تمييع الانتاج الحكومي، فهي تعمق دور مفهوم الزبائنية الاقتصادية economic clientism بتركيبها الذي حل في مفاصل الدولة الصغيرة كنسيج سياسي تجاري، يربط مصالح بعض الساسة ومتخذي القرار بأنشطة السوق ووكلائهم، كزبائن من القطاع الاهلي سواء من مجهزين او مقاولين وأحزاب (ومكاتب اقتصادية)، ضمن هرمية افرزها النظام الاقتصادي القائم على (مبدأ الغنيمة the booty). في حين فكك اقتصاد السوق market economy مقومات انتاجه،

بعد ان اظهر ان (دالة الانتاج الاهلية) قد بدأت في التفكك هي الاخرى بافتراق العمل عن راس المال. اذ اخذت عوامل الانتاج بالذوبان من خلال توقف قرابة 800 الف عامل صناعي اهلي وذهاب اغلبهم في التحري عن فرص عمل حكومي. اي ثمة ذوبان بشري اقتصادي بالدولة الخدمية الكبيرة من خلال استبدال سوق العمل بالوظيفة العامة الريعية المضمونة الاجر. فمساهمة الصناعة التحويلية في الناتج المحلي الاجمالي، بقيت على سبيل المثال متدنية بشكل كبير، وهي اقل حتى من 1% وتبلغ حوالي (8. 0 %) من الناتج المحلي الاجمالي. كما ان القطاع الصناعي الاهلي الذي يضم تاريخياً قرابة 35 الف مصنع متوسط وكبير، وعلى وفق بيانات مؤسسة التنمية الصناعية، مضافاً الى ذلك قرابة 60 الف مصنع او ورشة صغيرة وحسب بيانات اتحاد الصناعات العراقي، انتهوا جميعاً الى الشلل التام. وان اعداد العاملين فيها التي تقدر بنحو 750 الف عامل حرفي وصناعي، هي الاخرى معطلة، ولا تتعدى المصانع والورش التي تشتغل حالياً الا قرابة 10% من اعدادها وبطاقات انتاج متواضعة او هابطة من مجموع مصانع او شركات القطاع الصناعي الخاص المذكورة آنفاً".

ولم يتلق القطاع الصناعي الاهلي اي دعم حكومي ملموس طوال اكثر من عقد ونيّف من الزمن، وبقي يتقلب ضمن سياسة صناعية غامضة، وسوق تتسم بالإغراق السلعي القامع للصناعة المحلية، باستثناء مبادرة تمويلية جاء بها البنك المركزي العراقي في العام 2015 لتنشيط الاقتصاد الوطني وانتشاله من حالة الركود الشديد وتفشي البطالة التي استقرت وما زالت عند مرتبتين عشريتين".

وإزاء تفوق مساحة العاملين المضمونين بالدولة، شهد متوسط دخل الفرد الحكومي تفوقاً يزيد بالاقل على مرتين دخل الفرد العراقي من حصته السنوية في الناتج المحلي الاجمالي. في حين ابتلعت فقرة الرواتب والمعاشات الحكومية حوالي 120% من الايرادات النفطية في العام 2020 ذلك في خضم ازمة مالية وصحية خانقة تخبطت بها البلاد، طوال العام الماضي، لتحافظ على تفوقها على الرغم من انخفاض النمو في الناتج المحلي الاجمالي بمقدار بلغ سالب 11%. وهكذا اصبحت الوظائف الحكومية مغرية تمتلك اشارات تفكيك لدالة الانتاج الاهلي من خلال اثر الكلفة في مستويات الاجر الحكومي على الاجر الاهلي، دون اثر للإنتاجية، والذي يسمى Bomual e-fect او cost disease.

فقد غدت ظاهرة مغادرة العمل من دالة الانتاج الاهلية الحقيقية الى اشغال الوظيفة الحكومية الخدمية او المكتبية هو النمط السائد في طموح القوى العاملة ما ولد حاضنة عمل طبقية هجينة حكومية، يمكن توصيفها (بالطبقة العاملة الريعية - الخدمية) والتي ينعدم فيها الانتاج السلعي او الحقيقي.

اما الطبقة الرأسمالية عموما والزبائنية او الزبائنية الاقتصادية خصوصاً، كما سميناها آنفاً، فهي ظلت تمتلك القدرة الفائقة على امتصاص ريع الدولة بشكل مباشر من خلال المقاولات والتجهيز والسعي وراء الريع rent seeking في التهرب

من القيود الضريبية والاجرائية وغيرها او التربح بشكل غير مباشر عن طريق قوة امساكها بدورتي الاستهلاك والتمويل في السوق وتدوير الفائض الاقتصادي الوطني وتحويله الى تراكمات مغتربة عابرة للوطنية وربطه في سلاسل (الوكالات) الخارجية للعولمة والتي تعنى بتعظيم التراكم وتدويره على الصعيد العالمي بصورة سلاسل لا مركزية.

كما تفككت بقايا دالة الانتاج في القطاع الاهلي التقليدي لتنضم هي الاخرى الى ظاهرة تكوين رأس المال التمويلي او الرأسمالية التمويلية financial capitalism. اذ ذهبت الرأسمالية العراقية بجلها نحو استبدال تكوينها العقاري او الصناعي وغيره والتوجه نحو تأسيس المصارف والشركات المالية وتمويل التجارة المرتبطة بها وتصفية نشاطاتها (العقارية والزراعية والصناعية) . فالنمط السائد للتجارة هو النمط التجاري الاستهلاكي السريع الربح والقادر بالوقت نفسه على تدوير التراكم الكامن Potential capital accumulation وربطه برأسمالية العولمة المالية التي تمثلها سلاسل النشاطات الدولية المتمثلة بأسواق الاوراق المالية العابرة للوطنية (بكونها وكالات العولمة والتي تعنى بامتصاص التراكم على الصعيد الاممي).

وبالمقابل عندما ننظر الى سوق الاوراق المالية العراقية تجدها سوق محلية هشة معزولة لا تشكل اي تنوع اقتصادي او تجسيد لقاعدة انتاج متنوعة النشاط بل تجد ان 90% من تداولاتها هي اسهم مصرفية اهلية، و90% من قيمة الاسهم تعبر عن حقوق الملكية او رأس المال السهمي لتلك المصارف، حيث تنخفض قيمها السوقية عن القيم الاسمية لها. معنى ذلك ان هناك تراكم رأسمالي ريعي (سالب او مغترب) . في وقت تعد فيه تلك المؤسسات الرأسمالية المالية رابحة بالغالب ولكن بعمليات خارج الموازنة off balance sheet، وذلك بسبب تركيب ملكيتها المهيمنة وانعدام فصل الادارة عن الملكية بشكل واضح، اذ تجد ان ثمة تراكما سريعا عبر دورها في امتصاص تمويل التجارة الخارجية الاستهلاكية، ولكن بالغالب بعمليات خارج الموازنة. وعد المصرف رافعة مالية لطبقة رأس المال المالي (الاوليغارشي) والمهيمنة على فرص الربح كافة لمصلحتها، بعيدا عن مصالح صغار المساهمين. فمصادر الربح التراكمي بصفاته الريعية من خارج الميزانية، أمست لا تتعدى خطابات الضمان للمشاريع الحكومية او التربح السريع من نافذة العملة الاجنبية، وهما مظهران ريعيان مهمان في تطور مظاهر الفائض الاقتصادي الطبقي لمصلحة الرأسمالية المالية، والتي أمست زبائنيتها معولمة كما نوهنا.

فالمحصلة الطبقية لاقتصاد السوق الحر في العراق هما الحصول على متغيرين متناقضين، يتمثلان بمركب العمل ومركب راس المال، فالاول، يتلخص ببقاء قوة العمل في القطاع الحر او الخاص وهي مازالت تعمل هامشيا بالغالب وبأجر جزئي ومؤقت، ولا توجد منظمات عمالية فاعلة او أنظمة حماية كفوءة، تتعاطى مع سوق العمل التي تضم اليوم قرابة 7 ملايين عامل. وان وجدت تلك النظم الحمائية فلا قيمة عملية لها. اما رأس المال كمتغير ثاني، فليس له مؤسسات وطنية وانما

المؤسسات الخارجية التي تعمل كوكالات او حواضن للعولمة global agencies تتولى اليوم وبقوة امتصاص الفائض الاقتصادي الداخلي وتحويل التراكمات المحلية لتصبح عابرة للوطنية وتدمج بالرأسمالية المالية المعولمة العابرة للوطنية financial transnational capitalist class. فالاقتصاديات الطرفية للعولمة والموجودة في البلدان المحيطة بالعراق setilites economies قد عملت على تدوير التراكمات الرأسمالية العراقية بسرعة مذهلة وامتصاص هائل، بعد تحويلها الى رأسمالية مالية عابرة كما اسلفنا. وتعد تلك الرأسمالية المالية في انظمة العولمة اقل كلفة في الادارة واسرع اندماجا في رأس المال العالمي ووكالاته من خلال اسواق الاوراق المالية الدولية ومجمل الاقتصاد الرمزي المعولم Gl-bal token economy .

وهكذا افرغ العراق من مقومين من مقومات دالة انتاجه؛ الاول، العمل المنتج اذ غدت سوق العمل العراقية رمادية التوصيف gray وهي خدمية وهامشية. والثاني، هو ان البلاد افرغت من رأس المال واخليت دورات التراكم الرأسمالي لتستقر في معاقل العولمة ووكالاتها وسلاسلها المالية اللامركزية ضمن تشكيل انتاج متسلسل اسميها مجازا: بدالة الانتاج المغتربة expat production function وهي دالة تتغذى بالتراكم الرأسمالي الوطني او العراقي المتسرب او العابر نحو الخارج.

اذ اندمجت دالة الانتاج العراقي المغتربة براس المال والكثير من العمل في دالة انتاج العولمة وبالتالي خسر العراق تراكم رؤوس أموال مادية وبشرية وقاعدته الانتاجية التي امست مغتربة بسبب ليبرالية النظام الاقتصادي، والتمسك بمفهوم منقلب للدولة الصغيرة الذي اشاع البطالة وفكك النمو الاقتصادي ليس إلا.

وتاسيساً على ما تقدم، يظهر التحليل الطبقي ان رؤوس الاموال العراقية المغتربة (كطبقة بنفسها) امست جزءا من الرأسمالية العالمية العابرة للوطنية. وغدا رأس المال العراقي يوصف بكونه مغترباً او عابراً للوطنية. وتشكلت في الوقت نفسه حواضن لرأس المال المالي العراقي العابر للوطنية في دول الجوار الاقليمي وهي تمثل (معسكرات امتصاص متقدمة) لتلقي رأس المال وتدوير التراكم وتسربه الى خارج بلادنا، وعدها ظواهر التصاق جديدة وجسور عبور نحو اقتصاد العولمة. فقد ظهرت وكالات متقدمة للعولمة محيطة بالعراق تسمى (بالاحيائية الاقليمية bioreginalism) وهي ميكانيزم تعمل على تدفق التراكم الرأسمالي العراقي الى الاقاليم الجغرافية التي يتناغم معها راس المال العابر عرقيا او طائفيا او اثنياً او ايديولوجيا، ليشكل دالة انتاج في دول الجوار، كتعبير عن جاذبية ثقافة رأس المال العراقي وسهولة تعاطيه اثنياً وعرقيا او طائفيا ليصبح عابرا للوطنية، وبأفق ضيق نحو شبكات العولمة.

وبالمقابل، أصبحت قوة العمل العراقية الداخلية في حالة (اغتراب ذاتي) عدا حالات الاغتراب alienation الخارجي لتتعثر بين حالات توقف نشاطات الانتاج المحلي واضطراب سوق العمل، لتنتهي بتعاظم جيوش العاطلين تحت مطرقتي ندرة فرص العمل الدائم وضيق أفق الاستثمار

المحلي مقابل استمرار تفكك قاعدة الانتاج وسرعة تركز تدوير رأس المال الوطني واجمالي التراكم الرأسمالي ليتسرب الى معاقله خارج البلاد.

فمنذ العام 2003 الى اليوم لم تنخفض معدلات البطالة في صفوف العاملين عن مرتبتين عشريتين وهي بطالة هائلة تتسع بين صفوف الشباب وتصل الى 27% من قوة العمل الشابة المهيمنة مع فقر كبير وهشاشة اجتماعية واسعة.

وما نريد قوله ان هناك نمطين من الفائض: الاول، (فائض انساني human surplus) وهو البطالة الداخلية. والاخر، (فائض في رأس المال) الذي يتسرب الى معاقله الخارجية مندمجاً في معاقل التراكم المتسارع للعولمة ضمن الطبقة الرأسمالية العابرة للوطنية. وهو اليوم جزء لا يتجزأ من الطبقة الرأسمالية المعولمة.

وهكذا اصبحت الرأسمالية الوطنية كطبقة بأموالها هي ضمن تشكيل رأس المال المالي العالمي العابر للأوطان، ويعمل في اطار دوال انتاج مغتربة expat production functions كما ذكرنا انفاً، تقابله قوى انسانية فائضة مغتربة داخلياً. فمثلما هناك فائض انساني داخلي، هناك فائض قيمة مغترب خارجي عابر للعراق.

وإزاء الفجوة الطبقية classes gap بين (الفائض الانساني داخل العراق) و(فائض القيمة) او التراكم لرأس المال العابر للوطنية لطبقة رأس المال العراقي والمغترب خارج البلاد، فقد خلقت لدينا (فجوة هيكلية في التنمية الاقتصادية)، يمكن ان نسميها مجازاً بـ(فجوة التنمية الاقتصادية economic development gap). فاذ ما اخذنا احداث تشرين 2019 وموجة الاضطرابات وقت ذاك، فهو تجسيد لاضطراب اجتماعي داخل فجوة التنمية نفسها، وأسميها مجازاً (صخب الفائض الانساني human surplus clamor) ذلك في اطار تشخيص الاشكالية الطبقية للعراق منذ العام 2003.

اما الانتاج السلعي الذي تحدث عنه الاستاذ الجليل الدكتور كاظم حبيب، فهو شيء لافت حقا. فما زالت الزراعة لا تشكل سوى 5% من الناتج المحلي الاجمالي والصناعة التحويلية تمثل اقل من 1% من الناتج المحلي الاجمالي كما ذكرنا سابقا. فقطاعا الزراعة والصناعة التحويلية يشكلان اليوم مساهمة بين 5 أو 6 % من الناتج المحلي الاجمالي، وهما يضمان قرابة 38 % من قوة العمل العاطلة او المهمشة في هذين النشاطين الحقيقيين. يقابلها قوة العمل الحكومية، وهو فائض عمل انساني مغلف بالعمل يعتاش في مؤسسة حكومية حامية من البطالة الفعلية، وتستظل في الوقت نفسه باستدامة بطالتها المقنعة أو تشغيلها الخالي من الانتاجية التي تناسب الأجر.

فهكذا ظلت مستويات البطالة داخل البلاد متفوقة وتعلوها الانتاجية الهابطة في مستويات تعطل خطيرة جدا.

يلاحظ ان في مثل هكذا نمط انتاج ريعي - ليبرالي، لا تولد ثقافة عضوية فاعلة ولا طبقة ذات وعي عضوي مؤثر، ولا فكر تنموي ناشط، وانما هو وجود نمط حياة وطراز معيشة هش طبقياً، داخل المجتمع، يتقاتل افراده على قطرات النفط وريوعه وهو موزع بين طبقة رأسمالية (نهمة مغتربة) تعيش على عوائد التراكم

الرأسمالي العابر للوطنية، وبين طبقة عاملة (فائضة بشرياً) تعتاش على فتات الريع النفطي وهي اشد اغترابا.

واخيراً، يمكن ان نستخلص ان البلاد تعيش فراغ التقدم الاجتماعي والاقتصادي، وتبعثر الوعي الطبقي في اطار دولة ريعية - ليبرالية شديدة الزبائنية، وان اخطر هذه الفراغات هو (فراغ التنمية) الذي سببته اخطاء المنهج الاقتصادي في توصيف الاقتصاد نفسه، او فقدان (المنهجية الاقتصادية) والولوج بإجماع واشنطن الذي ابتدأ اساساً بقمع الوظيفة الانتاجية للدولة (رأسمالية دولة)، وتقويض أسس التنويع الاقتصادي والسير بأحادية الاقتصاد الى اقصى شوط واحلال قطاع (رأسمالي اهلي) هارب بتراكمات مالية نحو شبكات العولمة.

فمع تعطل وظيفة الدولة الانتاجية كإنتاج سلعي حقيقي، قمعت ابجديات التنمية الاقتصادية وولد اقتصاد سوق غامضا، يعمل بليبرالية كبيرة. اذ اوجد التحرر الاقتصادي المنفلت تناقضاً طبقيا واجتماعيا حاداً بات مفككا ومغيبا لدالة الانتاج الوطنية: اولهما، يتمثل بتركز رأس المال المالي المغترب وهو يبحث بتراكماته عن مؤسسات آمنة تحتضنه، وليس أمامه سوى فروع الشركات المعولمة بشبكاتها العابرة للوطنية. والثاني تراكم (فائض انساني) يبحث عن مؤسسات وسوق منظمة للعمل ولم يجدها، فضلاً عن تهافت دور التنظيمات النقابية العمالية المدافعة والتي غيب عملها.

نحن نعيش في اقتصاد (الحالة الراهنة) ويتمثل بغياب دوال الانتاج الوطنية التي تفكك فيها رأس المال الوطني، واغترب ماليا وطبقياً صوب معاقل العولمة وشبكاته المدورة للتراكم الرأسمالي ولمصلحة مراكزها.

كما اضافت الليبرالية العراقية نظاما طبقيا مقلوبا رأسا على عقب لترسي بدورها عقدين آخرين من عقود التنمية الضائعة. ولم تؤسس تراكماتها الكبيرة لتنمية حقيقية، إنما أسست لفوضى السوق الاستهلاكية السريعة الربح والممولة بالحد الادنى من عوائد رأس المال المالي، وأهدرت فيها الثروات الرأسمالية على مدى عقدين من الزمن، بعد ان التحقت تراكماتها المغتربة بالطبقة الرأسمالية المعولمة العابرة للاوطان transnational capitalist class. وولدت بطالة عمل مستدامة في الداخل ونماذج نمو صفرية بالغالب.

وهكذا امتدت عقود التنمية الضائعة في العراق، واستطالت لتصبح أربعة عقود من التراجع والتقهقر الاقتصادي تخللتها ظاهرتان عرف فيهما الفائض الاقتصادي المغترب للعراق: احداهما بشرية وهي: (تراكم الفائض الانساني من العاطلين المغتربين داخلياً)، والاخرى مادية تمثلت بـ: (تراكم فائض القيمة لراس المال المغترب خارجياً او العابر للوطنية).

ختاماً، لقد تفككت دوال الانتاج الوطنية الكلية، وفقدت تجانسها الطبقي في سوقي العمل ورأس المال، تحت وطاة ظاهرة الاغتراب الشامل Co-prehensive Alienation، والارتباط برأس المال العالمي.

تعمق الاقتصاد الريعي ودور الدولة الريعية في العراق بعد 2003

وبعد ذلك كرّر د. صالح ياسر الترحيب بالأستاذ رائد فهمي. ثم قال:

ان واحدا من التحديات الكبرى التي تواجهها عمليات الانتقال الديمقراطي هي طبيعة الاقتصاد العراقي وهو اقتصاد ريعي بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، مما يطرح جملة تناقضات، من بينها التناقضات بين الديمقراطية والاقتصاد الريعي. وهذه التناقضات هي تناقضات بنيوية وليست عابرة، إذ أنها تتعلق ببنية الدولة الريعية وطبيعتها التي لا تولد الممكنات لبناء الديمقراطية، وإنما تعزز السمات التسلطية (الدكتاتورية)، حيث ان الدولة، وفي ظروف ضعف المؤسسات التمثيلية الديمقراطية، هي المتحكم بالثروة الوطنية وبكيفيات توزيعها واعادة توزيعها، علما ان الدولة في العراق هي أكبر رب عمل.

وهكذا، اذن، وبدلا من ان تتيح الثروة النفطية فرصا حقيقية للتراكم، وللتنمية الاقتصادية والاجتماعية، لما تمثله هذه الثروة من موارد مالية ضخمة جاهزة، فانها غالبا ما افضت الى نشوء اقتصاد مشوه وتابع واحادي الجانب وريعي.

وبينت التجربة ان التصرف بثروة نفطية كبيرة أتاح للدولة، والنظام السياسي السائد، والى مدى بعيد، التحكم بالحراك الاجتماعي وتراكم الثروة لدى الفئات والشرائح المختلفة. وبفضل ذلك استطاع النظام السائد خلال فترة زمنية وجيزة نسبيا، أن يلحق تغييرات جوهرية في الاصطفاف الاجتماعي، من خلال التحكم بتوزيع الثروة، ما افضى الى تدهور وتبدد شرائح وفئات اجتماعية، وظهور شرائح وفئات اخرى ترتبط مباشرة، من خلال وشائج الولاء والقرابة والمحاسيب، بالنخبة المهيمنة على الدولة ونظامها السياسي.

وسؤالنا هنا هو الاتي:

ما هو أثر تعمق الاقتصاد الريعي ودور الدولة الريعية على التحولات الاجتماعية في العراق بعد 2003؟

رائد فهمي: من خلال المشاركات التي مسحت الواقع العراقي أنا اسميه افقيا وعموديا. افقيا بمعنى اللوحة للمجتمع، كما هو بكل تضاريسه وتنويعاته، كذلك عموديا من خلال البنية الاجتماعية بكل عناصرها، ولا اقول الطبقية لأن هذا المفهوم مثلما جرت الاشارة له هو الان موضوعنا. وانا اعتقد علينا ان نتفق ان العراق في حالة انتقالية على صعيدي الاقتصاد والمجتمع ككل. والسؤال حاليا هو هل نحن نمتلك، مقارنة بـ 2003، معطيات أكثر وأفضل لتوصيفهما، أي المجتمع والاقتصاد، بحيث نستطيع أن نشخص ونتعرف الى طبيعة التناقضات والديناميكيات لهما، وفيما اذا كانت الظواهر والتناقضات المنتجة للأزمات، التي أشرتم لها في مقدمة سؤالكم، والتي تطبع التطورات السياسية والاجتماعية – الاقتصادية، منذ التغيير في ظل تكرس وتعمق الطابع الريعي للاقتصاد العراقي وتداعياته الاجتماعية - السياسية، قادرة على الاستمرار، وان يعيد هذا النظام المرتكز على البنية الريعية انتاج نفسه الى مديات زمنية طويلة جدا، أم ان تناقضاته تصل الى حد، يقود إلى طريق

مسدود تنتج عنه بالتالي ازمة كبيرة تطرح مسألة التغيير بإلحاح أو انهياره. وقد تؤدي الأزمة الناجمة عن هذا الانسداد في قدرة النظام على الاستمرار بسبب تناقضاته الداخلية، إلى تصدعه وتفككه الداخلي من دون حدوث التغيير المطلوب في حال عدم توافر أو اكتمال عناصر ومقومات البديل، أي عندما تكون الأزمة بتعريف غرامشي لها، يحتضر القديم ولمّا تكتمل قدرة ونضج الجديد ليزيح القديم، وعندئذ ستكون التداعيات والمآلات وخيمة على الصُعد الاقتصادية والسياسية الاجتماعية.

فهل من الممكن اليوم ان نحدد بصورة أكثر وضوحا ودقة اتجاهات التطور القادمة ونستشرف المستقبل في ضوء المعطيات الجديدة. فليس كافيا ان نصف الماضي وواقع الحال. نعم، هذا مطلوب من الناحية الاكاديمية والعلمية، لكننا مدعوون أيضا لان نتعامل مع هذا الواقع بكل تعقيداته وان نبلور توجهات ونحدد مسارات لكيفية الارتقاء بهذا الواقع وتجاوز ما هو موجود. في هذا السياق من المهم تحديد بصورة أكثر دقة القوى والشرائح الاجتماعية التي تستند عليها المنظومة السياسية الحاكمة وتعبر عن مصالحها، وتلك القوى والفئات والشرائح الاجتماعية ذات المصلحة والاستعداد للتصدي والمشاركة في عملية التغيير، ما يساعدنا في التوصل الى بعض الاستنتاجات التي تتيح لنا استشراف المستقبل.

فالاقتصاد الريعي هو الذي يشكل فيه الريع المصدر الرئيس الدخل القومي ولموازنة الدولة، والريع عائد ناجم عن الملكية لا يقابله انتاج لسلع أو خدمات، في

حالة العراق، فإنه يمتلك النفط الذي تتحدد اسعاره دوليا وليس محليا، وبالتالي ينشأ فائض أو زيادة لأن السعر العالمي غير مرتبط بظروف وشروط وتكاليف استخراج وتصدير النفط في العراق، وانما بأوضاع السوق العالمي وبأعلى تكاليف لاستخراج النفط من الابار في العالم. لذا تأتي للدولة العراقية، باعتبارها المالكة والمسيطرة على الثروة النفطية، عوائد نفطية كبيرة، يشكل الريع الجزء الأعظم منها، من دون الاعتماد على المجتمع. وطريقة التصرف بالريع النفطي بيد من يسيطر على الدولة ويرسم سياساتها، وتعتمد آثار انفاق الريع على توجهات السلطة الحاكمة التي تتحكم به.

ويلاحظ أن البلدان المتقدمة المنتجة للنفط، كالنرويج، استطاعت إدارة المورد النفطي بطريقة حيدت الآثار السلبية للريع كما أنها بلدان متهيكلة اقتصاديا وذات قاعدة إنتاجية متنوعة وذات بنى مؤسسية مستقرة ومتقدمة، فاستطاعت أن تتعامل مع الريع بصورة عقلانية وبآليات معروفة ولم ينتج عنها الظواهر الريعية والتداعيات الريعية كما نشأت في مجتمعنا واقتصادنا.

ففي بلدنا سيطرت على السلطة قوى سياسية ذات قاعدة اجتماعية محدودة وصغيرة نسبيا، وخصوصا في أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن الماضي، عندما ارتفعت العوائد النفطية، إذ لم يكن الريع كبيرا في فترة الحكم الملكي خمسينات القرن الماضي، وازداد في الستينات وخصوصا بعد تأميم النفط عام 1972 والقفزات المتتالية في أسعار النفط في السبعينات. واستخدمت قوى السلطة الريع لتوليد شرعية سياسية وقاعدة اجتماعية في الفئات الحاكمة وكذلك لتعزيز هيمنة النخبة، وهذه العملية في الجانب التوزيعي أدت الى ان تمتلك الدولة استقلالية كبيرة عن المجتمع، وبالتالي تستطيع أن تفرض الهيمنة عليه وتشدد من اعتماده على الدولة.

ومن هنا تنشأ إمكانية انعكاس اتجاه العلاقة والتأثير بين الدولة والمجتمع. فبسبب ضعف التبلور في البنية الطبقية للمجتمع وفي تطور القوى المنتجة، تمتلك الدولة استقلالية عن المجتمع، عززها الريع النفطي وزاد من قدرتها في أن تلعب دورا كبيرا في تحديد البنية الاجتماعية، أي أن الدولة لا تعبر عن موازين القوى المجتمعية بقدر ما أصبحت الدولة تتحكم في هندسة المجتمع، اذا جاز التعبير. وهذا ما أدى الى ان الكثير مما اشير اليه.

فالدولة تتصرف بالريع بواسطة عدة آليات، أهمها الانفاق الحكومي بشقيه التشغيلي والاستثماري، فهو يلعب دورا كبيرا ايضا في تقريب أو ترجيح خدمة مصالح هذه الفئة الاجتماعية او في ابعاد أخرى. وتنامى دور الدولة الاقتصادي منذ أواسط ستينات القرن الماضي، واتسع قطاع الدولة أكثر مع ارتفاع الإيرادات النفطية أواسط سبعينات القرن الماضي ليشمل القطاعات المختلفة الصناعية والخدمية. ومع أن الملكية ذات طبيعة عامة تعود إلى الدولة، إلاّ أن قانون القيمة الرأسمالي يسري مفعوله في شركات قطاع الدولة ومصانعه حيث يستخدم العمل المأجور ومعيار الربح وبالتالي، إلى جانب توسع التعاقدات مع مقاولي القطاع الخاص، ما يسمح بتوصيف النظام الاقتصادي برأسمالية دولة، فعمال قطاع الدولة يخلقون فائض قيمة، ولكنه يذهب للدولة للتصرف به. وأثرت رأسمالية الدولة في بنية المجتمع، إذ نشأت علاقات متشابكة بين المسؤولين في الدولة والقطاع الخاص، خصوصا مع فئات المقاولين والتجار ما انعكس على المضامين الاجتماعية لسياسات حكم البعث، إذ تنامت فئات ما اطلق عليها البرجوازية البيروقراطية والبرجوازية الطفيلية التي تضخمت ثرواتها التي مصدرها كومشنات العقود وعوائد التهريب والسوق السوداء، وجاءت الحروب والعقوبات الاقتصادية الدولية القاسية لتخلق واقعا آخر، يتسم بتفكك النسيج المجتمعي والتشظي والتهميش.

عند تحليل المجتمع العراقي الراهن، يلاحظ استمرار وتنامي ظواهر التشظي في بنيته الاجتماعية – الاقتصادية والاجتماعية - السياسية. فتوجد أولا مسألة العلاقة بين التنوع القومي والديني والمذهبي وبناء الهوية والانتماء الوطنيين، أو عملية بناء الأمة على حد تعبير المرحوم الدكتور فالح عبد الجبار. وقد تحول هذا التنوع إلى إشكالية كبيرة ارتباطا مع تنامي اتجاهات

تسييس الهوية. وقد برزت هذه الإشكالية من خلال النظر إلى الدولة العراقية كدولة مكونات بدلا من دولة المواطنة، وقد تأسست هذه النظرة المكوناتية قبل العام 2003 في فترة المعارضة ثم تعززت وتكرّست دستوريا بعد التغيير عام 2003.

إلى جانب ذلك، كان من نتائج الآثار التراكمية للدكتاتورية وقمع الحريات من جهة، والحروب المدمرة المتتالية والحصار الاقتصادي الشديد القسوة الذي فرض على العراق لقرابة عقد من السنين خلخلة وتفكيك البنى الاقتصادية والنسيج الاجتماعي، إذ أدى إلى اضعاف بنى الدولة وتقليص دورها الاقتصادي والاجتماعي وتضييق مساحة سيطرتها وقدرتها في التشغيل وتأمين الرواتب والأجور بصفتها أكبر رب عمل في الاقتصاد العراقي، ما أدى إلى نمو اقتصاد ظل غير خاضع للتنظيم والضبط الحكوميين يشتمل على أنشطة مشروعة ذات طبيعة خدمية بسيطة، في قطاعات التجارة والنقل والأعمال الحرفية، وأخرى غير مشروعة مرتبطة بالسوق السوداء والتهريب وتبادل العملة. وتولدت نتيجة كل ذلك عملية تشظي شملت بنى الدولة والاقتصاد واستوعبت أنشطة القطاع غير المنظم المتسارع النمو أعدادا كبيرة من العاملين، شكلوا فئات واسعة من المهمشين؛ إذ بلغت نسبة الفقراء والمهمشين 57% من القوى السكان في تسعينات القرن الماضي حسب إحصائية أشار لها المرحوم فالح عبد الجبار. هذه نسبة مرتفعة جداً. وفي وقتنا الحاضر لا تتوفر احصائيات دقيقة لتحديد النسبة، لكن من المرجح أن تكون النسبة عالية أيضا.

أعتقد أن هذه الفئات أكبر وأوسع من التوصيف بالبروليتاريا الرثة التي تشكل جزءا منها. ولطبيعة ظروف عمل هذه الفئات وعدم انتظامها في اطر هيكلية منظمة تحكمها ضوابط دقيقة، ولكون عملها غالبا ما يكون فرديا أو مع عدد صغير من الشركاء، وتكون أوقات العمل اليومي طويلة، فإنها لا تخضع للاستغلال المباشر من قبل رب عمل في اطار بنية اقتصادية واضحة المعالم، ومن الصعب أن تكتسب وعيا طبقيا كما هو الحال بالنسبة للعمال في المصانع، ولكنها تشعر بظلم النظام السائد ومؤسساته لها، كما أن ظروف حياتها الصعبة، تولد لديها مشاعر تذمر ورفض وسخط قابلة لأن تتحول إلى تمرد وفعل سياسي احتجاجي. وتكشف تجارب العديد من البلدان، بما في ذلك العراق، أن هذه الفئات لا تستسيغ وغير ميّالة للتنظيم السياسي في الأطر التنظيمية ذات التراتب الهرمي كالأحزاب، وتميل إلى الالتفاف حول رمز ديني أو اجتماعي أو حول قائد سياسي كارزمي. ومثل هذه الفئات غير المتجانسة التي لا ينحصر وجودها في البلدان النامية والضعيفة التطور بل وحتى في البلدان الرأسمالية المتقدمة.

تبين الوقائع أن الأحزاب والاطر التنظيمية المؤدلجة لم تنجح في استقطاب وتنظيم هذه الفئات والشرائح وانما تشكلت حركات اجتماعية واسعة تضمهم مع فئات وسطى متنوعة من العمال والكوادر الإدارية والفنية الذين تم تسريحهم من العمل أو المعرضين للتسريح، والباحثين عن العمل من الخريجين والطلاب ذوي الاختصاصات المختلفة، إضافة إلى

المحتجين على سوء الخدمات وانصار البيئة وغيرها من الفئات والشرائح التي تحمل مطالبها الخاصة.

وقد استطاعت هذه الحركات الاجتماعية التي تضم هذا الطيف الواسع والمتنوع من القوى والتنظيمات والحركات ذات المطالب المتنوعة، أن تجمع وتوجه مشاعر الغضب والسخط ضد الأنظمة الحاكمة والقوى والشخصيات المرتبطة بها.

وتبين تجارب الربيع العربي والسترات الصفر في فرنسا والحركات المناهضة للعولمة، أن هذه الحركات قادرة على هز النظام السياسي وإسقاطه، لكنها لم تنجح في تقديم بديل حقيقي.

واذا ما تمعنّا في تحليل الفئات والشرائح الاجتماعية الأساسية التي شكلت القاعدة الاجتماعية لانتفاضة تشرين الباسلة، نجد أن الفئات المهمشة كانت القوى المحركة الاساسية لها. نعم، شاركت في الانتفاضة فئات أخرى، لكنها كانت القوة الاكثر صدامية والأكثر استعدادا لتقديم للتضحيات، وواجهت الرصاص بصدور عارية، وإن هذه الفئات ولغاية اليوم هي الأكثر استعدادا للاحتجاج.

إلاّ أن التعبير السياسي المنظم لهذه الشرائح، لا يزال غير واضح المعالم، وفي طور التشكل.

أود لفت الانتباه إلى أهمية الأخذ بالاعتبار التشظيات في المجتمع العراقي عند دراسة وتحليل توزيع وتقاسم الريع والانقسامات العمودية التي كرستها الطائفية السياسية ونظام الديمقراطية التوافقية. وإذ تقوم فلسفة الديمقراطية التوافقية في بلد متعدد القوميات والأديان والمذاهب والجماعات الثقافية وتتسم العلاقات في ما بينها بالتوتر وعدم الثقة ـ كما في العراق ـ على إيجاد حالة من التعايش والسلم الأهلي والاستقرار من خلال مشاركة ممثلين لجميع هذه الاطياف أو المكونات، كما درج تعريفها أو توصيفها في الدستور، في الدولة وفي مؤسساتها وأجهزتها التنفيذية والتشريعية والقضائية. واعتمدت العملية السياسية نهج المحاصصة القومية والدينية والمذهبية لترجمة وتطبيق هذه الوجهة. وهذا يعني في الوقت نفسه التحاصص. أو بمعنى آخر تقاسم الريع النفطي بين المكونات وفق أسس ومعايير يتم التوافق عليها.

وبعد ما يزيد على العقد ونصف من تجربة بناء الدولة والحكم وفق نهج المحاصصة، نجد حصيلتها جهاز دولة متشظ ومتضخم ينخره الفساد وسوء الأداء بسبب اعتماد الزبائنية والولاءات والمحسوبية في اشغال الدرجات العليا ومختلف المستويات القيادية في الوظيفة العامة والأجهزة العسكرية والأمنية. وأصبحت الدولة ذاتها ميدانا للصراع المستمر ما بين قوى الطائفية السياسية من أجل زيادة الحصص في مواقع السلطة ومغانمها. وفي مجرى هذه العملية استأثرت الأحزاب والقوى والشخصيات الممثلة المفترضة للمكونات بالحصة الأكبر من المغانم وتراكمت لديها ثروات ضخمة حصلت عليها من امتيازات السلطة وما استحوذت عليه من المال العام عن طريق الفساد السياسي والمالي والإداري. وبالمقابل ارتفعت معدلات الفقر والبطالة وتدهورت الخدمات العامة والبنى التحتية المادية والاجتماعية وتعمقت الفوارق في الدخل والثروة بين الفئات الماسكة بالسلطة

التابعة للقوى السياسية الممثلة للطوائف وشريحة المقاولين والتجار والوسطاء التي ترتبط بها بوشائج المصالح والانتماءات السياسية والدينية والمذهبية والقومية والعشائرية والمناطقية والعائلية، وبينها وبين السواد الأعظم لأبناء المكون الذي جاءت هذه القوى إلى السلطة لتمثيله.

فلم تعد الديمقراطية التوافقية تضمن تمثيلا للمكونات، وإنما انحسرت إلى مشاركة الشرائح التي احتكرت تمثيل المكونات، أي الاحزاب التي استحوذت على الثروات والمنافع وقدموا مصالحهم على حساب خدمة الوطن والمكون. في ضوء ذلك نخلص إلى الاستنتاج بأن هدف الديمقراطية التوافقية في تأمين المشاركة الفعلية للمكونات في سلطات الدولة لم يتحقق. كما لم يتحقق الأمن والاستقرار المنشودان، وفسدت الدولة وغابت العدالة الاجتماعية، وتعمق الفرز الاجتماعي - الاقتصادي في المجتمع ككل، وداخل كل مكون. لذا نشهد ما نشهد من تمرد واحتجاج من ابناء هذه المكونات ضد ممثليهم. فبات لدينا اذن أزمة تمثيل اجتماعي وتمثيل سياسي.

إلى جانب العلاقة بين الدولة الريعية والمجتمع، تأتي العلاقة بين الدولة الريعية والديمقراطية في مقدمة اهتمامات تنظيرات الدولة الريعية والأبحاث والدراسات عن أنظمة الحكم في البلدان ذات الاقتصاد الريعي. فحسب الطروحات النظرية للاقتصاد السياسي للدول الريعية، فإن امتلاك الدولة للريع كمورد رئيس مصدره خارجي غير مرتبط بالمجتمع، يمنحها الاستقلالية عنه، ويتيح للفئة السياسية الحاكمة تثبيت وتعزيز سلطتها وتوسيع قاعدتها الاجتماعية وتقوية شرعيتها من خلال التحكم بعملية توزيع الريع على الفئات والشرائح الاجتماعية والمناطق والقطاعات والنشاطات الاقتصادية، ومقايضة الحصة في الريع مقابل الولاء، وتحييد المعارضين ومنع تقوية الأجهزة الأمنية لضبط المجتمع، وقمع المعارضة اذا تطلب الأمر. وعلى هذا الأساس يعتبر الكثير من منظري الدولة الريعية أن الاستقلالية عن المجتمع التي يتيحها الريع للدولة يعتبر عائقا أمام قدرة المجتمع على مساءلتها وعلى قيام نظام ديمقراطي.

وفي حالة العراق الذي دشن بعد الاحتلال وسقوط النظام الدكتاتوري عملية انتقال ديمقراطي تقودها عملية سياسية تعتمد نهج المحاصصة، يكون السؤال: هل الريع والطريقة التي تم التصرف بها طيلة السنوات الماضية وحتى الآن سيساعدان في إنجاز الانتقال الديمقراطي أم يجهضانه تماما، ليتأكد ما قاله المرحوم فالح عبد الجبار عن الديمقراطية المستحيلة في ظل الاقتصاد الريعي؟ وهو تحد كبير.

وانطلاقا من الترابط بين بناء دولة المواطنة والديمقراطية، نسأل: هل ساهمت السياسات التي اعتمدت في طريقة انفاق الريع وتداعياتها الاقتصادية وآثارها الاجتماعية في تعزيز الدمج المجتمعي وتجاوز التشظيات والتأسيس للمواطنة؟ ونقصد بذلك نوعا من المواطنة المركبة التي تستوعب التنوع الموجود في المجتمع العراقي، وليس المقصود المواطنة التي تكون تحت هيمنة حزب واحد، يفرض على سلطته بالقوة على الجميع،

ويفرض هوية وطنية أحادية، تلغي حقوق وخصوصية الاطياف القومية والدينية والمذهبية والاجتماعية التي يتشكل منها المجتمع العراقي المتنوع. كما كان الحال في ظل النظام الدكتاتوري. يجري الحديث عن مواطنة تسمح للكردي والعربي والتركماني والشيعي والسني والمسيحي ان يشعر فعلا بأن حقوقه محفوظة ويمارسها بحرية. فهل ما نشهده منذ 18 عاما يسير في هذا الاتجاه؟ ونتساءل هنا أين المواطن في بلدنا في ظل سياسة المحاصصة وهذا التقاسم للسلطة والمغانم والريع على اساس هوياتي، وما نجم عنه من توزيع غير عادل للدخل والثروة وتعاظم ثروات حيتان الفساد وشركائهم على حساب أغلبية المجتمع؟ هل هناك امكانية لتصور المسار نحو هذا الهدف؟ هذه هي الاشكاليات الحقيقية التي نواجهها.

إن متابعة التغيرات في اللوحة الاجتماعية بعد 2003 تشير إلى نشوء وصعود فئات وشرائح اجتماعية جديدة إلى مواقع السلطة والنفوذ، أغلبها من منحدرات اجتماعية مقصية ومهمشة سياسيا واقتصاديا في فترة حكم البعث. وراكمت ثروات طائلة نتيجة امساكها بمفاتيح السلطة وتحكمها إلى حد بعيد بطريقة التصرف بالريع النفطي واستحواذها على نسبة كبيرة منه. وقد حلّت هذه الفئات الاجتماعية الجديدة في قمة الهرم السياسي والاقتصادي والمالي محل الفئات والشرائح التي انتجها نظام رأسمالية الدولة لحكم البعث الدكتاتوري المركزي، والتي جرى توصيفها طبقيا بالبرجوازية البيروقراطية والبرجوازية الطفيلية، والتي انهار بعضها بعد التغيير وابعد عن مواقع السلطة، فيما غادر القسم الأكبر منها العراق إلى الخارج وواصل نشاطاته الاقتصادية واستثماراته في القطاعات العقارية والمالية والصناعية في دول الجوار والخليج بدرجة رئيسة.

ان الانتقال في مواقع هذه الفئات الجديدة منذ التغيير ينتج عنه بالضرورة تغير في طبيعة مصالحها التي لم تعد كما كانت قبل 2003. لذا لا يمكن الاكتفاء بتوصيف منشأها وأصول انتماء قسم غير قليل منها إلى الفئات الرثة. فقد بات لديها اليوم مصالح واضحة المعالم تتحرك وتتخذ المواقف بموجبها. ومثال على ذلك المواقف التي اتخذتها القوى المتنفذة، على اختلاف انتماءاتها المكوناتية، أثناء انتفاضة تشرين التي رفعت شعار "نريد وطن"، إذ سعت مجتمعة للبحث عن حلول مشتركة والاتفاق على تقديم تنازلات تكتيكية للحفاظ على منظومة حكم المحاصصة.

يمكن القول، اذن، إننا نلحظ تبلور مصالح وتضامنات ترسم معالم طبقة تتحدد مصالحها بحكم موقعها في الدولة وتحكمها بالريع النفطي واستحواذها على نسبة كبيرة منه، وليس موقعها في عملية الإنتاج الاجتماعي. إن هذه الفئات المتنوعة في انتماءاتها القومية والدينية والمذهبية والفكرية، والمتنافسة والمتصارعة في ما بينها على الحصص في السلطة ومغانمها وفي الريع، إلا أنها تظهر حرصا واستعدادا متزايدا للتوصل إلى اتفاقات وتوافقات تضمن مصالحهم المشتركة في استمرار نهج المحاصصة، ويكشف ذلك عن عملية تشكل وعي طبقي لدى هذه الفئات.

وفي ظروف الأزمة الاقتصادية

المتفاقمة الناجمة عن انخفاض أسعار النفط وجائحة الكورونا وتقلص الريع النفطي، ليس حاليا فقط وإنما على الأمد البعيد، طرحت حكومة الكاظمي رؤيتها للإصلاح الاقتصادي في الورقة البيضاء التي أرسلتها إلى مجلس النواب. وتضم الورقة مفردات عديدة من البرنامج الاقتصادي النيوليبرالي الذي فشل بريمر في تمريره، كما قال الدكتور مظهر محمد صالح، وهي في تقديري ترجمة لبرنامج بريمر، مستوحاة من اجماع واشنطن وتعكس وجهات نظر وبرامج صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. وعلى الرغم من الانتقادات التي توجهها الكتل البرلمانية إلى بعض جوانب السياسة الاقتصادية للحكومة وقراراتها إلاّ أن أنها أجمعت على الإشادة بالورقة. اعتقد من الضروري التوقف مليا عند دلالات هذه التطورات والمواقف لنستشرف اتجاهات التطور مستقبلا، وذلك بالارتباط مع احتمالات استمرار اتجاه الريع النفطي للانحسار وتفاقم أزمة الدولة المالية وارتفاع مديونيتها مع ضعفها البنيوي من جهة، وأموال الفساد والامتيازات والاتاوات والأرباح الاحتكارية التي تقدر بمئات المليارات من الدولار من جهة، والتي تبحث عن توظيف قسم منها داخل العراق لبسط هيمنتها على الاقتصاد العراقي والاستحواذ على أصول وممتلكات الدولة، بما في ذلك في قطاعات النفط والغاز والكهرباء إلى جانب النمو المتسارع لاستثماراتها في قطاعات التعليم والصحة، ودورها المهيمن في قطاعات التجارة والمقاولات والاتصالات.

لا شك أن توجهات الورقة البيضاء في تقليص دور الدولة الاقتصادي والتوجه نحو خصخصة الشركات المملوكة للدولة وبيع عقارات الدولة وتشجيع التوجه لدخول القطاع الخاص في قطاع انتاج وتوزيع الطاقة الكهربائية وبعض مفاصل قطاع النفط والغاز، وفي ظل ضعف الدور الرقابي والتنظيمي للدولة، واطلاق العنان لقوى السوق سيتيح لهذه الفئات المتخمة ماليا أن تحكم سيطرتها على مفاتيح أساسية في الاقتصاد الوطني. فإصلاحات الورقة البيضاء من شأنها إزالة اية قيود أو معوقات أمام نمو وتطور العلاقات الرأسمالية واندماج الاقتصاد العراقي بالسوق العالمية، ولكن هذه الإصلاحات تجد صعوبات ومعوقات أمام تنفيذها لأنها تصطدم بمصالح العديد من القوى المرتبطة بمنظومة قوى المحاصصة وأذرعها المسلحة ومراكز نفوذها في أجهزة الدولة وشبكات الفساد.

وفي اطار التعامل مع الأزمة الاقتصادية وانخفاض الريع النفطي، لجأت الحكومة إلى رفع سعر صرف الدينار الذي من شأنه رفع أسعار وتكلفة السلع والخدمات المستوردة، ويجري الحديث عن تنمية الانتاج المحلي بحكم هذا الواقع الاقتصادي الجديد، ولكن نمو وتطور القطاعات الإنتاجية كالزراعة والصناعة يستلزمان تقديم مزيد من دعم الدولة وإزالة المعوقات الإدارية البيروقراطية والأمنية وحماية المستثمرين من شتى ممارسات الفساد والابتزاز، وهي شروط يتعذر توفرها.

النقطة الثانية المهمة من الناحية السياسية، ونحن نبحث في تحولات اللوحة الاجتماعية - الاقتصادية بعد التغيير عام

2003 وآثار الريع النفطي في الدولة والمجتمع، هي الانتقال من الدولة الشديدة المركزية تحت حكم البعث إلى دولة فدرالية ذات قدر كبير من اللامركزية؛ فبعد 2003 كانت الرغبة في اضعاف الطابع المركزي للدولة وسلطاتها تتشارك فيها قوى خارجية وداخلية لأسباب مختلفة ومعروفة إلى حد كبير، فالقوى السياسية الكردستانية والقوى الإسلامية الشيعية كانت تعد وجود دولة مركزية قوية تهديدا محتملا في ضوء الحروب والقمع والتمييز الذي مارسته السلطة المركزية في زمن حكم البعث، وبدرجات متفاوتة في الأنظمة والحكومات التي توالت منذ قيام الدولة العراقية الحديثة.

وهكذا تحرك رقاص الساعة بالاتجاه المعاكس نحو اللامركزية واضعاف الدولة المركزية، فنص الدستور على صلاحيات لإقليم كردستان ربما أوسع مما هو سائد في اطار الانظمة الفيدرالية. كما منحت المحافظات سلطات وصلاحيات إدارية ومالية تكاد تقارب تلك التي يتمتع بها الإقليم، إلاّ أنها لم تمارس وتطبق بصورة كاملة حتى الآن. فتضافر بذلك عاملان اشتركا في اضعاف الدولة وتشظيها الداخلي؛ نهج المحاصصة والعلاقة وسوء فهم إدارة العلاقة بين المركزية واللامركزية، حيث فهمت مصلحة الاقليم والمحافظات في اضعاف الدولة المركزية، في حين أن الفهم السليم يشير إلى ضرورة وجود مؤسسات قوية على صعيد الدولة الاتحادية من جانب، وفي الاقليم والمحافظات من جانب، وأن يضبط الدستور والقوانين والتشريعات العلاقة في ما بينهم.

ويشكل هذا الضعف البنيوي للدولة المركزية أو الاتحادية وفشلها في الحفاظ على المال العام وحسن استخدامه لتأمين الخدمات العامة والبنى التحتية وتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، عاملا أساسيا لتفاقم الأزمات على مختلف المستويات وتنامي السخط الشعبي وتفجره.

فهل هناك حاجة وضرورة لتعديل توازن السلطات لصالح قدر أكبر من المركزية؟ نجد إشارات وتلميحات على ذلك، ومن منطلقات مختلفة، في الخطابات الداعية إلى إقامة نظام رئاسي، وحتى في الإقليم توجد أصوات من داخل بعض القوى السياسية الكردستانية، تدعو إلى علاقة أوثق مع السلطة الاتحادية، كما يصب في الاتجاه نفسه الحديث عن ضرورة وجود أغلبية وأقلية في مجلس النواب.

ويسمح ضعف الدولة ومؤسساتها، بوجود الجماعات المسلحة خارج الدولة أو المنضوية في اطارها قانونا والمستقلة عنها عمليا في عملها. وهذه التنظيمات التي تشكل الفئات الاجتماعية المهمشة والبروليتاريا الرثة قسما مهما من منتسبيها وجمهورها، تمارس بعض صلاحيات الدولة في بعض المجالات الأمنية وملاحقة المحتجين والمنتفضين، وتتجاوز على الدولة و"هيبتها" عندما تشن الهجومات على السفارات الأجنبية وتستعرض تشكيلاتها المسلحة في الشوارع. ومع تصاعد الاحتجاجات الشعبية وتفجر الانتفاضة وإقامة الاعتصامات ارتفعت الدعوات إلى إعادة هيبة الدولة وفرض القانون من ذات القوى التي تتعدى أذرعها المسلحة على هذه

الهيبة، وتتواصل عمليات الاغتيال والخطف والترهيب من قبل جماعات وعناصر مسلحة ليست بعيدة عنها. لا شك أن الدولة بوضعها الحالي المتشظي والمتخلخل بنيويا غير قادرة على فرض هيبتها وسيطرتها كليا على الأوضاع وعلى موارد الدولة من الضرائب والرسوم والمنافذ الحدودية؛ اذ تعتبر قدرة الدولة على الجباية معيارا أساسيا لقوة الدولة ومؤسساتها.

إن جوهر ما أود قوله هو: هل نحن أمام حاجة حقيقية لنوع من المركزية التي يقتضيها تعزيز قدرة الدولة في توفير الأمن والأمان للمواطن والسيطرة على مواردها، إضافة إلى متطلبات التنمية الاقتصادية في مركزية الموارد وتوظيفها وفق أولويات التنمية الاقتصادية، لكن دون النيل من البنية الاتحادية للدولة والعودة إلى مركزية مفرطة، كما في ظل النظام الدكتاتوري السابق؟

أتوصل من كل ما تقدم إلى خلاصة مفادها: ان الريع يتجه نحو الانحسار. وتضعف بذلك قدرة الفئات الحاكمة على استخدامه في الرشى وممارسات زبائنية لشراء الولاءات وكسب وتوسيع قاعدتها الاجتماعية. والعديد من المؤشرات والمعطيات تفيد بأن النظام الحالي الذي تقوده منظومة المحاصصة والفساد والطبيعة الريعية المفرطة للاقتصاد الوطني غير قابلة للاستدامة بنفس النهج والصيغة، والموضوع الجدير بالمناقشة والبحث المعمقين هو مدى القدرة على إيجاد الحلول والمخارج لتناقضات وأزمات هذا النظام، والتغيير لصالح بديل يضع البلاد على سكة التعافي والتقدم. وفي حال عدم ظهور بديل تتوفر له عناصر القوة ليفرض نفسه، فقد تؤدي الأزمة البنيوية المتفاقمة لدولة المكونات الريعية ووليدها نهج المحاصصة، إلى مزيد من الاضعاف والتفكك والتشظي، كالأقلمة على أسس طائفية في بنية الدولة وانحسار سيادتها داخليا وخارجيا. مع استمرار الصراع على السلطة والنفوذ داخل الدولة وخارجها وعلى حصة أكبر من الريع بين القوى المتنازعة.

إن الدولة في تكوينها وبنيتها المتشظية في ظل نهج المحاصصة غير قادرة على ان تحقق تماسكها الداخلي المختل منذ 2003. ومن هنا ضرورة إعادة بناء العملية السياسية على المواطنة بمشاركة جميع أطياف شعبنا والسير نحو دولة المواطنة والعدالة الاجتماعية.

وتؤكد تجارب الدول الريعية أن طريقة التصرف بالريع وتوزيعه وتوظيفه تحددها طبيعة القوى المسيطرة عليها وتركيبتها والسياسات التي تعتمدها وطبيعة مصالح القوى والفئات الاجتماعية التي تخدمها.

إن الصراع حول طبيعة الدولة وتركيبة القوى التي تقوها والمضامين الاجتماعية - الاقتصادية لسياستها، يظل متأججا في هذه المرحلة، التي لا تزال ذات الطابع انتقالي. ولأجل تحييد آثار الريع السلبية والحيلولة دون استخدامه من قبل القوى الحاكمة لإحكام قبضتها وترسيخ حكمها وتوسيع قاعدة شرعيته، توجد حلول تحول دون سيطرة السلطة السياسية على الريع والتصرف به، وذلك عبر إيجاد الصناديق السيادية والتنموية التي تودّع فيها نسبة من العوائد النفطية، وتكون تحت إدارة مهنية مستقلة خاضعة لرقابة البرلمان.

جولة نقاشية ثانية

وبعد ان انتهت النقاشات، بدا الاساتذة الحضور بجولة ثانية خصصت للتعقيبات. وقد بدأها الدكتور سناء عبدالقادر مصطفى قائلا:

أنا بصدد تجربة الاتحاد السوفيتي بعد ثورة 1917 بخصوص البروليتاريا الرثة، إذ كانت هناك اعداد هائلة من الاطفال ومن الناس الذين نسميهم البروليتاريا الرثة، ولكن بحكم وجود برنامج تربوي معين من قبل السلطة السوفيتية التي قامت انطلاقا من مقولة قوميسار الشعب للثقافة لونشارسكي: "خذوهم صغارا"، بانشاء مدراس داخلية تشرف الدولة عليها. كان التلاميذ باعمار صغيرة وقامت بتربيتهم ومن ثم تخرجوا من هذه المدارس والمعاهد واصبحوا قادة عسكريين وسياسيين في حكومة الاتحاد السوفيتي. بالامكان ان نستفيد من البروليتاريا الرثة، عندما نقوم بتربيتها تربية صحيحة ولخدمة الاقتصاد الوطني بالدرجة الاولى. لذلك كانت هناك قيادات كبيرة في المصانع والمزارع.. الخ. مثال على ذلك لو أخذنا بتربية الفئات المهمشة يمكننا الحصول على نتائج جيدة. مثال على ذلك تربية الحزب الشيوعي العراقي في مدينة الثورة ايام الجبهة الوطنية كانت هناك 5 محليات للحزب الشيوعي العراقي، وهذا دليل على انه تمت تربية هذه الفئات المهمشة داخل الحزب، ومن ثم توعيتها طبقيا، وهذه مسألة مهمة جدا، حتى نجعل منهم قادة في المستقبل.

مداخلتي الاخرى بخصوص رفع سعر صرف الدينار العراقي، نحن لدينا مصطلحان: الدخل النسبي والدخل الحقيقي. الدخل الاسمي هو مقدار ما يتسلمه الفرد سواء كان راتبا او اجرا او مساعدة اجتماعية. اما الدخل الحقيقي فهو قيمة السلع والخدمات التي يمكن شراؤها مقابل الدخل الاسمي. برفع سعر الدينار العراقي حتى هذه الفئات المهمشة الفقيرة ضربت عرض الحائط. ولم تؤخذ بنظر الاعتبار. وانما فئات البروليتاريا الرثة المسيطرة على الحكومة العراقية هي التي اغتنت. والدليل على ذلك خلال اسبوع، فإن الكثير من المصارف الخاصة التابعة للاحزاب السياسية والتي لديها لجان اقتصادية كسبت نتيجة لرفع سعر صرف الدينار العراقي ما لا يقل عن 50 مليار دولار. وهذه معلومة رسمية. المسألة الاخرى بخصوص اقراض الحكومة العراقية حينما كانت ازمة دفع الرواتب الشهرية والتقاعدية لشهري كانون الاول 2020 وكانون الثاني 2021، قامت البنوك الخاصة باقراض الحكومة العراقية. ونتيجة لذلك اغتنت المصارف الخاصة من البنك المركزي العراقي عن طريق نافذة العملة وقامت هي نفسها باقراض الحكومة العراقية، وهذا يعني منها واليها: سرقت من الحكومة العراقية ومن ثم قامت باقراض الحكومة العراقية. وهذا الاقراض تتحمله الاجيال القادمة ما لا يقل عن 30 سنة للامام؛ إذ يجب على الشعب العراقي ان يدفع هذه القروض، وهي بالاساس ملك للشعب العراقي من الريع النفطي.

اما الدكتور حسن عبد الله بدر فأشر في مداخلة اضافية على عدد من النقاط قائلا:

لدي ملاحظة على مداخلة د. حيدر سعيد عن استعمال الاخ د. عصام الخفاجي، في السبعينات، لرأسمالية الدولة كمصطلح، واستعملَ مصطلح الدولتية. في الحقيقة الدكتور عصام في كتابه الثاني الذي صدرَ في عام 2005، وهو كتاب كبير وعنوانه "ولادات متعسرة، العبور إلى الحداثة في أوربا والمشرق"، يستعمل هذا المصطلح بهذا المعنى بذلك الوقت او بمعنى الدولة التدخلية، الدولة التنموية، الدولة التدخلية لغرض التنمية؛ ففي الكتاب الاول وهذا الكتاب باقي على نفس المعنى باستخدام كلا المصطلحين.

الملاحظة الاخرى، اذا فهمتُ الدكتور حيدر بشكل صحيح، ان الامريكان، عندما جاءوا في 2003، وفي ذهنهم فكرة الدولة الريعية والاقتصاد الريعي، كانوا يريدون حشر 6 او 7 ملايين فرد بالقطاع الحكومي حتى تفلس الدولة، وتبقى بدون انتاج وبدون قاعدة. هناك كثرة من الاقتصاديين العراقيين اللبراليين ممن كانوا يعتقدون أن الدينار، حين أخذ يتحسن سعر صرفه أمام الدولار بعد 2003، وصل إلى مستوى 2000 دينار للدولار (بعد أن كان 3000 - 4000)، فكان هذا السعر، بنظرهم هم كاقتصاديين، هو المستوى الذي يمكن الاستفادة منه في تشجيع عدم الاستيراد، وتشجيع التصدير من العراق الى الخارج بشرط، هكذا يقولون: ان تقوم الدولة حينذاك باستثمارات كثيفة، وليس بالضرورة بالاعتماد على القطاع الحكومي. وبعبارة مختصرة، هناك في العراق اقتصاديون لبراليون ممن ليس لديهم هذا التصور، اذا كان فعلا لدى الامريكان هذا التصور لتمشية الاقتصاد العراقي. وانا اعتقد ان من المنطق ان يكون الامر كذلك، الامريكان تهمهم مصالحهم، وهناك سياسات أو ستراتيجيات مختلفة يمكن ان تخدم المصلحة التي يريدون، وليس بالضرورة هذا المفهوم الذي كان يقول بوضع 6 او 7 مليون فرد في القطاع الحكومي.

بالنسبة للدكتور علاء، بعد حملته القوية جدا على علماء الاجتماع العراقيين، أسألُ، بكل براءة وبحسن نية، هل أنه قرأ كتاب الدكتور عصام "ولادات متعسرة"، هذا عمل كبير، ويقع في حقل الاقتصاد وفي حقل علم الاجتماع وفي التاريخ. ربما الاطلاع عليه يقّوي قناعاته الحالية، او يجعله يعيد النظر، فهناك، بين علماء الاجتماع، مَن ربما أبلى بلاءً غير سيئ، والدكتور عصام لا يعتبر نفسه اقتصادياً فقط بل عالِم اجتماع.

بالنسبة للدكتورعلي جواد سألَ وقال ان لدينا موازنات من 90 مليار دولار. ورغم ذلك لا نملك بنية تحتية. هذه هي المشكلة، نحن لدينا تخصيصات استثمارية، وليست تكوينات رأسمالية أو إنتاجية فعلية، لأن ما يُخصص لا ينفذ. وهذه معلومات الدولة نفسها. ميزانية هذا العام، والتي من المفترض ان تكون تقشفية، بلغتْ 164 ترليون دينار. ما معنى الانفاق الاستثماري؟ هو طريقة لبناء طاقات للانتاج، ان تفتح معمل لانتاج القمصان فتصبح قادرا على انتاج القمصان، تفتح معملا للحديد فيكون البلد قادرا على انتاج الحديد كسلعة غير استهلاكية والقمصان كسلعة استهلاكية، ولكن هذا لا يتحقق لأن الموجود هو

تخصيصات فقط. ولذلك ليست لدينا مياه صالحة للشرب، ليست لدينا كهرباء كافية، ليست لدينا قمصان واحذية، مع ان العراق لديه تاريخ في هذه الصناعات. ونستورد اكثر المنتوجات الزراعية.. لماذا؟ لان الطاقات الانتاجية لم تبن.

الملاحظة الاخيرة تخص ما قاله الدكتور مظهر، ما اسماه دالة الناتج الاهلي. أيضا هو قال ان القطاع الزراعي البائس والقطاع الصناعي التحويلي الاكثر بؤسا يمثلان 2 او 3 % من الناتج المحلي الاجمالي مع النفط، ولو ازحنا النفط وحسبنا الدخل القومي باستبعاد قطاع النفط نجد ان مساهمة القطاعين معاً لا تصل الى 15 %. الشيء البارز الذي اريد ان الفت النظر اليه، ان الدخل القومي او الاقتصاد القومي يساهم فيه قطاع التجارة بنسبة تصل تقريبا الى النصف، مما يعني ان نصف انتاجنا هو في قطاع التجارة. ولذلك، في ظروف العراق الحالية، ليس ثمة ناتج أهلي ملموس وهو الذي يُراد عمل دالة له.

بعد ان انتهى د.. حسن من تعقيبه، اضاف د. علاء جواد تعليقات سريعة قائلا:

في البداية لديّ تعليق بسيط على سؤال د.حسن، في الحقيقة لم اقرأ كتاب الدكتور عصام. وفي الحقيقة ان ما طرحته في مداخلتي لم يكن هجوما بقدر ما كان ألما وحسرة على ما حدث ويحدث. كنت اريد ان اذكر في حديثي عن الدكتور فالح عبد الجبار واعماله الاخيرة وايضا الدكتور ابراهيم الحيدري وايضا اعماله الاخيرة، وايضا الدكتور هشام داود عن القبيلة والاشياء العجيبة الغريبة، الذي يريد ان يفسر مجتمع وتحولات مجتمع عظيم بهذا الشكل اعتمادا على القبيلة، والتي هي اصلا دورها تماما مقيّد وليس كما كان يتخيل د. هشام داود وغيره.

وبالدرجة الثانية كان بودي أن ننظر الى السيسولوجي او الباحث في العلوم الانسانية لا بوصفه مختصا، بل بوصفه فاعلا اجتماعيا اساسيا، طبيبا لمجتمع مضطرب، لا يجب أن يهمل دوره لأن الباحث في العلوم الانسانية او السوسيولوجي، اذا وضع تفسيرات اصيلة وحقيقية وتمكن من تشخيص الازمات الاجتماعية التي تمر بها مجتمعاتنا، سينهي الكثير من المشاكل. وكما انتقدنا الطب في العالم المتقدم عندما فشل في السيطرة على جائحة كورونا، الذي ابتلع ملايين الناس، اذن من حقنا ان ننتقد طبيعة عمل او انجاز العلوم الانسانية.

ثانيا، بتصوري ان قبول الباحث السيسيولوجي او اي باحث في العلوم الانسانية بواقع اجتماعي ما كما هو والتعامل معه على انه شيء حتمي، والقبول بالمجتمع وبصورته كما هو كواقع محض، يتعالى على التفسير، اعتقد ان هذا نوع من الانتحار؛ فالباحث في هكذا حالة سيقضي على نفسه، وبالتالي سيتحول الى متفرج، مع انه هو في لب الموضوع .

الملاحظة الثالثة، يجب بتصوري أن يفكر كل سيسيولوجي وكل الباحثين في العلوم الانسانية فورا بكل الاسئلة التي طرحت في هذه الجلسة، وكل الاسئلة المهمة والحقيقية والاساسية ويعيد النظر في كل المقولات التي تضمنتها اسئلتنا وحواراتنا: العلاقة بين المجتمع والدولة، العلاقة بين الانسان

والمجتمع، القوة المتصارعة، الصراع الطبقي، التطور اللامتكافئ، النظام والطبقة بشكل عام، نمط الانتاج الاسيوي، تأثيرات العولمة على المجتمع.. كل هذا اذا ما ناقشه السوسيولوجي بشكل مهم، فسنبقى نطوف حول مشكلاتنا الى الابد.

اما الدكتور مازن مرسول فقد اشار الى بعض الملاحظات قائلا: في ما يتعلق بالبروليتاريا الرثة يمكن القول ان شراء الشهادات وموضوعة سوق "مريدي"، كانت مُتأسَّسة من عهدِ النظام السابق، شراء الشهادات والتزوير بكلِ الصور كان واسعاً بشكلٍ كبير جداً. هذهِ الفئات اليوم ما بعد نظام حزب البعث وانهياره، تسيَّد البعض منها الموقف، وأصبح صاحب ميليشيات وتسلَّق بطريقةِ المراوغة للوصولِ الى الكثيرِ من المواقع التي أصبح معها تسلُّطيا. أنا أرى اليوم مدينة الثورة فيها فئات وأُسر تعيش واقعاً مُزرياً جداً الى يومنا هذا؛ اذ بعدما كانت مسحوقة في عهدِ النظام السابق، فهي اليوم أكثر انسحاقاً واكثر تردِّياً على مستوى الواقع المعيشي وبالذاتِ الاقتصادي، ويجعل منها هذا أُسرا مُغيَّبة بشكلٍ كبير جداً، لا تستطيع ان تُجاري باقي الفئاتِ الأخرى الموجودة داخل المجتمع.

وفيما يخص بعض الاشارات من الزميلِ د.علاء، وكلامه عن السوسيولوجيا، فعلق د.مازن قائلا: انا لا أُسمِّيها هجمة بحدِ ذاتها؛ اذ منذ ان عرفته وهو يتكلم عن السوسيولوجيا، انا كنت أتمنى ان يتكلم عن العلوم الاجتماعية والانسانية بشكلٍ عام. لماذا تفرَّد بالسوسيولوجيا، اذ ان هذا التفرُّد سيجعلنا ننتقل الى سؤالٍ يتعلق بتخصُّصاتٍ أُخرى. مثلاً لماذا لم تخلق التخصُّصات الأُخرى فاعلين اجتماعيين داخل المجتمع العراقي، مثلا السيكولوجيا وأيضاً على مستوى السياسة والاقتصاد وحتى على مستوى الانثروبولوجيا؟ وسؤالي ضمن هذا المجال أيضاً، أقول: هل هناك انثروبولوجيا حقيقية في العراق عملت على ايجاد باحثين انثروبولوجيين حتى نتكلم عن السوسيولوجيا؟ الاشكالية تكمن في ان البيئة في المجتمعِ العراقي ما بعد 2003، وحتى قبلها لم تولِّد الفرصة المُناسبة التي تُمكِّن هذهِ العلوم من مساعدةِ ذاتها والمجتمع والسلطات العليا. هناك قطع كبير جداً بين مُخرجات هذهِ العلوم وبين ما يستقبله المجتمع، وهذه السلطات وكيفية التناغم معها. هذهِ العلوم اليوم تعمل وحدها مُنفصلة، اذ لا يوجد هناك من يصغي لها بشكلٍ كبير؛ فمن المؤكد أنه لا توجد هناك بيئة مُناسبة لإنتاج فاعلين اجتماعيين ليس فقط في السوسيولوجيا، وانما في الانثروبولوجيا وعلم النفس والاقتصاد وغيرها من العلوم الأُخرى، وما هو العلم الذي استطاعَ اليوم ان يُثبِّت له موطئ قدم وأن يُعالج أو على الاقل يُلقي الضوء على الكثيرِ من الاشكالياتِ التي مرّ بها المجتمع العراقي؟ أيضاً لا اتفق مع الدكتور علاء بأمرٍ آخر، وهو نحن لسنا بحاجةٍ الى سوسيولوجيا عميقة ولا أنثروبولوجيا عميقة ولا علم نفس عميق وما إلى ذلك، بقدرِ ما نحن بحاجةٍ إلى مُشتغل أو باحث في هذهِ العلوم يكون باحثا نوعياً غير مُفرَّغ على الاقلِ، بالنسبةِ للسوسيولوجيا والعلوم الموجودة والمتناثرة في عددٍ من التخصُّصاتِ في الجامعات، ويستطيع أن يعكس أو يُحقِّق نوعاً من التراكمِ لهذهِ العلوم.

بعد انتهاء د. مازن من تعقيبه، جاء دور الدكتور حيدر سعيد ليقدم التعقيب الاضافي الاتي قائلا:

انا قصدت الامريكان برؤية نيوليبرالية، فقد كان هذا هو تصورهم لعراق ما بعد صدام، ممكن هم قبلوا في النهاية بسياسات التوظيف الواسعة، او توسيع القطاع العام، لكن انا اعتقد ان النخبة السياسية التي كانت مسيطرة على الحكم هي التي قادت الامور بهذا الاتجاه. كان هناك من الاقتصاديين العراقيين، وانا اتذكر ندوات عقدناها في وقت مبكر عندما كنت رئيس قسم الدراسات في مؤسسة المدى. نعم، كان هناك اقتصاديون عراقيون وحتى ساسة مثل أحمد الجلبي على سبيل المثال، مع التوجه النيوليبرالي لكن ما حدث منذ 2006 و 2007 هو رفض رسمي من الحكومة العراقية لبعض اشتراطات صندوق النقد الدولي بخصوص زيادة تعرفة الكهرباء وبعض الدعم، لكن انا اعتقد تحويل ذلك الى أداة سيطرة في توسيع القطاع العام، وهذه استراتيجية ممنهجة مورست على الاقل خلال حقبة رئيس الوزراء نوري المالكي.

ما أثاره الاستاذ رائد مهم جدا، أنا اعتقد انه ربما نحن بحاجة الى تفكير لكن ليس بالضرورة ان يتحول ذلك الى ستراتيجية دولة. اعتقد ما بين الفكرة المبسطة التي أتى بها الامريكان حول امكانية ان تعمل دولة نيوليبرالية في العراق يعني دولة الحد الادنى كما تسمى بالادبيات النيوليبرالية في ظل تراث كامل من دولة ريعية، نذكر ان الدولة كانت ترسل بعثات والدولة تزودك بالطعام وتزودك بكل احتياجاتك الاساسية وتعطيك قرضا لبناء بيت، لننتقل الى دولة لا تمارس كل هذا. فالسؤال يدور حول اي دولة نريد؟ انا اعتقد ان هذا السؤال جدي ومهم جدا، يجب أن يشغل بال المفكرين والباحثين المشتغلين بحقول العلوم الاجتماعية في العراق، طبعا الصورة التي تحدث عنها الدكتور مظهر، نعم الدولة غير قادرة على الانتاج، وان اردنا ان نذهب ابعد كي نرى ما هي الدولة التي صارت بعد 18 سنة، الدولة نعم تملك الكم الكبير من المال وتعيد توزيعه على المجتمع، لكن بالمقابل هي غير قادرة على حفظ مهماتها الاساسية بما ينفي كونها دولة بالتعريف الفيبري للدولة. القناعة التي تولدت لدى الحاكمين في العراق، على مستوى الامن على سبيل المثال، الدولة اصبحت مقتنعة بأنها غير قادرة على حفظ الامن الا من خلال أجهزة موازية غير رسمية، تضع عليها ليبل الدولة، مثل الحشد الشعبي والمليشيات التي تكونت والتي سميت دولة لكن قرارها غير مرتبط بقرار الدولة، ليس قرارا مركزيا. قرارها ليس قرار من يقود الدولة ولا حتى ولاءها لمن يقود الدولة. للأسف، الكثير من المشتغلين في حقول علوم الاجتماع انخرطوا بالتنظير لهذا النمط. وعدّ هذا النمط هو مثال للامن الهجيني. انهم يعتقدون ليس بالضرورة ان الامن يتحقق من خلال قدرة الدولة على احتكار العنف الشرعي، بل يجب أن تكون جهات موازية الى جانب الدولة في هذا الحفظ! وبعد هذه المقاربة علينا ان نعود الى طرح السؤال السابق وهو: أي دولة نريد؟

أريد أن اشير ايضا الى قضية الريع. اعتقد أن كل عجلة الاقتصاد في تقديري او النسبة الغالبة، من عجلة الاقتصاد

يحركها الريع النفطي بما في ذلك الصناعة، وهذا امر اعرفه من خلال عدد كبير من المشتغلين، حين صارت الازمة المالية بعد انخفاض اسعار النفط توقف لجزء مهم من المشتغلين في الصناعة. بالتالي حتى عندما نتحدث عن الصناعة كقطاع انتاجي، فحتى هذا القطاع يعمل بالريع النفطي.

كما اريد التوقف عند النقاش الذي حصل بين الزملاء بخصوص الطبقة الوسطى، والفئات الوسطى، أنا أخشى ان نصل الى شيء انا اسميه خرافة الطبقة الوسطى، باعتبارها هي حامل لمشروع ديمقراطي او مشروع حداثي. أنا اعتقد اننا نسقط تجربة في المجتمعات وتحديدا المجتمع الامريكي، والذي هو مثال لمجتمع الطبقة الوسطى. في تقديري الطبقة الوسطى في العراق هي طبقة طفيلية، هي طبقة مرتبطة بالدولة، وهي بالاساس طبقة موظفين، تقوى بقوة الدولة وتضعف بضعف الدولة. وبالتالي الدولة اشترت خيارات هذه الطبقة، هذه الطبقة لا تملك خيارات غير خيارات الدولة. كثير من الباحثين يتحدثون عن فئات تتحدد بحسب الدخل، في بعض البحوث تتحدث عن عشر فئات للطبقة الوسطى بحسب الدخل، المحدد الاساسي هو المحدد الاقتصادي. لا نستطيع في مجتمع كالمجتمع العراقي، ان نتحدث عن محددات الى الآن سوسيولوجية او ثقافية للطبقة الوسطى.

وبشأن قصة الريعية كعائق أمام الديمقراطية، أنا اعتقد ان هناك عائقين رئيسيين امام الانتقال الديمقراطي، طبعا الاول هو العائق الريعي، والثاني عائق التنوع الهوياتي الاثني والديني والطائفي، وهو عائق أساسي. كل المنظرين للانتقال الديمقراطي بدءا بروستو في مقالته المؤسسة، يعتبرون بشكل اساسي ان لا انتقال ديمقراطي من دون اتفاق على هوية الدولة. وفي العراق ليس هناك اتفاق على هوية الدولة، فهل هي دولة عربية ام ليست عربية، هل هي دولة بغالبية شيعية أم لا. لا نستطيع ان نتحدث عن الانتقال الديمقراطي في ظل عدم الاتفاق على هوية الدولة. هذا عامل أساسي اعاق الانتقال الديمقراطي في العراق. وانا اعتقد ان هناك مجتمعات متعددة الاثنيات استطاعت ان تنتج تجربة بها قدر معقول من الديمقراطية، التجربة الماليزية على سبيل المثال، والتي هي تجربة فيدرالية في الحقيقة. الريعية ايضا هي تحدي أساسي، ربما صارت كتابات خاصة بالسنوات الاولى بعد 2003، حول ما السبل، كان هناك التيار النيوليبرالي الذي حاول ان يقنع وهناك من اقترح نموذج فكرة توزيع عوائد النفط على المواطنين والتحول الى دولة ضرائب، لكن لا اعلم ان كانت هذه افكار واقعية. بالنهاية انا اعتقد ان هذا السؤال لا يزال ماثلا. واود الاشارة الى انني الآن مهتم بتجربة الجزائر، والتي ليس بالضرورة ستنجح فيها تجربة الانتقال الديمقراطي بعد الثورة التي حصلت، ثورة 2019، لكن انا مهتم بكيفية صياغة الجزائر وهي بلد يشبهنا من ناحية نظامه الاقتصادي، ايضا بلد ريعي، وحضور الدولة حضور اساسي، ربما نختلف بقصة المؤسسة العسكرية. انا اتابع هذه التجارب كي أرى كيف ستكون في بلد يشبهنا الى حد كبير.

ربما كان هناك مرور سريع حول قصة العلاقة بين الطائفية والنظام الاقتصادي. انا

اعتقد ان الاقتصاد السياسي للطائفية أمر شديد الاهمية. وسأقول ان الطائفية استعملت كاطار لاعادة توزيع الريع.

واخيرا، اقول: ان عالم الاجتماع الفرنسي (بورديو) اطلق تعبير السوسيولوجيا الانعكاسية، واعتقد ان كل المشتغلين في العلوم الاجتماعية هم يتحدثون حول كيف يمكن توظيف خبرتهم لانتاج فهم للمجتمع. الانثروبولوجي عبد الله حمودي يتحدث عن هذا، وصار هناك تنظير في هذا المجال. واعتقد ليس حنا بطاطو من كتب افضل عن العراق، وهو مؤرخ وليس سيسيولوجياً. برأيي مشاكل العلوم الاجتماعية في العراق اكبر. طبيعة الجامعة وطبيعة تسييس الجامعة وتحزيبها منذ حقبة البعث، طبيعة نظرة الدولة للعلوم الاجتماعية، وطبيعة البعثات التي ترسل وطبيعة علاقتنا بالنظريات الحديثة في العالم، صلتنا بالمجتمع الاكاديمي العالمي. لذلك انا اعتقد ان كان هناك فشل فليس بسبب انه ليست لدينا مسافة فاصلة عن مجتمعنا. انا والمرحوم فالح عبد الجبار وفريق بحثي كتبنا كتابا سنة 2008، عن وضع العلوم الاجتماعية في الجامعات العراقية، والآن هناك صلات مع وزارة التعليم العالي للاستمرار بدراسة العلوم الاجتماعية في العراق من جديد، وما هي مشاكلها. لكن فعلا نحن في العراق بحاجة الى إحداث نهضة حقيقية في العلوم الاجتماعية، وليست السوسيولوجية فقط، كل حقول العلوم الاجتماعية، وعلى الدولة أولا أن تغادر فكرة أن الكليات هي مراكز لانتاج موظفين، كادر بيروقراطي للدولة. علينا ان نحارب هذه النظرة وان نعمل على انتاج جامعات تتحول الى مراكز علمية بالمعنى الحقيقي. منذ تأسيس الجامعة العراقية منذ البداية والى الآن هي محكومة بهذه الرؤية. لذلك دائما كان هناك تفضيل للعلوم الصرفة على حساب كل شيء، بما في ذلك البعثات، لذلك انتهينا الى علوم اجتماعية متخلفة، للاسف الشديد.

وبعد ذلك جاء تعقيب الدكتور كاظم حبيب قائلا:

لدي قناعة ان الفئات الاجتماعية التي سرقت ونهبت المال العراقي لم توظف هذه الاموال في قطاعات اقتصادية بارزة ومميزة في الاقتصاد الدولي، بل وظفتها في مجالات العقارات وشراء القصور ومسائل من هذا النوع. وليست كما يحصل في قطر أو في الإمارات.. إلخ، لأن طبيعة هذه الفئات الاجتماعية عندنا من حيث الذهنية متخلفة تماما. هي ليست من الذهنيات الرأسمالية الواعية لمصالحها ودورها التي تكون قادرة على التفكير العقلاني. وبالتالي هذه المسألة بحاجة الى معرفة أكثر بالأرقام والحقائق والوقائع الفعلية التي أشار إليها الزميل الفاضل الدكتور مظهر محمد صالح بهذا الصدد.

هناك مسألة مهمة أشار لها أحد الزملاء هي أن الاخ الدكتور عصام الخفاجي كان اول من استخدم رأسمالية الدولة في العراق. انا اعتقد ان هذا ليس صحيحا، هناك دراسة قديمة في سنة 1964 - 1965 وهي رسالة دكتوراه للفقيد الشهيد الدكتور صباح الدرة، تحدث فيها عن رأسمالية الدولة في العراق. الشيء الثاني يؤسفني ان اقول ان هناك دراسات لي نشرت في مجلة دراسات عربية أشرت فيها الى رأسمالية

الدولة في 1964 وفي 1965، بعد اجراءات التأميم التي حصلت في العراق، لذلك هناك دراسات من هذا النوع، صدرت ولم يطلع عليها الزملاء. لذلك يعتقدون ان اول من استخدم مفهوم رأسمالية الدولة في العراق هو عصام الخفاجي. وليس في ذلك ضرر بطبيعة الحال، لكن اقول للواقع ولمعرفتي على الاقل.

الشيء الآخر، هناك ضرورة لتوضيح مسألة مهمة جدا، هي أن الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا كانتا على اتفاق كامل مع القوى الشيعية والقوى الكردية في أن ما سيقام في العراق بعد الحرب هو نظام سياسي طائفي. بطبيعة الحال يعتمد على الولايات المتحدة الامريكية وعلى النظام الليبرالي وبتعبير أدق هم لا يمانعون في إقامة النظام النيوليبرالي في العراق، رغم أن الشيعة كانوا يريدون شيئا آخر، ولكن في الواقع كان هذا اتفاقا، وانا كنت حاضراً في مؤتمر بيروت، وكنت مسؤول اللجنة السياسية في مؤتمر قوى المعارضة في بيروت عام 1991. وكنت ارى جيدا كيف كانت الامور تجري وما هي الاتفاقات التي حصلت بين الشيعة والكرد في هذا المجال، بعيدا عن السنّة، وباتصال مباشر عبر القوى الشيعية مع إيران. هذا واقع حال، وبالتالي ما حصل بعد الحرب هو عمليا اقامة النظام الذي اتفقوا عليه، حتى مجلس الحكم الانتقالي كان عليه اتفاق، من خلال تشكيلة بنية التحالف حينذاك، ولكن دخول الحزب الشيوعي والى اخره، لم يكن سوى محاولة لتعديل الصورة ورتوش لا غير، ولكن من حيث التكوين كان هناك اتفاق على هذه الامور قبل بدء الحرب تماما، ولكن الامريكان لم يستطيعوا ان يسيطروا على القوى الشيعية في علاقتهم مع ايران، وبالتالي استطاعت ايران ان تدخل بقوة في العراق من خلالهم.

اعتقد ان الزميل د.علاء شدّد على السوسيولوجيين في العراق، لكن نسي نواقص الباحثين في الفروع الأخرى، كما كان يهمني جدا ان يبدي هو رأيه بما انتقده. هو انتقد الآخرين وكان نقده شيئاً جميلا، وربما كثيره صحيح، لكن كان بودي ان أسمع رأيه أيضا، في الموضوع ذاته الذي كان يناقشه. ما هو موقفه من بنية المجتمع العراقي؟ ما هي دراساته في هذا الصدد؟ وكيف يرى الامور ولكن فاته هذا الموضوع تماما.

اعتقد ان السؤال الذي طرحه الاستاذ رائد فهمي مهم جدا، ما هي الدولة التي نريد؟ ولكن ايضا سؤال قبل هذا هل هذه القوى الحاكمة حاليا قادرة على التغيير؟ قادرة على فرض شيء معين محدد بطبيعة الدولة؟ أم انها ستبقى تسير على ذات النهج، الذي نحن فيه الآن في العراق، اي انها ربما ستستطيع بدعم من إيران المناهضة للكرد، في ان يفرضوا على الكرد شيئا معينا من الناحية المركزية، ولكن هل يستطيعون تغيير الواقع وتغيير سلوك قوى النظام وذهنيته؟ في قناعاتي الشخصية أرى أن العملية السياسية كلها والنظام السياسي كله ينبغي تغييره، ولكن عملية التغيير عملية معقدة وطويلة، إنها سيرورة وصيرورة، تحتاج الى جهد كبير جدا، والى قوى اخرى نحن نفتقدها. على سبيل المثال كيف هو عملنا في الريف مع الفلاحين. هذه الفئات تقريبا لا نجد لها تأثيرا ودورا في الحياة

السياسية وفي الحياة الاقتصادية الضرورية في العراق، وكذلك العمال أيضا، فدورهم ضعيف جدا بالقياس والمقارنة مع الفئات الشعبية الرثة. وأنا متأكد أن الغالبية العظمى من المنتفضين هم من هذه الفئات الاجتماعية المسحوقة المدمرة التي تعيش مأساة حقيقية كما قال الزميل الدكتور مازن وهو على حق. إن هناك انسحاقا حقيقيا لهذه الفئات الاجتماعية، وبالتالي انتفاضتها لم تكن عبثية كانت صادقة، لكنها لا تستطيع ان تحقق الكثير لأنها غير موحدة لأنها متفاوتة ومتباينة في رؤياها، لأنها ذاتية أيضا ووعيها ليس بالعميق. وبالتالي ما هو دور القوى السياسية القادرة على ان تلعب الدور المناسب في هذا المجال. اعتقد هناك مسائل كثيرة تحتاج الى بحث، ولدي قناعة جدية في ان على (الثقافة الجديدة)، ان تطرح موضوعا جديدا يبحث في القوى التي من مصلحتها عملية التغيير الضرورية في المجتمع العراقي، وكيف يمكن ان تعمل هذه القوى وما هي التحالفات التي يمكن ان تنشأ في هذا الاطار.

الشكر الجزيل لـ (الثقافة الجديدة) على دعوتها الكريمة لهذا الحوار الجاد والمسؤول من جميع المشاركين في هذا اللقاء الثقافي والمعرفي.

واختتمت اعمال الندوة بكلمة قصيرة للدكتور صالح ياسر، رئيس تحرير المجلة، جاء فيها:

ها قد شارفت اعمال الطاولة على الانتهاء.. قضينا معا ما يقارب ثلاث ساعات ممتعة، حيث كانت النقاشات مثمرة. واستمعنا الى مقاربات متعددة للقضايا المثارة، واصبحنا على دراية افضل بشأن الاشكاليات التي طرحت على جدول اعمال هذه الندوة... وفي نفس الوقت ساهمت المناقشات والمقاربات في اثارة جملة من الاسئلة الجديدة حول اقتصادنا ومجتمعنا، تستدعي تواصل الحوار والسجال حولها. و(الثقافة الجديدة) ستبقى مشرعة الابواب لاستقبال مساهماتكم ودراساتكم وجديدكم في معالجة المعضلات التي تواجه اقتصادنا ومجتمعنا في لحظة تطورهما الملموسية.

وانتهز هذه اللحظات الجميلة، وباسم هيئة تحرير المجلة، لأكرر شكرنا الخالص لحضراتكم في قبولكم لدعوتنا ولمشاركتم الجادة في اعمال هذه الطاولة.. متمنين للجميع الصحة والعافية ولشعبنا والسلامة والامان وكل ما هو جميل وطيب.

مقـــــالات

الماركسية والثورة

قاسم حنون

قاسم حنون حاصل على بكالوريوس آداب اللغة العربية عام 1977، أمضى في التعليم الثانوي أكثر من ثلاثين عاما ما بين الوظيفة الادارية وممارسة التدريس في المدارس الثانوية في ليبيا والعراق، يكتب في الشأن السياسي والثقافي.

الماركسية نظرية في الثورة، في التحويل الثوري للعالم وهي تتكئ على حلم الانسانية بالعدالة والحرية وعلى فهم عميق لسيرورات التاريخ، الثورة هي بمعنى ما حركة لا تقاوم ومن هذا المعنى التصويري الأدبي سهّل على فلسفة القرن التاسع عشر ادخالها في حكم الضرورات التاريخية والقوانين. وقد كان النموذج في اوروبا هو الثورة الفرنسية 1789 فعلى هدى مراحلها ومصطلحاتها سارت الموجات الثورية. الملمح اللافت في الثورة هو ظهور الفقراء كجمهور كان مغيبا في الفضاء العام من المهمشين والقابعين في منازل الحرمان، اولئك من كان يطلق عليهم اللامتسرولون الذين لم يكن بمقدورهم تأمين ستر أجسادهم، اولئك من غمروا الثورة بشحنة من التوهج والحماسة وهم الذين جعلوا هدف الثورة سعادة الشعب. لقد اعتبر ماركس ثورة الفقراء ثورة سياسية من أجل الحرية. هذا الربط بين الخبز والحرية هو ما ميز قراءته للثورة الفرنسية في ما كان يعتقد لويس اوغست بلانكي ان الثورة لم تحقق أهدافها لأنها لم تحل مشكلة الفقر... لقد مرّت الثورة بمراحل أو محطات تعبيرا عن مخاضها العسير والصراع بين أجنحتها، بدءا من الجمعية التأسيسية ثم اليعاقبة فالمدراء أو ثيرميدور ثم القنصلية وأخيرا مرحلة الامبراطورية حين دخلت فرنسا في حقبة الحروب النابليونية التي اختتمت بهزيمة نابليون في واترلو، ليعقب هذا المسار عودة آل بوربون بدءا من 1815 وصولا الى لويس بونابرت من 1851 - 1870. على أن الثورة الفرنسية التي أعقبتها الردة الملكية عادت وانفجرت موجاتها الارتدادية في أرجاء أوربا في 1820 - 1824، ثم 1830 وأخيرا في ثورات 1848 التي سميت ربيع الشعوب الأوربية أي بعد العهد النابليوني وانحسار احتلالاته التي نشرت

أفكار الثورة الفرنسية وقد ساهمت في تسريع التصنيع والتطور الرأسمالي في أرجاء أوربا بما أطلقته من ديناميكية في النشاط العلمي الموجه لتنمية الصناعة والزراعة والدفع بالتبادل التجاري على نطاق عالمي وترسيخ علاقات الانتاج الرأسمالية. لم تكتف الثورة بتمكين الدولة الوطنية والتأسيس لمشروع الدولة – الأمة ونبذ الاختلافات والتمايزات الإثنية وابعاد المؤسسة الدينية عن التأثير في المجال السياسي والثقافي، فقد اندثرت الامبراطورية الرومانية المقدسة واندثرت جمهوريات جنوا والبندقية لصالح توحيد ايطاليا في 1831 وانخفض عدد المدن والدول الالمانية الحرة. ويرى د. عزمي بشارة أن المرحلة بين 1830 و1848 هي أكثر المراحل شبها بالحقبة العربية بعد ثورات الربيع العربي من ناحية انتشار فكرة الثورة وحرص الحكومات على تفاديها، وتحول الثورة الى صيرورة يصعب تجنبها، وان كانت المقارنة تنطوي على تجاهل مستوى تطور الأوضاع في التجربتين وطبيعة القوى المتصارعة.. لم تقتصر تأثيرات الثورة الفرنسية على أوربا بل امتدت الى امريكا اللاتينية والهند حيث أطلقت أفكار الحداثة والحرية ووصلت أصداؤها الى الدولة العثمانية حين تبلورت التنظيمات في منتصف القرن التاسع عشر، ولكنها اعتمدت كآلية لمقاومة التدخل الأجنبي الأوربي ومحاولات اضعاف الامبراطورية وتقسيمها.. أفكار الثورة الفرنسية ما بين 1789 و1917 كانت هي موضوع الصراع بين قوى مناهضة لهذه المبادئ وقوى مناصرة لها، ومنها تبلورت مفاهيم ومصطلحات من قبيل اليسار واليمين والديمقراطية والليبرالية والمواطنة وظل حلم اليعاقبة متوهجا في ذاكرة البلاشفة الروس والثوريين في العالم، وقد امتزجت أفكار الحرية والمساواة التي بشرت بها الثورة الفرنسية مع أفكار الشيوعية في الثورات الأوربية. ويوضح تحليل ماركس وأنجلس خصائص ثورات 1848 وأسباب هزيمتها. كان المعسكر الثوري يضم طبقتين رئيستين هما الطبقة العاملة والطبقة الوسطى الدنيا أو البرجوازية الصغيرة. ونتيجة لافتقاد الطبقة العاملة الخبرة السياسية وأوهام وقصور قادتها، تسلمت البرجوازية الصغيرة زمام المبادرة، وقادت الحركة الثورية ما أدى الى افلاس الثورات وانتكاستها واغراقها بالدم. فشبح الشيوعية الذي تحدث عنه البيان الشيوعي ظهر فعليا خلال تلك الفترة وسحق بدموية في كل مكان ظهر فيه ليعاود الظهور معبأ في نشرات ومجلات صغيرة يتداولها الشغيلة في أحياء المهاجرين في لندن ونيويورك. وكان ماركس وانجلس أوضح الأصوات وأكثرها عزما، وبرزا كقائدين لأكثر منظمات العمال تطورا (عصبة الشيوعيين) فاكتسبا عداء الحكومات في فرنسا وبلجيكا وبروسيا وحظرت اقامتهما في تلك البلدان، ولاحقتهما أوامر القاء القبض ثم انتقلا الى انكلترا متأهبين لاندلاع شرارة ثورة جديدة، الا ان هزيمة العمال في باريس 1850 فرضت اطروحة أن الثورة غدت مستحيلة، ولا بد من اعطاء الأولوية

للعمل التثقيفي وتطوير نظرية ثورية، ما تسبب لهما بالنفور والسخرية من المنفيين وسواهم من الثوريين، ونعتهما كمضادين للثورة ومعادين للبروليتاريا ومثقفين غير عمليين. ان عبارة ماركس الواردة في كتابه مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي (في مستوى معين من تطورها فان قوى الانتاج المادي تدخل في تناقض مع العلاقات القائمة أو بالتعبير القانوني مع علاقات الملكية والتي في داخلها تطورت أدوات الانتاج حتى تلك اللحظة) ليست كافية لتفسير الثورة والانتقال من وضع تاريخي الى آخر من تشكيلة اجتماعية اقتصادية الى تشكيلة أرقى. لقد وقفا مع كومونة باريس 1871 وأشادا ببطولات الثوريين الذين اقتحموا عنان السماء، ولكنهما كانا يدركان مآلها التراجيدي بفعل رسوخ النظام الرأسمالي الذي كان في طور المنافسة والنمو الداخلي المتعاظم والتهيؤ لغزو العالم واقتسام مناطق النفوذ وتبلور الظاهرة الاستعمارية. وقد قدّم لينين إسهامته في تحديد شروط تحقق الثورة في 1915 مستلهما تجارب الثورات الأوربية في القرن التاسع عشر والثورة الروسية 1905 أن الثورة غير ممكنة من دون حالة ثورية، وليس أي حالة ثورية تؤدي الى ثورة وحدد أهم عناصر الحالة الثورية:

1 - إنها تحلّ حينما يستحيل على الأنظمة الحاكمة الحكم من دون تغيير، وعندما تنشب أزمة تؤدي الى صراعات داخل الطبقات العليا وتظهر الانشقاقات والصراعات للعيان، ولا يكفي لنشوء هذه الحالة ألا تستطيع الطبقات الدنيا العيش على وفق الشروط القديمة وانما يستحيل على الطبقات العليا الحكم كما في السابق، أي أن هناك أزمة في الأعلى وأزمة في الأسفل.

2 - تعاظم بؤس ومعاناة الطبقات المضطهدة وهو يحصل في الحروب أو بعدها وفي حالات الجفاف والمجاعات والكوارث الطبيعية والأزمات الاقتصادية، والمعاناة ليست وحدها كافية لتأجيج التوتر بل وعي المعاناة سياسيا وأنها نتاج ظلم وليست حالة طبيعية أو معطى اجتماعيا..

3 - عندما يزداد نشاط الطبقات المضطهدة وتململها، نتيجة الأزمة وممارسة الطبقات الحاكمة وهو ما نعنيه بالعامل الذاتي في الثورة.

ولا شك في أن المكون الأول للحالة الثورية قد يؤدي الى الاصلاح السياسي وتخطي الأزمة، أما الحالة الثورية التي تفضي الى الثورة فقد تتطلب تظافر عاملين من العوامل الثلاثة على أقل تقدير، وان المعاناة ورؤية امكانية وصيرورة التغيير أو ما يسمى القابلية للثورة مسألة تتعلق بالوعي. وبعد عقود سيكتب لوي التوسير أن التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات الانتاج لا يكفي لتعريف الحالة التي تكون فيها الثورة على جدول الأعمال، فليس بوسع هذا التناقض بقوته المحضة المباشرة أن يفرز حالة ثورية، ناهيك عن حالة قطيعة ثورية. فلكي يصبح التناقض فاعلا بالمعنى الثوري للكلمة، يقتضي الأمر تراكم ظروف وتيارات أيا كان أصلها ومغزاها، بحيث تنصهر في وحدة قطيعة، وهي تفرز نتيجة مؤداها تجمع الغالبية العظمى من الجماهير في هجوم على نظام صارت طبقاته الحاكمة عاجزة عن الدفاع عنه.

الثورة عربيا

تنطلق الماركسية في فهم الثورة والتغير الاجتماعي من الملموس والعياني أي من الوجود الاجتماعي، من الاقتصاد والطبقات، من الصراع الطبقي قبل صراع الدول والتنافس بين الأمم، وهي ترى الاقتصادي والطبقي قبل السياسي (الدولة)، وهذه من بديهيات النظر المادي. ولهذا فان النظر الذي ينطلق من العلاقات الدولية وما يدور في كواليس المخابرات الغربية ومراكز أبحاثها، وليس من العوامل الداخلية فهم مثالي. لذا حين تحدث ثورة او حركة احتجاجية في بلد من البلدان دون أحزاب أو قيادات سياسية يستغرق المحللون وممثلو النخب الحاكمة في البحث عن الأسباب خارج الحدود، وهو ما يتطابق ورؤية سحرية دينية للعالم تقوم على ثنائية الخير والشر تستند إليها النظم الاستبدادية والفاشلة، الصراعات الاقليمية والدولية والتنافس بين القوى الكبرى لها أثرها في تشكيل خارطة الشرق الأوسط. ولكن التوترات الداخلية هي الأساس في فهم الثورات والانتفاضات الشعبية، وهنا لا بد من الاستعانة بالأرقام للتعرف على الاقتصادات ومستويات التفاوت الاجتماعي وسياسات إعادة توزيع الدخل القومي ومعدلات الفقر والحرمان ونسب البطالة وأوضاع العمل والأجور والصحة والتعليم والإسكان والخدمات العامة. الثورات العربية (ثورات الربيع العربي) طرحت مسألة العدالة الاجتماعية، وقد كشفت عن العلل الكامنة في المجتمعات العربية من فقر وتهميش وبطالة وانهيار في منظومة الخدمات العامة وتفكك دور الدولة التنموي. إن مفهوم العدالة الاجتماعية عمومي وفضفاض ويتحدد بالموقف الطبقي والمنظور الأيديولوجي، اليسار والليبراليون يرفعون الشعار ذاته بينما تتفاوت رؤية كل منهما وسبل تحقيقها. ان طرح شعار العدالة الاجتماعية ينطلق من سوء توزيع الثروة وهو الامر الذي يفضي الى تفاوت طبقي بين من يمتلك الثروة ومن هو محروم منها، بين طبقة تمتلك النسبة الاكبر من الدخل الوطني وغالبية لا تملك سوى جزء ضئيل. ولا شك ان النمط الاقتصادي هو الذي يتسبب في هذا التمايز الفاضح، ولذا يطرح السؤال هل يمكن تحقيق العدالة الاجتماعية دون المساس بالنظام الاقتصادي؟ وهل يمكن اصلاح النظام الاقتصادي لتحقيق الهدف؟ نظريا يمكن تحقيق مطلب العدالة الاجتماعية دون المساس بالنظام الرأسمالي عبر تشغيل العاطلين وزيادة الأجور وتوفير فرص العمل والضمان الاجتماعي والتعليم المجاني والتأمين الصحي. لقد جرى العمل في البلدان العربية منذ أواخر السبعينات على تبني سياسة اقتصادية أوجدت هوة في المجتمع بعد أن جرى اهمال الصناعة الوطنية والزراعة ما أدى الى زيادة عدد العاطلين عن العمل حتى باتت نسبة البطالة 20 % من القوى العاملة كما انهارت الأجور ازاء الأسعار وتزايدت نسبة الفقر الى معدلات أعلى. واذا كانت الثورات قد طرحت شعارات الحرية والديمقراطية والدولة المدنية في مواجهة نظم استبدادية فقد طرحت كذلك مطالب اقتصادية بحل مشكلة البطالة والأجور وانهيار التعليم والقطاع الصحي والبنى التحتية بوجه عام

وتهميش المرأة. قد نكون في بداية موجة ثورية هي الأضخم في تاريخنا لجهة انخراط قطاعات واسعة من الشعب في صياغة المستقبل، تجاه الموجة نحو العدالة الاجتماعية وتخطي النمط الاقتصادي القائم وهو نمط رأسمالي مشوه. وعلينا أن نتوقع المآلات انطلاقا من أن الرأسمالية تواجه أزمة عميقة تفرض تمرد شعوبنا وكل شعوب العالم، ما ينقص هو البديل. في بداية القرن العشرين كان البديل واضحا مبلورا في حركات ثورية تملك برنامجا للتغيير واعادة بناء الاقتصاد وعلاقات السلطة كما كانت البرجوازية أواسط القرن التاسع عشر في أوج صعودها.. يكشف النظر الى معدل النمو النسبي المتوسط لنصيب الفرد من الناتج المحلي الاجمالي أنه يخضع لتذبذبات قوية ومتواترة تتأثر بأحداث سياسية وتأميمات وحروب اقليمية ودولية. وان هذا المعدل أخذ في الانخفاض وتفاقم خلال الثمانينات وتزامن مع سياسات الانفتاح التي اتبعتها النظم الجمهورية التي كانت تزعم انتهاج الاشتراكية: مصر، العراق، سورية، الجزائر. كما شهدنا بوادر التحول النيوليبرالي على صعيد عالمي خلال عهد تاتشر في بريطانيا وريغان في الولايات المتحدة الامريكية، ووصم الاقتصاد الموجه بأنه غير قادر على معالجة التخلف والانفجار الديموغرافي. والى جانب انخفاض نصيب الفرد في الناتج المحلي تراجع معدل الاستثمار كنسبة من الناتج المحلي الاجمالي كذلك. بينما يمكن المقارنة في الفترة نفسها مع معدلات الاستثمار في الاقتصاد الصيني، فقد مثل الانفاق على الآلات والمصانع والبنى التحتية ما نسبته 48 % في العام 2011، والنصيب الأكبر من الاستثمار الصيني تقوم به الشركات المملوكة للدولة.. في مصر معدل نصيب الفرد من الناتج المحلي عام 1961 كان 1,7 % ثم تحول بعد انجاز الميثاق والاصلاحات الاقتصادية في العام 1965الى 6,5 % ، ولم تجر معادلة هذا المستوى أو تخطيه إلا في الفترة 1975 - 1977 بعد مباركة الغرب ودول الخليج لصعود اليمين إبان حكم السادات وطي صفحة الناصرية لينخفض بعدها الى مستويات متدنية.. وما دامت الدول العربية مندمجة في الاقتصاد الرأسمالي العالمي فهي معرضة لتأثيراته وانعكاس الازمات التي يجابهها عليه. فما يحدث في المركز يحدث في الأطراف، وقد تضررت من الركود أكثر من الدول النامية الأخرى ومن التأثير المتعدد الأشكال للأزمة العالمية ولا سيما الارتفاع الحاد في أسعار المواد الغذائية رغم مساعي الحكومات واجراءاتها للتخفيف من تأثير ارتفاع الأسعار. إن قطاعا كبيرا من الرأسمالية في البلدان العربية ينطبق عليه وصف رأسمالية المحاسيب أو الرأسمالية القرابية (ليلى طرابلسي (تونس)، جمال مبارك وحسين سالم (مصر)، آل مخلوف (سوريا)، سيف الاسلام (ليبيا)...الخ. وقد أتاحت موجة الليبرالية الجديدة فرصا مثالية لتشكيل هذا القطاع عبر نهب الأملاك العامة والمنشآت التابعة لقطاع الدولة، وكانت هذه الوقائع في صميم الاحتجاجات المصاحبة لسلسلة الانتفاضات الشبابية والحركات الاجتماعية منذ كانون أول 2010. اقترن المنحى في الحقل الاقتصادي بتصلب النظام السياسي

وتصاعد موجة التوريث لتلتحق النظم الجمهورية بالسياق الملكي الوراثي في الأردن والمغرب ودول الخليج. قد اقترنت مشاكل الافقار والبطالة وانهيار البنى التحتية بالتحول النيولبرالي والى تحكم فئات طفيلية بمجمل الاقتصاد وتحويله من اقتصاد منتج الى اقتصاد ريعي يقوم على الخدمات والسياحة والعقارات والاستيراد والمصارف والثروات الطبيعية فانهارت منظومة الضمان الاجتماعي وحق العمل والتعليم المجاني والصحة وباتت الطبقة الرأسمالية جزءا من النظام الرأسمالي العالمي وخاضعة للطغم المالية في بلدان المركز. ويلعب الظرف الدولي دورا في تأجيج التوترات ونشوء الوضع الثوري يتمثل في الاعاقة البنيوية لتقدم القوى المنتجة وبناء نموذج اقتصادي يؤمن التوازن بين مصالح الغالبية من الشعب والفئات الطفيلية والرأسمالية الى جانب عوامل اقليمية مثل الصراع العربي الاسرائيلي وعدم حل القضية الفلسطينية لصالح اقامة دولة وطنية مستقلة للشعب الفلسطيني. وسبق أن تفجرت انتفاضات وأعمال احتجاجية في البلدان العربية كان دافعها الاساسي هو المعاناة والانسحاق تحت ضغط السياسات الخاطئة منذ السبعينات، انتفاضة الخبز في مصر يناير 1977، المغرب 1981، تونس 1983، 1984، الأردن 1989، تونس 2008، مصر عمال حلوان 2006.. كان واضحا أن مصر وتونس على جدول أعمال تغيرٍ عاصفٍ، فلم تنشأ ثورات الربيع من الفراغ وانما هناك ممهدات اقتصادية واجتماعية ونشاط ثوري هادف من بينها حركة كفاية التي شغلت مساحة كبيرة في المناخ السياسي في مصر لمقاومة التوريث والتصدي لممارسات النظام الحاكم. ولقد شهدنا في العقود الأخيرة غياب قوى سياسية فاعلة ومؤثرة في دفع الاحتجاج الى نهاياته القصوى، وما حدث في البلدان العربية ليس ثورة نخب بل ثورة شعب يتطلع لتحقيق مطالب اقتصادية وسياسية إلا ان غياب المعادل السياسي للطبقات الشعبية الذي يحمل أهدافها ويبلور مطالبها انفتح على مسارات أخرى تمثل في التدخلات الاقليمية والدولية. وهنا لا بد من وضع بعض الأفكار والملاحظات:

- إن للشعب مطالب لا يمكن تجاهلها وان من يصل الى السلطة بعد الثورة عليه أن يحققها عبر حلول اقتصادية واجراءات ملموسة.

- مستوى التهميش والفقر والبطالة فرض على الشعب التمرد وكسر حاجز الخوف.

- الثورة قامت على أكتاف الشباب الذي هرب من السياسة والأحزاب ردحا طويلا من الزمن ليجد نفسه في لجة السياسة بعدما خاض تجربة الثورة وصدح بشعارات التغيير.

- الاقتصاد الرأسمالي العالمي ليس في حال جيدة ومعدلات النمو ضعيفة ويغرق في أزمات عميقة تتصل بالرأسمالية مثل أزمات فيض الانتاج التي تؤدي الى الكساد والركود وانهيار صناعات وشركات وبنوك وتشكل صورة جديدة للرأسمال وتحول كتلة هائلة منه الى نشاط المضاربة واختلال العلاقة بين الرأسمال المنتج والمال البنكي لصالح الأخير.

- اذا كانت الثورات العربية قد بدأت

فان الاسباب تتعلق في جزء منها بالضغط العنيف الذي مارسته الولايات المتحدة الامريكية خلال العقود الأربعة الماضية لفرض هيمنتها وتحكمها باقتصاد المنطقة ومزاياها الاستراتيجية.

- ينبغي النظر الى ما جرى في سياق نهوض ثوري عالمي وان الثورة ستصل الى بلدان المركز الرأسمالي لأن الصراع الطبقي سيتوسع عالميا ليهدد المركز لأن نهب الأطراف لم يعد كافيا وإنه ينبغي مواصلة النهب داخل المركز الامبريالي، وهو ما يعني تصاعد أعداد العاطلين عن العمل وانحطاط الوضع المعيشي والانساني للعمال والفئات الوسطى بينما يتراكم المال لدى الطغم المالية، وبسبب تمركز انفجارات الأزمة المالية في أمريكا التي باتت هي المركز المالي وان مصارفها هي مركز تراكم كل المال الفائض من أجل تعديل الميزان التجاري بعد أن صارت تستورد أكثر مما تصدر. ولقد أصبحت فكرة ماركس عن تعفن الرأسمالية واقعية لأن الرأسمالية استنفدت ممكنات وجودها وسنشهد تصاعدا في الصراع الطبقي على مستوى عالمي.

- تنامي الميل نحو اليسار ومعاداة الرأسمالية وظهور أحزاب وتيارات يسارية شعبوية حازت نسبة لا يستهان بها في الانتخابات البرلمانية في اليونان وفرنسا واسبانيا وتعمق النزعة الاصلاحية المناهضة لليبرالية الجديدة لدى قيادة حزب العمال البريطاني، وتبلور تيار يساري في الحزب الديمقراطي الامريكي، فضلا عن حركات السود المناهضة للتمييز العنصري والرأسمالية وحركة انتيفا المعادية للفاشية واليمين المتطرف في مقابل تنامي أحزاب اليمين المتطرف الذي تقوم ايديولوجيتها على الدفاع عن الرأسمالية وكراهية الأجانب وفوبيا الإسلام.

وكما شهدنا غياب قوى سياسية فاعلة في الثورات العربية فقد ظهر فاعلون جدد هم الشبكات الشبابية والشبكات التفاعلية والتنسيقيات، وهي تستخدم وسائل التواصل الاجتماعي في اقامة الصلات والتنسيق، كما كان لبعض الشباب من أفراد الطبقة الوسطى او المنخرطين في فعاليات وبرامجيات الشبكة العالمية للانترنت، دور في تغذية الحماس للثورة ونقل أخبارها ومنها صفحة (كلنا خالد سعيد) وهو اسم الشاب الذي ضرب حتى الموت في حزيران 2010 في الاسكندرية. وقد أججت هذه الحادثة غضب الشارع المصري مثلما أججت حادثة انتحار البوعزيزي في تونس حوادث ومسارات الثورة في ديسمبر 2010. الايدلوجيا الناظمة لفعاليات الشبيبة الثائرة في تونس ومصر ايدلوجية ليبرالية ممزوجة بحس حاد بالعدالة الاجتماعية، وثمة من يشبه الحركات الشبابية بحركة الخضر في البلدان الأوربية محددا ثلاثة قواسم مشتركة هي العدالة والديمقراطية القاعدية واللاعنف. أما البعد الرابع وهو البيئة فقد يكون مغايرا في الحالة العربية ليكون بديله التطلع صوب نهضة عربية جديدة. بينما يتباين مسار الثورة في ليبيا وسوريا عن نظيريهما في مصر وتونس بسبب شراسة الدكتاتورية ووحشية القمع ما أدى الى تعثر حركة الاحتجاج وتحولهما الى مسارات دراماتيكية وتدخل أطراف اقليمية ودولية.

انتفاضة تشرين في العراق

يحدد د. حارث حسن خصائص الحركة الاحتجاجية في العقد الأخير استنادا الى ثورات الربيع العربي وتفجر انتفاضة تشرين في العراق في عام 2019:

غياب القيادة المركزية العمودية، الطابع الأفقي اللامركزي للنشاط الاحتجاجي، الحضور الطاغي للشباب، التوجس من الظاهرة الحزبية، غياب الايدلوجيا السياسية الناظمة لخطاب الاحتجاج، رفض الاوليغارشية الحاكمة... وفي العراق تمثلت احد أهم التحولات الاجتماعية في النمو السكاني السريع والزيادة الكبيرة للشباب في مجموع السكان بالترابط مع اخفاق المنظومة السياسية والاقتصادية وما أدى الى تصاعد سريع في نسب البطالة بسبب الفساد المستشري واستباحة الموارد من النخب السياسية الزبائنية مع تراجع العائدات النفطية اعتبارا من عام 2013 ..

ان ما حدث في العديد من البلدان العربية، ومنها العراق هو ليس توقيتا ذاتيا إرادويا لانفجار الأحداث، فقد شهدت البلدان العربية في العقود الأخيرة تحولات وتطورات كثيرة لا بد من التوقف عندها لفهم أسباب وجذور ما حدث عبر قراءة اقتصادية – سياسية لها. فالانتفاضات تشير، في معظمها، بما لا لبس فيه إلى أن الأثر السلبي للسياسات النيوليبرالية التي طبقت في العالم العربي قد بلغ حالة من الخطر لا يمكن الاستهانة بها وهي التي هيأت الظروف لمقدمات الانفجارات الشعبية.

يجب، اذن، الانطلاق من جدل الداخل/ الخارج في الحراك الاجتماعي والانتفاضة الشعبية أو العلاقة بين العوامل الداخلية والعوامل الخارجية، على تطور المواقف الاقليمية والدولية بشان الانتفاضة، ومحاولات احتواء الحراك المجتمعي عموما. كما لا بد من التوقف عند انعكاس الانتفاضة الشعبية في العراق على الاستراتيجية الاقليمية للدول الرأسمالية وخصوصا الولايات المتحدة، اضافة الى تأثير الازمة الاقتصادية العالمية على احتدام الصراعات الاجتماعية في البلدان العربية. هذا اضافة الى بحث الدور الايراني والقوى الاقليمية الاخرى ومحاولات تجيير الانتفاضة ونتائجها لصالح تحقيق اهداف اقليمية او اعادة بناء توازنات اقليمية.

وهنا من الضروري الاشارة بشكل سريع الى دور البعد الجيو سياسي للصراع وخصوصا بالنسبة للعاملين الاقليمي والدولي وتحديدا الايراني والامريكي ومحاولاتهما للتأثير على مسارات الاحداث في بلادنا. فمثلا تنظر ايران الى الانتفاضة وتطوراتها من منظار "محور الممانعة" بحيث لا يجوز ان يتعرض "محور طهران- بغداد- دمشق – بيروت" الى أي تغيير في أية حلقة من حلقاته لأن ذلك سيعني تفكيك هذه السلسلة، وبالتالي التعرض لنكسة استراتيجية، بل ابعد من ذلك: نكسة جيواستراتيجية. ولذا لن يدخر الطرف الايراني أي جهد لمنع الانتفاضة من انجاز اهدافها، وفي مقدمتها تفكيك النظام المحاصصي/ الطوائفي. ولا يجوز ان نسقط من الحساب الدور الروسي في المنطقة الذي يسعى للحفاظ على التوازنات الحالية في المنطقة لحسابات ابعد من الاقليمية وتوظيفها في صراعه مع الطرف الامريكي على مناطق الهيمنة والنفوذ على وفق مقاربة جيو استراتيجية ذات ابعاد عابرة للقارات.

العفوية والتنظيم

منذ انطلاقة الانتفاضة في أيامها الأولى تبدت العفوية في مساراتها وغياب تنظيم أو قوة سياسية ذات مشروع أو رؤية محددة, ولكنها تعكس تطلعا مشروعا للعدالة الاجتماعية ومناهضة الفساد والدعوة الى اصلاحات عميقة في البنية السياسية, انطلقت الانتفاضة أساسا من أحياء الفقر في العاصمة والمحافظات وشملت فئات وشرائح اجتماعية على هامش عملية الانتاج الاجتماعي. فهم إما عاطلون عن العمل بنسبة 49% بحسب استبيانات معينة او منخرطون في نشاطات اقتصادية غير منظمة مثل أصحاب البسطات او أعمال الكسب المؤقت في الحركة اليومية للسوق. هؤلاء من يؤلفون القوى المحركة للانتفاضة وهم من المهمشين الذين استبعدوا في عملية اعادة توزيع الريع النفطي خلال السنوات السابقة. ورغم تنامي الجهاز البيروقراطي للدولة الذي وصل الى أربعة ملايين موظف يعتاشون على الموازنة العامة فقد ظلت فئات وشرائح واسعة مغيبة ولا نصيب لها سواء على شكل تأمينات او اعانات أو خدمات في الصحة والتعليم والاسكان والمرافق العامة في مقابل تفاقم الفساد والثراء الفاحش لفئات من البيروقراطية الحكومية والمتعهدين والاثرياء الجدد الذين تربطهم بالطغمة الحاكمة علاقة زبائنية من مصالح مادية ووشائج سياسية ومذهبية. ونتيجة لذلك اتسعت الفجوة بين أغلبية الشعب والقوى المتنفذة في البرلمان والحكومة والمجال السياسي، ولم يعد التجييش الطائفي قادرا على ردم الفجوة او تخفيف آثارها والنقلة النوعية من صراع المكونات الى صراع الطبقات، خاصة بعد انحسار تحديات الخطر الارهابي واستعصاء العملية السياسية حتى وصلت الى أفق مسدود... في انتفاضة تشرين ليست الاحزاب من تصدر المشهد رغم انحياز بعضها الى مطالب الانتفاضة العادلة والى روحها الاقتحامية، فالمنتفضون استعانوا بوسائل التواصل الاجتماعي لتكون ميدانا لنشاطاتهم واطارا تنظيميا، وهذا يشير الى ما يلعبه التطور التكنولوجي والمعلوماتي في حياة الشباب. وظاهرة العفوية في الانتفاضة ليست عيبا، بل قد تكون واحدا من مصادر قوتها واستمرارها، اذ انها استدرجت افواجا جديدة من الشباب، اضافة الى ان الفئة الحاكمة واجهزتها الأمنية لم تستطع تحديد جهة بعينها تقود الانتفاضة فثمة حشود في الميادين العامة وهناك تأييد شعبي واسع، كما لو أن المجتمع كله ينتفض، جمهرة غفيرة من شباب الانتفاضة لم يكونوا مسيسين سابقا أو أنهم انخرطوا في الحقل السياسي لأول وهلة وهذا ما شكل صدمة لقوى السلطة والنفوذ حتى اعترفوا بعجزهم ومسؤوليتهم عما وصلت اليه البلاد، حتى شاع في وسائل التواصل بوست يقول (هذا جيل لم يقرأ كارل ماركس ولم يطلع على كتاب في سبيل البعث لعفلق ولم يقرأ اقتصادنا لمحمد باقر الصدر... الخ) وحين تكون الظروف لنجاح الثورة ملائمة وناضجة فإن العفوية في صالحها أما حين تتعاظم الثورة ويمتد تأثيرها ودورها في مقارعة قوى السلطة الجائرة والفاسدة فإن العفوية وانعدام التنظيم قد يلحق الضرر بالثورة... لقد أصاب الخراب

والتفكك القطاعات الانتاجية في الاقتصاد العراقي مثل الصناعة والزراعة وبقدر ما أصابها من خراب وضعف فقد طال النقابات والاتحادات والروابط المهنية وقد تبدى هذا في ضعف دور النقابات في رفد الانتفاضة بطاقات جديدة ما عدا مبادرة لنقابة المعلمين في الدعوة لتعطيل الدوام في المدارس تضامنا مع شباب الانتفاضة. وفي ظل حكم الاسلام السياسي فقد نظر الى هذه الأطر المدنية (النقابات) بقدر كبير من الازدراء والتجاهل معولين على الروابط التقليدية مثل العشائر والفاعليات الدينية والطقوسية. وليس غريبا أن تظهر لدى بعض أطياف الانتفاضة ميول (شعبوية) كالدعوة الى نظام رئاسي او معاداة الحزبية والتنديد بالأحزاب (كلها) دون تمييز او اقتراح وصفة بونابرتية للخروج من مأزق الانسداد السياسي. لم تهدف الثورات كلها الى تحقيق الديمقراطية ولكن الثورات العربية الجديدة رفعت جميعها شعار الديمقراطية والدولة المدنية. واذ تكون الأحزاب والعمل السياسي الموجه في موضع الاتهام والنبذ فإن انعدام التخطيط والبرنامج السياسي ربما يؤدي الى تصدر قوى مجتمعية غير مسيسة للمشهد السياسي والى انشقاقات وشروخ كبرى في الدولة والمجتمع. كما أن حركة احتجاجية تقوم على تجييش طائفي أو هوياتي (احتجاجات المحافظات الغربية في العراق 2012) لن تقود الى تعددية سياسية وثقافية في اطار المجتمع بل الى تشظي الهوية الوطنية وشرذمة المجتمع السياسي.

لا بد من العودة الى اطروحات مهمة ذكرها (غرامشي) بشأن العفوية عندما أشار الى انه من الممكن اعطاء تفسيرات مختلفة لكلمة "العفوية"، لأن الظاهرة التي تشير إليها هذه الكلمة هي ظاهرة متعددة الوجوه، مؤكدا انه ليس في التاريخ عفوية "بحتة"، فهي تتلازم مع الميكانيكية "البحتة". وفي هذا المجال فرّق (غرامشي) بين عناصر "ايديولوجية" بحتة وعناصر الممارسة العملية، وهو يتساءل: هل يمكن للنظرية الحديثة ان تكون في موقع التعارض مع المشاعر "العفوية" للجماهير؟ يجيب: لا، لا يمكنهما ان تكونا في موقع التعارض، بل يؤكد (غرامشي) ان بينهما اختلافا "كميا"، واختلافا في المستوى، ولكن ليس بينهما اختلاف في النوعية... ان تجاهل او احتقار – وهو الاسوأ – النشاطات السياسية المسماة "عفوية"، أي التغاضي عن اعطائها التوجيه الواعي ورفعها الى مستوى ارقى بإدخالها في السياسة، كثيرا ما تكون له نتائج خطيرة وجدية. وهنا لا بد من استحضار احداث التاريخ القريب. فمثلا لو اخذنا الانتفاضة في تونس (2011) فإنها انطلقت من فعل يجمع بين شجاعة شخصية متميزة (احراق المواطن التونسي محمد بوعزيزي لنفسه) من جهة، ومأساوية الشرط الاجتماعي من جهة ثانية، لذا لا بد من اعتبارها شرارة توافرت لها شروط الانتشار في هشيم أعده يأس معمم. وعلى الرغم من الألم الحارق الذي ساد في تونس بعد هذا الفعل، فان الشرارة لم تتوسع فورا، بل استمرت محصورة في مدينة البوعزيزي القصّية (سيدي بوزيد) اكثر من اسبوع كامل قبل ان تفعل فعلها

في المدى التونسي الأوسع. وبمعنى آخر، كانت "بيئة الاستقبال" تتحضر، ودائما على قاعدة الحرمان من الكرامة والخبز والعمل.. الخ، وفي ذلك تجسدت ملاقاة الشرط الموضوعي بالشرط الذاتي في وحدة جدلية وانتجت فعلا نضاليا ثوريا عارما حينما اطاح المنتفضون بنظام زين العابدين بن علي.

وهكذا، انتقل "المجال العام" من الساحات والجماعات والنقابات والاحزاب والمنتديات الى عالم التواصل المسمى بالعالم الافتراضي، وعالم التواصل هذا تمكن، بالمراوغة والمواجهة معا، من تحقيق تجاوز كامل او جزئي لسيف الرقابة الرسمية المسلط. وبذلك مارس القمع السلطوي دوره كاملا في اراضيه المعتادة، ولكنه عجز عن ذلك الى حد كبير في الحيز الذي لم يكن بعدُ مؤهلا لترويضه. وفي هذا الحيز بالتحديد، المربوط بوشائج متفاوتة القوة بما يحدث فعليا في الحياة المعيشية، تم تعميم النقد والأفكار التغييرية، والمطالب السياسية والقانونية والمعيشية التي انبثقت من نضالات عمالية وشعبية ميدانية. كما تم في رحاب التداول في اكثر الوسائل فعالية للتحرك كما للتواصل مع افكار وتجارب انتجتها خبرات متعددة.

ليس الأمر إذاً يقظة مفاجئة للجماهير من "سبات شتوي"، استغرق عقودا وإنما هو تحقق لشرط كان غائبا. جاء بفعل تفاعل عدة متغيرات من بينها ثلاثة رئيسة:

- متغير التعليم، وقد أفرز نتيجتين هما: الوعي، والقدرة على توظيفه - أي الوعي - في إدراك قيمة الحرية كمدخل لإحداث التغيير.

- متغير اقتصادي اجتماعي، وقد أفرز كذلك نتيجتين: نمو فئات وشرائح متوحشة تتغذى على انعدام عدالة توزيع الدخل، واستشراء البطالة بسبب تخلف الهياكل الاقتصادية وتفاقم الفساد واتخاذه مديّات غير مسبوقة.

- متغير تواصلي، وقد أفرز بدوره نتيجتين:

- اطلاع الناس على ما يجري في بلدانهم والعالم ومقارنته ..

- القدرة على التواصل بينهم دون حدود أو قيود كما كان سائدا قبل الطفرة في قطاع الاتصالات

المصادر

1. اريك هوبزباوم، عصر الثورة عصر الثورة ؛ أوروبا (1789 – 1848(، ترجمة فايز صباغ، المنظمة العربية للترجمة، 2007.
2. سلامة كيلة ، زمن الثورات.
3. عزمي بشارة، الثورة والقابلية للثورة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الاولى، بيروت 2012.
4. مجموعة كتاب عراقيين، الاحتجاجات التشرينية، منشورات المدى.
5. جلبير الأشقر، الشعب يريد – بحث جذري في الانتفاضة العربية، ترجمة عمر الشامي، دار الساقي، الطبعة الاولى، بيروت، 2013.
6. د.صالح ياسر، الانتفاضات الشعبية في البلدان العربية: دروس، رهانات، افاق. متاح على الانترنيت على الرابط التالي:

https://www.iraqicp.com/index.php/sections/orbits/43186-2020-09-30-19-13-41

أوغست كونت مؤسس علم الاجتماع الوضعي "إنك تدرس لكي تضبط"

د. حسام الدين فياض
الأستاذ المساعد في النظرية الاجتماعية المعاصرة،
قسم علم الاجتماع - كلية الآداب – جامعة ماردين ارتوقلو – حلب سابقاً

يعد كونت (1798 - 1857) مؤسس علم الاجتماع الحديث، وهو أول من صاغ كلمة "سوسيولوجيا". اكتسب علم الاجتماع على يده أبعاده الحقيقية، حينما حدد إطاره العام حيث اسماه "علم دراسة المجتمع"، وعرفه بأنه "علم دراسة قوانين ظواهر المجتمع". سعياً منه لتوضيح العلاقات بين الظواهر الاجتماعية وضعياً بغية تحليلها وتفسيرها واستخلاص قوانينها العامة، فهو الشيء المهم لديه. حاول كونت من خلال مؤلفاته، صياغة أسس علمه الجديد الذي أطلق عليه في بادئ الأمر اسم "الفيزياء الاجتماعية" ثم أطلق عليه بعد ذلك اسم "علم الاجتماع"، وفي هذا الصدد يقول: "بما أن الفكر البشري الآن قد أسس الفيزياء السماوية، والفيزياء الأرضية سواء الميكانيكية أو الكيماوية والفيزياء العضوية سواء النباتية أو الحيوانية، يبقى عليه أن يتمم نظام علوم الملاحظة ببنائه للفيزياء الاجتماعية. هذا ما هو اليوم على ضوء عدة علاقات رئيسية، أكبر وألح حاجة لعقلنا: مثل هذا الشيء، اقولها بجرأة، هو الهدف الأول لهذه المحاضرة، هدفها المميز"[1]. من أهم كتبه ما يلي:

1. "دروس في الفلسفة الوضعية" يتألف من ستة مجلدات نشر في الفترة الواقعة ما بين (1830 - 1842).
2. "أحاديث عن مجمل الوضعية" (1848)
3. "مذهب السياسة الوضعية" يتألف من أربعة مجلدات نشر في الفترة الواقعة ما بين (1851 - 1854)[2].

عاش كونت فترة عرفت فيها فرنسا أشد الاضطرابات. ولد الفكر السوسيولوجي لكونت في ظروف كان فيها المجتمع الفرنسي ممزقاً بين الثوريين، والتنويريين من ناحية، والمساندين للإمبراطورية والحكم الملكي من ناحية أخرى. وبعبارة أخرى كانت فرنسا في حالة اجتماعية انتقالية. اعتقد كونت أن الثورة الفرنسية فشلت نتيجة للإيمان العقلاني الذي تبناه التنويريون، وهو يرى أن التغيير الاجتماعي يجب أن يستند على التراث

الحي لماضي المجتمعات، وعلى فهم مبادئ النظام الاجتماعي. ويؤكد كونت أن المرحلة التي عايشها كانت نقطة تحوّل من عالم ديني وميتافيزيقي إلى عالم علمي. وهكذا شعر كونت بأنه اكتشف قانوناً يتحكم في العقل البشري سماه قانون المراحل الثلاث ومن ثم استنتج هذا المفكر أن علم الاجتماع هو آخر العلوم في الظهور في مسيرة الثورة العلمية، لأنه الأكثر تعقيداً وواقعية. وبوصفه علماً لدراسة المجتمع، فهو يهدف إلى كشف الستار عن القوانين العامة التي تتحكم في تنظيم، وتطور مسيرة البشرية. ومنه يهتم هذا العلم بدراسة الثابت والمتغير في المجتمع [3].

- أفكاره الفلسفية والاجتماعية:

- انطلق كونت من النقطة التالية: يجب إنقاذ الإنسانية من الفوضى والانقسامات والويلات، والتوصل إلى توحيد الأفكار والعقول وتوجيهها وانتظامها، ولكن كيف؟ في رأيه نتوصل الى مهمتنا بما يأتي:

1. تأسيس عقيدة مؤلفة من معتقدات عامة تقوم على العلم.
2. تأسيس عقيدة أقل عمومية مؤلفة من حقائق علمية متعلقة بالعلم الاجتماعي.
3. تأسيس عقيدة أخلاقية وسياسية تستمد أصولها من هذا العلم الاجتماعي نفسه.

ويرى كونت أن العقيدة أولى في تنحصر الفلسفة الوضعية، لكن ما هي الفلسفة الوضعية [4].

- معنى الفلسفة الوضعية: إذا طرحنا السؤال نفسه على كونت ما هي الفلسفة الوضعية؟

الجواب: ليس هناك تعريف موحد الدلالة عند كونت ولهذا سنحاول فهم لفظ الفلسفة الوضعية وفقاً للسياق النصي إذ يمكننا الوقوف عند الدلالات التالية:

- معنى عام: وهو المشترك بين مختلف استعمالات الفكر البشري، والذي يتجسد بقانون الحالات الثلاث.

- معنى نقدي: وهو مناقض للميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة)*، والذي يشمل كل التراث الفلسفي للوضعية.

- معنى نسقي: هو نسق المعارف العلمية. "تعني بالظواهر والوقائع القائمة، وتهمل كل تفكير تجريدي، وكذلك أي حديث عن الأسباب المطلقة" [5].

ولكن على العموم يقوم الإطار الفكري عند كونت على دعائم الفلسفة الوضعية [6]، التي تعتقد أن الفكر البشري لا يدرك سوى الظواهر الواقعية التي تتمثل في المجال الحسي والإدراكي، وأن مهمة العلم والمعرفة هي إبراز العلاقات والقوانين القائمة بين الأشياء، وأن المنهج التجريبي، أي الطريقة القائمة على تتبع الظواهر واكتشاف ارتباطاتها الواقعية هي المثل الأعلى اليقيني.

تعتبر الفلسفة الوضعية بشكل عام نسقاً معرفياً يستند إلى التجربة والمعرفة الامبيريقية للظواهر الطبيعية، وهي تنظر إلى التفكير الميتافيزيقي بوصفه نسقاً فكرياً عديم الفائدة والجدوى. وتعني الفلسفة الوضعية عند كونت بالفلسفة التي تؤمن بالسببية وتستهدف دراستها الوصول إلى قواعد وقوانين أخلاقية ثابتة ونهائية تحكم الظواهر الإنسانية.

لا تقوم الفلسفة الوضعية على الخيال ولا تتصور ما ينبغي أن يكون، ولا تستند

إلى التحليل التجريدي بما يحتويه قلب الإنسان من مشاعر خاصة، بل تستند على العلم وتقوم على ملاحظة الواقع وتنظر إلى الإنسان كما هو كائن بالفعل، كما هو ينبغي أن يكون، كما تقوم على التجارب التي أحرزتها الإنسانية والدوافع التي دفعتها للقيام بهذا النشاط.

بذلك يرى كونت أن علم الاجتماع يجب أن يدرس ويفسر ويفهم، على أساس موضوعي وعلمي بالوقت نفسه، وهذا ما جاء به في نزعته الوضعية التي تعتمد كلياً على التفسير العلمي بصورة أساسية [7].

وعلى الرغم من أن كونت هو الذي أعطى اسم العلم المستخدم الآن، فقد كرس جهوده للدعوة للعلم، أكثر من اهتمامه بتحديد موضوع العلم. ويعتبر أن علم الاجتماع يقف بالنسبة لمستقبله بنفس الظروف التي وقفها ذات يوم التنجيم من علم الفلك.

- التنظيم الاجتماعي يقوم على التنظيم العقلي: كان المفكرون الذين عاصرهم كونت يحاولون إيجاد حلول للمشاكل الاجتماعية القائمة في المجتمع بطرق مثالية. لكن كونت اقتنع بأن هذه الطريقة عقيمة، إذ أن طبيعة المشكلات الاجتماعية وتعقيدها تحول دون حلها بهذه السهولة. فيجب إذن الانصراف إلى البحث قبل الشروع في وضع الاقتراحات العملية، وإذا أغفلنا هذا المبدأ لا نفعل سوى زيادة ما لدينا من الأحلام السياسية أو اليوتوبيا.

وقد لاحظ كونت أن النظم الاجتماعية تتوقف على العادات والعرف، كما تتوقف العادات الخلقية بدورها على المعتقدات، فيجب إذن قبل الشروع في وضع النظم الجديدة أن ننظم طريقة التفكير. وذلك لا يمكن تحقيقه إلا بإيجاد مجموعة من الآراء التي تتقبلها العقول. فالتنظيم الاجتماعي يتوقف إذن في النهاية في نظر كونت على التنظيم العقلي القائم طريقة التفكير الوضعي التي يتميز بها التفكير العلمي في العصور الحديثة.

- صنف كونت العلوم إلى خمس مجموعات، بدأ ترتيبه لها من الأبسط إلى الأكثر تعقيداً بادئاً بالفيزياء السماوية والأرضية، الفيزياء الميكانيكية والكيميائية ثم الفيزياء العضوية، فالفيزياء النباتية والحيوانية، أخيراً الفيزياء الاجتماعية التي غير اسمها إلى علم الاجتماع [8]. ذلك العلم الذي يتخذ من الظواهر الاجتماعية موضوعاً للدراسة باعتبار هذه الظواهر من روح الظواهر العلمية والطبيعية والكيميائية والفسيولوجية نفسها من حيث كونها موضوعاً للقوانين الثابتة.

وفي النهاية صنف كونت العلوم إلى ست مجموعات: أولها الرياضيات، ثم الفلك، والفيزياء، والكيمياء، وعلم الحياة، وعلم الاجتماع أو الفيزياء الاجتماعية. وبالتالي، فالرياضيات مفتاح العلوم جميعاً. أما علم الاجتماع، فهو آخرها وتاجُها جميعاً. وتلك حقيقة، إذ إن الرياضيات هي أول العلوم، فقد توصل إليها اليونانيون، ثم تلاها علم الفلك الذي ظهر على يد كوبرنيكوس **، وغاليلو ***، ثم الفيزياء التي ظهرت في القرن السابع عشر عند نيوتن والكيمياء عند لافوازييه، ثم علم الأحياء في القرن التاسع عشر عند روبرت هوك و داروين، وأخيراً علم الاجتماع في القرن التاسع عشر على يدي أوغست كونت.

- قسم كونت موضوع الدراسة في علم الاجتماع إلى قسمين أساسيين هما:

أ- الاستاتيكا الاجتماعية: عالج كونت هذا الموضوع في الدرس الخمسين من "دروسه الفلسفة الوضعية"، فالاستاتيكا الاجتماعية هي نوع من التشريح الاجتماعي [9]، وهي تدرس الظواهر المجتمعية في حالتها الساكنة والثابتة والنسبية، كدراسة النظم الاجتماعية الجزئية (النظام الأسري، والنظام التربوي، والنظام السياسي، والنظام الاقتصادي...)، بالتركيز على العلاقات الترابطية والسببية بين المتغيرات. حيث تعبر عن فكرة النظام والاستقرار.

بذلك يمكننا القول إن هذا القسم يهتم بدراسة الظواهر المستقرة والكشف عن قوانين الاستمرار والاستقرار والتعايش والبقاء، وهي قوانين تحكم العلاقات بين الأجزاء والعناصر المكونة للظواهر سواء في الكون كامله، أو في الجسم الإنساني، أو في المجتمع.

ب- أما الثاني الديناميكيا الاجتماعية: فيشرح كونت هذا القسم في سبعة دروس (51 - 57) [10]، وهي تدرس التغير وحركة المجتمع عبر الصيرورة الزمنية، أي الذي يختص بدراسة قوانين الاجتماعية، والسير الآلي للمجتمعات الإنسانية والكشف عن مدى التقدم الذي تخطوه الإنسانية في تطورها. حيث تعبر عن نظرية تطور المجتمعات (قانون الحالات الثلاث) وفكرة التقدم.

بمعنى آخر ينشغل هذا القسم بدراسة التغير والتطور الذي يطرأ على العلاقة بين الأنظمة الأساسية في مختلف المجتمعات الإنسانية عبر العمليات التاريخية التراكمية، ويعني به التغير الذي يطرأ على الأسرة والدين، وتقسيم العمل، والحكومة وعلى ترابطهما البنائي، وتساندها الوظيفي، والاعتماد المتبادل في ما بينهما في مجتمعات بعينها. إنها دراسة النمو والتطور في ذاته، وهو يأخذ طابعاً تقدمياً بالأساس وبحسبان أن التقدم ظاهرة عامة وملحوظة في كل المجتمعات الإنسانية [11].

وفي ما يخص فكرة التقدم يرى كونت أن التقدم الاجتماعي لا بد وأن يكون خاضعاً لقوانين. ولعل هذه الفكرة كانت غائبة عن أذهان المفكرين السابقين الذين درسوا الحركات الاجتماعية بوصفها ذبذبات أو اضطرابات، وهو يرى أن انتقال الإنسانية من مرحلة إلى أخرى يكون عادة مصحوباً بتقدم أو تحسن يبدو في مظهرين:

1) التقدم المادي.

2) التقدم في الطبيعة الإنسانية؛ فالتقدم المادي يكون أوضح وأسرع حركة وأسهل تحقيقاً، أما التقدم في الطبيعة الإنسانية فيكون واضحاً في الطبيعة البيولوجية والعقلية، وهو يرى "أن الجانب العقلي من التقدم جانب أساسي وظاهر؛ فالتاريخ يحكمه ويوجهه نمو الأفكار وتشعبها، وإن النمو العقلي كما يعتقد كونت غالباً ما يؤدي إلى النمو المادي ويثيره" [12].

ويرى كذلك أن الإنسان يبدو غالباً مشغولاً بإشباع حاجات مادية، ولذلك فإن التقدم يكون واضحاً وظاهراً بالفعل في مجال السيطرة على قوى الطبيعة، لكن كونت يصر على أن النمو العقلي يؤدي إلى النمو المادي. ولقد دعم كونت

نظريته المتفائلة بقبوله النظرية التي تقول إن السمات التي يكتسبها الفرد خلال حياته يمكن أن تنتقل بالوراثة البيولوجية إلى الأبناء. كما اعتقد كونت أن التطور الاجتماعي ما هو إلا استمرار للتقدم العام الذي يبدأ من مملكة النبات فالسلسلة الاجتماعية الكبرى تتطابق مع سلسلة الكائنات الكبرى، وليس مع تتابع المراحل العمرية لكائن عضوي بسيط، ويعد هذا الافتراض عنصراً أساسياً في نسق فكري، يؤكد التقدم المستمر. وتمثل الديناميكا الاجتماعية ما يعرف الآن في علم الاجتماع باسم التغير الاجتماعي.

كما اتسع نطاق مناقشة الاستاتيكا الاجتماعية – والذي أخذ فيما بعد تسمية جديدة هي "البناء الاجتماعي" – وبالأخص بعد بظهور الاتجاه البنائي الوظيفي الذي يقوم في جوهره على تصور المجتمع، كبناء مكون من أجزاء متعددة، تقوم كل منها بوظيفة محددة، وتترابط الوظائف وتتكامل في ما بينها للمحافظة على هذا البناء.

- في ضوء دراسته ومنهجه أفاد كونت بأنه توصل إلى ما أسماه "قانون الحالات الثلاث" ومضمون هذا القانون هو أن الحالة الفكرية هي التي توجه وتحدد كل ما عداها من صور الحياة الاجتماعية. وأن جوهر العملية التاريخية هو تطور الفكر. إذ يعتقد أن تطور الأفكار البشرية مر بثلاثة عهود أو ثلاث حالات هي [13]:

1 - الحالة الدينية (اللاهوتية): كان الإنسان، في هذه المرحلة، يفكر بطريقة خيالية، وإيحائية، وأسطورية، وخرافية، وسحرية، وغيبية، ودينية؛ وكان يفسر ظواهر الطبيعة وفق قوى خفية مصدرها الأرواح، والشياطين، والعفاريت، والآلهة. ولم يكن هناك أدنى اعتراف بالحتمية التجريبية أو العلمية؛ فالقانون الوحيد هو الصدفة فقط. "هذا هو زمن المعتقدات السحرية، الفتشية، الأرواح، الأديان، عالم يتجه الى ما هو أبعد من الواقع (أو إلى الآخرة)، نحو عبادة الأسلاف، عالم حيث الموتى يحكمون الأحياء" [14].

2 - الحالة الميتافيزيقية: انتقل الإنسان، في هذه المرحلة، من الميتوس والخيال (الفكر الأسطوري) إلى اللوغوس والفكر المجرد (العقلاني). وبدأ يهتدي بالتأمل الفلسفي، واستخدام العقل والمنطق، والاستدلال البرهاني، والحجاج الجدلي. وتواكب هذه المرحلة الفكر الفلسفي الميتافيزيقي من مرحلة الفلسفة اليونانية حتى القرن التاسع عشر، قرن التجريب والاختبار والوضعية. وكان الفلاسفة يرجعون الطبيعة إلى أصول ومبادئ كامنة في تلك الظواهر، كتفسير ظاهرة النمو في النبات إلى قوة النماء، وظاهرة الاحتراق بإله النار. "وهذا يعني أن الفكر بقي حبيس تصورات فلسفية مجردة وكونية ويرد الواقع إلى مبادئ أولية. هذا هو منهج الفيلسوف كما يكتب كونت" [15].

-3 الحالة الوضعية: في هذه المرحلة، تجاوز العقل الإنساني مرحلة الخيال والتجريد، وبلغ درجة كبيرة من الوعي العلمي، والنضج التجريبي باعتباره عصرا جديدا للفكر. إذ أصبح التجريب أو التفسير منهج البحث العلمي الحقيقي، ثم الاعتماد على المعرفة الحسية العينية، وتكرار الاختبارات التجريبية، وربط المتغيرات

المستقلة بالمتغيرات التابعة ربطاً سببياً، في ضوء مبدأ الحتمية أو الجبرية العلمية. وتعد هذه المرحلة أفضل مرحلة عند كونت، وهي نهاية تاريخ البشرية. "بذلك تعني الوضعية السوسيولوجية عند كونت محاولة نقل مناهج العلوم الطبيعية عند دراسة الإنسان والمجتمع والظواهر الاجتماعية، وهذا هو جوهر المذهب الوضعي عند كونت" [16] ، الذي يهدف إلى حل مشكلة التنظيم الاجتماعي: "المعرفة من أجل التنبؤ، التنبؤ من أجل القدرة" هكذا ينهي كونت محاضرته في الفلسفة الوضعية. بقي إنجاز المشروع، وهنا يقع منعطف كبير في حياة كونت [17].

وتوافق - حسب كونت - كل مرحلة من هذه المراحل تطور الإنسان من الطفولة حتى الرجولة، إذ تتوافق المرحلة اللاهوتية مع مرحلة النشأة والطفولة، وتتماثل مرحلة الميتافيزيقا مع مرحلة الشباب والمراهقة؛ وتتطابق مرحلة الوضعية مع مرحلة النضج والرجولة والاكتمال.

- أما منهج البحث والدراسة عند كونت: فـ"تدعي الوضعية تكوين نظريات اجتماعية عن المجتمع من خلال الملاحظة والتجارب ومن ثم شرح وتفسير القوانين التي تحكم التغير الاجتماعي، لذا يؤمن أنصار المنهج الوضعي بوحدة الوسائل العلمية، وأننا نستطيع أن نوضح بموضوعية كيف تعمل البنى الاجتماعية من خلال نتائج ملموسة" [18]، بناءً عليه يتلخص بالملاحظة والتجربة والمنهج المقارن ثم ما يسميه كونت بالمنهج التاريخي، وهو كما يلي:

- الملاحظة: المقصود بالملاحظة ليس مجرد الإدراك المباشر للظواهر ولكن هناك وسائل أخرى مثل دراسة العادات والتقاليد والآثار ومظاهر الفنون الأخرى، وتحليل ومقارنة اللغات والوقوف على الوثائق والخبرات التاريخية ودراسة التشريعات والنظم السياسية والاقتصادية وما إليها. والملاحظة الاجتماعية ليست سهلة وذلك لطبيعة تداخلها وكذا لأن الفرد يشارك فيها بدرجة أو بأخرى، لذا يجب النظر إلى الحقائق الاجتماعية على أنها موضوعات منعزلة عنا وخارجة عن ذاتنا ومنفصلة عن شعورنا حتى نستطيع أن نصل من وراء الملاحظة الاجتماعية إلى نتائج أقرب إلى حقائق الأمور، وهو يرى أن الملاحظة أو استخدام الحواس الفيزيائية يمكن تنفيذها بنجاح إذا وجهت عن طريق نظرية.

- التجربة: يقصد بها كونت باستخدام التجربة الاجتماعية غير المباشرة في دراسة الظواهر الاجتماعية، وذلك بالمقارنة بين الحالات الطبيعية والحالات الباثولوجية (المرضية). وهذه الحالات الأخيرة كثيرة في المجتمع كالثورات والقلاقل، والأزمات الاقتصادية والاضطرابات الداخلية [19].

- المنهج المقارن: وهو يرى أن المقارنة الاجتماعية بالمعنى الصحيح تقوم على مقارنة المجتمعات الإنسانية بعضها ببعض للوقوف على أوجه الشبه وأوجه التباين بينها.

- المنهج التاريخي: ويسميه كونت بالمنهج السامي ويقصد به المنهج الذي يكشف عن القوانين الأساسية التي تحكم التطور الاجتماعي للجنس البشري، باعتبار

هذا الجنس وحدة واحدة تنتقل من مرحلة إلى أخرى أرقى منها. فجميع الظواهر تتطور في وقت واحد، ويؤثر بعضها على البعض الآخر كما يتأثر به، ولا يستطيع تفسير سير التطور المستمر لإحدى هذه الظواهر دون أن تكون لدينا أولاً فكرة عامة عن تقدم الإنسانية جمعاء. ومعنى ذلك أن يقوم الباحث بملاحظة الظواهر المختلفة والربط بينها ليتكون لديه فكرة عامة عن التقدم الذي أحرزته الإنسانية. ثم يشرع بعد ذلك في تقديم طوائف الظواهر التي قام بملاحظتها وتحديد الفترات والعصور التاريخية تحديداً دقيقاً ليسهل عليه معرفة الاتجاهات العامة لكل مظهر من مظاهر التطور، كالتطور السياسي، أو الديني أو الاقتصادي... إلخ. والوصول إلى القوانين الخاصة بكل مظهر من هذه المظاهر [20].

وفي هذا السياق ميّز كونت علم الاجتماع عن الفلسفة السياسية بإصراره على أن الاستقصاءات السوسيولوجية لا بد وأن تعتمد على المناهج الوضعية أو الموضوعية في الملاحظة والتجريب والمقارنة المميزة للعلوم الطبيعية. كما أن تطبيق المعرفة العلمية عن المجتمع جديرة بأن تقدم أكبر تقدم في المجتمع الإنساني، ولقد جاهد كونت وكتب كثيراً دفاعاً عن الموقف الوضعي بالنسبة لدراسة المجتمع، ولذلك أصبحت الوضعية مقترنة بكونت تاريخياً، إلا أنه لم يمارس عملياً ما كان ينادى به حيث إنه لم يقم بدراسات يستخدم فيها طرق البحث الاجتماعي فلا نزاع في أنه أول من عرف علم الاجتماع وحدد موضوع دراسته، إلا كونت بالمقابل شجع بنظريته الوضعية العلماء الذين أتوا من بعده وخاصةً اميل دوركايم على متابعة المسيرة في إرساء الطابع الوضعي لعلم الاجتماع وتحقيق استقلاله عن باقي العلوم والمعارف الأخرى.

وهكذا نجد أن أهمية تصورات كونت النظرية والوضعية تكمن فيما يأتي:

1. بأنها تتبنى التركيز على أهمية العوامل الفكرية ومدى تأثيرها في عمليات التغير والتطور والإصلاح والتحديث المستمر في المجتمع الحديث. حيث تعتبر كتاباته بمثابة الشرارة الأولى الممهدة لظهور النزعة البنائية التطبيقية التقليدية والمحدثة، ولا سيما أن كونت رائد فكرتي البناء والوظيفة، التي تعتبر جوهر النظرية الوظيفية العامة.

2. كما تكمن أهمية تصورات كونت من خلال تطويره وتأسيسه لعلم الاجتماع الوضعي، الذي أثر في توجيه الكثير من الدراسات التطبيقية السوسيولوجية، التي تحاول التركيز على التفسيرات الواقعية دون التركيز على القوانين المجردة من خلال محاكاتها لمناهج وطرق وأدوات جمع البيانات في العلوم الطبيعية، التي أحرزت شوطاً كبيراً في مجال البحوث النظرية والميدانية عامةً [21].

أما على الصعيد الإيديولوجي، فإن غايات علم الاجتماع "الكونتي" تتحدد بشعار السياسة الوضعية التي ترى أن النظام غاية في ذاته ووسيلة لتحقيق التقدم. ولذا كان مسعى كونت من إنشاء علم الاجتماع إصلاح المجتمع الذي هزته الفلسفة النقدية والتحررية. ولهذا اعتقد

كونت أن الاتجاهات النقدية اتجاهات هدامة، وبهذا يميل علم الاجتماع لديه إلى أن يكون أداة للمحافظة على النظام "إنك تدرس لكي تضبط". ويبدو هذا متمثلاً في المنطوق الأساسي لكلمة الوضعية، التي تعني الوقوف إيجاباً من النظام الاجتماعي القائم[22].

وعلى العموم نستنتج، أن كونت جمع أفكار من سبقوه في نظرية منهجية قوية. واعترف نفسه بأنه تأثر بأرسطو مونتسكيو وكوندورسي (الذي دعاه بأبيه الروحي) وهوبز وآدم سميث ودومتر (وأمثاله من التقليديين المحافظين)، لكنه لم يعترف، لحقد في قلبه، بفضل سان سيمون عليه مع أن أثره ظاهر في مؤلفاته. ومهما يكون من أمر، ومهما يكن من مآخذ كثيرة أخذت على أفكاره، كتوحيده بين السوسيولوجيا والفلسفة الوضعية، وخروجه عن النسبية الفكرية التي ألح عليها، والفصل المصطنع بين الديناميكا والاستاتيكا الاجتماعية، وفقدان كل تحليل ديالكتيكي لديه، فلكونت الفضل في[23]:

1) تأسيس السوسيولوجيا وتصنيفها بين العلوم الوضعية، وتعيين طرق البحث فيها.

2) إظهار الصفة الاجتماعية الصميمة التي لا يمكن إرجاعها إلى سواها، وقد أقام هذه الصفة على مفهوم المجتمع ككل واقعي ومشخص.

3) لفت النظر إلى إمكان استفادة السوسيولوجيا من الدراسات التاريخية والاثنوغرافية.

4) توجيه الأفكار نحو إمكان استفادة السوسيولوجيا من العلوم الطبيعية دون إلحاق تلك بهذه.

5) توجيه الانتباه إلى إمكان استفادة السوسيولوجيا من الطرق الرياضية والكمية دون مغالاة في ذلك.

الهوامش

1. جان ميشال بريتلو: بناء علم الاجتماع، ترجمة: جورجيت الحداد، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، ط1، 1999، ص(24).
2. منير مشابك موسى: المطول في علم الاجتماع (السوسيولوجيا)، الكتاب الأول: في علم الاجتماع العام، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، الجزء الأول، 1959، ص (52).
3. محمود الذوادي: مختصر الجدال حول النظرية الاجتماعية اليوم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، ط1، 2014، ص(17).
4. منير مشابك موسى: المطول في علم الاجتماع (السوسيولوجيا)، مرجع سبق ذكره، ص (52 – 53).

* الميتافيزيقا أو الماورائيات أو ما وراء الطبيعة هو فرع من الفلسفة يدرس جوهر الأشياء. يشمل ذلك أسئلة الوجود والصيرورة والكينونة والواقع. تشير كلمة الطبيعة هنا إلى طبيعة الأشياء مثل سببها والغرض منها. بعد ذلك تدرس ما وراء الطبيعة أسئلة عن الأشياء بالإضافة إلى طبيعتها، خاصة جوهر الأشياء وجودة كينونتها. تسعى ما وراء الطبيعة – في صورة مجردة عامة – إلى الإجابة على هذه الأسئلة: ماذا هناك؟ ما صورته؟ تشمل المواضيع التي تبحث ما وراء الطبيعة فيها كلا من الوجود، والأشياء وخواصها، والمكان والزمان، والسبب والنتيجة، والاحتمالية.

5. ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون: أقدم لك.. علم الاجتماع، ترجمة: حمدي الجابري، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، العدد: 548، ط1، 2005، ص(34).
6. كلمة الوضعية لا تخص كونت، فقد استخدم سان سيمون (1760 – 1825) هذا المصطلح من قبل، إنما يعتبر كونت الأول في الحديث عن «الفلسفة الوضعية» إشارةً للحالة النهائية للذكاء الإنساني أو العلوم الوضعية. السمة الأساسية للفلسفة الوضعية هو النظر إلى لكل الظواهر باعتبارها خاضعة لقوانين طبيعية حتمية يحددها الاكتشاف والإسهام في

تلخيصها إلى أقل عدد ممكن يشكل الهدف من كل مجهوداتنا، ويعتبر البحث في الأسباب الأولية أو النهائية غير مقبول تماماً وفارغ المعنى. لمزيد من القراءة والاطلاع عن الفيلسوف وعالم الاجتماع سان سيمون انظر:

– روزنتال ويودين: الموسوعة الفلسفية، ترجمة: سمير كرم، مراجعة: صادق جلال العظم و جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1987، ص (239).

7. عبد الله محمد عبد الرحمن: النظرية في علم الاجتماع–النظرية الكلاسيكية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2006، ص(33).
8. عبد الباسط عبد المعطي: اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد:44، 1981، ص(61).

** نيكولاس كوبرنيكوس (باللاتينية: Nicolaus Copernicus) ولد (19 فبراير 1473 – 24 مايو 1543) هو راهب وعالم رياضياتي وفيلسوف وفلكي وقانوني وطبيب وإداري ودبلوماسي وجندي بولندي كان أحد أعظم علماء عصره. يعتبر أول من صاغ نظرية مركزية الشمس وكون الأرض جرماً يدور في فلكها في كتابه «حول دوران الأجرام السماوية». وهو مطور نظرية دوران الأرض، ويعد مؤسس علم الفلك الحديث. الذي ينتمي لعصر النهضة الأوروبية – 1400 إلى 1600م.

*** جاليليو جاليلي أو غاليليو غاليلي (15 فبراير 1564 – 8 يناير 1642)، (بالإنجليزية: Galileo Galilei) عالم فلكي وفيلسوف وفيزيائي إيطالي، ولد في بيزا في إيطاليا. نشر نظرية كوبرنيكوس ودافع عنها بقوة على أسس فيزيائيَة، فقام أولاً بإثبات خطأ نظرية أرسطو حول الحركة، وقام بذلك عن طريق الملاحظة والتجربة عن طريق التكنولوجيا الجديدة للتلسكوب. بعد تأسيس الكنيسة اعتمدت في ذلك الوقت نظريات اليونان القديمة والتي وضعت في مرحلة ما قبل المسيحية من قبل بطليموس وأرسطو، وهي نموذج مركز الأرض. عندما بدأ جاليليو التأكيد على أن الأرض في الواقع تدور حول الشمس، وجد نفسه قد طعن في المؤسسة الكنسية في وقت حيث التسلسل الهرمي للكنيسة قد ارتبط مع السلطة الزمنية، وكانت تعيش في صراع وتحد سياسي متواصل يقابله صعود البروتستانتية. إلا محاكم التفتيش الرومانية سنة 1632 لم تقبل بذلك فاتهم جاليليو بالاشتباه بالهرطقة وحكم عليه بالسجن لإرضاء خصومه الثائرين، وفي اليوم التالي خف الحكم إلى الإقامة الجبرية. وتم منعه من مناقشة تلك الموضوعات، وأعلنت المحكمة بأن كتاباته ممنوعة. ظل جاليليو منفياً في منزله وكان غير قادر على استقبال الزواز، وعند معاناته من الحُمّى وخفقان القلب فارق الحياة عن عمر يناهز 77 عاماً في 8 يناير 1642.

9. منير مشابك موسى: المطول في علم الاجتماع (السوسيولوجيا)، مرجع سبق ذكره ، ص(61).
10. المرجع السابق نفسه، ص(62).
11. عبد الله شبلي: علم الاجتماع الاتجاهات النظرية وأساليب البحث، دار الشمس للطباعة، القاهرة، 2008، ص(86 – 87 – 88).
12. إحسان محمد الحسن: النظريات الاجتماعية المتقدمة (دراسة تحليلية في النظريات الاجتماعية المعاصرة)، دار الأوائل للنشر، عمان، ط3، 2015، ص(113).
13. منير مشابك موسى: المطول في علم الاجتماع (السوسيولوجيا)، مرجع سبق ذكره ، ص(54 – 55).
14. فيليب كابان وجان فرانسوا دوريته: علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية أعلام وتواريخ وتيارات، ترجمة: إياس حسن، دار الفرقد، دمشق، 2010، ص(25).
15. المرجع السابق نفسه، ص(25).
16. نبيل السمالوطي: التوجيه الإسلامي في صراع المنطلقات والنظريات في علم الاجتماع – دراسة نقدية في علم اجتماع المعرفة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1996، ص(22).
17. فيليب كابان و جان فرانسوا دوريته: علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية، مرجع سبق ذكره، ص(26).
18. ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون: أقدم لك.. علم الاجتماع، ترجمة: حمدي الجابري، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، العدد: 548، ط1، 2005، ص(35).
19. عبد الباسط محمد حسن: أصول البحث الاجتماعي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 11، 1990، ص(82).
20. المرجع السابق نفسه، ص(82 – 83).
21. عبد الله محمد عبد الرحمن: النظرية في علم الاجتماع–النظرية الكلاسيكية مرجع سبق ذكره، ص(34 – 35).
22. عبد الباسط عبد المعطي: اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، مرجع سبق ذكره، ص(63).
23. منير مشابك موسى: المطول في علم الاجتماع (السوسيولوجيا)، مرجع سبق ذكره ، ص(64 – 65).

اليسار الأوروبي بين التنظير والممارسة السياسية مجتمع ما بعد كورونا

سلام عادل الكَيم
باحثة اكاديمية، مستشار تخطيط استراتيجي
جامعة ساكسيون للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا - هولندا

يقول إرنست ماندل "ليس تفاوت المداخيل والثروات واقعاً اقتصادياً وحسب، بل يستتبع تفاوتاً في احتمالات البقاء، تفاوتاً أمام الموت". فقد أظهرت جائحة كورونا بأننا في مواجهة أزمة عالمية فريدة من نوعها، تؤثر علينا جميعاً وتجعلنا غير آمنين. فهي (1) لم تميز بين الغني والفقير و(2) تسببت بتعطل الكثير من قطاعات العمل (3) وأظهرت التفاوت الطبقي في المجتمع بشكل واضح باختلاف حدة التأثر بعواقبها، ما جعلها أزمة صحية، اقتصادية، اجتماعية عالمية، تتطلب التعاون والتضامن لتجاوزها. فما هي المعالجات المطروحة بين التنظير والممارسة السياسية.

عواقب الأزمة أظهرت التفاوت في المجتمع

لطالما كان التفاوت الطبقي واللامساواة في المجتمع هو السائد في جميع القرون الماضية بحسب المفكر الإقتصادي الفرنسي توماس بيكيته (1) (فيما عدا فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية والتي يعتبرها فترة استثنائية، من حيث تقلص فجوة التفاوت الطبقي والنمو الإقتصادي). وقد حاولت المجتمعات في السابق تبرير هذا التفاوت بأنه أمر طبيعي نتيجة لإختلاف متطلبات واحتياجات الناس، وان الفوارق في الدخل تؤدي إلى النمو الاقتصادي، لأنها تحفز على أداء أفضل وأفضل. أما في الوقت الحاضر فيتفق معظم الإقتصاديين على ان التفاوت الطبقي يمثل تهديداً كبيراً لمعدلات الإزدهار والإستقرار الأمني. كما تشير منظمات كالمنتدى الاقتصادي العالمي إلى ان اللامساواة من شأنها ان تحد من النمو الاقتصادي، فمستوى التعليم المتدني يؤدي إلى انخفاض الدخل، مما يؤدي إلى عدم الرضا الذي يقود إلى التطرف السياسي، صعود الشعبوية، تراجع الثقة، انعدام الأمن، ارتفاع معدل الجريمة وفقدان الحافز للابتكار والتجديد.

مما تقدم نجد ان التفاوت الطبقي واللامساواة في العالم ليس أمراً جديداً، إلا ان الجائحة جعلته أكثر وضوحاً. لكن على الرغم من انها لم تميز بين طبقات المجتمع من حيث العدوى والإصابة، إلا ان شدة التأثر بعواقبها كانت مختلفة ومتفاوتة. فقد أدى تعطل قطاعات كالسياحة والفندقة إلى تسريح عدد كبير من العاملين فيها، حيث تعتمد هذه القطاعات في تنظيم مواردها البشرية على أساس العقود المؤقتة المرنة وعقود الأجور اليومية، وبتوقف العمل كان من السهل الاستغناء عن هذه القوى العاملة. في حين استمر أولئك الذين يعملون في وظائف مكتبية منتظمة بالعمل من منازلهم مستفيدين من تطبيقات التكنولوجيا والتواصل عن بعد. وقد بدا واضحاً ان الأبوين من ذوي التحصيل العلمي العالي هم الأكثر قدرة على إعداد مواد الدراسة لأولادهم في المنزل بالمقارنة مع ذوي التحصيل العلمي البسيط.

الدعوة لنقاش اجتماعي

من المتوقع ان تعمق جائحة كورونا أوجه اللامساواة القائمة في العالم خلال الفترة القادمة، ليكون السؤال المطروح على الأجندة السياسية والإقتصادية: كيف سنخرج من هذه الأزمة؟ كيف سيبدو العالم بعد انتهائها؟ ما هي القطاعات التي نجت والأخرى التي تكافح من أجل البقاء منتجة؟ ما هو حجم الضرر؟ من سيدفع تكاليفه؟ من سيتحمل أعباء الجائحة؟ فالأكثر فقراً وأولئك الذين ليس لديهم مدخرات هم أول من تلقى الضربة وكانوا الأكثر تضرراً من الجائحة وهم في الغالب أصحاب الشركات الصغيرة، أصحاب العقود المؤقتة، الأشخاص الذين يعملون لحسابهم الخاص وعمال الأجور اليومية؛ ففي أمريكا، تم الإبلاغ عن أكثر من سبعين بالمائة من الوفيات في المناطق الفقيرة ذات الأكثرية الافريقية، من ذوي الدخل المحدود، بينما ازداد الأثرياء ثراء أثناء الإغلاق لارتفاع أسعار الأسهم بسبب انخفاض أسعار الفائدة. فهل من العدالة ان نطالب ذوي الدخل المحدود من العمال وصغار الكسبة بمثل ما نطالب به أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة والشركات متعددة الجنسيات الذين عادةً ما يبتعدون عن الشؤون العامة وقت الأزمات؟ إذن فالعجز والضعف الجماعي في مواجهة الجائحة يفرض علينا البحث عن حل جماعي.

خصخصة المخاطر الاجتماعية

يقوم النموذج الاقتصادي السائد منذ أربعين سنة على فكرة "السوق هو الهدف، الحكومة هي المشكلة والفرد هو الحل"، وان أرباح الشركات الكبيرة ستعود بالتوزع على المواطنين عبر النمو الاقتصادي، وان المواطن يمكن ان يرتقي بمستواه من خلال توفير التعليم له (التعليم للجميع). بحيث يعتمد كل مجتمع شعاراته الخاصة في تبرير اللامساواة من قبيل: "قد تدفع الشركات الكبيرة ضريبة أقل، ولكن طالما أنها تحقق الكثير من الأرباح، فإن هذه الأرباح ستتسرب إلى كافة فئات المجتمع" أو "يمكن لأي شخص أن يذهب إلى المدرسة".

إلا ان هذا النموذج "التفكير النيوليبرالي" فشل في تقديم حل لقضية اللامساواة، بل إنه كرسها في القانون الذي عكس عدالة الأقوياء من خلال وضع أسس النظام الضريبي وسياسة الإنفاق العام. وهي بحسب توماس بيكيته في تزايد منذ ثمانينيات القرن الماضي. كما أظهرت الجائحة بأن اعتماد هذا النموذج على قدرة الفرد الذاتية في توفير المخزون الكافي من الموارد ليحتمي به من خطر الانتكاسات الاقتصادية إنما هو وهم إيديولوجي.

ها هي الرأسمالية تظهر ضعفها من جديد أثناء الجائحة، بأن تلقي مخاطر انهيار الاقتصاد على عاتق الفئة الأقل قدرة على تحمل هذه المخاطر من أصحاب العقود المؤقتة وعمال الأجور اليومية. فبينما كان من المفترض ان تلعب الشركات الكبيرة دورا أساسيا في مجتمع موظفيها، نجدها قد فضلت في السنوات الماضية مصلحة المساهمين على مصلحة المجتمع. لتقف الآن عاجزة أمام تحديات الجائحة. نلاحظ أن أولئك الذين يختارون مصالحهم دون المشاركة مع الآخرين والشركات الأقل مساهمة في المجتمع هي التي تقف في المقدمة لطلب الدعم الحكومي مثل BOOKING.COM وشركة الطيران KLM التي أنفقت ما يقارب الـ 200 مليون يورو في السنوات الأخيرة من أجل رفع قيمة أسهمها وزيادة مكافآت مدرائها، لتعود الآن بتقديم طلب المساعدة بعد ان أصبحت غير قادرة على دفع رواتب موظفيها بعد تسريح 2000 موظف بسبب توقف حركة الطيران، وهذا ما يسمى خصخصة المخاطر الاجتماعية.

وهذا يعني أنه ليس بمقدور السوق فعل كل شيء، وان فكرة ضعف الحكومة هي فكرة واهمة خاطئة. بل على العكس من ذلك فقد أظهرت الخبيرة الاقتصادية الأمريكية الإيطالية ماريانا مازوكاتو (2) ان الكثير من الابتكار نتج في الأصل من الاستثمار في القطاع العام، وان عائدات تلك الاستثمارات العامة إنما يتم توظيفها من قبل القطاع الخاص.

مجتمع ما بعد الجائحة

لم يعد من الممكن الاستمرار بالتفاعل مع المنظومة الاقتصادية التي تقوم فيها الأقلية بجمع الربح بينما تدفع الأكثرية ثمن الضرر الناتج عن هذا الربح المتمثل بانعدام الأمن أو التلوث أو الإجهاد دون تغيير. فقد أظهر بحث قامت به شركة سومو (3) ان شركات الأدوية السبع والعشرين الكبرى كانت تركز في السنوات العشرين الماضية على المنافسة التجارية بدلاً من البحوث العلمية أو إنتاج عقاقير ولقاحات يمكن تأمينها على نطاق واسع ضد الفيروسات كفيروس كورونا المستجد، كما لم تبدِ تلك الشركات استعدادها لتبادل المعرفة التي من شأنها زيادة عدد المتخصصين في اجراء فحص الكورونا، الأمر الذي يشير إلى افتقار المنظومة الاقتصادية القائمة على السوق الحر للقيم العامة، حيث ان تلك المنظومة قادرة على تغيير مسار رحلة طائرات محملة بالكمامات باتجاه من يدفع السعر الأعلى وليس إلى المتضرر الأكبر (4)!

اننا بحاجة إلى لقاح ضد اللامساواة بعد ان اظهرت الجائحة بأننا جميعا ضعفاء، لكن الأشخاص الأقل ثراءً هم الأكثر تضرراً.

يجب ان يقوم مجتمع ما بعد الجائحة على إدراك اعتمادنا على بعضنا البعض. إدراك قيمة التعاون والتضامن، وهذا يعني ان علينا إعادة توزيع عائدات العمل بشكل عادل. فنحن نتشارك في كوكب واحد ونواجه أزمة عالمية ما من أحد محصن ضدها. وفي عالم غير قادر على احتوائها، علينا أن نتقاسم العائدات والمخاطر بشكل عادل، وان نقدم أساسا يضمن البقاء للجميع.

إن ضمان البقاء على المدى الطويل يعني انه لا يمكن ترك المرافق الأساسية التي تؤمن السلامة والرعاية لكافة فئات المجتمع خاضعة لقوانين السوق الذي يترك الكثير من القيم العامة جانباً، لأن الاعتقاد بأن السوق يمكن ان ينظم الخدمات العامة بشكل أفضل وبسعر أقل، لكن لم يتم الوفاء به في كثير من الأحيان وخاصة أثناء الجائحة. يجب ان يكون للمجتمع أساس يحمي مواطنيه كافة. وان لا تكون الأولوية للاعتبارات المالية عندما يتعلق الأمر بالحصول على الخدمات الأساسية مثل الرعاية الصحية والتعليم أو القانون.

عقد اجتماعي جديد

حذر بيكيته من ان التفاوت الطبقي سيتزايد في حال عدم تدخل الحكومة، موضحاً بأن الثروة تزداد أسرع من أجور الناس العاديين، مؤكداً أنه لا يمكن التعافي من عالم مصاب دون إعادة التفكير بتنظيم المجتمع بطريقة أكثر عدالة، وبأن في الجائحة - كأزمة مشتركة - الفرصة المواتية لتحقيق ذلك. حيث يمكن توظيف القدرة التي ظهرت عليها الحكومات أثناء الجائحة للسيطرة على الفايروس (بفرضها الإجراءات الوقائية من حظر التجوال، وتجميد الاقتصاد والحد من الحريات) في التأسيس لضمان البقاء للجميع بعقد اجتماعي جديد بين الحكومة والمواطن.

العالم بعد الجائحة يطالب الحكومات بإدارة الموقف، والقيام بدور قيادي في تطوير الأدوية بأسعار معقولة، والمبادرة لتعديل نظام براءات الاختراع بحيث تعود القيم العامة مرة أخرى في طليعة أسباب تطوير الأدوية بدلاً من الفرص الخاصة للربح، كما هو الحال الآن.

التوزيع العادل للفوائد والأضرار

تشترك أزمة كورونا وأزمة المناخ بخاصية كونهما أزمتين تطالا الجميع دون تمييز وبأن التعاون في حلهما ضرورة، وأنه لم يعد ممكناً فرض قانون السوق باحتفاظ أصحاب رؤوس الأموال والشركات الكبرى بفوائد النمو الاقتصادي لأنفسهم وحدهم، بينما تتحمل فئة الضعفاء المخاطر والأضرار. وهذا يعني ان الدعم المقدم للشركات الكبرى يجب ان يكون مشروطاً، أي ان تلقي الدعم الآن لا يعني المزيد من المكافآت للمدراء التنفيذيين وإنما يجب ان يفضي إلى مساهمة مجتمعية أكبر بمنح العاملين عقودا مناسبة تضمن حقوقهم. كما

ويعني ان تصبح تلك الشركات جزءاً من اقتصاد ما بعد الجائحة. اقتصاد تدفع فيه الشركات الكبرى ضريبة على أرباحها بالقدر المستحق لتتمكن الحكومة من خلال تحصيل هذه المستحقات من توفير الخدمات الأساسية للمواطنين كافة. ولا مكان فيه للشركات التي تسعى لتحقيق الربح السريع فقط، ولا تساهم في المجتمع بالاهتمام بموظفيها والعمل على توفير فرص عمل جيدة. كما يجب احتساب تكاليف الأضرار البيئية وهذا يعني ان المتسببين بالتلوث يجب ان يدفعوا المزيد من الضرائب، على سبيل المثال ضريبة الكيروسين لشركات الطيران.

اللامساواة خيار سياسي

بما ان الأشكال القائمة للتفاوت الطبقي واللامساواة تتداخل وتتفاعل مع أشكال من القوى الاجتماعية والاقتصادية، فإن تغييرها يتطلب إرادة مجتمعية تفرض إرادة سياسية تعمل على التغيير. وهذا يعني أن الاقتصاد ليس هو المفتاح لحل المعضلة وإنما السياسة. لأن إعادة تنظيم الحركة الاقتصادية دولياً، فرض الضرائب الدولية والإشراف الدولي يتطلب إرادة سياسية عالمية.

هذا ما يتطابق مع رأي هانا أرندت (5) في عام 1951، في أن تنظيم قوى الاقتصاد العالمي الجامحة لا يمكن ان يتم إلا عن طريق تطوير أشكال سياسية جديدة عابرة للحدود.

كان الاشتراكيون الديمقراطيون هم الأفضل في ذلك، حيث كانوا نظرياً (فكريا) يسعون إلى العالمية إلا أنهم من الناحية السياسية كانوا قوميين من أجل بناء دولة الرفاهية. لقد فعلوا ذلك بنجاح كبير، حتى بدأت سياسة التجارة الحرة وتدفق الأموال، وصار من الضروري تنظيم التدفقات المالية وفرض ضريبة مشتركة على الشركات الكبيرة. وقد كانت هناك بعض المبادرات لتبادل المعلومات حول تدفقات الأموال، ولكنها غير كافية وغير كاملة وطوعية في كثير من الأحيان، ولا بد ان تخضع إلى القانون والمعاهدات الدولية. وفي ذلك تكمن الصعوبة فالاتحاد الأوروبي على سبيل المثال لم ينجح بعد في ايجاد سياسة مشتركة بشأن التعليم والضرائب والأجور. حيث لا يزال الخطاب القومي مسيطراً على سياسة أوروبا كردة فعل من العامة على فترة من الرأسمالية المفرطة التي ازداد فيها التفاوت الطبقي واللامساواة. بحيث أصبح الأفقر حالاً والأقل تعليماً يفضلون التصويت للأحزاب المناهضة للهجرة رداً على سوء أوضاعهم. لتتعزز العنصرية والقومية وكره الأجانب كلما زادت الفروقات الاقتصادية، وينعكس ذلك على سلوك التصويت في ظل تردي الأوضاع الاقتصادية ولعدم وجود خطاب أفضل بديل أكثر اقناعاً، فإن هذا الخطاب القومي سيظل شائعاً إلا انه لن يحقق النجاح أبدا لأن السياسي القومي ليس بوسعه تقديم حلول للاحتباس الحراري أو لجائحة كورونا العالمية.

الجائحة فرصة جديدة لليسار

من النتائج المثيرة للاهتمام لجائحة كورونا هي عودة موضوعة الفقر

واللامساواة الاجتماعية إلى جدول أعمال السياسيين في أوروبا في الأشهر الأخيرة، فبعد ان كانت الهجرة الجماعية حجتهم لإخفاء المشاكل الاجتماعية والاقتصادية الحقيقية. دفعتهم الجائحة إلى الاعتراف بأن الفئات الأقل تعليماً والأقل أماناً كانت المتضرر الأكبر من الجائحة، وبإرتفاع حدة العنصرية المؤسساتية المتجلية في التمييز الهيكلي في سوق العمل والتنميط أو التمييز العرقي في مؤسسات الشرطة ودوائر الضرائب التي كانت سبباً في الاحتجاجات الأخيرة في العالم. أي ان ما جادل به المفكر "الاكثر انحيازاً لليسار" بيكيته عام 2014 بشأن ضريبة الثروة قد بدأ يشهد تحولاً حقيقياً بسبب الجائحة، فالأمر الذي لم يجرؤ السياسيون على طرحه سابقاً، بدأوا ينادون بضرورته ويتنافسون في ما بينهم على طرحه للنقاش والتداول. وخصوصاً ان الغضب من التفاوت الطبقي المتزايد كان في تصاعد قبل الجائحة في ألمانيا وإنكلترا مثلاً.

يعتبر الركود، البطالة والفقر هي الركائز الأساسية لأفكار اليساريين وبرامجهم السياسية فلم يبق مفكر لم يتناول عيوب الليبرالية الجديدة التي كشف عنها الفايروس لتكون فرصة جديدة لليسار للفوز بالانتخابات من خلال استغلال وتوجيه غضب العامة. فالمحرك المشترك لجميع الاحتجاجات هو الشعور العميق المتفاقم بالإحباط إزاء اللامساواة.

اليسار واللامساواة (أوروبا الغربية نموذجاً)

لقد دافعت الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية بجدارة عن فكرة "التعليم هو الأداة لبلوغ المجتمع لغاياته". وقد تحقق ذلك بالفعل في وقت قصير جدا، فقد وصل مائة بالمائة من جيل السبعينات إلى نهاية المدرسة الابتدائية والثانوية، وهذا يعد نجاحاً كبيراً. وبالمقابل لا بد من الإشارة إلى ان هناك جانبا آخر لتطبيق هذه الفكرة فإذا كان الأبوان أكثر ثراء، فإن الابناء سيذهبون إلى مدارس أفضل حيث التعليم الأفضل. مما أوجد سمة جديدة للتفاوت الطبقي واللامساواة اليوم، فالظروف المعيشية للفقراء أفضل مما كانت عليه في القرن التاسع عشر، ولكنها أصعب من الناحية النفسية مما كانت عليه قبل مائة عام. حيث ينظر اليوم للفقير على انه السبب في فقره وان حاله هو خطأه بالكامل.

كان المشهد السياسي والانتخابي في البلدان الغربية ما بين 1950 - 1980 منظما على أساس التفاوت الطبقي واللامساواة، بين من يملكون الثروة ومن لا يملكونها. بمعنى أنه وضع الطبقات الاجتماعية الأقل حظا في مواجهة الطبقات الاجتماعية الأكثر حظا، فكان الأقل حظا (في التعليم، الدخل، الثروة) يميلون إلى التصويت للأحزاب الاشتراكية والشيوعية والديمقراطية الاجتماعية (بالمعنى الواسع). علاوة على ذلك، كان إقبال الناخبين قويا بنفس القدر بين الطبقات العاملة والمتوسطة والعليا. إلا ان تطور البنية الاجتماعية والاقتصادية لناخبي الأحزاب والحركات السياسية

اليسارية منذ الثمانينيات والتسعينيات، قد غيّر الدعم الانتخابي لها، وقلل المشاركة الانتخابية بشكل عام بين الطبقات العاملة والشعبية والأقل تأهيلا. وفي الوقت نفسه، نمت بين خريجي الطبقة الوسطى والمديرين والمثقفين - ما يسمى بفئة الإدارة المهنية وتحولت أحزاب اليسار من أحزاب عمال إلى أحزاب الخريجين، وقد تسبب توقف من لا يملكون الثروة عن التصويت، بفشل الأحزاب الوسطية - اليسارية بشكل رئيسي في أوروبا. بعد ان تحولت الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية ببطء من أحزاب دافعت عن الفقراء وغير المتعلمين، إلى أحزاب تدافع عن مصالح الطبقات العليا والمتوسطة. وذلك نتيجة لتحرر ناخبيهم، حيث أكمل الفائزون الجدد تعليمهم وانتقلوا إلى دوائر أكاديمية أو سياسية أو حكومية أعلى، وقاموا ببناء الثروة، وسافروا حول العالم، بحيث صارت لهم وجهة نظر تختلف عن وجهة نظر آبائهم الأقل تعليماً، أدت إلى تغيير مواقفهم السياسية، فابتعدت الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية عما يطالب به ناخبوهم القدامى. فبعد ان كانت تمثل الفئات المستضعفة، تحولت إلى أحزاب الفئات الناجحة في المجتمع، الأمر الذي افقدها دعم الطبقات المتوسطة والدنيا. ولم تعد السياسة مبنية على التناقضات الطبقية الكلاسيكية؛ حيث اختفت المعارضة اليسارية الكلاسيكية منذ ثمانينيات القرن الماضي، وتحولت الأحزاب اليسارية القديمة تدريجياً إلى النخب ''التقدمية'' ذات المهارات العالية، النخب الحضرية الجديدة. وتجلت الصراعات بين الفئات الشعبية التي تخلت تدريجياً عن اليسار الكلاسيكي في العديد من قضايا السياسة العامة، كان أبرزها الموقف من ملكية وسائل الإنتاج، الموقف من اللامساواة، والموقف العولمة (الاعتماد الاقتصادي المتزايد، تدويل التمويل، تطور التجارة، والمالية والتبادلات الثقافية على نطاق اقتصادي عالمي). فأفرزت أربعة تشكيلات جديدة بحسب بيكتيه:

- Global Egalitarianism - تشكيلة تنادي بمساواة عالمية، مساواة اممية
- Non-egalitarian global تشكيلة تنادي بالعولمة ولا تهتم باللامساواة الناتجة عنها
- Non-egalitarian & ethnocentric - تشكيلة عرقية تركز على ثقافة البلد الخاصة (ذات نزعة قومية) لا تهتم بتحقيق المساواة
- Egalitarian & ethnocentric - تشكيلة عرقية (ذات نزعة قومية) و تنادي بالمساواة

انفصلت ''النخب التقدمية'' اليوم، جغرافياً وأيديولوجياً وأنثروبولوجياً عن الطبقات العاملة الهامشية الأقل مهارة والأقل تعليماً. والنتيجة هي (مع استثناءات قليلة) تراجع اليسار الانتخابي إلى هوامش الطيف السياسي في معظم البلدان الغربية، بسبب احتضانهم ''الليبرالية الجديدة التقدمية'' والفشل في تقديم بديل هادف لتغيير الوضع الراهن.

مع الأخذ بعين الاعتبار ان الأمور تسير بشكل مختلف خلف الكواليس، حيث يبدو سلوك الاحزاب المنادية

بـ(المساواة) مشابهاً لسلوك الاحزاب المنادية بـ(اللامساواة). فبالرغم من المعارضة الشديدة للأحزاب العنصرية المنادية باللامساواة ذات الطابع القومي والتي كان شعارها الانتخابي ضد الهجرة الداخلية بين دول أوروبا وبالرغم من أنها لا تكف عن التحذير من الهجرة الجماعية فقد ساعدت هذه الأحزاب بحماس ملحوظ ومن خلال ممثليها في الاتحاد الأوروبي في نشأة الاتحاد الاوروبي دون حدود داخلية، ومنح حريات كبيرة لرواد الأعمال ووكالات التوظيف، ولم تتم عرقلة الشركات متعددة الجنسيات ورأس المال الدولي على نطاق واسع. وفي السياق نفسه نلاحظ ان الأحزاب التي تجمع بين العنصرية الخفية والمسار النيوليبرالي الراديكالي، أكثر تطبيقاً للمساواة.

يظهر اليوم طرفان يتصارعان في الساحة السياسية: النخبة الثقافية ونخبة المال. النخبة الأولى هي نخبة جديدة نسبياً، ظاهرة ثقافية يسارية. والنخبة الثانية نخبة المال ذات التوجهات اليمينية في أصلها.

التضامن كمهمة سياسية

لقد تسببت الجائحة في تعطل الاقتصاد مما سيؤدي إلى ركود اقتصادي، ارتفاع نفقات الضمان الاجتماعي وانخفاض عائدات الضرائب، في حين ان الدين الحكومي سيزداد بشكل كبير. وبالتالي سيتجه اليمين إلى القطاع العام لتعويض ضرر الجائحة بتقليص المساعدة الاجتماعية، والتقليل من خدمات رعاية المسنين. أما الشعبويين فسيستمرون في تقديم الأمل للفئات الفقيرة الساخطة، ما لم يتقدم اليسار بالبديل.

يجب ان يعمل اليسار لحماية الناس وتسوية الفاتورة مع أولئك الذين يمكنهم تحمل الفاتورة كالشركات متعددة الجنسيات، الأثرياء، الأعلى دخلاً والأكثر ضرراً على البيئة. فالأمل الذي كان المحرك وراء إعادة الإعمار بعد الحرب العالمية الثانية، يتجدد بـ"إرادة العدالة الاجتماعية والحرية" (6).

من التغييرات التي يقترحها بيكيته هو اتباع نهج متطرف في التعامل مع الملكية: "ان فكرة وجود ملكية خاصة بحتة وأن فئة معينة من الناس هي صاحبة الحق المقدس بهذه الملكية أمرٌ لم يعد قابلاً للاستمرار". ويتم ايقافه عن طريق:

فرض الضرائب على الثروة، المساواة بين المواطنين والشركات الكبيرة، بتحقيق مشاركة أكبر لموظفي الشركات في إدارتها، مكافحة الفقر، دعم الأسر العادية وتخصيص جزءا من الضرائب كهدية للشباب الذين تتراوح أعمارهم بين 25 عاما ليتمكنوا من شراء منزل أو بدء عمل تجاري وبهذا ينتشر رأس المال على مدى أجيال.

فإذا أردنا العدالة الاجتماعية، لا بدّ من وجود عدالة مالية، بتقليل العبء على الطبقات الوسطى وبخاصة العاملين في المهن الحيوية: المعلمون وعمال الرعاية وضباط الشرطة والنظافة الذين لم ينالوا القسط الذي يستحقونه من الازدهار الاقتصادي في السنوات الأخيرة، وإلا ستستمر الطبقة الوسطى والدنيا

في التصويت ضد التضامن والتعاون الضروري لتجاوز الأزمات (7).

إلا ان ذلك لن يكون سهلاً فبالنظر إلى احتجاجات الستر الصفراء، نجد ان عدم الرضا هذا لن يعجل في فوز اليسار فقد كانوا مشاركين في الحكومة، مساهمين في تعزيز النظام النيوليبرالي وسبباً في نفور الناخبين من الحكومات. عليهم ان يشرحوا لماذا سيكون الأمر مختلفاً هذه المرة. كل هذا لا ينفي وجود فرص جديدة لتعاون يساري جديد، من أجل ان لا نخرج من الأزمة على حساب الفئات ذات الدخل المحدود، بينما يتحرر أصحاب رؤوس الأموال من تحمل أعبائها.

ما نشهده اليوم هو ذروة اللامساواة إلا أن القادم رهن بخيارات اليسار.

الهوامش

1. توماس، بيكيته (2014). رأس المال في القرن الحادي والعشرين. كامبريدج ماساتشوستس: دار نشر جامعة هارفارد.
2. كاتيل، رينيير.(2018). سياسات الابتكار وديناميكية القدرات في القطاع العام، مجلة التغيير الصناعة والمؤسساتي، 10،1093
3. فرناندیز، رودریغو(2020). تمویل صناعة الأدوية والتكاليف المميتة المحتملة. مركز سومو للبحوث المتخصصة بالشركات متعددة الجنسيات.
4. وليامز و بروميتش. (2020). الأغنياء يستعدون بشكل مختلف لفيروس كورونا. متاح على الرابط التالي: https://www.nytimes.com/2020/03/05/style/the-rich-are-preparing-for-coronavirus-differently.html
5. أوينز، باتريشيا. (2017)، «الأصول الدولية لطريقة هانا أرندت التاريخية»، الأصول الدولية للنظرية الاجتماعية والسياسية، إميرالد للنشر. المجلد 32 الصفحات 37 – 62
6. ويتس، كريستيان.(2020). النبي بيكيته..NRC. متاح على الرابط التالي: https://www.nrc.nl/nieuws/2020/06/19/halfgod-piketty-a40033600
7. توماس، بيكيته (2019). رأس المال والأيديولوجيا. كامبريدج ماساتشوستس: دار نشر جامعة هارفارد

مهدي عامل وحركة التحرر الوطني العربية

عبدالقادر احمد

عبدالقادر أحمد من مواليد كركوك 1958، بكالوريوس تقنية هندسة الوقود والطاقة من كلية التقنية في كركوك عام 2006، معاون رئيس المهندسين في قسم معالجة النفط والغاز في شركة نفط الشمال - كركوك حتى احالته على التقاعد عام 2020، نائب لسكرتير التيار الديمقراطي في كركوك.

في رحاب فكر مهدي عامل - مفاهيم اساسية:

مرّت الذكرى الثالثة والثلاثون على استشهاد مهدي عامل منّظر الثورة وشهيدها، فقد اغتيل مهدي في الثامن عشر من أيّار 1987 في بيروت، على يد قوى الجهالة العمياء، فاندرج في قائمة كثير من المفكرين التقدميين الذين لقوا المصير نفسه - ولنعد بالذاكرة الى اغتيال الراحل حسين مروة ذلك الاغتيال الذي نندد به مهدي عامل. كان الهدف الاساسي من اغتيال مهدي عامل هو اغتيال فكره، لكن غيابه جسديا لم يغيب افكاره، فهي تتجلى اليوم في انتفاضات الشعوب العربية، وفي انتفاضة شعبنا العراقي الغاضب على النظام الطائفي وتناقضاته التحاصصية، وتسببه بالانهيار الاقتصادي والمالي والاجتماعي. ويتجلى ذلك في شعارات المنتفضين: (نريد وطن) و(لا للنظام الطائفي.. لا للمحاصصة.. نعم للدولة المدينة الديمقراطية... الخ). كتب الباحث والكاتب الاردني هشام غصيب عن الشهيد مهدي عامل يقول: ”من الصعب ان نجد في الفكر العربي الحديث مفكرا تنطبق عليه لفظة ”فيلسوف“ او ”منظر“ كما تنطبق على الشهيد مهدي عامل، فدرجة الاحكام والتماسك التي نجدها في كتابات مهدي عامل لا نجد لها مثيلا في الفكر العربي الحديث برمته. بل ان البناء النظري المحكم الذي نجده في كتابات مهدي، وبخاصة في كتابه ”مقدمات نظرية“ ليذكرنا بما نجده في اعمال عمالقة الرياضيات والفيزياء، امثال اقليدس ونيوتن واينشتاين. فهو سخر جملة من المفهومات المبتكرة، مثل: علاقة التحديد، علاقة السيطرة، حول الصراع الطبقي، الحركة الانتباذية، الحركة الانجذابية، الترابط التراكبي والترابط الانصهاري،

الممارسات الاقتصادية والايديولوجية والنظرية والسياسية للصراع الطبقي، الزمن التكويني والزمن البنيوي وزمن القطع، اجهزة الدولة الايدولوجية... انه ينطلق من ارقى ما توصل اليه العقل النظري الماركسي في عصره، اعني انطولوجيا التوسير، لا من اجل تأكيده او اعادة انتاجه، انما من اجل نقده وتمييزه وتطويعه"(1).

يتحدث مهدي في مشروعه التحرري عن بدء تاريخ تكون بنية علاقات الانتاج الرأسمالية في بلداننا، مع التغلغل الامبريالي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ويرى ان ذلك أدى الى نشوء البرجوازية الكولونيالية، كطبقة مسيطرة جديدة تتكون عناصرها من عناصر الطبقة المسيطرة السابقة، أو من بعض منها، وذلك في اطار علاقات انتاج جديدة لها طابع كولونيالي، بسبب تبعية هذه الطبقة للبرجوازية الامبريالية. وفي سياق علاقة تفاوت بنيوي، هي علاقات اختلاف في بنية علاقات الانتاج، التي يحددها نمط الانتاج الرأسمالي، في شكليه التاريخيين المجددين، الامبريالي من جهة، والكولونيالي من جهة اخرى. ويوضح مهدي كيف ان هذه العلاقة عينها "هي التي تحدد الميل العام للإنتاج الامبريالي نحو ضرورة القضاء على علاقات الانتاج السابقة عليها كلها، وهي التي تحدد الميل للإنتاج الكولونيالي نحو الابقاء على هذه العلاقات السابقة، بحيث تستمر في ظل الشكل الكولونيالي انماط انتاج سابقة عليه يكون هو النمط المسيطر ضمنها، علما أن البرجوازية في مساعيها للتكيف مع الشروط الجديدة، انما يفرض عليها ذلك نوعا محددا من تفكيك تلك العلاقة السابقة من الانتاج يستدعيه تجدد علاقة التبعية البنيوية للامبريالية. معنى هذا وفقا لما يراه مهدي، (ان البرجوازية الكولونيالية في صيرورتها الطبقية، وبسبب من تلك العلاقات بالذات، في مأزق طبقي يولَد في وعيها الأيديولوجي تمزقا دائما بين ما تطمح اليه من تماثل طبقي بالبرجوازية الامبريالية، هي في عجز بنيوي عن تحقيقه، وواقع فعلي هي فيه في تخالف مستمر مع ما تطمح اليه، ولكنها ترفضه" وضمن عجزها هذا تجد مصلحتها الطبقية الاساسية في تأمين التحقق الفعلي المستمر لعملية تجدد تلك البنية من علاقات الانتاج، التي بتجددها تؤمن لها تأبد سيطرتها الطبقية، مع ما يعنيه ذلك من تجدد مستمر لأزمة التبعية هذه، وما يلازمها من أزمة عميقة في عملية تطور الواقع الاجتماعي، ومن استمرار كثيف للنهب الامبريالي لثروات بلداننا وعمل منتجيها) (2).

استند مهدي في صياغة هذا المشروع الى الفهم المادي لواقع بلداننا، المتميزة في تطورها عن البلدان الرأسمالية الامبريالية، لذا كان عنوان مشروعه (مقدمات نظرية لدراسة أثر الفكر الاشتراكي في حركة التحرر الوطني)، في ثلاثة اجزاء: القسم الاول (في التناقض – في هذا الكتاب، "تأسس جهاز المفاهيم النظرية أو ما يعرف بـ(الأدوات في منهجية مهدي عامل الفلسفية على مجموعة المفاهيم؛ مثل التناقض وأنماط الإنتاج والصراع الطبقي والتحالفات

الطبقية وتفاوت التطور والكولونيالية والإمبريالية وفائض القيمة). القسم الثاني (نمط الانتاج الكولونيالي – دراسة لموضوع نمط الانتاج الكولونيالي)، القسم الثالث (تمرحل التاريخ - دراسة نظرية تربط بين المستويين النظري والعملي)، هذا الجزء لم يتح لمهدي انجازه بسبب اندلاع الحرب الاهلية اللبنانية واغتياله عام 1987.

أ. في نمط الانتاج الكولونيالي:

يحدد مهدي عامل مفهوم نمط الانتاج الكولونيالي بأنه (بنية رأسمالية تتمحور حول تبعيتها البنيوية للامبريالية، او لنمط الانتاج الرأسمالي في البلدان الامبريالية، هذه البنية لا تحطمها الصناعة المنبثقة حديثا وانما تؤكده) (3). هذا النمط نتاج العنف الاستعماري الذي هدم العلاقات السابقة وانتج علاقات الانتاج الكولونيالية، وهي علاقة تبعية اقتصادية تربط البلد المستعمر بالبلد الرأسمالي الاستعماري، في حركة تطور تاريخية واحدة، عن طريق التجارة الخارجية او عن طريق توظيف الرساميل، تتخذ شكل العلاقة الكولونيالية لتصب في صالح البلد الاستعماري. وهذا الاخير يتلقى من البلد المستعمر كمية من العمل اكثر من التي يصدرها في منتجاته اليه، فمبادلة البضائع بين البلدين هي في الحقيقة غير متساوية، تكون دائما في صالح البلد المستعمر، لأنها مبادلة بين كميتين من العمل غير متساويتين، والفرق بينهما يحدد مقدار فائض الاستغلال. يقول مهدي (ان تطور اوروبا الغربية داخل العلاقة الكولونيالية، هو نتيجة تاريخية لتخلف البلدان المستعمرة، والعلاقة الكولونيالية تدفع بشكل قوي تطور الكولونيالية القوى المنتجة في البلد الاستعماري، بينما تحد من تطور هذه القوى في البلد المستّعمر، والاصح انها تشلّها، ولا يمكن للبرجوازية الكولونيالية، وبحسب صيرورتها الطبقية وتكونها ان تكون تجارية، وهذا يرجع الى أن العلاقة الكولونيالية هي الاطار التاريخي لتطور رَسملة الانتاج الكولونيالي، وهذا يساعدنا على فهم كيف ان البرجوازية التجارية، يستحيل ان تصير في تطورها الطبيعي برجوازية صناعية كما في الغرب، لانها ولدت عجوزا مشلولة، لأنها كولونيالية)(4). هذه الولادة غير الطبيعية لعلاقات الانتاج الكولونيالية عطلت التطور الطبيعي الموضوعي، فتعايش النمط الرأسمالي مع الانماط السابقة عليه، ادى الى اختلاف في مواقع الطبقات وادوارها، ويتم الاستغلال عن طريق الابقاء على الاشكال الما قبل رأسمالية في ظل تقسيم عالمي للعمل تفرضه الامبريالية، ومن تداعيته ان يؤدي الى تزايد البطالة في هذا البلدان بينما يتقلص في المركز. ولهذا ينتقد مهدي عامل مفهوم التخلف؛ فالتخلف نفسه لا يفهم ولا يفسّر بماضيه وآثار هذا الماضي كما يقول ايف لاكوست، ولا بالفارق الكمي بين بلد متخلف وبلد رأسمالي غربي، وانما يُفهم ويفسّر ببنيته الراهنة. فالتخلف كما يقول مهدي (بنية اجتماعية متماسكة، أي انه نظام انتاج متميز (خاص) هو نظام الانتاج

الكولونيالي)(5). والاستعمار نفسه في ضوء هذا المفهوم البنيوي ليس كيانا قائما بذاته ومتطورا بنفسه بل هو وليد حركة صدام بين بنيتين اجتماعيتين خضعت احداهما، وحققت احداهما ضرورة تطورها بسدّها افق امكانية واقعية لتطور الاخرى (ولهذا فالعلاقة بين الرأسمالية الغربية والتخلف اذا نُظر اليها داخل الافق التاريخي لتكونها وتطورها فهي ليست علاقة خارجية، بل هي فعلا علاقة داخلية، او ربما كان الاصح تحديدها)، كما يقول مهدي عامل (كعلاقة تداخل بنيوي، ولهذا كذلك فالتخلف ليس أثرا لسبب منفصل عنه، وانما هو في حقيقته كبنية شاملة، نتاج لبنية أخرى مرتبطة به داخليا في حركة تشامل واحدة)(6).

ويتساءل مهدي، اين تكمن السيطرة على بلداننا؟ ويجيب: (في البنية الكولونيالية كبنية اجتماعية متميزة لا وجود لها ولا بقاء الا في وحدتها البنيوية والتطورية مع البنية الراسمالية، وبتحديد اكثر، ان السيطرة على البلدان المتخلفة قائمة في علاقات الانتاج نفسها، كعلاقة كولونيالية، اي في البنية الطبقية الخاصة بالبنية الاجتماعية الكولونيالية. ولذلك يخطئ من يتحدث عن انهاء الاستعمار، من بلداننا، واننا حصلنا على استقلالنا الحقيقي ذات يوم، اذ كانت بلداننا طوال المرحلة التي مضت، تعيش حالة استعمار غير مباشر عبر العلاقة الكولونيالية) (7). واليوم يعود الاستعمار بصيغته التقليدية، اي التدخل العسكري المباشر كي يحافظ على الانظمة الكولونيالية التابعة، ويعيد انتاجها وتجددها، حتى لا تسقط بفعل القوى الذاتية الشعبية، واذا صار وسقطت، عندها يتوقف ضخ الرساميل الى الحواضر الغربية، لان هذه الانظمة تلعب دور الوسيط الكومبروداري - المالي.

ب. الطبقة الوسطى

(يولي مهدي اهتماما كبيرا للفوارق بين الطبقة الوسطى في الغرب وفي البنية الكولونيالية، فالطبقة الوسطى في الرأسمالية طبقة ثورية كانت واقعة بين الاقطاع والفلاحين وحاملة لنمط انتاج جديد، ولذا قطعت مع الاقطاع وصفّت العلاقات الاقطاعية، اما في البنية الكولونيالية فلم تكن هناك طبقة وسطى، كانت هناك نواة جرى وأدها، بل ولدت برجوازية كولونيالية من نوع متميز هي اعادة انتاج لعناصر الطبقة الوسطى من اقطاعيين تتجدد بتجدد علاقات التبعية للبرجوازية الامبريالية. وهنا الفرق الرئيسي بين البرجوازية الامبريالية والكولونيالية، اذ ان تبعية الثانية للأولى شرط لتجددها)(8).

ج. ضعف التفارق الطبقي:

ضعف تفارق الطبقة العاملة عن الفئات البورجوازية الصغيرة والفئات الكادحة الاخرى، بسبب ضعف البرجوازية في تصفية علاقات ما قبل الرأسمالية، حيث انتجت طبقة عاملة ضعيفة، وهو أمر سيترك تأثيره على الممارسة السياسية للطبقة العاملة وحزبها، خاصة دورها في التحالفات السياسية.

د. الاستبدال الطبقي:

مفهوم الاستبدال الطبقي يطال البرجوازية الصغيرة دون سواها، وبمعنى انها عرفت تفارقا طبقيا، أي ارتقاء وانتقال فئات برجوازية صغيرة لتحل محل البرجوازية الكولونيالية، وصلت الى السلطة بانقلاب عسكري واتخذت لنفسها صفة "الانظمة التقدمية"، التي تشهد زوالها اليوم، دون ان تُغير عن استلامها للسلطة شيئا في علاقات الانتاج الكولونيالية، فتتحول بدورها الى برجوازية كولونيالية متجددة، صيرورة تحولاتها وضعتها في تناقض مأزقي مع تجدد علاقات الانتاج الكولونيالية الذي هو شرط بقائها في السلطة بالرغم من الاصلاحات الفوقية التي اجرتها وكانت هذه الاصلاحات قاعدة مادية لإثرائها في ما بعد، واثر تغير وضعها الطبقي تغير موقفها من الامبريالية. ان تحولها الى كولونيالية منعها من حل القضية الوطنية. بهذا المعنى يقول مهدي ان لا وجود لشيء اسمه برجوازية وطنية في بلادنا، حيث رفض هذا المفهوم جملة وتفصيلا.

هـ. مفهوما الطائفة والطائفية:

أبدع مهدي في تحليل الطائفية، ونشر كتابين حول الطائفية (مدخل الى نقض الفكر الطائفي، وفي الدولة الطائفية، بالإضافة الى العديد من المقالات). الطائفة حسب تعريف مهدي هي (علاقة من التمثيل السياسي تتحدد فيها الطبقات الكادحة كطوائف، بينما يتحدد ممثلوها السياسيون في تلك العلاقة كفئة من البرجوازية)(9)، وقد جاء هذا التعريف في ضوء تحليل مادي للبنية المجتمعية الراهنة في لبنان. ووجد مهدي ان الطبقات الكادحة تظهر في مجرى هذا الصراع كطوائف بفعل غياب قوتها السياسية - حزبها الطليعي - او ضعف ممثليها السياسيين الحقيقيين.

في تعريف الطائفية يقول مهدي ان (الطائفية هي الشكل التاريخي المحدد للنظام السياسي الذي تمارس فيه البرجوازية سيطرتها الطبقية)(10). هذا التعريف يوضح ان الصراع الطائفي المسيس هو شكل ظاهري لجوهر الصراع الطبقي الذي يراد طمسه.

2. قضية التحرر الوطني لدى مهدي عامل:

القضية الرئيسية التي تواجه مجتمعاتنا هي قضية تحررها من السيطرة الامبريالية، أي من علاقة التبعية البنيوية التي تربطها بالإمبريالية، كما ان الازمة التي يواجهها تطور هذه المجتمعات هي ازمة الانتاج المسيطر في واقعها الانتاجي، ازمة الطبقة المسيطرة فيه وازمة سيطرتها الطبقية. وضع مهدي في الجزء الثالث من مشروعه غير المكتمل "في تمرحل التاريخ" نظرية الانتقال في شروط نمط الانتاج الكولونيالي، وهي الصياغة المفترضة لمراحل الثورة الاشتراكية - نظرية في الممارسة السياسية الثورية. رفض مهدي في "تمرحل التاريخ" تجزئة عملية التحرر الى مرحلتين: مرحلة تحرر وطني بما هي تحرير الرأسمالية من طابعها الكولونيالي وبناء رأسمالية وطنية تقودها برجوازية وطنية، ومرحلة الانتقال الى الاشتراكية التي تقودها الطبقة العاملة.

وأكد مهدي ان التحرر من السيطرة الامبريالية يمر بالتحرر من مُمثليها، وان هذه المرحلة تتصف بانها مرحلة انتقال الى الاشتراكية وليس الرأسمالية كما يحاول البعض ان يروج معتبرا ان الطبقة الوسطى هي من تقود عملية التحرر وسوف تقضي على الاشكال الما قبل الرأسمالية ليتم الانتقال الى الرأسمالية. يرفض مهدي ان يكون للبرجوازية التابعة هذه، مكان الصدارة في حركة التحرر الوطني العربية، واقصى ما يتصوره لها هو ان تكون ضمن تحالف تقوده الطبقة العاملة، وتتمثل فيه الفئات التي يمكن ان تساهم في خدمة الصراع ضد الامبريالية، بشرط ان تبقى في حكم التابع لا المتبوع. ورفض ايضا جميع التحالفات التي تكون فيها الطبقة العاملة ملحقا بذيل الحكومات او الطوائف المُتسيّدة. ويستند مهدي في ذلك الى موقعين للطبقة العاملة: طليعي وقيادي. يفترض ان تحتلهما بالاستناد ليس الى موقعها الاقتصادي بل خيارها الثوري المتحقق في ميدان الممارسة الطبقية المتصارعة. وحدد مضمون الصراع الطبقي في هذه المرحلة على انه صراع وطني تقوده الطبقة العاملة في تحالف طبقي ضد البرجوازية الكولونيالية وضد البرجوازية الامبريالية، ستقوم الطبقة العاملة في هذه المرحلة بكسر الاطار البنيوي لبنية علاقات الانتاج الكولونيالية من اجل قطع علاقة التبعية. ويرى ان لعملية التحرر من البرجوازية الامبريالية ومن البرجوازية الكولونيالية مضمونا واحدا هو تغيير علاقات الانتاج الكولونيالية واستبدالها بعلاقات انتاج اشتراكية. لكن بسبب الظروف التاريخية وطبيعة الصراع الطبقي في البنية الاجتماعية الكولونيالية من حيث ارتباطه بالعلاقة الكولونيالية ادى الى استلام البرجوازية الكولونيالية قيادة حركة التحرر الوطني (عبر الانقلابات العسكرية) ما ادخل هذه العملية في ازمة هي اقرب الى المأزق. فقيادة الحركة نتاج لهذه العلاقات ولا وجود لها وبقاء لها الا بتجدد هذه العلاقات. من ناحية اخرى لا تحرر للبنية الاجتماعية ولا تصفية لعوائق التطور امامها الا بتغيير هذه العلاقات، وهو ما يضع البرجوازية في مأزق. ولأنها عاجزة وليست راغبة في التغيير فإنها تفقد شرعيتها في القيادة وتقوم بالخيانة الوطنية. وفشل ايضا هذه البرجوازية الصغيرة في بناء الدولة القومية لانها بحكم صيرورتها طبقة متحولة (الى كولونيالية)، متناقضة، ووعيها وعي تلفيقي قائم على الثنائيات، المساومات والصفقات. وبلحظة تاريخية محددة يمكن ان تتعارض مع كل ما هو حديث وتقدمي وتنقلب على المرجعية الفكرية، وتتعالى على الشعب. وخير مثال على ذلك هو التجربة الناصرية في الحكم؛ فعلى الرغم مما شهدته من التفاف شعبي، لكنها عانت من نقص الاكتمال بسبب اقصاء الشعب عن أي دور مشارك، رقابي، في الحياة السياسية – الاقتصادية، فقد تولى عبدالناصر مقاليد السلطة بانقلاب عسكري، وعزز القبضة الامنية والتف على الديمقراطية، من هنا فان انجازاته لم تتعد مسألة التأميم والاصلاح الزراعي واتت هزيمة 1967 لتعري نواقص هذا المشروع وفشله.

هذه الفئة من البورجوازية التي وصلت بانقلابات عسكرية واغتنت وتحولت إلى بورجوازية تجارية، مالية، طفيلية ـ ريعية وأفرزت فيما بعد زمرة مافيوية/ عائلية متحكمة بالمقدرات الاقتصادية للبلدان العربية من مصر إلى سورية وتونس وغلفت هذا النهب بآيديولوجية عروبية ـ علمانية، دينية. وموقعها الجديد جعلها تندمج وتتحالف مع الرأسمال المالي الاحتكاري وبدأت بتنفيذ سياسات الليبرالية الاقتصادية والبدء بالخصخصة لأكثر القطاعات ربحية، ما أدر عليها أرباحاً طائلة، معمقة الاستقطاب والتفاوت وعلاوة على ذلك قامت بشفط الفائض وحيازتها للعائد والريع عبر التبادل غير المتكافئ. أفقرت البورجوازية الكومبرودارية شرائح عديدة من موظفي الدخل المحدود، الفلاحين، صغار المنتجين، الحرفيين الذين تضرروا بفعل مزاحمة البضائع الأجنبية وانفتاح الأسواق كما أن أصحاب المال الصغير حوصروا وعوقبوا ولجمت استثماراتهم المتواضعة في القطاعات الإنتاجية.

الطائفة والطائفية:

في المقدمة أكد مهدي عامل ضرورة الفصل بين الأيديولوجية الدينية الأيديولوجية الطائفية، ويقول ان الملايين من الشعوب التي تؤمن بالافكار السماوية وغيرها ومن ثم تعتنق دين معين تمارسه في الحياة ذلك حسب طقوسها وتقاليدها وإيمانها بذلك المذهب، فهذا شيء طبيعي جداً ولا يعتبر من له ديانة بأنه طائفي إلا اذا اصبح يعادي الآخرين ويضطهد الآخرين الذين هم يختلفون عنه في الديانة. وهنا وجب الفصل بين الآيديولوجيات الدينية والآيديولوجية الطائفية السياسية التي تفرق بين الشعوب حسب الانتماء الديني.

حدَّد مهدي الطائفيّة بوصفها "الشكل التاريخي المحدّد للنظام السياسي الذي تُمارس فيه البورجوازيّة اللّبنانيّة سيطرتها الطبقيّة". فكتب ما يأتي: (الطائفة، إذن، ليست كياناً. ليست الطائفة جوهراً. ليست شيئاً. إنّها علاقة سياسيّة يُحدّدها شكلٌ تاريخي معيّن من حركة الصراع الطبقي، هو الذي تتحكّم فيه البورجوازيّة بهذا الصراع، في غياب سياسي لنقيضها الطبقي. والعلاقة السياسيّة هذه علاقة تبعيّة طبقيّة تربط الطبقات الكادحة بالبورجوازيّة ربطاً طائفيّاً) (11). الطائفة، في نظره إذاً ليس لها وجود إلّا في الدولة. فللدولة دَورٌ في تأمين وجود الطوائف في مؤسّسات، أو كمؤسّسات، هي بالتحديد، مؤسّسات الدولة، أي أجهزة إيديولوجيّة. والطوائف لها وجود في الدولة كمؤسّسات الدولة فقط، وليس خارج الدولة: إنّ الطوائف ليست طوائف إلّا بالدولة، والدولة في لبنان هي التي تؤمّن ديمومة الحركة في إعادة إنتاج الطوائف كيانات سياسيّة، بالدولة وحدها، مؤسّسات. هكذا فنَّد مهدي نظريّة جوهر الطائفيّة، بحيث لا يرى أيّ معنى للطوائف خارج الدولة اللّبنانيّة. إذ ان الطائفية في الماضي غير الطائفية اليوم بنيويا، وإلا وقعنا في تماثلية مثالية هيغلية كما يقول مهدي عامل، (فالطائفية اليوم لا يمكن فهمها ان

لم نفهم الشكل الكولونيالي لتحرك نمط الانتاج الرأسمالي في البنية اللبنانية). ان الطائفية اذن تفسّر كذلك بالبنية الكولونيالية كعلاقة سياسية، ولا تفسر بجذور تاريخية أو بكيانات اجتماعية. (12).

بحسب نظرية مهدي عامل فان الدولة الطائفيّة تسمح للبورجوازيّة بإبقاء الطبقات الخاضعة في علاقة من التبعيّة الطبقيّة، التي هي علاقة تمثيل طائفي تربُط هذه الطبقات بممثّليها الطائفيّين ربطاً تبعيّاً. وذلك يؤدّي إلى فقدان وجود هذه الطبقات السياسيّة كقوّة مستقلّة، لتكتسب وجوداً آخر هو وجودها كطوائف. وما دامت الطبقات الخاضعة موجودة كطوائف، فهي لا تمثّل أيّ قوّة مستقلّة مناهِضة للبورجوازيّة. اي ان البرجوازية لجأت الى النظام الطائفي كمخرج من مواجهة صراع طبقي صريح، يؤمن تشتيت الخصم الطبقي وتغييب الاقتصادي - الاجتماعي والطبقي ويحمي البرجوازية من اية مسؤولية عندما توجه السهام الى زعماء الطوائف. يعتقد مهدي عامل أنّ الدولة الطائفيّة في أزمة، وهذه الأزمة ضرورة. بحسب رأيه البنية الاجتماعيّة في المجتمعات الرأسماليّة متوحّدة داخليّاً بآليّة حركة الصراع الطبقي بين نقيضَين طبقيّين، أي البورجوازيّة والطبقة العاملة. لكن، في المجتمع اللّبناني، الدولة الطائفيّة تشلّ حركة الصراع الطبقي من خلال الصراع بين الطبقة المُسيطِرة والطبقة المُناقِضة لها كقوّة مستقلّة. لذا، لا تستطيع الدولة الطائفيّة أن توحِّد البنية الاجتماعيّة، بل على العكس، هي عامل تفكيك لهذه البنية. هذا يعني أنّ الدولة الطائفيّة التي تسمح للبورجوازيّة اللّبنانيّة بسيطرتها الطبقيّة، تفكِّك في الوقت نفسه البنية الاجتماعيّة التي فيها تُمارس سيطرتها هذه. يقول مهدي: (إنّ الشكل الطائفي الذي هو أساسي لوجود الدولة اللّبنانيّة كدولة بورجوازيّة، هو العائق الأساسي الذي يحول دون تكوّن هذه الدولة كدولة بورجوازيّة. فالدولة اللّبنانيّة واقعة، إذن، في هذا التناقض المأزِقيّ بينها كدولة طائفيّة وبينها كدولة بورجوازيّة)(13). اما الحل الذي اقترحه بعض القوى السياسية البرجوازية، وهو مشاركة كل الطوائف في السيطرة على جهاز الدولة، يرد مهدي عليه: ”ان مفهوم المشاركة يندرج في منظومة مفاهيم الآيديولوجية البرجوازية في تحديدها الآيديولوجية الطائفية، وطابعه الطبقي يظهر بوجه خاص في تغييبه الطابع الطبقي لنظام التوازن الطائفي“. من هنا يقدم مهدي نقداً سياسيا وآيديولوجيا للفكر الذي يعتبر ان التوازن الطائفي هو الذي يؤمن المساواة بين الطوائف، ويصحح لهذا الفكر التعريف السياسي للتوازن الطائفي على انه بالضرورة ”توازن هيمني“، أي توازن تقوم فيه كل الطوائف في الدولة لكن على اساس هيمنة طائفة على اخرى. هذا ما هو واضح في المارونية السياسية آنذاك. والخلاصة من هذا كله هو أن كلّ هيمنة طبقية ملازمة بالضرورة ـــ وبسبب شكل بنية الدولة ـــ بهيمنة طائفية. وهذه الهيمنة الطائفية هي التي تؤمّن السيطرة

السياسية للتحالف الطبقي المسيطر، وهي التي تؤمّن بالتالي، إعادة إنتاج علاقات الإنتاج، أي تأجيل الأزمة الاقتصادية وتأبيد نمط الإنتاج الرأسمالي التبعي.

1. راهنية فكر مهدي عامل:

هل ما تزال أطروحات مهدي عامل راهنة بعد التحولات العميقة التي شهدها العالم من انهيار الاتحاد السوفييتي وسيادة نمط من التعميم الآيديولوجي لانتصار الرأسمالية وقيمها مثل: الليبرالية والعولمة وخرافة (نهاية التاريخ) التي اطلقها فوكامايا، ونهاية العقل الثوري ومجتمع الرفاه والديمقراطية والسوق الحرة؟ إنها أسئلة مشروعة. فقد تغيرت الكثير من المعطيات الثقافية والايديولوجية في الصراع الفكري الراهن، ومعها تغيرت موازين قوى الصراع في الحقل السياسي والاجتماعي؛ وما يميز هذه التغيرات هو كونها تصب في اتجاه تكريس السيطرة الآيديولوجية للفكر البرجوازي في أكثر أشكاله رجعية وظلامية وعدمية. واتخذت العولمة في العصر الجديد ابعادا واسعة مما غيّر في طبيعة العلاقات الدولية ومصائر الدول والشعوب وتحول العالم الى حقل موحّد للنشاط البشري لاستغلال الانسان للإنسان واستغلال شعوب بحالها واللجوء الى الحروب والاحتلال المباشر. واكتسبت الرأسمالية بعض الخصائص الاضافية المتمثلة في تشكل نوع من الفوقية – البنية المالية التي باتت تطبع التطور الرأسمالي بطابعها، تسبب في انفجار الازمات الاقتصادية المالية عبر آلية انتاج الفقاعات المختلفة كرد فعل على مفاعيل قانون ميل معدل الربح الى الانخفاض.

في هذه المرحلة اتسعت رقعة عمل علاقات الانتاج الرأسمالية ووصول بعض انساق تطورها الى الحدود التاريخية، وبات تقسيم العمل دوليا – التقسيم التكنولوجي الدولي – محددا لواقع البلدان في البنية الرأسمالية العالمية، حيث بات انتاج المبادئ التكنولوجية عموما من اختصاص الثالوث الامبريالي (الولايات المتحدة، اوروبا، اليابان) وتخلى مقابل ذلك عن قطاعات الانتاج المادي لصالح البلدان التابعة الناشئة، تاركا الدور التابع في مجال تأمين الخدمات، ويد العمل والاموال لصالح المركز الامبريالي للدول التابعة المتأخرة في تطورها. وقد انعكس هذا الامر في طور العولمة في تعمق تبعيتها بالثالوث الامبريالي ما عقد اكثر مسارات تطورها وعمق مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية.

واليوم ما يجري في البلدان العربية من انتفاضات يشير الى صوابية وراهنية الكثير مما انتجه مهدي عامل ومعالجته للمفاهيم الاساسية مثل: نمط الانتاج الكولونيالي والتبعية البنيوية، والطائفية، وازمة حركة التحرر الوطني العربية. فعلى الرغم من التغيرات في نمط الانتاج الرأسمالي وتحوله نحو العولمة، وتمركز رأس المال العالمي، إلا ان نمط الانتاج الكولونيالي في واقعنا العربي لم ينته، وطبيعة العلاقة البنيوية (بوصفها علاقة بنيوية وظيفية بين بنية واخرى)

التي تحكم تبعية نمط الانتاج الكولونيالي للرأسمالية الامبريالية في مرحلة عولمتها ازدادت حدة وعمقا. مفهوم التبعية البنيوية الذي يحتل موقعا محوريا في فكر مهدي عامل، ايضا تعمقت وتعززت (أولاً عبر المديونية المتراكمة إلى حد الغثيان، وثانياً عبر إملاءات الصندوق والبنك، والتي صاحبها فتح الفضاء الوطني على مصراعيه أمام الشركات والبنوك العملاقة، وثالثاً عبر إلحاق الجميع بمنظمة التجارة العالمية، ورابعاً عبر الهجمة الإمبريالية المسعورة على السيادة الوطنية، عسكريا واقتصاديا وإعلاميا، وإجبار شعوب الأرض قاطبة على الانصياع لقوى السوق العالمية، وخامساً، عبر لجم قوى الإنتاج وإدخال المجتمعات التابعة في احتراب أهلي لا ينتهي، وسادساً، عبر تحطيم الوعي والعقل وتجهيل الناس عبر النظم التربوية المهترئة ووسائل الإعلام المسيرة رجعيا ودور العبادة الظلامية. من يشك بعد ذلك بضرورة مفهوم التبعية(14) ومشكلة الطائفية بدأت تأخذ ابعادا اخرى خارج لبنان وبالمستوى الاثيني والقبلي، وهذا ما حصل مؤخرا في العراق وسوريا واليمن. وبات الخطر الطائفي يشكل تحديا خطيرا يهدد المنطقة ويخدم الاستراتيجية ذات القطب الواحد الهادفة الى تفتيت العالم الثالث وتحويله من مجتمعات المواطنة الى مجتمعات طوائف واثنيات، بل اتسعت مخاطر الطائفية ايضا لجهة انتعاش فئات سلفية تعمل على إعادة المجتمع الى القرون الوسطى.

اما مفهوم التحرر الوطني العربية فهو مفهوم اساسي عند مهدي عامل واحتل المساحة المركزية في فكره، وانتهى مهدي إلى القول بان التخلص من هذه العلاقة الكولونيالية البنيوية، إنما يتم بالتحرر الوطني، وإن هذا التحرر الوطني في ذاته من حيث إنه تحرر من علاقات الإنتاج الكولونيالية التابعة للرأسمالية هو انتقال كذلك في الوقت نفسه إلى الاشتراكية، فلا طريق غير طريق التحرر الوطني كوجه آخر للتحول الاشتراكي. واليوم مع الانتفاضات الشعبية العربيّة التي أتت في موجاتها المتتالية منذ عام 2011 تؤكد لنا ان هذه الثورات الثلاثة (الثورة الديمقراطية والوطنية والاشتراكية) هي ثورة واحدة, وان هذه الشعوب تحتاج اليوم أكثر من أي وقت مضى للثورة الديمقراطية والوطنية والاشتراكية، التي لن تتحقّق إلا بقيادة حزب الطبقة العاملة وتحالفها الواسع.

يقول مهدي: (لو طُرحت القضية الأساسية، في شكلها الصحيح، كقضية التحرر الوطني من الإمبريالية، لتحددت المهمة الأساسية للشعوب العربية في ضرورة التحويل الثوري لبنية علاقات الإنتاج الكولونيالية، التي بتجددها المستمر تتجدد السيطرة الإمبريالية، ويتأبد خضوعنا لهذه السيطرة، ويتأبد بالتالي ما يسمى بـ "تخلفنا"، ولو تحددت المهمة الأساسية لحركة تاريخنا المعاصر بهذا الشكل، لاتضح لنا أن تحققها يمر بالضرورة عبر عملية معقدة من الصراع ضد البرجوازيات العربية

المسيطرة، التي تجد مصلحتها الطبقية الأساسية في تأمين التحقق الآلي المستمر لعملية تجدد تلك البنية من علاقات الإنتاج الكولونيالية التي، بتجددها، تؤمّن لها تأبُّد سيطرتها الطبقة) (15).

لن تكون المعركة سهلة، بين القوى الشعبية الثورية، التي تطمح الى احداث التغيير الجذري وبين الامبرياليات، فعملية الخروج من هذا الواقع لا يمكن ان تتم إلا عبر صراع طبقي قاس ومرير، لا بد يخاض ضد السيطرة الامبريالية التي ستعمل على تفكيك وسحق الانتفاضات ومن خلال اتباع التكتيكات المعهودة اياها، أي دق اسافين، بين الشعوب الثائرة كي تقطع الطريق على اندلاع الثورة العالمية، كاللعب على سياسات الهوية وتصعيد خطاب الكراهية والعنصرية. ان ازمة الرأسمالية اليوم، ليست ازمة مالية فقط وفق تعبير سمير امين، ولا هي مجموع الازمات المتراكمة للنظام، لكنها أزمة الرأسمالية الاحتكارية والتي تتعرض سيطرتها العليا المنفردة للمساءلة، من قبل الطبقات الشعبية في المراكز والاطراف، والتي تدفع ضريبة سياسات الطبقة الواحدة، المسيطرة مالياً وليس اقتصادياً، وهذه الأوليغارشية والتي ما انفكت، تبحث عن منافذ خارجية تمتص فوائض رساميلها، العائمة في البنوك ولم تجد تاريخياً، هذه المنافذ إلا في هذا الشرق، وعلى حساب تدمير أحيائه الفقيرة ونزع ملكياتهم، بالقوة وطردهم وإجبارهم على الهجرة، من الأطراف إلى المركز. ولا أجد أعمق وأبلغ، من توصيف ماركس، لولادة رأس المال والتي وسمها بأنها "ولادة ، تنزف دماً وقذارة ومن جميع مسامها والرأسمال هذا، لم يكف ومنذ ولادته هذه، عن إنتاج فيض نسبي من العمال، وهذا شرط ضروري لعملية التراكم، والتي تأخذ شكلاً حاداً في أوقات الأزمات وهي المعادل للإفقار المطلق".

المصادر

1. د. هشام غصيب، مجلة الطريق اللبنانية، العدد الرابع سنة 2002.

2-3 مهدي عامل، مقدمات نظرية لدراسة اثر الفكر الاشتراكي في حركة التحرر الوطني- في نمط الانتاج الكولونيالي، دار الفارابي، بيروت 1976. الذي صدر عام 1976.

4. مهدي عامل، مقدمات نظرية لدراسة اثر الفكر الاشتراكي في حركة التحرر الوطني- في التناقض.

5-6-7 مهدي عامل، في نمط الانتاج الكولونيالي. مصدر سبق ذكره.

8. مفيد قطيش، مشروع مهدي عامل في عصر جديد، مجلة الطريق اللبنانية، العدد4 سنة 2003.

9-10 مهدي عامل، في الدولة الطائفية. دار الفارابي، بيروت 1986.

11-12-13- مهدي عامل، مدخل إلى نقض الفكر الطائفي - القضية الفلسطينية في ايديولوجية البرجوازية اللبنانية، دار الفارابي، بيروت 1989.

14. هشام غصيب، هل ما زال مهدي عامل راهنا، موقع «الحوار المتمدن» على الانترنيت. متاح على الانترنيت على الرابط التالي:
https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=638714

15 مهدي عامل، مقدمات نظرية لدراسة اثر الفكر الاشتراكي في حركة التحرر الوطني- في التناقض. مصدر سبق ذكره.

محاسبة تكاليف (المعضلية): محاسبة حماية البيئة انموذجاً

د. صباح قدوري

الدكتور صباح قدوري، استاذ جامعي متخصص في محاسبة التكاليف وأنظمتها، بكالوريوس محاسبة وإدارة أعمال/ كلية التجارة - جامعة بغداد عام 1965، وحاصل على شهادة الماجستير في محاسبة التكاليف من جامعة Łódź / بولندا في عام 1979. وفي عام 1985 حصل من نفس الجامعة على شهادة الدكتوراه Ph.D في فلسفة الاقتصاد الكمي/ محاسبة التكاليف. عمل الدكتور قدوري استاذا للمحاسبة في جامعة الفاتح/ كلية المحاسبة في مدينة غريان/ ليبيا، كما عمل مدرسا للمحاسبة في المدرسة العليا للتجارة في مدينة اودنسا/ الدانيمارك، ومدرسا لاقتصاد العمل والتكاليف في المدرسة العليا للتجارة/ اودنسا – الدانيمارك. نشر د.قدوري العديد من الدراسات والبحوث والمقالات في المجلات والصحف العراقية والعربية.

المقدمة:

شهدت أواخر القرن العشرين على المزيد من الاهتمام العالمي بمسألة البيئة من قبل الحكومات ووحدات إدارة الاعمال والمنظمات الدولية والمجتمع المدني والمعنيين بأمور البيئة، بعد ان أصبحت مشكلة اقتصادية واجتماعية وسياسية. وبذلك جرى اتخاذ إجراءات على المستوين الوطني والدولي لحماية وصيانة وخفض آثار البيئة من التلوث والتدهور والاضرار التي تصيبها نتيجة: التطور التكنولوجي الذي بدأ يطل بآثاره الإيجابية والسلبية على المجتمعات الإنسانية، ومن جرّاء مزاولة الوحدات الاقتصادية للأنشطة الإنتاجية والخدمية والتسويقية ذات التأثير على تلوث البيئة، والناتجة عن انبعاث الادخنة التي تسبب تلوث الهواء او تلوث الماء و/ او تصريف مخلفات الملوثة للبيئة، وكذلك لما لهذه المسالة من أثر كبير على استمرار التنمية المستدامة على المدى البعيد، من خلال الاستخدام الأمثل للموارد الطبيعية والاحتفاظ بها وتنميتها في الوقت ذاته.

وبذلك أصدرت الجهات المعنية، القوانين والتشريعات البيئية التي تحمل الوحدات الاقتصادية المسؤولية الاجتماعية عن سلامة البيئة، بجانب أهدافها المالية والنقدية. وظهرت ايضا

الحاجة الى وجود الإدارة البيئية التي تهتم بتطبيق نظام محاسبة التكاليف البيئية، من خلال توفير إطار علمي وإجرائي له، بهدف قياس وتحليل ورقابة كمية وقيمة مدخلات عوامل الإنتاج، وأثر مخرجاتها على مستوى الرفاهية الاقتصادية للفرد والمجتمع. وصدر بهذا الخصوص العديد من الدراسات والابحاث العلمية في البلدان الاوربية والولايات المتحدة الامريكية، وقلتها في الدول العربية، وذلك لتدني التعليم والوعي والثقافة وضعف القوانين والتشريعات البيئية فيها.

إن مسالة البيئة وحمايتها موضوع واسع، يمكن معالجتها من الجوانب الطبيعية (Ecology) والقانونية والاجتماعية والاقتصادية والمحاسبية. ومن خلال هذه الورقة نحاول التركيز على الجوانب المالية والمحاسبية لمشاكل البيئة والآثار الاقتصادية الناجمة عنها، وباتباع أسلوب وصفي وتحليلي للتعرف الى كيفية القياس المحاسبي لتكاليف البيئة، والافصاح عنها في التقارير المالية، من اجل جودة المعلومات المحاسبية، التي تتحقق بموجبها: إجراءات تبويب التكاليف البيئية، التزام الإدارة بالمعايير البيئية، وعملية اتخاذ القرارات لمستخدمها، بهدف تحسين الأداء البيئي.

وضمن المحاور الاتية:

1. المفهوم المحاسبي للتكاليف البيئية؛
2. القياس المحاسبي للتكاليف البيئية؛
3. انتاج وافصاح البيانات عن التكاليف البيئية؛
4. أهمية محاسبة التكاليف البيئية ومردودها الاجتماعي.

أولا: المفهوم المحاسبي للتكاليف البيئية

عرفت محاسبة التكاليف البيئية، على انها عملية دمج ومقارنة المعلومات البيئية مع الأصول والموارد، والدخل والتكلفة، بحيث تنعكس هذه المعلومات على تكلفة المنتج أو الخدمة، وتظهر في البيانات المالية للوحدة الاقتصادية. [1]

لذا، تولي محاسبة التكاليف البيئية اهتماما خاصا بالمعلومات المالية المتعلقة بالمسؤولية الاجتماعية. وذلك من خلال تحليل النتائج ومسببات حدوث التكلفة، لتحديد وتعيين أثر التكاليف البيئية التي تسببت بها الأنشطة والعمليات الانتاجية للوحدة الاقتصادية، كما تساعد على تحديد التوقيت الزمني لتطبيق استراتيجيات الأعمال اللازمة لتوقع واستغلال الفرص المتاحة لتحسين البيئة. [2]

وهي تمثل التكاليف التي تتحملها الوحدة الاقتصادية اختياريا او إلزاميا، تطبيقا للقوانين واللوائح البيئية، بهدف حماية البيئة بصورة سليمة وموضوعية. وبالتالي تحسين الأداء البيئي.

قياس ورقابة هذه التكاليف والافصاح عنها بشكل معلومات في التقارير المالية وفق اسس ومعايير محاسبية مناسبة، وتزويد الأطراف المعنية الداخلية والخارجية بها، والتي تساعدها في تقييم الكفاءة الاقتصادية للوحدة، ومدى الالتزام بمسؤوليتها تجاه حماية البيئة من التلوث، وعملية اتخاذ القرارات الاقتصادية والإدارية على مستوى الوحدات الاقتصادية او على مستوى الاقتصاد الوطني.

تتمثل تكاليف البيئة كافة في عناصرها التي تساهم بتخفيض الفاقد في الخدمات والطاقة والموارد الاقتصادية المتاحة، بالإضافة الى تكلفة اعادة تدوير المخلفات (صلبة، سائلة، وغازية)، هذا الى جانب تكلفة منتجات صديقة للبيئة. [3]

يمكن أن نميز ثلاث صفات في المحاسبة البيئية، كالآتي:

- الاقتصادية: قياس وتحليل كمية وقيمة مدخلات عوامل الإنتاج، وأثرها على مستوى الرفاهية الاقتصادية على الفرد والمجتمع؛

- المحاسبية: تتداخل مع المحاسبة المالية في اعداد القوائم المالية وفق المعايير والاسس المحاسبية، وتتضمن معلومات للآثار البيئية، للمستفيدين الخارجيين من مالكي الأسهم والمستثمرين والمقرضين والممولين والمستهلكين، وغيرهم؛

- الإدارية: تحليل البيانات والمعلومات المرتبطة بالأنشطة البيئية والافصاح عنها لمساعدة الإدارة في التخطيط والرقابة وعملية اتخاذ القرارات الاقتصادية والإدارية.

ثانيا: القياس المحاسبي للتكاليف البيئية

تتحمل الوحدة الاقتصادية عند قيامها بمزاولة نشاطها الإنتاجي والخدمي والتسويقي، تكاليف بيئية داخلية تلتزم كثير من الشركات الصناعية بها، وتكاليف بيئية خارجية التي تتحملها قطاعات المجتمع غير مرتبطة بشكل مباشر بالوحدة الصناعية نتيجة الاثار البيئية المتلوثة عن نشاطها، وذلك للمساهمة في تخفيض اثار البيئة السلبية. [4] ففي حالة عدم تخصيص هذه التكاليف بشكل مباشر على المراحل والمنتوجات، مما يسبب بان تظهر كلفة الإنتاج بأقل من حقيقتها، وبالتالي لا تعكس تسعير المنتج تكلفته الحقيقية. عادة تظهر في التطبيق العملي صعوبات في قياس ومعالجة هذه التكاليف، على الرغم من إصدار المنظمة الدولية للتوحيد القياسي بجنيف، مجموعة المعايير البيئية والتي تسمى بالأيزو ISO 14000 -(The International Organization For Standardization)، أي نظام الإدارة البيئية، والتي تتعلق بعدة جوانب مرتبطة بنظام ادارة وقياس التكاليف البيئية، بما فيها معايير مراجعة الحسابات البيئية ((14012، (لمزيد من المعلومات بهذا الخصوص، انظر، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة)، إلا أن لا يزال هناك نقص كبير في المعايير المحاسبية المتعلقة بالقياس والتقرير عن صافي المنافع والتكاليف البيئية الخاصة بأنشطة الوحدات الصناعية، وصعوبة التحديد للتكاليف البيئية الخارجية، وغيرها، مما يؤدي الى صعوبة توحيد أهداف واشكال الإفصاح البيئي. هناك إمكانية تطبيق المقاييس الكمية على الأنشطة غير الملموسة في الوحدة الاقتصادية، والتي يدخل من ضمنها التكاليف والالتزامات البيئية. [5]

يمكن تصنيف هذه التكاليف، كالاتي: [6]

- تكاليف (المنع)، تتضمن تكاليف لحماية البيئة ومنع التأثيرات السلبية

لانشتطها على المجتمع الداخلي والخارجي، وتشمل تكاليف البحث والتطوير لمنع التلوث والفاقد والحصول على تكنولوجيا النظيف لإنتاج منتوجات صديقة للبيئة؛

ـ تكاليف المعالجة (التخلص)، تشمل تكاليف معالجة الانبعاث والضوضاء والتخلص من النفايات المترتبة على أنشطة الوحدة الاقتصادية، ويمكن الاستفادة منها من خلال إعادة تدويرها أو التخلص منها بطريقة لا تضر بالبيئة؛

ـ التكاليف التشغيلية، وهي مجموعة التكاليف المرتبطة بعمليات التصنيع او انتاج خدمة من اجور والمستلزمات السلعية والخدمية والإدارية والتي تسبب التلوث، او متابعة مستويات التلوث في المخلفات وتكاليف معالجتها والغرامات والعقوبات الناتجة عن الحوادث البيئية، وغيرها. تحمل هذه التكاليف سنويا على حساب تكلفة الانتاج مع تكاليف النشاط الاعتيادي للمنتج ضمن الحسابات المالية، ويجب ان تظهر تفاصلها أيضا في تقارير الكلفة؛

ـ التكاليف الرأسمالية، وهي تكاليف مرتبطة بإنتاج أصول تستخدم في رفع كفاءة استخدام الموارد البيئية (معدات تقنية وخدماتها ومهمات التشغيل، تكاليف البحث والتطوير والتدريب، وغيرها). وتظهر كأصل من أصول الوحدة الاقتصادية في جانب الأصول من الميزانية العمومية، وتخضع لطريقة الإهلاك خلال عمرها الإنتاجي، ويحمل قسط الإطفاء (الإهلاك) السنوي على التكاليف البيئية؛

ـ تكاليف بيئية مباشرة وتكاليف بيئية غير مباشرة (عامة)، الأولى ترتبط مباشرة بالنشاط الذي أحدثها، والأخيرة يصعب ربطها بشكل مباشر بنشاط معين وتجمع عادة تحت وعاء تكاليفي واحد، ويعاد توزيعها على الأنشطة المستفادة منها، باستخدام معدلات تحميل مناسبة.

يتوقف القياس المحاسبي لتكاليف تلوث البيئة على حجم ونطاق الأنشطة البيئية المراد قياسها. ممكن استخدام أسلوب القياس النقدي أو الكمي، والاخير متعدد الابعاد، مما يصعب اختيار وحدة القياس المناسبة، و/او استخدام أسلوب القياسي الوصفي، أي بتوصيف الإنشائي لخصائص الحدث. [7]

وعلى ضوء ذلك يمكن اعداد دليل حسابات الموارد الطبيعة، تعتمد تفاصيل تبويبها على حجم ونوعية البيانات البيئية المرغوب الحصول عليها، وهي تشمل على سبيل المثال الأراضي الزراعية، المياه، الهواء، الطاقة بمختلف أنواعها.

كذلك ممكن الاستعانة بالتكاليف الفعلية، أي اجراء مقارنة تكاليف الاداء البيئي بالفترة الحالية بالفترات السابقة، او استخدام التكاليف المعيارية و/او مخططة مقدما، وذلك بالاستناد الى المؤشرات المحاسبية، الاتية:

أ. معدل التكلفة السنوية للتحكم في تلوث السلعة المنتجة، فمثلا بالطن:

التكلفة السنوية للتحكم في التلوث

———————— = xx دينار/ طن

كمية الإنتاج الفعلية السنوية بالطن

ب. نسبة تكلفة التحكم الى التكلفة الصناعية:

معدل تكلفة التحكم للطن

———————— * 100 = xx%

التكلفة الصناعية الفعلية للطن

ج. نسبة التكاليف الرأسمالية السنوية للتحكم بالتلوث الى اجمالي التكاليف الرأسمالية السنوية

(الأصول الثابتة والمشروعات تحت التنفيذ)، كالآتي:

التكاليف الرأسمالية السنوية للتحكم بالتلوث

———————— * 100 = xx%

إجمالي التكاليف الرأسمالية السنوية للوحدة الاقتصادية

د. نسبة صافي التكاليف الجارية السنوية للتحكم في التلوث، الى إجمالي تكاليف الإنتاج السنوي:

التكلفة الجارية السنوية للتحكم في التلوث

———————— * 100 = xx %

تكاليف الإنتاج السنوية الفعلية

هـ. معدل التحكم في التلوث لكل فرد متأثر بالتلوث ويحسب كالآتي:

التكاليف السنوية للتحكم في التلوث

———————— = xx دينار/ فرد متأثر

عدد السكان الكلي بالمنفعة * نسبة السكان المتأثرين

ز. على أساس نسبة التحكم في التلوث مضروبا بالربح الصافي للوحدة الاقتصادية:

تكاليف التلوث

———————— * 100 = xx %

مصروفات السنوية للوحدة

صافي الربح للوحدة * نسبة التحكم في التلوث المستخرجة من المعادلة السابقة.

بغية إجراء القياس المحاسبي للتكاليف البيئية، لا بد من جمع تفاصيل عناصر هذه التكاليف وفق التصنيفات المشار إليها سابقا والمعتمدة من الوحدة الاقتصادية من دليل حساباتها والتقارير والكشوفات الصادرة عن إدارة محاسبة تكاليف البيئية بالتنسيق مع الوحدات الاخرى التي تمارس أنشطة بيئية. وتحميل هذه التكاليف على مركز التكاليف البيئية، مما يسهل عملية قياسها ورقابتها وتحميلها على الأنشطة التي تسبب التلوث البيئي، والافصاح عنها بشكل المعلومات التي تساعد على عملية التخطيط، وترشيد القرارات الادارية ذات الاثار البيئية، بما يساعد الإدارة على الرقابة عبر تطبيق أركان المحاسبة المسؤولية [8]، التي يتضمن: نظاما للتكاليف المحددة مقدما و/أو المعيارية تقاس عليه تكلفة البيئة، ونظام إداري يحدد المسؤوليات والسلطات، ونظام مدروس للحوافز، ونظام للتقارير بين مختلف المستويات الإدارية المنخرطة في الأنشطة البيئية، وتصميم نظام مستندي خاص بعناصر تكاليف البيئة، للرقابة عليها من المنبع، والفصل بين تكاليف الإنتاج وتكاليف البيئة، بهدف تخفيض التكاليف البيئية والقياس السليم لتكاليف المنتوجات، ومن ثم زيادة ربحية الوحدة الاقتصادية.

ممكن تتبع المعالجة المحاسبية للتكاليف البيئية، كالاتي:

1. تسجيل القيد الخاص بعناصر التكاليف في الدفاتر المحاسبية: (من ح/ التكاليف البيئية الى ح/ النقد، البنك، الدائنين)؛

عند دفع التكاليف البيئية (بتفاصيل مفرداتها) نقدا او على الحساب.

2. (من ح/ التكاليف البيئية الى ح/

الموارد البيئية)

إطفاء قسط الاستهلاك السنوي للموارد البيئية؛

3. (من ح/ مركز التكاليف البيئية الى ح/ التكاليف البيئية)، تحميل مركز التكلفة بهذه التكاليف؛

4. (من ح/ كلفة الإنتاج للسلعة او الخدمة المنتجة الى ح/ مركز التكاليف البيئية).

تحميل تكاليف الإنتاج بالتكاليف البيئية؛

5. وفي نهاية السنة المالية يتم غلق حساب كلفة الإنتاج للسلعة او الخدمة في ح/ المتاجرة، والرصيد الناتج من الحساب الأخير ينقل الى حساب النتيجة/ الأرباح والخسائر. وهكذا تضاف التكاليف البيئية الى تكلفة المنتج للحصول على الكلفة الحقيقية للإنتاج، وينعكس ذلك أيضا على تسعير المنتج النهائي.

ثالثا: إنتاج وإفصاح البيانات عن التكاليف البيئية

إن العلاقة ما بين المحاسبة والتلوث البيئي، تتمثل في دور النظام المحاسبي بتوفير المعلومات اللازمة لاتخاذ القرارات وتقييم الأداء، وتحديد مدى التزام الوحدة الاقتصادية بمتطلبات المسؤولية الاجتماعية ازاء البيئة. فعليه تقوم إدارة محاسبة التكاليف البيئية وبالتنسيق مع الوحدات التي تمارس أنشطة بيئية، بإعداد مجموعة من التقارير بالاستناد الى: مبدأ الشفافية والخصائص النوعية للمعلومات المحاسبية، وتكون موثوقة قابلة للفهم وملائمة لمتخذ القرار، ومرتبطة بهدف المراد تنفيذه، والافصاح عنها لجهات مختلفة داخلية وخارجية للاستفادة منها لأغراض ترشيد واتخاذ القرارات من قبل مستخدميها، وتقييم الأداء البيئي.

ويمكن الاسترشاد بالمعرفة المهنية لمجلس معايير المحاسبة الدولية (IASB)، وتعني "International Accounting Standards Bord" في هذا المجال، والاعتماد على الجودة المعلومات بدلا من الكمية.

إن أثر التكاليف البيئية على جودة المعلومات المحاسبية، يكمن في دور المحاسبة البيئية في اتخاذ إجراءات لقياس وتحليل هذه التكاليف، باعتبارها وسيلة وقائية واستباقية للحد من التلوث، باتباع الأسس الإدارية عن طريق إدخال تغيرات معينة في تصميم المنتوجات او طرق الإنتاج، والتطبيق الفعال لنظام الإدارة البيئية، والدور المحاسبي في تفسير وتتبع هذه التكاليف ومسبباتها، وتسليط الضوء على تحليلها وضمها الى اجمالي التكاليف عند تحديد نتيجة النشاط، وإمداد الجهات الإدارية المختلفة بالمعلومات للمساعدة في رسم السياسات واتخاذ القرارات وتحسين الأداء. [9]

ممكن الاستعانة بالوسائل الالكترونية في اعداد هذه المعلومات. وإذا أحسن تصميم أنظمتها، وتوجه في قناة الاتصال المناسب، وتحديد خطوط تسييرها بوضوح، فسوف يؤدي هذا الى تكامل عملية المراقبة وتكامل أيضا في المعلومات.

رابعا: أهمية محاسبة التكاليف البيئية ومردودها الاجتماعي

اليوم تواجه الوحدات الاقتصادية تحديات كبيرة لمواكبة المتغيرات في محيطها، نتيجة التطور التكنلوجي السريع على مختلف الصعد، وخاصة المعلوماتية منها، وذلك لأجل الاستمرارية والبقاء والمنافسة والتفوق في السوق. كما وان هناك الترابط والتكامل والتأثير المتبادل بين البيئة والتنمية، إذ لا يمكن استمرار التنمية في ظل الموارد البيئية المتدهورة، ولا يمكن حماية البيئة إذا اهملت التنمية تكلفة الاضرار البيئية. فعليه ان مسالة حماية البيئة أصبحت امرا ضروريا، وعلى الوحدات الاقتصادية المنخرطة في النشاط الإنتاجي او الخدمي، الاعتراف بمسؤوليتها الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية والأخلاقية تجاه البيئة، ومن خلال تطبيق نظام محاسبة التكاليف البيئية وتعزيز دوره وأثره بهذا الخصوص، وما له من الاهمية والمزايا على الوحدة وعلى صعيد المجتمع، وكالاتي: [10]

1. إنتاج المعلومات عن التكاليف البيئية، التي تساعد الإدارة في ترشيد القرارات وتخفيض التكاليف البيئية، وتحسين جودة المعلومات المحاسبية، وتقييم الأداء. وتساعد ايضا على تحسين قرارات المستمرين في التعامل مع الوحدة الاقتصادية؛

2. نشر الثقافة البيئية لدى العاملين ورفع معنوياتهم والتصاقهم بالإدارة، بما لها من تأثير على رفع الإنتاجية في الأداء؛

3. المساهمة الجادة في عملية تحقيق التنمية المستدامة عن طريق ممارسات وتطبيقات المسؤولية الاجتماعية، ووضع مجموعة من الأنشطة البيئية من خلال النظم للمحافظة على البيئة؛

4. الحصول على فرصة تنافسية أفضل في السوق، من خلال المساهمة في تخفيض الآثار البيئية، وتحسين تصميم وجودة المنتجات بما تكون صديقة للبيئة، رغم ان إضافة التكاليف البيئية الى كلفة الانتاج ستؤدي الى ارتفاع في سعر المنتوج، الا أن البعد الاجتماعي لهذه التكاليف على صعيد الوحدة والمجتمع والمستهلك سيكون أكبر من ذلك؛

5. مساعدة الجهات الحكومية في قياس الاداء الاجتماعي وتحليل التأثيرات البيئية للنشاط الذي تمارسه الوحدة الاقتصادية ومدى التزامها للمعايير والتشريعات البيئية، واتخاذ القرارات المتعلقة بالتخطيط ومعدلات النمو والأداء الاقتصادي على المستوى القومي والدولي؛

6. المساعدة في تطوير وتشغيل نظام إداري بيئي للوحدة الاقتصادية؛ [11]

7. يساعد على بناء قاعدة بيانات عن نشاطات الوحدة الاقتصادية، بهدف القياس السليم للتكاليف البيئية الناتجة عن التلوث البيئي؛

8. توسيع نطاق عملية التقييم وتحليل الاستثمار لكي يشمل اثار البيئة المحتملة.

9. ضرورة حصول الوحدات الاقتصادية على شهادة ISO 14000 ، لما لها من تأثير على شروط التصدير الى أسواق دول الوحدة الاوربية، والحصول

على القروض والتسهيلات من المصارف العالمية.

ختاما، ان مسالة حماية البيئة أصبحت اليوم عنصرا مهما من عناصر الإنتاج، مما يتطلب وجود نظام محاسبي بيئي يوفر المعلومات اللازمة حول استراتيجية وخطط الوحدات الاقتصادية تجاه القضايا البيئية، وذلك من خلال: قياس ورقابة التكاليف البيئية، وإنتاج البيانات والمعلومات عنها، وتزويد مستخدمي القرارات والمجتمع بها، والتي تعكس الأداء البيئي لهذه الوحدات ويعزز الثقة بدرجة اكبر في كسب الرضا الاجتماعي والأطراف ذات المصلحة، وتعزيز التنمية المستدامة، وتحسين سمعتها ودعم قدراتها التنافسية، وجودة المعلومات المحاسبية مما يؤثر على ربحيتها، غير ان تطبيقها ما يزال محدودا في الوحدات الصناعية العراقية بسبب: تدني الوعي والثقافة البيئية في المجتمع، وضعف القوانين والتشريعات البيئية، وعدم التزام معظم الوحدات الاقتصادية بتطبيقها، ونقص في المعايير المحاسبية الوطنية التي تخص البيئة، مما يؤثر سلبا على تقييم أدائها.

لذا ارى ضرورة الاعتناء بهذا الموضوع، من خلال:

أ. زيادة الوعي المؤسسي والجمعيات المعنية والمدنية في البيئة، من خلال منظومة الوعي البيئي، بأهمية الإفصاح المحاسبي عن التكاليف البيئية في الوحدات الاقتصادية؛

بـ. إصدار معيار محاسبي من الجهات والمنظمات المهنية الوطنية تتوافق مع معايير المحاسبة الدولية لتنظيم عملية القياس والرقابة والافصاح المحاسبي عن التكاليف البيئية في تقاريرها المالية والكلفوية، فيما يؤدي الى جودة المعلومات المحاسبية؛

ج. مساهمة الدولة في توفير بيانات بيئية قابلة للقياس الكمي، وفرض القيود على الوحدات الاقتصادية وخاصة الصناعية منها، باتباع القوانين البيئية، ومن خلال منح خصومات على ضريبة خضراء للوحدات التي تهتم بالبيئة؛

د. مساهمة الجهات المختصة والمنظمات المهنية في تهيئة الكوادر المحاسبية وتدريبها على تطبيقات المحاسبة البيئية في الوحدات الاقتصادية، مع ادخال موضوع المحاسبة الاجتماعية، ضمن الحصص الدراسية في الجامعات المختصة، ونشر الدراسات والأبحاث في هذا المجال؛

ه. ضرورة تطوير نظام المعلومات البيئية من خلال مشاركة المختصين والباحثين في وضع مجموعة من الأسس النظرية وفق مبادئ واسس المحاسبية الملائمة، لتطوير وحل المشاكل المرتبطة بقياس التكلفة البيئية وجودة انتاج المعلومات اللازمة لعملية اتخاذ القرارات الاقتصادية والإدارية على مستوى الوحدات الاقتصادية والاقتصاد القومي؛

و. عدم استناد تقييم أداء الوحدات الاقتصادية على اساس ما تحققه من أرباح فقط، بل الاخذ بنظر الاعتبار ايضا ما تتحمله من تكاليف بيئية من اجل الحفاظ على البيئة.

المصادر

1. Kirschner. E, Full-cost accounting for the environment, Chemical Week, 1994, 154/9, P. 25-26
2. William G. Russell, (On Green Accounting), "Environmental Today", Jan/Fab 1995, No.1, p.20
3. Robert J Gale, Peter Stokoe, (2001) Handbook of Environmentally Conscious Manufacturing - Environmental cost accounting and busines strategy (Kluwer Academic publisher), pp. 4 - 6
4. سيد علي، أيمن صابر، مدخل محاسبي مقترح لقياس وتقييم أداء البعد البيئي في مصر، القاهرة، جامعة عين شمس، كلية التجارة، مجلة الفكر المحاسبي، السنة 13، العدد2، 2008، ص 289.
5. المرزوقي، مها عباس، «دراسة وتحليل التكاليف البيئية وأهميتها في ترشيد القرارات الإدارية»، جدة، كلية الاقتصاد والإدارة، جامعة الملك عبد العزيز، 2008، ص81 .
6. قدوري، صباح، تحديث محاسبة التكاليف في القطاع الصناعي الحكومي . العراق، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعةŁódź ، بولندا1985 (باللغة البولندية) ، ص، 173-172؛
Stępień M., Koszty ochrony środowiska i ich klasyfikacja, Zeszyty Teoretyczne Rady Naukowej S.K.W, P., tom 1V, Warszawa 1980, s.58-59 (باللغة البولندية).
7. بدوي، محمد عباس، المحاسبة عن التأثيرات البيئية والمسؤولية الاجتماعية، الإسكندرية، دار الجامعة الجديدة للنشر، 2000، ص 156 152- .
8. قدوري، صباح، نظام محاسبة التكاليف ووظائف الإدارة في وحدات إدارة الاعمال، ورقة بحثية منشورة على موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين، 2015، ص 13.
9. السيد، رانية عمر محمد الباز «أهمية المحاسبة عن التكاليف البيئية لتحسين جودة المعلومات المحاسبية»، 2008، ص. 104؛
10. Department of Economic and Social Affairs Statistics Division United Nations, (2005) Preliminary Meeting of UN Committee on Environmental Economic Accounting, Global Initiative for Environmental Accounting, New York 29-31 August, P 4-6
11. عطية، محمد راضي، دور المراجعة البيئية في ترشيد القرارات الاستثمارية، مجلة البحوث التجارية، كلية التجارة، جامعة الزقازيق، العدد2، ص273.

التوسع الرأسمالي ودولة (العدالة الاجتماعية)

لطفي حاتم

كاتب وباحث عراقي حاصل شهادة الدكتوراه في القانون الدولي/ تاريخ ونظرية الدولة والقانون، عميد كلية القانون والسياسة في الاكاديمية العربية المفتوحة في الدانيمارك. له عشرات البحوث المنشورة في مجال العلاقات الدولية. صدرت له عدة كتب: الاحتلال وانهيار الدولة العراقية؛ اراء وافكار حول التوسع الرأسمالي، موضوعات في الفكر السياسي المعاصر، التشكيلة الرأسمالية العالمية والشرعية السياسية الوطنية، المنظومة السياسية للدولة الوطنية والاحتجاجات الشعبية، العولمة الرأسمالية والكفاح الوطني الديمقراطي. كما نشر الكثير من البحوث في مجلة (الثقافة الجديدة)، (النهج)، (الطريق) اللبنانية، مجلة الأكاديمية العربية المفتوحة.

تكاثرت في الآونة الأخيرة الدعوات المطالبة بإقامة دولة (العدالة الاجتماعية) وتصدرت هذه الدعوات أحزاب يسارية اشتراكية وأخرى ديمقراطية الامر الذي يحث الباحثين والكتاب السياسيين على تدقيق شكل ومضمون دولة (العدالة الاجتماعية) وهل يمكن اعتبارها بديلا عن الدولة الاشتراكية التي افرزتها البلدان الاشتراكية السابقة؟ وإذا كان الجواب سلباً فما هي طبيعة دولة (العدالة الاجتماعية)؟ وما هو موقع الطبقات الاجتماعية في منظومتها السياسية؟

في هذا السياق تواجه الباحثين أسئلة كثيرة منها: هل تتخلى الأحزاب الاشتراكية والشيوعية عن اقامة دولة الطبقة العاملة ومرحلتها الانتقالية؟ وهل تسعى الأحزاب الاشتراكية الى إقامة دولة التحالفات الاجتماعية بدلاً من وحدانية الهيمنة السياسية؟ والسؤال الأكثر راهنية: هل (دولة العدالة الاجتماعية) تخص الدول الوطنية ذات التشكيل الطبقي الهلامي ام انها ستكون شكلا لسلطة الطبقة العاملة في الدول الرأسمالية المتطورة؟

على الرغم من وجود الكثير من الأسئلة الفكرية والسياسية الشائكة يبرز السؤال الأساسي التالي: هل (دولة العدالة الاجتماعية) ترتكز على أسلوب الإنتاج الرأسمالي ام على أسلوب انتاج

اشتراكي؟

أسئلة كثيرة واجابات متعددة يقف الكتاب والباحثون ازاءها بريبة وتوجس تبعا لضبابية مفهوم (دولة العدالة الاجتماعية) ومضامينه الاقتصادية – السياسية.

قبل الخوض في دهاليز هذا المفهوم وركائزه الأساسية نلوذ بالتاريخ المعاصر ونتوقف عند تجاربه في (دول العدالة الاجتماعية) بهدف مواصلة البحث والتقصي مبتعدين جهد الامكان عن الخلاصات المستعجلة.

انطلاقا من ذلك المنهج الفكري نتوقف عند شكلين من اشكال (دولة العدالة الاجتماعية) في التطور السياسي العالمي الأول يتمثل بنموذج – الدولة الاشتراكية – اما الآخر فنجده في نموذج الدولة الرأسمالية.

التطور التاريخي لمفهوم (دولة العدالة الاجتماعية)

قبل تناولنا نماذج الدول المرتكزة على نمط أسلوب انتاج محدد تاريخيا وما أفرزه من علاقات اجتماعية واشكال دول ونظم سياسية دعونا نفكك مفهوم (العدالة الاجتماعية) بشكل مكثف متوقفين عند شكلين من أشكال الدول التاريخية وتشكيلاتها الاجتماعية اولهم دولة النموذج الاشتراكي التي سعت الى ازالة الاستغلال الطبقي وبناء الوحدة الاجتماعية على أساس إزالة الفوارق الطبقية وتلبية مصالح الطبقات العاملة. وثانيهم الدولة الرأسمالية المعاصرة المسماة بدولة الرفاه الاجتماعي أو دولة المساومات الطبقية المتمثلة بالنموذجين الألماني والاسكندنافي مستبعدين بذلك النموذج الأمريكي المستند على سيادة الروح الفردية.

تأسيسا على تلك العدة المنهجية نتناول الشكل الاول من بحثنا المكثف الموسوم بـ:

أولاً/ نموذج الدولة الاشتراكية

بات معروفا ان طراز الدولة الاشتراكية ارتكز في بنيته الاقتصادية على ملكية الدولة لوسائل الانتاج ودورها الأساسي في تخطيط الاقتصاد الوطني تماشياً وتطور تشكيلتها الاجتماعية ونظامها السياسي المرتكز على قيادة الطبقة العاملة للسلطة السياسية ممثلة بحزبها الشيوعي ونهجه الهادف الى تطوير الاقتصاد الوطني وصيانة الثروة الوطنية بشكل يفضي الى رفاهية الطبقات المنتجة.

واصلت الدولة الاشتراكية بناء منظومتها السياسية استناداً الى قيادة الحزب الواحد للدولة والمجتمع وألزمت قيادة الحزب بإحداث تغييرات سياسية - اجتماعية – في الدولة والمجتمع تساعد على تحول منظومة الدولة الاشتراكية من مرحلتها الانتقالية - دكتاتورية الطبقة العاملة - الى مرحلة دولة الشعب كله حيث أشر ذلك الانتقال للحكم الاشتراكي تجاوباً والتغييرات الاقتصادية – السياسية التي جرى اعتمادها وتكريسها في قوانين الدولة الأساسية.

استناداً الى ما تمت الإشارة اليه يمكننا التركيز على العناوين التالية:

أولا– النموذج الاقتصادي لسوق الدولة الاشتراكية

1 – تم بناء الاقتصاد الوطني

للجمهوريات الاشتراكية السوفيتية على أساس الملكية العامة لوسائل الإنتاج مع اتاحة الفرصة (لطبقة) الفلاحين بالمشاركة الجماعية في الإنتاج عبر شكلي ملكية الدولة للأرض المتمثلة بـ(السلخوزات) الحكومية والملكية الفلاحية المشتركة (السفخوزات) وبهذا المنحى يمكن التأكيد على ان السوق الاشتراكي المنظم من قبل الدولة أصبح وسيطاً فاعلاً بين السوق الاشتراكي والتنمية الوطنية المستدامة.

2 – الملكية العامة لوسائل الإنتاج

لعبت الدولة الاشتراكية كمالك لوسائل الإنتاج دور المنظم والموجه للعملية الإنتاجية الهادفة الى تلبية الحاجات المادية المتزايدة للتشكيلة الاجتماعية الاشتراكية.

ثانيا – النموذج السياسي للدولة الاشتراكية

أ – ارتكز النموذج السياسي للدولة الاشتراكية على قيادة الحزب الواحد للدولة والمجتمع وما اشترطه ذلك من وحدانية قيادة الحزب الشيوعي ممثلا بأجهزته الوطنية المختلفة ومنظماته الشعبية وطبقته العاملة المتحالفة مع الفلاحين بالسلطة السياسية وتشكيلتها الاجتماعية.

ب– يجهد الحزب القائد بالاعتماد على جماهير الشغيلة والمنظمات الحزبية المختلفة بتأمين حاجات ورفاهية المواطن المتنامية.

ج - تطوير القدرات العسكرية – الدفاعية للوطن الاشتراكي بهدف مواجهة التخريبات الداخلية والانتهاكات الخارجية.

ان النموذج الاشتراكي يمكن تسميته بنموذج (دولة العدالة الاجتماعية) رغم انعدام التعددية السياسية للطبقات الاجتماعية وأحزابها السياسية المختلفة وخضوع أنشطة المنظمات الشعبية لرقابة وقيادة الحزب الحاكم الامر الذي سمح للأجهزة الأمنية بالتدخل لإيقاف النشاطات السياسية التي ترى فيها قيادة الحزب والدولة اضرارا بمسارها الاشتراكي.

ان نموذج الدولة الاشتراكية وسماته الاقتصادية والسياسية قد انتهى لأسباب تاريخية كثيرة منها سيادة البيروقراطية الحزبية في السلطة السياسية وما نتج عنها من نشوء فئات سياسية - طفيلية مهدت الى انتقال الدولة والمجتمع الى طريق التطور الرأسمالي، الامر الذي يدعونا الى متابعة الشكل الثاني من دولة (العدالة الاجتماعية).

ثانيا/ دولة الرفاه الاجتماعي

بسبب المنافسة التاريخية بين النظامين الاجتماعيين الاشتراكي - الرأسمالي وأسباب وطنية أخرى أقدمت الدول الاسكندنافية على بناء سوقها الاجتماعي الرأسمالي استناداً الى ضرورة تحجيم الصراعات الطبقية المتنامية وابتدعت لذلك شكلا من أشكال تعاون طبقاتها الاجتماعية في إطار النموذج الرأسمالي للتطور بهدف تطمين المصالح العمالية المتنامية والحفاظ على أسلوب الإنتاج الرأسمالي خاصة إذا علمنا ان الاشتراكية الديمقراطية القائدة في بعض الدول الاسكندنافية سعت الى بناء شكل من أشكال (السوق الاشتراكي) في الدول

الرأسمالية.

ان نموذج دولة (الرفاه الاجتماعي) المرتكز على أسلوب الإنتاج الرأسمالي، يتميز كما الدول الرأسمالية الأخرى بالسمات التالية:

أولا– اعتماد النموذج الرأسمالي للتطور

ان بناء أسلوب الإنتاج الرأسمالي للتطور على قاعدة الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج افرز نموذجاً رأسماليا من طراز دولة الرفاه الاجتماعي المرتكزة على:

1 – الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج عبر تشجيع المواطن على العمل وتطوير قدراته الاقتصادية وتشجيع مبادرته الفردية. وبهذا المسار شكلت الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج الركيزة الاساسية في بناء دولة الرفاه الاجتماعي.

2 – الشراكة بين ملكية الدولة العامة والقطاع الخاص شكلت الصيغة المثلى في إدارة الاقتصاد الوطني وتحجيم النزاعات الطبقية.

3 – شجعت دولة الرفاه الاجتماعي الشركات الخاصة على الاتحاد بكارتيلات اقتصادية كبرى بهدف مشاركة الدولة في تطوير الاقتصاد الوطني.

ثانيا – النموذج السياسي للدولة الرأسمالية

اتسم البناء الديمقراطي لنظام الحكم في الدولة الرأسمالية المرتكز على التداول السلمي للسلطة السياسية بالسمات التالية:

1 – التعددية السياسية

لعبت التعددية السياسية المتمثلة بوجود كثرة من الأحزاب السياسية والنقابات العمالية أدورا رقابية على نشاط السلطة التنفيذية والحزب الحاكم وبهذا السياق تمكنت الأحزاب السياسية والنقابات العمالية في الدول الرأسمالية من الدفاع عن المصالح الأساسية لمنتسبيها ساعية بذلك الى تثبيت صيغة التوازنات الطبقية في التشكيلة الرأسمالية الاجتماعية.

2 – سيادة الشرعية الديمقراطية

تسعى الأحزاب السياسية وأنشطتها الانتخابية الى الظفر بسلطة الدولة السياسية عبر الشرعية الديمقراطية وبهذا المسار شكلت التعددية السياسية والشرعية الانتخابية الديمقراطية إحدى السمات الأساسية للحياة السياسية في دولة الرفاه الاجتماعي.

3 – تحريم احتكار السلطة السياسية والتداول السلمي لها عبر الشرعية الانتخابية الديمقراطية، الامر الذي أعاق تمترس بيروقراطية سلطوية في أجهزة الدولة السيادية.

بعد هذا العرض المكثف لنموذج دولة (العدالة الاجتماعية) المستندة على أسلوبي الإنتاج اشتراكي – رأسمالي يواجهنا السؤال الكبير التالي: ما هو نموذج الدولة الذي يمكن اعتماده في الظروف التاريخية المعاصرة من قبل أحزاب اليسار الاشتراكي؟ وهل يمكن بناء نموذج اجتماعي جديد ينطلق من العدالة الاجتماعية لجميع مكونات التشكيلة الرأسمالية الوطنية.

الإجابة على الأسئلة المثارة تكتنفها جملة من المصاعب الفكرية - الاجتماعية لغياب نموذج تاريخي يمكن الركون اليه في صياغة الإجابة على التساؤلات

المذكورة لهذا لا بد لنا من ابداء بعض الأفكار العامة حول نموذج دولة العدالة الاجتماعية والتي أجدها كما ازعم في الموضوعات التالية:

قبل الولوج في تحديد رؤيتنا لدولة (العدالة الاجتماعية) لا بد من التأكيد على موضوعة ضرورية تتمثل في أن قيام دولة العدالة الاجتماعية الوطنية يتم عبر تزاوج نموذجي التطور الاشتراكي والرأسمالي وما يشترطه ذلك من التركيز على:

أولا- تعاون الملكية الخاصة والعامة

1 - حجمت التجربة الاشتراكية المنصرمة المبادرة الفردية ولأجل إطلاقها لا بد من بناء نموذج اقتصادي مشترك يجمع شكلي الملكية – الخاصة والعامة – يتم التعاون بينهما لغرض بناء اقتصاد وطني مناهض للتبعية والتهميش.

2 - توطيد هيمنة الدولة على ثرواتها الأساسية وعدم التفريط بها للاحتكارات الوطنية - الأجنبية.

3 - مد أفق التطور أمام القطاع الخاص وتشجيع تعاونه مع القطاع العام للدولة الوطنية بسبب حاجة الأخيرة الى رؤوس الأموال الوطنية والمبادرات الفردية العاملة على تطوير اقتصادها الوطني.

4 - يشكل التعاون بين ملكية الدولة وملكية القطاع الخاص الرافعة الاقتصادية الساندة لتطور الاقتصاد الوطني وتنامي قدراته على مناهضة التبعية والتهميش.

ثانياً- الشرعية الديمقراطية

1 - تشكل الشرعية الديمقراطية الإطار السياسي الضامن لحركة وتطور الأحزاب السياسية المستندة على القوة التصويتية للناخبين وقدرتهم على المساهمة السياسية في إدارة شؤون البلاد الأساسية.

2 - تساهم الشرعية الديمقراطية في كبح بناء قوى اجتماعية بيروقراطية فوق المجتمع، ومنع تشكل ديكتاتورية حزبية.

ثالثاً- التعددية الطبقية

يشترط التعاون بين - ملكية الدولة العامة وملكية القطاع الخاص- تعدد الطبقات الاجتماعية ومنع الميول التسلطية للسلطة التنفيذية الهادفة الى قمع المسار الديمقراطي للدولة الوطنية.

رابعاً- بناء الدولة الفدرالية

1 - تشترط العولمة الرأسمالية تفكيك الدول الفدرالية وتشجيع الانفصال، الامر الذي يسهل سيطرة الخارج على الداخل الوطني، لذا بات ضروريا بناء شكل الدول المتعددة القوميات في دول اتحادية.

2 - واستناداً الى ذلك يعتبر الشكل الاتحادي بين قوميات الدولة الواحدة الطريق الأفضل لصيانة وتماسك التشكيلة الاجتماعية الوطنية وصيانة الدولة الوطنية من الهيمنة والتهميش.

استنادا الى ما جرى استعراضه أرى إمكانية الكفاح من اجل بناء دولة (العدالة الاجتماعية) في الدول الوطنية عبر تثبيت المساواة بين المواطنين والتركيز على الحريات العامة ونبذ النظم السياسية الاستبدادية.

خلاصة القول ان مفهوم دولة (العدالة الاجتماعية) مفهوم فكري تكتنفه الصعوبات العملية والنظرية، كونه مرتبطاً بأسلوب الإنتاج وطبيعة القوى الطبقية المهيمنة على البلاد والحياة السياسية.

بحث حول امكانية الاستفادة من النواتج العرضية للرز الخام المستورد

د. حيدر عبدالامير الغريباوي

الدكتور حيدر عبدالامير نعمة، كاتب وباحث عراقي. حاصل على شهادة الدكتوراه/ فلسفة في الاقتصاد. تخصص علاقات اقتصادية دولية، من كلية الادارة والاقتصاد/ من الجامعة المستنصرية، فضلاً عن بكالوريوس اقتصاد/ فرع تخطيط من كلية الادارة والاقتصاد/ جامعة بغداد، مدير البحوث والدراسات في الشركة العامة لتجارة الحبوب، احدى تشكيلات وزارة التجارة العراقية. له مساهمات عديدة في المشاركة بالندوات والمؤتمرات العلمية التي تعقدها وزارة التجارة، نشر العديد من البحوث والدراسات العلمية والاقتصادية.

تعد فكرة استيراد الارز الخام وبيعه محليا من الافكار المميزة التي يمكن لها تحقيق ارباح كبيرة، حيث يتبين انه بالامكان انتاج الرز بكميات وفيرة تساهم بدرجة او باخرى في تحقيق قدر معقول من الامن الغذائي، في ظل الظروف الاقتصادية التي يمر بها العراق.

وتناول الجانب النظري الخام المستورد للرز والعوامل المؤثرة على انتاج الرز وعلى استهلاكه، اما في الجانب التطبيقي، فتناول تكاليف انتاج الرز الخام وتسويقه واسعار بيعه والمقارنة بين التكاليف والايرادات وامكانية زيادة الانتاج والمقارنة بين الكميات المستوردة والكميات المنتجة حاليا.

وبهذا الصدد نشير الى أن هناك مجموعتين من الرز المزروع في العالم هما الرز الهندي وترجع إليه اغلب اصناف الرز المزروعة في المناطق الوسطى والجنوبية من العراق. والمجموعة الثانية هي رز الارض المرتفعة وتزرع في شمال العراق. ويمكن تقسيم الرز الى اقسام عديدة ومتنوعة منها حسب المنشأ، ويقسم الى ثلاث مجاميع هي المجموعة اليابانية والمجموعة الهندية ومجموعة ((Jav-nica ويقسم حسب بيئة نمو الرز وهي رز الأراضي المرتفعة ورز الاراضي المنخفضة (مغمور) والرز العائم، وكذلك يقسم حسب طول الحبة فهو اما يكون طويلا جدا او طويل الحبة او متوسط الحبة او صغير الحبة، وكذلك يقسم حسب شكل الحبة؛ فمنها رفيع الحبة او متوسط الحبة

او ثخين الحبة او مدور الحبة، وكذلك يقسم على اساس الشمعية، فهناك الرز الشمعي وغير الشمعي. ويكتسب البحث اهميته من خلال الاهمية الكبيرة التي يحتلها محصول الرز، حيث يعتبر الرز الوجبة الرئيسة المفضلة بالنسبة لمعظم العراقيين وتستورد سنويا كميات كبيرة منه، لسد النقص من هذا المحصول .

اهداف البحث:

يهدف البحث الى ايجاد الوسائل الكفيلة بزيادة الاستفادة من انتاجية والنواتج العرضية لمحصول الرز الخام المستورد من خلال ازالة العقبات التي تعيق استيراد الرز الخام وتفعيل دور المجارش الحكومية والاهلية في تحقيق هذا الهدف.

فرضية البحث:

تنطلق فرضية البحث من ايجاد طرق ووسائل جديدة من شانها الاستفادة من الظروف الملائمة لاستيراد الرز الخام وزيادة عمليات تسويقه للمجارش والاستفادة من كل النواتج العرضية الناتجة عنه.

مشكلة البحث:

على الرغم من اهمية محصول الرز الا انه لا يزال ينتج على نطاق ضيق نسبيا اذا ما قورنت بانتاج الحنطة والشعير. وتعد زراعة محصول الرز من اهم واشهر المحاصيل المزروعة في العراق. وبالرغم من توفر كافة الظروف الملائمة لزراعة هذا المحصول الا ان كمية المحصول لا تتناسب ولا تكفي لسد حاجة العراق من هذا المحصول.

تكاليف انتاج الرز في الدونم الواحد وتسويقه وموجبات استيراد الرز الخام

اولاً: تكاليف انتاج الرز في الدونم الواحد

يمكن حساب تكاليف انتاج الرز في الدونم الواحد، من خلال حساب جميع الفقرات التي تتعلق بمراحل زراعة الرز.

الدونم الواحد	يكلف الدونم الواحد ٢٥ الف دينار
البذور	فكل دونم يحتاج الى ٥٠ كغم من البذور وبكلفة ٨٥ الف دينار عراقي
السماد المركب او الداب	بواقع ٢ كيس للدونم الواحد وبكلفة ٣٠ الف دينار.
الوقود	الدونم الواحد يحتاج الى ٢٠٠ لتر من الكاز لتشغيل مضخات المياه وبكلفة ١٠٠ الف دينار.
السماد الابيض	فيستهلك كل دونم حوالي ٦ اكياس بكلفة ٦٠ الف دينار للدونم الواحد اما المبيدات فترش بحدود ٥,٢ لتر لكل دونم وبكلفة ٨ الاف دينار
الحصاد	اجور الحصاد هي ١٠ % من قيمة المحصول أي ما يعادل حوالي ٦٠ الف دينار لكل دونم .
كلفة اخرى	وهي كلفة تحميل ونقل المحصول لغرض التسويق وهي بحدود ٣٠ الف دينار
تكاليف انتاج الرز في الدونم الواحد	يكون مجموع التكاليف للدونم الواحد هو ٣٩٨ الف دينار.

ثانياً: تسويق الرز

تسويق الرز وأسعار البيع ويعتبر التسويق الزراعي عملية مكملة لعملية الانتاج فليس هناك قيمة للإنتاج بدون تسويقه.

لقد كانت اسعار الرز قبل عام 1972 خاضعة لقوى العرض والطلب حيث كان السعر يتسم بالتذبذب من سنة لاخرى. وفي العام نفسه بدا التدخل الحكومي في تحديد اسعار المحصول من خلال اللجنة العليا للتسويق اذ تم تخويلها عملية تحديد الاسعار بشكل تصاعدي، وذلك بالاعتماد على الاسس التالية:

- اسعار المحاصيل للسنوات السابقة
- الاسعار في البلدان المجاورة والاسعار العالمية
- اهمية المحصول واوجه التصرف به
- حركات الانتاج المحلي والطلب المتوقع

ويقوم الفلاحون بتسويق محصولهم من الشلب الى الشركة العامة لتجارة الحبوب، حيث تستلم هذه الشركة المحصول من الفلاحين حسب اسعار تحددها وزارة التجارة .

ثالثا: موجبات استيراد الرز الخام

- انخفاض كفاءة الانتاج الزراعي الانتاجية الزراعية للمحاصيل والمنتجات الزراعية ما انعكس على ظهور عجز في تغطية حاجة العراق من الغذاء، وبالتالي إلى عدم القدرة على تأمين متطلبات الأمن الغذائي.

- ضعف البيئة الاستثمارية في القطاع الزراعي، ومحدودية حجم رأس المال المستثمر الخاص في القطاع الزراعي، فضلا عن انخفاض التخصيص والتمويل للقطاع الزراعي وبما لا يتناسب والاحتياجات المالية اللازمة لتنمية وتطوير القطاع الزراعي.

ومن اجل تحقيق الهدف الاول من التنمية القطاعية والمكانية في زيادة نسبة مساهمة القطاع الزراعي في الناتج المحلي الإجمالي (للأنشطة غير النفطية) من 5.4% عام 2015 إلى 2.5% عام 2022. وتحقيق نمو في القطاع الزراعي في سنة الهدف يصل إلى 4.8 %.

دراسة الجدوى الاقتصادية والفنية لمشروع اعادة تدوير مخلفات الرز الخام (النواتج العرضية)

اولاً : مفهوم دراسات الجدوى:

مجموعة من الدراسات المتكاملة والمتخصصة من عدة زوايا اقتصادية وفنية وتسويقية واجتماعية وقانونية، ومن منظور بيئي بهدف اتخاذ قرار استثماري بالموافقة على مشروع معين أو رفضه.

وتتألف المكونات الاساسية لدراسات الجدوى من النقاط التالية :

- دراسة الجدوى الاقتصادية.
- دراسة الجدوى الفنية.

تقدر المخلفات او النواتج العرضية للرز بمئات الاطنان وسنهتم بدراستنا في استخدام تلك النواتج العرضية في منتجات اللواح الخشبية.

ويتم تقييم العائد الاقتصادي والمردود الاجتماعي والبعد البيئي للنظم البيولوجية لتدوير المنتجات العرضية للرز الخام من حيث ربط مدخلات ومخرجات

التكنولوجيات المستخدمة ببعضها في منظومة متكاملة فنيا وماليا واقتصاديا ذات أثر واضح في تقبل المزارعين لهذه النظم وتأثيرها على التنمية المستدامة.

ويعد هذا المشروع من المشروعات ذات العمالة الكثيفة نسبيا والتي تتطلب كفاءة عالية لغالبيتها حيث يمكن اكتساب خبرات التشغيل للأفراد خلال مرحلة التجارب الاولية للمشروع مما يقلل من نفقات التدرَب الفني، فضلاً عن ذلك يوفر المشروع منتجا يساعد على توفير جزء من العملة الصعبة التي يتم بها استيراد المنتجات البديلة، حيث يمتاز المنتج بخفة وزنه بالمقارنة بمثيله المصنع من خامات أولية أخرى مما يعطي مجالا أفضل في عملية التسويق.

ثانياً: دراسة الجدوى الفنية

تعتمد هذه الصناعة على عدد من المواد الخام المتوفرة في السوق المحلي والمنتجة محليا مما يعطي لها صفة الصناعة المحلية الكاملة والتي لا تعتمد على أٍي عنصر مستورد وتتضمن النواتج العرضية للرز الخام المستورد.

أ- السبوس واستخداماته:

- يستخدم السبوس في إنتاج نوعيات من الورق بدءا من الورق الخفيف إلى الكرتون

- يستخدم السبوس كسماد بعد إضافة اليوريا، أو علفا بعد إضافة مركزات البروتين والأملاح.

- يمكن تشجيع الوزارة جمع السبوس وذلك بتوفير معدات وجرارات ومكابس وتأجيرها بأجر رمزي للمتعهد، وتوفير أماكن للتخزين، ومن ثم الاعداد لتصدير السبوس، وحتى يتم التصدير لا بدّ من منظومة لجمع السبوس في بالات كبيرة لتقليل تكلفة النقل، ووضع سياسات لدعم المخلفات.

ونوضح في ذات السياق أن "المخلفات الزراعية تُعَد ثروة كبيرة، حتى ان دولةً مثل الصين، وهي أكبر دولة منتجة للأرز في العالم، لا تحرق ولو قشة واحدة منه، إذ تستخدمه مصدرا للطاقة والتدفئة في شهور الجليد".

يأتي الرز بالمرتبة الثالثة بعد محصولي الحنطة والشعير حيث تبلغ المساحة بالرز في وسط وجنوب العراق (35 - 37 %) على التوالي من المساحة الكلية المزروعة، ان عمليات التصنيع للرز تجري بعد مراحل وأهم عمليتين في التصنيع هما عملية الجرش (hul-ing) والتبيض (whitening) واللتان تتم فيهما ازالة القشور الخارجية وطبقات الأليرون (السحالة) وان عدم الاهتمام بهاتين العمليتين، يؤثر سلباً على نسبة الاستخلاص والحبة الكاملة.

ب- السحالة واستخداماتها:

تنتج سحالة الرز من عملية الجرش والتبييض في معامل تحضير الرز. تتباين القيمة الغذائية لها حسب نوع الرز المزروع وظروف النمو وعمليات التصنيع (الجرش والتهبيش). تعد سحالة الرز مصدراً مهماً للطاقة في العليقة، حيث تحتوي سحالة الرز على نسبة جيدة من البروتين الخام (13.7 %) والدهن (13 %) والفيتامينات والمعادن وطاقتها بحدود (2980 كيلو سعرة/ كغم) ما يجعلها مصدراً مناسباً للطاقة في علائق الطيور الداجنة على ان لا

يتم الاستخدام بشكل واسع بسبب محتواها العالي من الدهن، مما قد يعرضها للاكسدة الا أن ثمة ما يشجع لاستعمال سحالة الرز في علائق الطيور الداجنة، فهي تتميز بمحتواها المتوازن من الاحماض الامينية الاساسية.

الرز غذاء اساس لحوالي 70% من سكان العالم. وتعد سحالة الرز Rice bran منتجا عرضيا لعملية تصنيع الرز وتكون 10-12% من وزن الحبة وتشمل اغلفة الحبة والقلنسوة وطبقة الاليرون، اضافة الى الجنين (Chen and Bergman2005). في الوقت الحاضر تنتج كميات كبيرة من سحالة الرز في العالم وتستعمل بصورة رئيسة كأعلاف وفي انتاج زيت الرز.

إن العديد من الدراسات اشارت الى اهمية القيمة الغذائية لسحالة الرز، فهي تحتوي على البروتين والرماد والفيتامينات والمعادن والمواد الفعالة بايلوجيا فهي مصدر جيد للألياف الغذائية، اذ تحتوي على ما يقارب 21 - 27% وعلى 1.9% الياف غذائية ذائبة، تحتوي سحالة الرز على مايقارب 12 - 15% بروتين. ان نسبة البروتين في سحالة الرز تعتمد على درجة التبييض للرز الاسمر ومن اهم صفات بروتين سحالة الرز هو احتواؤها على كمية عالية من الحامض الاميني اللايسن Lysine مقارنة بسحالة رز الحبوب الاخرى، اذ تتراوح قيمة كفاءة البروتين Protein Efficiency بين (2.0 - 2.5) بروتين سحالة الرز هو من انواع البروتينات غير المسببة للحساسية Hypoallergenic لذلك يمكن استخدامه كمادة اولية في اغذية الذين يعانون من الحساسية لبعض البروتينات وكذلك خلطات اغذية الرضع، وبالرغم من اهميته سحالة الرز التغذوية والصحية فان استعمالها في غذاء الانسان ما زال مهملا.

يحتوي زيت سحالة الرز على 20% 1. دهون كلية وعلى 6-8% كلايكوليبيد و4% فوسفوليبد، وان سحالة الرز المزال منه الدهن اقل كفاءة في خفض الكوليسترول من غير المزال منها الدهن. تقوم بعض الشركات حاليا باجراء عملية تثبيت لسحالة الرز وانتاج منتوج ما يعرف بـ stabilized rice bran وهي تحتوي على اكثر من 100 نوع من المواد المضادة للاكسدة ومصدر غني لفيتامينات B وفيتامين E ومصدر للاحماض الدهنية الاساسية، اضافة الى انها تحتوي على نسب متوازنة من الاحماض الامينية الاساسية.

ان ارتفاع نسبة الدهن يعود الى ان سحالة الرز تحتوي على الجنين وطبقة الاليرون الغنية بالدهن، اذ يشكل الجنين 20% او اكثر من دهون السحالة وهو يحتوي على ما يقارب 36% دهن. وان نسبة الدهن تتأثر بطريقة استخلاص ونوع التقنية المستخدمة. بلغت نسبة الالياف في سحالة الرز 9%، وبلغت نسبة الرماد 10.3% وهي تختلف باختلاف درجة التبييض. ان ارتفاع نسبة الرماد يشير الى ارتفاع محتواها من العناصر المعدنية.

يلاحظ في الجدول اعلاه ان اهم الحوامض الدهنية الموجودة في دهن السحالة هي البالمتيك والاوليك واللينوليك؛ اذ بلغت نسبها 17.7، 44.5، 30.9% على التوالي .واضح ان اكثر الحوامض الدهنية تواجدا هو البالمتيك ويبلغ 24%،

الاوليك 36% والنوليك 37% والباقي 4% احماض دهنبية اخرى. وواضح ان درجة التبييض لحبوب الرز تؤثر على مكونات دهون سحالة الرز.

اقتصادياً: ادى احلال 10% سحالة الرز محل 10% ذرة صفراء الى خفض سعر طن العلف الى اكثر من 25 الف د.ع، اذا كان المشروع يستهلك يوميا 100 طن علف، هذا يعني توفير 5.2 مليون د.ع. يوميا.

فضلاً عن ذلك ادخال سحالة الرز كبديل جزئي للذرة الصفراء في علائق دجاج بيض المائدة. ادخلت سحالة الرز بالنسب 0.0، 5، 10، 15% من العليقة الانتاجية لدجاج بيض المائدة لتحل جزئيا محل الذرة الصفراء التي كانت تشكل نسبة 45% من العليقة. اظهرت النتائج عدم وجود فروقات معنوية بين معاملة المقارنة (45% ذرة صفراء) ومعاملتي الاحلال 5 و10% سحالة الرز في كل من نسبة انتاج البيض %D.H ووزن وكتلة البيض خلال اسابيع الانتاج 40 - 58 اسبوعا لقطيع بياض من سلالة هاي لاين البني .

اقتصادياً: ادخال كسرة الرز كبديل جزئي وكلي للذرة الصفراء او باقي الاعلاف يؤدي هذا الاحلال الى خفض كلفة الطن الواحد من العلف بمقدار 30 الف د.ع. فإذا كان المشروع يستهلك يوميا 100 طن علف فهذا يعني توفير 3 مليون د.ع. يوميا .

اقتصاديا: ادى احلال 10% من كسرة الرز محل 10% ذرة صفراء الى خفض كلفة الطن الواحد من العلف بمقدار 20 الف د.ع. فإذا المشروع يستهلك 100 طن علف/

محتوى سحالة الرز من الحوامض الدهنية

الحوامض الدهنية	الكمية %
بالمتيك	17.7
ستياريك	2.14
اوليك	44.50
لنوليك	30.90
لنولينك	2.60

يوم، هذا يعني حققنا توفيرا في كلفة الانتاج قدره 2 مليون دينار/ يوم. اي60 مليون د.ع. شهريا تضاف للربح.

وهناك دراسات تناولت جدوى إضافة قشور الرز إلى الخرسانة لتقويتها. وأشارت النتائج إلى أن زيادة استبدال رماد قشور الرز بالإسمنت أدت إلى زيادة مقاومة الانضغاط ومقاومة الشد للخرسانة، وأن الهدف من الدراسات هو إيجاد طريقة قليلة التكلفة وفعالة لحل مشكلة التسرب من قنوات الري. وتعد الخرسانة المادة الأكثر استخداما في تبطين قنوات الري.

وتوصلت الدراسات إلى جدوى استخدام مادة قشور الرز في تقوية الخرسانة ، وهي مادة منخفضة التكلفة وبالتالي توفر هذه الطريقة حلاً لمشكلة إزالة آلاف الأطنان من النفايات الزراعية المتمثلة ببقايا قشور الرز سنويا.

ونشير بذات الاتجاه الى ان المجارش الحكومية تحقق الجدوى الاقتصادية من

حيث نسبة الاستخلاص ونوعية الرز المنتج والمطابق للمواصفات العراقية المعتمدة من قبل الشركة حيث ان نسبة الاستخلاص الرسمي التي حددتها الشركة للمجارش الحكومية بلغت (62%) ولكن عند عملية التصنيع تصل نسبة الاستخلاص الى ما بين (64 - 66%) محققة جدوى اقتصادية للشركة من خلال ارتفاع نسبة الاستخلاص عما يتم تصنيعه في المجارش الاهلية، التي تحقق نسبة استخلاص (56%) اضافة الى أن النواتج العرضية التي ترافق عملية التصنيع تكون موردا ماليا للشركة، يمكن ان تسد احتياجاتها في العمل على العكس من المجارش الاهلية، إذ تكون النواتج العرضية لصاحب المجرشة كبدل عمل. وان الرز المنتج يمتاز بالجودة بسبب حداثة المجارش الحكومية واستمرار الصيانة عليها، عكس المجارش الاهلية التي تتميز بصناعتها القديمة والتي لم يتم تحديثها وفق المواصفات المعتمدة .

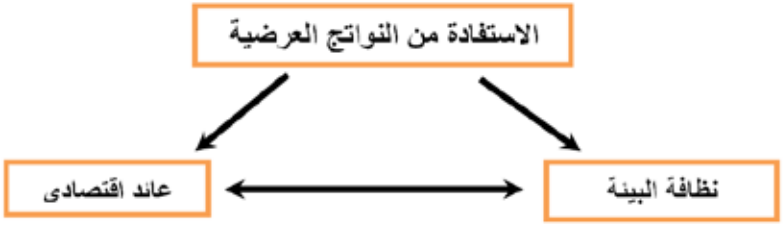

عملية الاحتساب للشلب	عملية تصنيع الشلب
شلب صافي ١٠٠%	يدخل الشلب بعد عملية التنقيح الى :-
بعد ازالة السبوس (٧٨) % رز خام	عملية الجرش ازالة القشور الخارجية (السبوس)
بعد ازالة السحالة (٧٠) % رز مبيض	تبلغ نسبته من ٢٠-٢٣ % حسب نوع الشلب
السحالة حد اعلى ٨%	عملية التهييض (التبيض) ازالة طبقة السحالة
المتبقي ٧٠% رز ابيض بمجموعة مع الكسرة	تبلغ نسبتها الحد الاعلى ٨ %
ازالة الكسرة بمقدار ١٠ %	ج – يخرج الرز المبيض مع الكسرة
المتبقي ٦٠% رز ابيض	تعزل الحبة الكاملة وتتضمن الـ (Head Rice) و
ازالة الكسرة بمقدار ١٥%	٤ / ٣ الحبة
المتبقي ٥٥ % رز ابيض وهكذا حسب نسبة الكسرة	تعزل الكسرة وتشمل اقل من ٤/٣ الحبة و ٢/١
احيانا الرز الجيد تبلغ نسبة كسرة ٨ % كحد اعلى اي	و ٤/١ الحبة
استخلاصه ٦٢ %	تعزل الدكة وتشمل اقل من ٤/١ الحبة
تتحكم نسبة الرطوبة في عملية التصنيع بشكل كبير	
الرز الحايل افضل من الرز الجديد في التصنيع وفي	
القيمة الغذائية للرز	
السحالة مادة غذائية تتوفر فيها مجموعة فيتامينات B	
complex , B6 ,B12 , B2	

الرز الجيد التصنيع تبلغ نسبة الحبة الكاملة فيه من 60 فما فوق لغاية 70، وكذلك المتوسط من 50 الى 59. اما غير جيد التصنيع فتبلغ الحبة الكاملة فيه اقل من 50 % وهذا قياس لعملية التصنيع ونوعية الرز.

نصوص قديمة

في فجر السادس والعشرين من شباط 2018 غادرنا في رحلته الأبدية المفكر وعالم الاجتماع والشخصية السياسية والأكاديمية المرموقة الدكتور فالح عبد الجبار إثر "جلطة قلبية". هكذا إذن رحل بُغتة وهو في اوج نضجه الفكري وعطائه المعرفي، يخوض معاركه من اجل التغيير والحداثة. لذا فان هذا الرحيل المبكر شكل خسارة كبيرة للثقافة الوطنية والديمقراطية العراقية. ولنا نحن اصدقاءه وقراءه وأحبته الكُثر.

ظل د.فالح عبد الجبار منذ عدة عقود يخوض معاركه الفكرية والبحثية دون كلل، ولم يتعب من التفكير والاجتهاد في كل الميادين والمواضيع التي اشتغل عليها. وقد أدرك د.فالح، ومنذ وقت طويل، " أن الثقافة بُعدٌ من أبعاد السلطة، وأن للمثقف، بوصفه حاملاً ومنتجاً للمعرفة، دوراً يلعبه في عملية التغيير، لكنه أدرك، في الوقت نفسه، أن النضال الثقافي وحده لن يحقق التغيير".

النص أدناه كتبه الفقيد د.فالح اثناء التحضيرات لعقد المؤتمر الوطني الخامس للحزب الشيوعي العراقي، وعلى الرغم من كثافة هذا النص فإنه كبير بما طرحه من اشكاليات واطروحات اثارت وما زالت تثير المزيد من الحوار والنقد والاختلاف أيضا، لجديتها وأهميتها، لهذا يتعين وضعها في إطارها الصحيح.

ولمناسبة الذكرى السنوية الثالثة لرحيل الفقيد الكبير د.فالح عبد الجبار، نعيد نشر "قضايا فكرية أولية للنقاش" ونحن على قناعة ان هذا النص رغم مرور ثلاثين عاما بالتمام والكمال على صدوره إلا انه ما زال يتمتع براهنيته وألقه الفكري.

(الثقافة الجديدة)
2021/ 02/ 26

قضايا فكرية أولية للنقاش*

فالح عبد الجبار**

إن صياغة أي برنامج لا بد ان ترتكز على اساس تحديد واضح المعالم للمرحلة التاريخية بمستوييها العالمي (الشامل) والوطني (الاقليمي المحلي).

وتحديد المرحلة التاريخية يستند اساسا الى منهجية ماركس، وبالتحديد مفهوم التشكيلات الاجتماعية -الاقتصادية، وتعاقبها كضرورة ناشئة عن طبيعة سير وتطور التشكيلات ذاتها. كما ان تحديد المرحلة يستند الى الخبرة التاريخية والمعاصرة لما بعد ماركس والتي أسهم فيها عمالقة الفكر الماركسي: لينين، بليخانوف، روزا لوكسمبورغ، كاوتسكي، بوخارين، غرامشي وغيرهم.

ان استيعاب النظرية الماركسية، والإضافات النظرية الغنية التي تلتها، واستخدام المنهج لدراسة الواقع نفسه، تتيح تدقيق فهمنا لطبيعة المرحلة.

من المتعارف عليه في ادبيات الحركة الشيوعية في الثلاثينات، بل حتى قبلها، استخدام مفهوم مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية لمنطقة حركة التحرر الوطني، وهو مفهوم يغطي طورا تاريخيا مديدا، من تطور البلدان التي دخلت عالم الرأسمالية متأخرة، ومنها بلداننا العربية.

ولفترة طويلة "الاربعينات، الخمسينات" كان مركز الثقل في هذا المفهوم، جانبه الاول وهو طور: ثورة التحرر الوطني، التحرر من النير الكولونيالي المباشر وغير المباشر.

ومنذ بداية الستينات انتقل مركز الثقل في هذا المفهوم الى جانبه الثاني، وهو طور: الثورة الوطنية الديمقراطية.

ان الاحداث التاريخية في مطلع الستينات تبرر هذا الانتقال، أي بعد نيل الغالبية الساحقة من المستعمرات لاستقلالها الوطني (وهذه العملية استكملت في اواسط السبعينات باستقلال المستعمرات البرتغالية وتحرر زيمبابوي. وتستكمل اليوم في جنوب افريقيا).

ان الانتقال من طور التحرر الوطني الى طور مرحلة الوطنية الديمقراطية، طرح، بعد فترة وجيزة، مشكلات نظرية وعملية تتعلق بخصائص هذا الطور، ودور الطبقة العاملة فيه، وآفاقه، أي علاقته بالأفق الاشتراكي، او بتحديد ادق إمكان التداخل بين مهمات المرحلتين.

وجرت صياغة عدة فرضيات أو تصورات مبنية على اساس خبرة تجربة ثورة اكتوبر وخبرة وصول احزاب الطبقة العاملة للسلطة في بلدان "الديمقراطيات الشعبية" (رومانيا، بلغاريا، المجر، بولندا، الخ) وأيضا نجاحات الاحزاب الشيوعية في قيادة النضال الوطني التحرري الديمقراطي في عدد من بلدان حركة التحرر (فيتنام، كوريا، الصين، ثم كوبا).

هذه الفرضيات هي في حدها الاقصى:

1. اقامة ديمقراطية شعبية، ذات افق اشتراكي (بوسائل متعددة: انقلاب عسكري، حركة جماهيرية، حرب عصابات غيفارية).

وفي حدها الاقصى الآخر:

2. اعتبار التحولات الرأسمالية ذات الطابع الدولتي (قيام الدولة بخلق قطاع عام + تأميمات معينة) بأنها تحولات ذات طابع اشتراكي.

وفي حدها الوسطي:

3. اعتبار هذه التحولات ذات طابع لا رأسمالي يقود الى الاشتراكية.

الفرضية الاولى تنطلق من القفز على مراحل التطور الطبيعي للتشكيلات. وترى امكانية الانتقال الى الاشتراكية، في جانب، وهي تعبر عن ادراك محدودية الرأسمالية المحلية وتناقضاتها في جانب اخر. وإذا كان وجهها الأول مغايرا وغير واقعي فان وجهها الثاني واقعي، وينبغي ارساؤه على اساس نظري عميق.

الفرضية الثانية تنطلق من المماثلة الشكلية بين دور الدولة في بلداننا و"البلدان الاشتراكية"، مع نسيان التباين الجوهري. فالدور المركزي للدولة معقد ومتعدد المستويات. وهذه الفرضية قادت وتقود الى استسلام وتهميش سياسي لحزب الطبقة العاملة.

الفرضية الثالثة تنطلق من وهم نظري كبير، هو الآخر، يشترك في الكثير من خصائصه مع اوهام الفرضية الثانية، ولا يخالف كثيرا في نتائجه السياسية الفعلية. فهو يرى في شكل محدد من الرأسمالية أنه نفي للرأسمالية.

ان هذه الفرضيات جميعا تنسى الامور التالية اجمالا:

1. ان التطور الرأسمالي في بلادنا ضرورة موضوعية، وانه جوهر مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية.

2. ان هذا التطور الرأسمالي يتخذ صورا متعددة، أبرزها هو قطاع الدولة أو الدور المركزي للدولة كمنتج ومالك وضامن رأسمالي جماعي.

3. ان هذا التطور ينطوي على مهمات اجتماعية (تغيير علاقات الانتاج التقليدية) ومهمات سياسية (= الديمقراطية)، ومهمات وطنية فك التبعية (الكولونيالية ثم، الآن، التبعية البنيوية الجديدة)، وان هذه المهمات تمتلي بمضامين متباينة بتباين الطبقات الاجتماعية المتصارعة.

4. ان هذا التطور تناقضي – تناحري، بحكم طبيعته بالذات (طبيعة التشكيلة الرأسمالية). ونحن نمثل فيه القطب

المضاد الذي ينبغي ان يطوّر بديلا تاريخيا.

5. ان الانتقال الى الافق الاشتراكي مرحلة بعيدة تاريخيا، ليس فقط بالنسبة لنا، بل بالنسبة للبلدان التي استولت فيها الطبقة العاملة على السلطة، وهي عملية عالمية، شاملة، وليست محلية جزئية.

إن التأويل النظري الخاطئ، لما جرى في الثلاثينات، وما جرى بعد الحرب العالمية الثانية في اوربا الشرقية، وأيضا في الصين وفيتنام وكوريا، ثم كمبوديا ولاوس... الخ، ان هذا التأويل النظري الخاطئ اسهم في عدة أمور:

أ. صياغة نظرية خاطئة لمفهوم الاشتراكية وطبيعة شروطها العالمية والمحلية.

ب. صياغة نظرية خاطئة لسبل ووسائل بناء المقدمات المادية للاشتراكية (السوق، الادارة الذاتية، العلاقات السلعية النقدية، الملكية الخاصة، دورها، حدودها).

ج. صياغة نظرية زائفة لأشكال تحقق دكتاتورية البروليتاريا سياسيا (الحزب الواحد، عبادة الشخصية، الخ).

د. صياغة نظرية زائفة لآفاق تطور وأزمة الرأسمالية العالمية، والتلويح بقرب سقوطها السياسي.

لقد جرت قراءة ماركس وانجلس ولينين بعيون ستالين وبعيون الآخرين، وليس مباشرة. وجرى تشويه فرضياتهم العلمية المبنية على تحليل دقيق للتاريخ بمنهجية ديناميكية.

ولا يجد المرء لوصف هذا الواقع المُؤسي خيرا من شهادة عدو طبقي أصلي هو بريجنسكي الذي قال ان "النظرة الماركسية هي ألمع نظرية ثورية عرفتها اوربا"، و"اننا نشكر" والكلام له، السوفيت على تحويل هذه النظرية العميقة الى "منظومة سياسية ارثودوكسية بليدة"، هدفها التبرير لسلوك النخب الحاكمة، والتغطية على الوقائع بدل كشفها.

ان الوضع الراهن يتميز بأزمة بنيوية عميقة في العالم "الاشتراكي"، وفي الحركة الشيوعية، ترافقها ازمة فكرية اعمق. وكلمة الأزمة، هنا، تروم التعبير عن واقع مضطرب يتساقط فيه القديم دون ان يتبلور فيه الجديد بكامل غناه المفترض. بل ان عملية الانتقال من القديم الى الجديد، تمر بتعرجات تنطوي على تراجع (فقدان السلطة في بولندا وألمانيا والمجر... الخ، وإمكان فقدانها في بلدان أخرى) ويجري صراع حول مفهوم الاشتراكية قوامه:

1. الغاء السوق، الخطة المركزية، دولة الحزب الواحد، وهو المفهوم القديم الذي تدافع عنه قوى اجتماعية (تحديدا قطاع واسع من البيروقراطيين و"التكنوقراط") كانت تمتلك حرية التصرف بالفائض الاقتصادي وحرية التصرف بالسلطة السياسية، دون حسيب أو رقيب. وتقوم منظومتها الفكرية على لغوٍ فكري، على دوغما شكلية، كانت تنادي، الى وقت قريب، بقرب الانتقال

للشيوعية وانتفاء الفوارق الطبقية، وتآخي الشعوب والقوميات على احسن ما يكون، وسعادة الانسان الاشتراكي (الذي لا يجد حتى اللحم).

2. العودة لآليات السوق، الجمع بين الخطة والسوق، دولة التعددية، وهو المفهوم الجديد الذي تدافع عنه قوى اجتماعية من قلب النخبة. غير ان الانتقال يصحبه فقدان ثقة بالاشتراكية كنمط حياة وكمنهج علمي في آن، ويصحبه ضغط وعرقلة من المحافظين، كما اقترن، حتى في الاتحاد السوفيتي، بانبعاث قوى تدافع عن الخيار الرأسمالي، سواء كانت على شكل احزاب قومية (في الاتحاد السوفيتي) أم احزاب ليبرالية ومسيحية كما المانيا (المقصود المانيا الديمقراطية – المحرر) والمجر وبولونيا... الخ.

وهذا هو التيار الثالث، التيار الرأسمالي، الذي يجد مرتعا خصبا في الأزمة الراهنة.

ان نقد ومراجعة الفكر الاشتراكي، وبالذات تشوهه النظري والعملي، لا يقترنان، حتى الآن، بنقد الرأسمالية العالمية التي اخذت مجالا رحبا للتنفس والتستر على تناقضاتها العميقة.

وللأسف لا نجد بين نقاد الرأسمالية المعاصرين سوى اسماء على عدد الأصابع: سمير أمين (ماوي سابق)، ارنست مندل (تروتسكي)، ادم شاف (ماركسي خرج من الحزب البولوني).

ان تبني النقد الراهن للاشتراكية من داخلها لا بد ان يكتمل بنقد الرأسمالية، المسؤولة عن ايصال العالم الى شفى هاوية، بحيث اصبح امامه خياران لا ثالث لهما، حسب رأي الكثير من المنظرين: أما العودة للبربرية أو التقدم الى الاشتراكية.

لقد خلقت الرأسمالية، كنمط إنتاج، ثروات وافرة، ووسائل متطورة لإنتاج هذه الثروات، أي خلقت معظم الاسس الفعلية للوفرة المادية التي تتيح بناء مجتمع يسير الى الاتساق، ولكنها تعيق هذا الانتقال في آن واحد، وتهدد الانسان والبيئة في آن واحد.

إن الافق الاشتراكي، منذ أيام ماركس وحتى يومنا هذا، ينطلق من انجازات وتناقضات التشكيلة الرأسمالية التي غزت العالم كله. وهي عملية عالمية وليس جزئية، أولا. وهي تقوم على قاعدة تقدم حضاري - صناعي ووفرة مادية هائلة، ومستوى عال من الطابع الاجتماعي للإنتاج برمته. وهي لن تبنى حسب تعبير لينين إلا بجهود البروليتاريا العالمية، وكل محاولة (قومية) هي جزئية، ناقصة، الخ، حسب تعبيره أيضا.

وإذا كانت البروليتاريا الصناعية هي منتج الثروة المادية، أساسا، وكان المطلوب منها، تاريخيا، القيام بالثورة السياسية للانتقال الى المرحلة الجديدة، الأرقى، فان التغيرات البنيوية التي طرأت عليها في البلدان المتطورة، والضعف البنيوي لها في البلدان المتخلفة، يستدعيان جملة تحالفات تجمع

سائر المنتجين، وسائر القوى الاجتماعية ذات المصلحة في انتقال كهذا.

واذا كان مستوى القوى المنتجة في البلدان المتطورة يقربها من خط الانتقال، فان مستوى بلداننا أبعد من ان يكون مؤهلا لانتقال كهذا.

وعليه ينبغي لإستراتيجية احزابنا في المنطقة العربية ان تأخذ في الاعتبار ما يلي:

1. ان بناء الاشتراكية عملية عالمية وإنها ما تزال في مستهل اطوارها الاولى الدنيا حتى في الاتحاد السوفيتي.

2. ان نُضج هذه العملية انما هو عملية تاريخية مديدة، ومتعرجة.

3. وبدون توفر شرط أو محيط عالمي لا يمكن التفكير بانجاز هذا الانتقال في بلداننا.

4. حتى يتوفر هذا الشرط لا بديل لنا سوى المضي في تطوير الرأسمالية المحلية، والتصدي لميولها المعادية للإنسان والبيئة بحدود ما يسمح به نمط الانتاج الرأسمالي نفسه.

5. يمكن لهذا النمط ان يتخلص من طابعه الطفيلي ويكتسي طابعا منتجا الى حد غير قليل. كما يمكن له ان يتجلى بأشكال سياسية عديدة: فاشية أو ديمقراطية. من هنا ينبغي وضع الديمقراطية السياسية شرطا أساسيا وعنوانا عريضا للنضال.

6. في ظل التشابك العالمي الراهن، يمكن حماية التطور المستقل استنادا الى ان انقسام السوق العالمي (الذي تهيمن عليه قوانين رأسمالية) الى كتل عدة، تسمح بمجال رحب نسبيا للحركة.

7. ان تطوير القوى المنتجة (او التنمية اذا شئتم) + الديمقراطية السياسية + تخفيف قيود التبعية، هي العناوين الرئيسية للنضال في هذه المرحلة.

8. ان القبول بنمط الانتاج الرأسمالي ضرورة موضوعية. ولكن ذلك لا يعني القبول أو السكوت على تناقضاته ونتائجه المدمرة للمنتجين (للعمال وصغار المنتجين) وللبيئة، بل نحن نمثل، داخل هذا النمط، القطب المضاد للرأسمال والقطب الذي ينبغي له ان يلجم، بحدود الممكن (حدود القوى الفعلية) ميول الرأسمال في مجال: الاستثمار، الاجور، وجهة التطور، حدود السلطة، الخ).

ان الانتقال الى برنامج كهذا يتطلب شجاعة كبيرة، هي مُضمرة في برنامجنا السابق.

ان مرحلة الثورة الديمقراطية ليست سوى مرحلة رأسمالية. ويمكن للطبقة العاملة في ضوء الخبرة التاريخية، والمنهجية الماركسية، ان تدرك، بعمق اكبر من أية طبقات اجتماعية أخرى، طبيعة وأشكال وحدود تناقضات نمط الانتاج هذا، وان تسهم في تطويره وان تناضل، في الوقت نفسه، من أجل اقصى لجم ممكن لميوله المعادية للإنسان والبيئة.

ان الرأسمالية، كطور، هي بمثابة المطهر، الذي لا بد منه. كأس الدواء المُر الذي ينبغي تجرعه لتحضير بلداننا،

هذه الكسور الصغيرة، للعملية التمهيدية المفضية الى عالم الاشتراكية.

ان الصياغة الصائبة لبرنامج كهذا تستدعي اجراء مراجعة جريئة ايضا لمصادرنا الايديولوجية وتوسيعها لتشمل ليس فقط ماركس، انجلس، لينين، بل ايضا روزا لوكسمبورغ، بليخانوف، كاوتسكي، غرامشي، بوخارين، لابريولا، مهرنغ، وليبكنخت (من الكلاسيكيين) وان تتوسع راهنا لتنفتح على كل انجازات المفكرين الماركسيين من الاتحاد السوفيتي الى المجر وألمانيا والصين، وفرنسا، وايطاليا وغيرها.

إن هذا يستدعي اعادة النظر بالتثقيف السياسي والفكري ومصادره. سيلاقي ذلك معارضة شديدة، خصوصا وان وضع حزبنا ينطوي على صعوبات بالغة.

*** نشر للمرة الاولى في (الثقافة الجديدة)، العدد 237، أيلول 1991، ص 4 – 9.**

**** كتب هذا المقال قبل اجتياح الكويت.**

نصوص مترجمة

نحو وسائل تواصل اجتماعية اشتراكية

جيمي رينجر**
ترجمة وإعداد: عادل كنيش مطلوب

إن الرأسمالية الرقمية هي أحد أبعاد المجتمع المعاصر حيث تلعب التقنيات الرقمية مثل الكمبيوتر والإنترنت والهاتف المحمول والأجهزة اللوحية والروبوتات والتقنيات (''الذكية'') التي يقودها الذكاء الاصطناعي، دورا أساسيا في خلق واقع اجتماعي يساهم في إعادة إنتاج الوضع الرأسمالي الراهن؛ لذا فالنهج الاشتراكي للرقمية يجب أن يلتزم بطرح بدائله الإنسانية للاستفادة من هذه التقنيات وتسخيرها لخدمة الإنسانية من دون استغلال.

لقد لاحظت Judy Wajcman (2015، 1))، أن ''هناك تصورا واسع الانتشار بأن الحياة هذه الأيام أسرع مما كانت عليه من قبل''، ويقدم Har-mut Rosa، وهو عالم اجتماع يكتب في تقليد النظرية النقدية، التفسير الأكثر شمولاً لهذا التسارع الاجتماعي عبر وسائل التواصل الاجتماعي، حيث ينتج التسريع الاجتماعي ظروفا تدعم الوضع الرأسمالي الراهن. سيركز هذا المقال على إطار للتفكير في السياسات الاشتراكية من خلال الاعتبارات المميزة لكل من التسريع الاجتماعي والسياسة الرقمية.

ميزات التسريع الاجتماعي

يفرض الاقتصاد الرأسمالي نمط الإنتاجية الذي يهدف الى النمو باستمرار فقط من أجل الحفاظ على ما لدينا بالفعل، وهذا ''الجمود المحموم''، هو الذي يؤدي إلى حالة من الجمود الفردي والمؤسسي، طالما أن هذه التغييرات السريعة تقوض الاعتقاد بأن حياتنا وأفعالنا تسير في اتجاه ذي مغزى. إن ''الجمود المحموم'' هذا مشابه من الناحية الهيكلية لجسم الإنسان الذي يخضع لقوة الجاذبية، على سبيل المثال، في سيارة Formula One أو أثناء تدريب رائد فضاء: فإن التسارع المفروض على الجسم يجعل الحركة صعبة للغاية، مثل عبء وزن ثقل خارجي، علاقة قوة غير مرئية ولكنها خطيرة بشكل كبير تسبب إجهاد الضغط والشد. يريد Rosa أن يوضح بأن الافتقار إلى التحول الديمقراطي في وضعنا يمكن تفسيره جزئيا من خلال هذه الظاهرة، وإن مؤسساتنا تشعر بأنها غير قادرة على بدء التغيير، لأن التغيير يتم فرضه باستمرار من الخارج، وعلى هذا النحو، فإن حالة عدم اليقين الكامنة في استقرار النظم الاقتصادية للحداثة يخلق شعوراً بالتقشف؛ جرد الحفاظ على الطاقات.

يضع Rosa ثلاثة أنظمة للتسريع الاجتماعي التي تميز الحداثة: التسارع التقني، تسارع التغيير الاجتماعي وتسريع وتيرة الحياة. يشير التسريع التقني إلى التطورات السريعة في تقنيات النقل والتواصل: من العربات التي تجرها الخيول إلى السيارات ذات المحركات التي تُقاس بالحصان، ومن الرسائل المكتوبة بخط اليد إلى الرسائل المباشرة على وسائل التواصل الاجتماعي، ومن اللاسلكي إلى الراديو إلى التلفزيون لخدمات البث التلفزيوني الذكي (Rosa 2013، 97). فالتسارع التكنولوجي هو التسارع الموجه نحو الهدف، سواء كان ذلك في الاتصالات أو الإنتاج أو النقل. إن مشروع جعل الإنترنت أسرع، وزيادة قدرة البطاريات المتنقلة، والمحركات الأكثر قوة، والاتصالات الفورية من خلال الهاتف؛ جميعها تساهم في التصور المتغير للزمان والمكان في الحياة الاجتماعية. ما كان في يوم من الأيام رحلة بحرية مدتها ثمانية أشهر أصبح الآن رحلة جوية لمدة نصف يوم: أدى التقدم التكنولوجي إلى جانب العولمة إلى ضغط الفضاء في الحياة الاجتماعية.

إن النظام الثاني للتسريع هو تسريع التغيير الاجتماعي، المرتبط بهذا النظام الأول للتغير التكنولوجي. في أواخر القرن الماضي حيث كان الأطفال الذين لديهم امتياز الوصول إلى جهاز كمبيوتر منزلي هم قلائل، ويمكنهم أن يكتبوا قصصا بإستخدام مستند Word أو اللعب على الكمبيوتر. وكانوا يعتبرون "متميزين". لكن لو تقارنهم، الآن، بالأطفال الذين تقل أعمارهم عن سبع سنوات؛ فإن الأخيرين قادرون على التنقل بشكل مريح بين البروتوكولات لحفظ أعمالهم على نظام الحوسبة السحابية. أما بالنسبة للأطفال الأكبر سنا، الذين بلغوا سن الحادية عشرة على الأكثر، فلا داعي للعب الألعاب، ذلك لأن هؤلاء الأطفال يستخدمون برمجيات تساعدهم في بناء تطبيقات خاصة بهم!

تعطي هذه الأمثلة مصداقية للفكرة القائلة بأن معدل التغيير التكنولوجي له تأثير غير مباشر على التغيير الاجتماعي: أصبحت مستويات أو ممارسات معينة من المهارات عفا عليها الزمن بسبب العلاقة المتغيرة بين التقنيات ومستخدميها. مع تسارع التغيير الاجتماعي، فإن الوقت الذي يمكن فيه اعتبار معرفتنا وخبرتنا السابقة ذات قيمة أو تطبيقها لفهم المكان الذي قد نتجه إليه (Rosa 2009، 83). من الصعب التكهن بالمكان الذي تتطلب فيه المتطلبات الاقتصادية أو التحولات في المشهد الثقافي أو التطورات التكنولوجية براعة تقنية. قبل الحداثة، كانت الطريقة التي نغلي بها الماء والطعام المطبوخ ونؤدي المهام اليومية كما هي: قد تتعلم حرفة أو مهارة أو حقيقة عن العالم في طفولتك ستظل صحيحة ومفيدة لتعليمها لأحفادك. أن تكون حديثًا هو أن تعيش من خلال التطورات التكنولوجية التي تغير بشكل أساسي الطرق التي يتفاعل بها الناس مع عالمهم، لتقصير عمر العلاقات البشرية مع تقنيات معينة، وبالتالي إعطاء الحياة إحساسا بالحركة السريعة، نحو اتجاه التقدم.

لنقتبس من Rosa مباشرة، "يتم تعريف التسارع الاجتماعي من خلال زيادة انحطاط مصداقية التجارب والتوقعات وتقلص الفترات الزمنية التي يمكن تحديدها على أنها الحاضر"(Rosa 2010، 16). أنتجت الحداثة سرعة اجتماعية، حيث تعتبر المعتقدات والأفعال الاجتماعية معقولة أو سائدة أو مقبولة لفترات زمنية أقصر وأقصر. يشير Rosa إلى هذه التغييرات السريعة في "المواقف والقيم بالإضافة إلى الموضات وأنماط الحياة والعلاقات الاجتماعية والالتزامات وكذلك المجموعات والطبقات أو الأوساط واللغات الاجتماعية وكذلك أشكال الممارسات والعادات" (Rosa 2009، 83). تتحرك الثقافة بوتيرة أسرع، حيث أصبحت اتجاهات الموضة، وأنواع الموسيقى السائدة، وصولاً إلى الأيديولوجيات السياسية، أكثر صعوبة، وأصعب في اللحاق بها: فالحفاظ على "البقاء في دائرة الاهتمام" يكاد يكون شاقا، وهذا التحليل له بصيرة خاصة في عصر وسائل التواصل الاجتماعي، حيث يمكن أن تتصاعد الرسائل والنكات على الإنترنت في غضون ساعات، وتختفي من أهميتها في غضون يوم وتعاود الظهور لفترة وجيزة في إعادة صياغة ساخرة أو متعبة أو حتى حنين إلى الماضي بحلول نهاية الأسبوع المعني.

بالنسبة إلى Rosa، يمكن فهم النظام الثالث للتسريع الاجتماعي، وهو تسريع وتيرة الحياة، على أنه شكل من الذاتية، وتأثير للشعور كما لو أن الوقت ينفد دائما، وأنه لا توجد ساعات كافية في اليوم؛ الذاتية التي تعتبر الوقت سلعة يتم إنفاقها، ولكي يتم إنفاقها بكفاءة، يصبح المورد نادرا. يعرفه Rosa على أنه "زيادة في عدد حلقات العمل أو التجربة لكل وحدة زمنية، أي أنه نتيجة لمحاولة القيام بأشياء أكثر في وقت أقل" (Rosa 2010، 21). لتوضيح هذه الفكرة بشكل أكبر، يدعو Rosa القارئ إلى تخيل سيناريو لقضاء ساعتين في الأسبوع للاستجابة بشكل مدروس لمجموعة من ست رسائل. مع اختراع البريد الإلكتروني، لن يستغرق الأمر أكثر من ساعة للقيام بنفس الوظيفة. لكن هذا ليس ما يحدث بالطبع، لأنه يمكنك الآن نقل أفكارك على الفور عبر العالم بنقرة واحدة على الماوس، ستجلس لمدة ساعتين، التي كانت تستخدم ذات مرة، لكتابة الرسائل وبدلاً من ذلك ستتعامل مع أربعين أو خمسين بريدا الكترونيا من رسائل البريد الموجودة في حسابك، وتتوقف بعد ساعتين لتجد المزيد. بمعنى آخر، نحاول ضغط الإجراءات في الوقت المتاح لدينا، ولكن هذا لا يمنحنا المزيد من وقت الفراغ، بل الشعور بالقدرة على الدوام لفعل المزيد، إلى جانب الشعور بالذنب تجاه حقيقة أننا لم نفعل ذلك.

فعليا لا يمكن أن نفهم التسارع الاجتماعي بدون أن نفهم الطرق التي تتم بها إعادة إنتاج الجمود المحموم أيديولوجيا. بعد ذلك، سنكتشف نقدChristian Fuchs الماركسي لوسائل التواصل الاجتماعي وعلاقتها المستوطنة بالرأسمالية ومنطقها في الربح وتقديم تجربة المستخدم. بعد ذلك، يجب التركيز على تسريع وتيرة الحياة حيث يعتقد أنها تتوافق بشكل

متماسك مع مفهوم Dominic Pettman عن "التعديل المفرط"، والذي سأجادل من خلاله لاحقا أن الاشتراكية الديمقراطية يجب أن تهتم بالتباطؤ الرقمي.

وسائل التواصل الاجتماعي والرأسمالية

إن أحد الأدوار المعاصرة الرئيسية لأدب علم الاجتماع الرقمي هو الاعتراف بـ "الطبيعة المتشابكة للمادة والرقمية والأشخاص والآلات" (Selwyn 2019، 25). وبشكل أكثر تحديدا، فإننا نعيش في مجتمع "منصات"، حيث تتغلغل المنصات في جميع مجالات الحياة العامة والخاصة (van Dijck et al. 2018). وبالتالي، لكي تصف نظرية التسارع الاجتماعي وضعنا المعاصر بشكل معقول، يمكن للمرء أن يتوقع بعض النتائج الملموسة التي يمكن العثور عليها في العالم الرقمي.

يتناول Christian Fuchs نظريات التواصل الحديثة، وتحديداً الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، من منظور النظرية النقدية. يجادل بأن وسائل التواصل الاجتماعي تعمل على إخفاء الظروف الطبقية الموجودة مسبقًا من التبعية والهيمنة التي ينطوي عليها بالضرورة نمط الإنتاج الرأسمالي (Fuchs 2016، 121). يناقش Fuchs ما يسميه بجدلية الموضوع والهدف فيما يتعلق باتصالات الإنترنت. يجادل بأن البشر، كموضوعات تتفاعل مع أهداف وسائل التواصل الاجتماعي، يستخدمون تقنياتها للإنشاء والمشاركة والتواصل، للمؤسسات التعاونية، وتعزيز المجتمعات عبر الإنترنت. من خلال هذه الممارسات التواصلية، يصبح عالم وسائل التواصل الاجتماعي الخاص بهم عالما "حقيقيا"، ليس فقط بالمعنى المادي للتخزين على خوادم الكمبيوتر، ويمكن الوصول إليه من خلال الأجهزة، ولكن أيضًا بمعنى أن يصبح أكثر واقعية وموضوعية على مستوى الجانب النفسي.

يسمح هذا العالم عبر الإنترنت للمجتمعات بالتوصل إلى مفاهيم جديدة (وسوء فهم) للعالم الاجتماعي الموجود مسبقا وإنتاج خطابات حصرية لهذه المجتمعات الصغيرة، مما يؤدي إلى احتمالات تفاعلات هادفة لم يتم توضيحها من قبل. مع نمو ثقافات الإنترنت، فإنها تتسرب إلى العالم "الحقيقي". يرى Fuchs أن العلاقة بين الفرد والمجتمع هي علاقة "شديدة العدائية". لا يمكن أن توجد وسائل التواصل الاجتماعي إلا في سياق أن يكون فيه الأشخاص قادرين ومستعدين للمشاركة والتواصل والتعاون والتعرف إلى مجتمعات مختلفة، لكن هذه الإجراءات، مع تشجيعها على الإنترنت من خلال وسائل التواصل الاجتماعي من قبل الشركات، فهي بالضبط تضاءلت مع اتساع الثقافة الفردية التي ظهرت في الديمقراطيات الغربية. يستخدم الأفراد وسائل التواصل الاجتماعي الخاصة بالشركات كوسيلة للالتزام بـ "مبادئ أداء اللبرالية الجديدة" كما يسميهم Fuchs، ورعاية صورة الشخص نفسه لشبكاتهم الاجتماعية، والتفاعل مع الآخرين على هذه المنصات من خلال إضافة معلومات مختارة بعناية متاحة للآخرين للرؤية. إن وسائل التواصل الاجتماعي، بالمعنى

الحقيقي للكلمة، هي تجربة مستخدم فردية، شديدة العزلة، تقدم على أنها تجربة مجتمعية. وخلف ستار "الأداء" الذي يمثل الذات، يشير Fuchs إلى "طابع الملكية الخاصة لوسائل التواصل الاجتماعي" (Fuchs 2016، 122). ويطور Fuchs هذه الفكرة أكثر، بحقيقة أن بيانات المستخدم تُباع كسلعة للمعلنين - مخفية خلف المظهر الاجتماعي لوسائل التواصل الاجتماعي: فأنت لا تدفع مقابل الوصول إلى Twitter أو Facebook أو Google أو YouTube. يبدو أن قيمة الاستخدام التي تم الحصول عليها هي التجربة الاجتماعية الفورية التي تتيحها هذه المنصات. لا يتضح الطابع السلعي للبيانات الشخصية على الفور لأنه لا يوجد تبادل للأموال مقابل قيم الاستخدام التي يواجهها المستخدم (Fuchs 2016، 122).

لطرح الفكرة بشكل مختلف، خارج لغة الاقتصاد الماركسي، تقدم وسائل التواصل الاجتماعي نفسها كأداة مجانية الاستخدام لمشاركة الأشياء مع أصدقائك. بدلاً من ذلك، فهي عبارة عن منصة تحول فيها نفسك إلى سلعة من خلال تغذية المعلنين بمعلومات حول حياتك وقيمك وتفضيلاتك من خلال أعمال العرض الذاتي المنسق. هناك إنذار قضائي أيديولوجي للاستمتاع بالعالم الاجتماعي، والمشاركة ليس فقط كموضوع حر في قواعد اللعبة، لكن أيضا كموضوع ممتع، يختبر الاستهلاك كشكل من أشكال المتعة الطقسية. نحن جميعا متعة الآن. يقول Fuchs: عمل اللهو (Play labour) هو الأيديولوجية الجديدة للرأسمالية. يتم تقديم العمل المغترب موضوعيا على أنه إبداع وحرية واستقلالية ممتعة للعمال. أصبحت الأفكار التي يجب أن يستمتع بها العمال ويحبون اغترابهم الموضوعي استراتيجية أيديولوجية جديدة لنظرية رأس المال والإدارة. "عمال الـ Facebook " هو تعبير عن أيديولوجية عمل اللهو كعنصر من عناصر الروح الجديدة للرأسمالية (Fuchs 2016، 127).

كمستهلك، يتم تقديم الموضوع تقليديا على أنه حر ومستقل، ويمارس هذا الحق في الاختيار من خلال الوصول إلى اقتصاد السوق لشراء السلع حسب الرغبة، ضمن قيود الدخل التقديري للفرد. لإعادة إنتاج علاقات الإنتاج الرأسمالية، يجب أن يقدم النظام نفسه على أنه أفضل نظام ممكن، وأن تكون وسائل التواصل المشتركة متواطئة في الحفاظ على هذه الرسالة الضمنية لإبقاء موضوع المستهلك ممثلاً، وبالتالي، مهيمنا. تقدم وسائل التواصل الاجتماعي منصاتها على الإنترنت لاستخدامنا وترفيهنا فقط، حتى وصولاً إلى تصريحات هذه الشركات عن الإحسان؛ فيستغل الـ Facebook مثلا "القدرة على المشاركة وجعل العالم أكثر انفتاحا وترابطا"؛ ويريد موقع YouTube "التواصل مع الآخرين وإعلامهم وإلهامهم في جميع أنحاء العالم"؛ أما Twi-ter فيريدك أن "تتواصل مع الأشخاص والتعبير عن نفسك واكتشاف ما يحدث" (Fuchs 2016، 133) !!!!.

تقدم جميع وسائل التواصل الاجتماعي للشركات الكبرى نفسها هنا للمساعدة،

مقارنة نفسها بالبرامج مفتوحة المصدر المتاحة مجانا من قبل حاضنات رقمية واعية اجتماعيا: فإن شركات التواصل الاجتماعي هذه تساوي المليارات في البورصة، على الرغم من شعاراتهم التي تدل على دعوة أنها غير مرتبطة بمتطلبات السوق تماما.

ادعاء Fuchs الأساسي هو أن هناك فرقا ملحوظا بين كيفية عمل وسائل التواصل الاجتماعي وبين كيف أن ترغب في الظهور للمستخدم النهائي. الغرض من وسائل التواصل الاجتماعي هو تكوين المجموعات وتبادل المعلومات، لتوحيدنا. ومع ذلك، فإن الرأسمالية تدمر إمكانيات الاتصال الجديدة هذه، و"تعزز أشكالا جديدة من الاستغلال، والتسليع، والفردية، والملكية الخاصة" (Fuchs 2016، 138). بينما يقوم مستخدمو وسائل التواصل الاجتماعي بتحميل الصور وإرسال الرسائل إلى الأصدقاء والتعبير عن أنفسهم عبر الإنترنت، فإنهم يقومون بتوجيه البيانات إلى جهاز يعمل بشكل أساسي على نقل بصمة البيانات هذه إلى منتج تشتريه الشركات، والإعلان لك بطريقة تحول إحساسك من العودة إلى ذاتها، لتقديم مجموعة من مشتريات السلع المحتملة.

على الرغم من هذه الهواجس بشأن العلاقة بين وسائل التواصل الاجتماعي والاستغلال الرأسمالي، فإن Fuchs يجادل بأنه لا تزال هناك إمكانات تحررية داخل التكنولوجيا: "تشير إلى، وتشكل جنبا إلى جنب مع التقنيات الأخرى، أساسا ماديا لمجتمع اشتراكي ديمقراطي، حيث يتم التحكم بشكل جماعي في وسائل الإنتاج المادي والإعلامي" (Fuchs 2016، 146). تكمن المشكلة في أن وسائل التواصل الاجتماعي للشركات تقوض إمكانياتها السياسية الخاصة من خلال خدمة الوضع الرأسمالي الراهن وتعمل على تقديم أشكال جديدة من "الاستغلال والأيديولوجية" (Fuchs 2016، 146). تحول وسائل التواصل الاجتماعي المشتركين إلى مستهلكين، وأفراد مجبرين على العمل من أجل أرباح الشركات تحت ستار اللعب؛ يجادل بأنه "من الخطأ النظر إلى Facebook على أنها شركة اتصالات. فهي لا تبيع الاتصالات أو الوصول إلى الاتصالات، ولكن تبيع بيانات المستخدمين ومساحات للإعلانات المستهدفة. تُعد Facebook إحدى أكبر شركات الإعلان في العالم" (Fuchs 2016، 170). على الرغم من أن منصات التواصل الاجتماعية توفر القدرة للمستخدمين على التواصل، إلا أنها تعمل بشكل أشبه بوكالة مواعدة عبر الإنترنت، حيث تربط شركاء الشركات بالمستهلكين المحتملين، تحت رعاية ربط البشر ببعضهم البعض. باستثناء أن المستخدمين لا يواجهون هذا التلاعب في بياناتهم الخاصة، ربما يكون التشابه أقرب إلى مواعدة غير معروفة حيث لا تعرف بأنه سيتم الإيقاع بك.

التعديل المفرط والتسريع الرقمي لسير الحياة

بالعودة إلى موضوع التسريع الاجتماعي، نلاحظ Judy Wajcman

5-6 ،2015)) أن "هناك حواس مختلفة للشعور بالضغط من أجل الوقت ومجموعة من الآليات التي تثير تلك المشاعر". ويمكن القول بشكل معقول في سياق رقمي إن وسائل التواصل الاجتماعي، وتحديداً المنصات العالمية، هي المسؤولة في الغالب عن مثل هذه التأثيرات في الذاتية المعاصرة. من نواحٍ عديدة، يمكن القول إن أكبر المنصات تُشبه الدول من حيث تعقيدها الداخلي وأنظمة حكمها الذاتي.

بعد تحليل Christian Fuchs لتجربة المستخدم، يجادلDominic Pettman بأن وسائل التواصل الاجتماعي تمثل نفسها بالنسبة لنا كتجربة مصممة وفريدة من نوعها، حيث تكون شخصية هويتنا ذات أهمية قصوى، وشكلها لا حدود له، بمعنى أنه "لا يوجد اثنان ينتقلان ويتصفحان في نفس المسارات المتفرعة للموقع"(Pettman 2016، xi-xii). إن منهجه، الذي ينبثق أيضا من النظرية النقدية، يناقش في مفهوم العالم الحديث عن المستهلك - المواطن، مدعيا أننا "ننتقل بين المفاهيم القديمة لما يعنيه أن يكون المرء شخصا - مواطنا، له حقوق، ومسؤوليات، وشخصية، وهوية، وما إلى ذلك، الى أنواع جديدة ناشئة من كونه مستهلكا، مع الرغبة الشديدة، والإعجابات، والملفات الشخصية، والآراء، مما يترك أثرا لتعريف الارتباط في تعقبه"(Pettman 2016، 6). يلجأPettman إلى الأطر المفاهيمية لمفكرين مثل Gilles D-leuze و Jean Baudrillard ليقول إن الذاتية فقدت "مشهدها" واستبدلت بـ"المشهد الخارجي"، مما يعني أن الفروق التقليدية بين "العامة والخاصة، الذات مقابل الآخر، الفاعل مقابل الآخر" تآكلت في مكانها، وهو موضوع تتوقف هويته على استهلاكه وتداوله وإنتاج الصور لجهاز تكنولوجي أوسع. على وجه التحديد: إن "النشوة" التي توفرها وسائل التواصل الاجتماعي ليست بالتأكيد إثارة غامرة أو إحساسا بالنعيم، بل هي عبارة عن رزم تجانسي للحظات صغيرة ومبتذلة من الاعتراف، والطمأنينة، وتعزيز الأنا، والتفاخر المتواضع، والسمعة السيئة، والفضول، والعار، ومجموعة من المفاهيم الأخرى - تأثيرات متواضعة - لكن ذات أهمية جماعية - (Pettman 2016، 10).

من خلال ربط هذا الحساب لوسائل التواصل الاجتماعي بمحادثة Pettman السابقة حول الذاتية، فإنه يقدم ادعاءً مقنعا بأن وسائل التواصل الاجتماعي لا تستخدم في المقام الأول للتمتع، بقدر ما تعزز هوياتنا، وتضمن رؤيتنا لأقراننا. يستكشف Pettman الدوافع الكامنة وراء رغبة المستخدمين في تسليم المعلومات الشخصية والصور ومقاطع الفيديو وسجلات المحادثات وغيرها من البيانات إلى نظام أساسي للشركة للتحقق من صحة رؤية الشبكة. بهذا المعنى، أصبح المواطنون الرقميون "أشخاصا خارجيين"، يرسلون صورا ذاتية في الفراغ، بحثًا عن التحقق من صحة الذات التي يتم توزيعها الآن عبر الأسلاك "(Pettman 2016، 10). عندما يقوم المستخدمون برعاية تواجدهم على وسائل التواصل الاجتماعي، فإنهم يضمنون حرفيا وجودهم، وأن لديهم التحقق

من صحة الوجود في الفضاء الإلكتروني، وهو مساحة متزايدة الأهمية حيث يتم تخزين الهوية بشكل دائم، بطريقة تتطلب إدارة حقيقية - موضوع العالم خلافا لذلك، يمكن أن تتشكل هوية الفرد من خلال قوى خارجية، مثل قيام الأفراد بوضع علامة باسمك في صور غير جذابة، أو تحميل مقاطع فيديو محرجة، أو التعرض للنقد على هذه المنصات العامة دون ممارسة حق الفرد في الرد: حساب " play 1-bour" لـ Fuchs شبه متفائل للغاية؛ إن تنسيق حساب على وسائل التواصل الاجتماعي بمستوى التفاصيل المطلوبة للازدهار في الفضاء الإلكتروني هو عمل بلا مبالاة وبدون مقابل، ومع ذلك فهو مُتوقع من جميع المواطنين الرقميين.

يمكننا ربط هذا السيناريو بعواقب التسارع الاجتماعي، لأننا نستطيع التعبير عن أنفسنا عبر الإنترنت، وتوفر وسائل التواصل الاجتماعي منصة للإعلان عن أعمالنا، ودعم هواياتنا، ومتابعة اهتماماتنا الشخصية، فنحن نغرق ببطء في هذه التقنيات شديدة الإدمان للقيام بها لذلك بمعدل تكرار وكثافة أكبر مما كنا نفعله بخلاف ذلك. حقيقة أنه يمكننا الحصول على تحديثات فورية على هواتفنا على الفور بدلاً من الاضطرار إلى سماع كل شيء في الأخبار يعني أننا نتحقق باستمرار من هواتفنا: "يبدو الأمر كما لو أنه سيوفر لنا يوما ما الرسالة التي كنا ننتظرها" (Seymour 2019، 69).

يجادل Pettman بأن أجهزة وسائل التواصل الاجتماعي تشتت انتباه مستخدميها بدفعات صغيرة من المحتوى الذي يثير حالات عاطفية مختلفة، غالبا في أوقات مختلفة للمستخدمين الآخرين، وبمعدل أسرع من أي وقت مضى. وبالتالي، تتم تجزئة حالاتنا العاطفية، وتقليلها إلى ردود أفعال سريعة وحادة للصور أو التقارير أو الإجراءات على موجز أخبار محدد حسابيا، ينفرد به المستخدم.

كما إنه يجادل بأن هذا يسطح من تجربة المستخدم للواقع الاجتماعي، والذي يُنظر إليه على أنه سلسلة من الأحداث الصغيرة الفوضوية وغير ذات الصلة، دون أساس لتشكيل سرد اجتماعي متماسك وشامل. تترك وسائل التواصل الاجتماعي الموضوع مجزأ وتحاول تكوين إحساس متماسك بالتعريف عن طريق تنسيق خلاصتها لتكون بمثابة غرفة صدى، أو عن طريق القفز إلى استنتاجات لا أساس لها.

وبدلاً من الفهم التقليدي للنظرية النقدية بأننا "مستعدون دائما" لأن نصبح موضوعا، حيث إننا نعمل بفهم العلامات والرموز واللغة المستخدمة في عملية الاستجواب، فإن التجزئة التي تسببها التمثيلات الإعلامية تجعل المستخدم يظل "دائما - تقريبا" موضوع، غير مؤكد من مكانتنا في العالم: المعنى مؤجل بسلسلة لانهائية من المشتتات. بدلاً من استخدام الإلهاء لجذب انتباهنا بعيدا عن الأحداث التي قد نراها بطريقة أخرى، يعتقد Pet-man أن الإلهاء هو الشرك نفسه: وسائل التواصل الاجتماعي تسبب الإدمان لأنها تشتت انتباهنا بالعديد من التفسيرات والتعليقات وردود الفعل على الحدث الذي سيكون تقليديا مغلق. يتم تشويه الحدث

السياسي من خلال التغطية الواسعة بدلاً من البقاء مجهولاً (Pettman 2016، 11).

يوفر الإنترنت للمستخدمين إمكانية الوصول إلى مزيد من المعلومات، بدرجات متفاوتة من الموثوقية والمصداقية، أكثر من أي وقت مضى في تاريخ البشرية، وتعد وسائل التواصل الاجتماعي المحاولة الأكثر تعقيدا (حتى الآن) لتقسيم تلك المعلومات بطريقة توفر معلومات مستمرة عن التجارب الاجتماعية، وعند القيام بذلك، يضع الملف الشخصي المنسق تلقائيا للمستخدم كموقع لتوجيه هذه المعلومات. يتمثل استفزاز Pettman في أن وسائل التواصل الاجتماعي تحمي الوضع الراهن من خلال إظهار ما يحدث لك، ولكن كسلسلة من العقد التجريبية التي تبدو غير مرتبطة، وفي أوقات مختلفة مثل زملائك المستخدمين، بحيث يمكنك التنفيس عن غضبك بالظلم بمعزل عن غيره، بدلاً من إيجاد وسيلة للاحتجاج أو المقاومة في الغضب الجماعي. من خلال إظهار جميع المعلومات وتقديمها بنفس المستوى من الإلحاح والفورية، فإنه يؤدي إلى تأثير "تسطيحي" للمستخدم: "تتم الآن تسوية الأمور ذات الأهمية التاريخية المحتملة، مثل قضية الحقوق المدنية [...] في نفس التجانس، مساحة رقمية فارغة كمخلوق لطيف أو مشهور بغيض" (Pettman 2016، 35). من خلال تلقي تلقي هذه التفسيرات المختلفة والتمثيلات الإعلامية للعديد من الأحداث جنبا إلى جنب من وجهات نظر مختلفة، فإن الأحداث السياسية المهمة، وفي الواقع العالم الاجتماعي الأكبر، تبدو فوضوية وغير مفهومة، مما يثبط المشاركة السياسية النشطة.

بالعودة إلى التداعيات النفسية للموضوع، يجادل بأن الارتباك الذي تسببه وسائل التواصل الاجتماعي ينتج "تنافرا عاطفيا"، لأنه نظرا لأن المستخدم ينجذب في اتجاهات مختلفة تثير حالات عاطفية متناقضة تماما، "تنهار التسلسلات الهرمية الأخلاقية للثقافة الإنسانية إلى صورة كاريكاتورية للديمقراطية، حيث تكون جميع العناصر متساوية"، حيث يؤدي "سحر مقاطع الفيديو الخاصة بالصداقة بين الأنواع" و"(تقريبا) في نفس الوقت للاشمئزاز من أحدث لقطات الجريمة" (Pettman 37 ، 2016) إلى عدم وضوح الأحداث في لحظات تثير ردود فعل افتراضية؛ إعجاب، قلب، مشاركة، إعادة تغريد.

تنتج وسائل التواصل الاجتماعي رؤية لعالم فوضوي للغاية، بحيث لا يمكن الطعن فيه، حيث يتم إغراء الشخص بالاندماج في الآلة الاجتماعية دون احتكاك "للاستمرار" في الحياة، والانتقال من الإلهاء إلى الإلهاء.

المشروع الاشتراكي

كيف يبدو المشروع الاشتراكي في ظل هذه الظروف المفترضة للحداثة؟ وما هو الدور الذي يبدو أن "الحداثة" تلعبه في عمل Rosa عندما يقترح الكثيرون أن "الرأسمالية" ستكون وصفاً أكثر ملاءمة؟

ما هي الحداثة إذا لم تكن تقريبا هي

النقطة التي بدأت عندها الرأسمالية في العالم الغربي؟ ما الذي يجب أن نكسبه من تجاهل الحقيقة الواضحة المتمثلة في أننا نشعر بالحاجة إلى إرسال خمسين رسالة بريد إلكتروني في جلسة واحدة، لأن هناك ضغوطا مالية خارجية تتجاوز التقدم التكنولوجي، تسمح بالتواصل الاجتماعي المفرط؟ نحن نسير بشكل أسرع لأننا يجب أن نسير بشكل أسرع، لأننا نستطيع أن نسير بشكل أسرع، لأن رؤساءنا يقولون إنه إذا استطعنا، فيجب علينا، وإذا لم نفعل ذلك، فسوف يتم طردنا. يجادل Rosa بأن مزايا نظريته في التسارع الاجتماعي تتضمن قدرتها على تفسير "تحول الأنظمة الإنتاجية والاستهلاكية للحداثة - من الحداثة المبكرة إلى الحداثة" الكلاسيكية "والفردية وما إلى ذلك إلى" الحداثة المتأخرة (Rosa 2010، 54). يقول Rosa إنه لا يدعي أن التسارع هو أساس المجتمع، بل هو "الديناميكيات، قوتها الدافعة ومنطقها أو قانونها أو تغييرها" (Rosa 2010، 54). على الرغم من أن دافع الربح يخدم كمحرك أساسي للتغيير، إلا أن هذه التفسيرات المتنافسة لا تتعارض بالضرورة أثناء تحليل هذا البحث لوسائل التواصل الاجتماعي. ومع ذلك، يبدو من المعقول أن علاقة وسائل التواصل الاجتماعي بمنصتها الرأسمالية طريقة العمل هي القوة الدافعة وراء التعديل المفرط للموضوع، وبالتالي فإن تباطؤ وسائل التواصل الاجتماعي إما أن يتم تمثيله من خلال معارضة أيديولوجية مناهضة للرأسمالية، أو بشكل مثير للاهتمام، تسريع وظيفي مشروع. بعبارة أخرى، السوق المتنامي للمنتجات والخدمات التي تشجع على "التخلص من السموم الرقمية". تحاول الرأسمالية حل المشكلة التي تخلقها بنفسها: ظاهرة ساخرة تستغلها "صناعة السعادة" (Davies 2015).

يوضح Rosa بشكل رائع التناقض الكامن في قلب الحداثة الديمقراطية الليبرالية، والذاتية الفردية التي تمنح امتيازا لاستقلالية الفعل وصنع القرار باعتبارها ذات أهمية قصوى لما يجعلنا بشرا، ومع ذلك تقلل بشكل متناقض قدرتنا على مثل هذه الإجراءات واتخاذ القرارات المحتملة، التي تحجبها الأنظمة للسيطرة التي تتخلل وتهيمن على هياكلنا الاجتماعية. يجادل المشروع الاشتراكي بأن نمط الإنتاج الرأسمالي يعرقل الاستقلال الذاتي الذي وعدت به الديمقراطية الليبرالية، وعلى هذا النحو، فإن الانتقال إلى حالة مادية بديلة بالتنسيق مع ثقافة ديمقراطية أكثر راديكالية سيخدم بشكل أفضل الهدف السياسي للتحرر البشري.

كما يلاحظ Rosa أيضا؛ أنه "في السياسات الحديثة المتأخرة، لم تعد (إذا كانت كذلك) قوة الحجة الأفضل التي تقرر السياسة المستقبلية، بل قوة الاستياء، والمشاعر الغريزية، والاستعارات والصور الإيحائية" (Rosa 2010، 56)، ويمكن القول إن هذا الخطاب السياسي الذي يعتبره Rosa نتيجة ثقافية للتسارع الاجتماعي، يتم تفصيله ونشره بشكل متزايد وأكثر شيوعا على وسائل التواصل الاجتماعي.

في التسريع الاشتراكي مقابل التباطؤ الاشتراكي

نظرا لأن العديد من القرّاء سيكونون على دراية بالنظريات الموجودة في اليسار المعاصر، فقد أصبح الاختلاف بين رواية Rosa للتسارع وحسابات التسارع اليساري كموقف سياسي أكثر وضوحا. عندما أشار Nick S-nicek و Alex Williams (2013) إلى سياسة "التسارع"، فإنهم يشيرون إلى فكرة أن الرأسمالية، والعمليات الإنتاجية والتوزيعية المرتبطة بها، يجب تسريعها بدلاً من التغلب عليها، من أجل الوصول إلى غايات اشتراكية. وبهذا المعنى، يُفترض التسريع على أنه تسخير للقدرات التكنولوجية التي يحدها النموذج الرأسمالي، بدلاً من أن تكون مرتبطة بفهم أكثر عمومية للتغير الاجتماعي والثقافي. من خلال توصيف التسارع التكنولوجي في شكله المعاصر على أنه ليبرالي جديد مميز، فإنهم يسيّسون ظاهريا الإطار المستخدم في أدبيات علم الاجتماع، ومن المفارقات أن السياسات التي أسميها "التباطؤ الرقمي" لأغراض التفكير ضمن إطار العمل يمكن اعتبارها تسارعا في السياق الذي يستخدم فيه S-nicek و Williamsللمصطلح.

يتفق كل من Rosa وأنصار التسارع اليساريين على أن الرأسمالية وحدها ليست مسؤولة عن وضعنا المعاصر: "تسارع اليسار يبدأ بفرضية أن القوة اللاإقليمية ليست الرأسمالية نفسها، لكن الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية كان تعبيرا عن دافع تحرري. لقد تم قمع ديناميكيات إعادة التوطين في الرأسمالية بشكل منهجي (ولكن ليس بالكامل)" (Wolfendale 2019). لكن، حيث ينفصلون عن بعضهم البعض في التطبيق السياسي: حيث يرى Rosa وآخرون مشكلة لا يمكن وقفها تتكشف حتما من الحياة الحديثة، يرى S-nicek و Williamsوغيرهما من أنصار التسارع اليساري بأنها فرصة: لكن لماذا؟ يتمثل الاختلاف الرئيسي بين أدبيات علم الاجتماع وموقف التسارع اليساري في أن الأخير لا ينظر إلى عملية التسارع التقني الاجتماعي كمسار مستمر عبر الحداثة، بل يميز وضعنا المعاصر على أنه يقترب من نقطة الأزمة، أو التمزق، أو الاضطراب: على سبيل المثال، يجادل Aaron Bastani (2019) بأننا نقترب من الاضطراب الثالث للرأسمالية (حيث كانت الأولى هي الثورة الزراعية والثانية كانت الثورة الصناعية) وأن عالمنا يجب أن يواجه الأزمات الخمس التالية ونتائجها: " تغير المناخ، وندرة الموارد، وفائض السكان المتزايد باستمرار، والشيخوخة والبطالة التكنولوجية نتيجة الأتمتة - كلها عوامل من المقرر أن تقوض قدرة الرأسمالية على إعادة إنتاج نفسها" (Bastani 2019 ، 48). في حين يرى Rosa بعبارة أخرى، عالماً قد ينهار بسبب من التزامها بالتسارع، فإن التسارع اليساري أكثر تشاؤما (للرأسمالية) وأقل تشاؤما (حول الآفاق أو المستقبل).

لقد بدأت الرأسمالية في تقييد القوى المنتجة للتكنولوجيا، أو على الأقل، توجيهها نحو نهايات ضيقة بلا داع. تعد حروب براءات الاختراع واحتكار

الأفكار من الظواهر المعاصرة التي تشير إلى حاجة رأس المال لتجاوز المنافسة، ونهج رأس المال الرجعي المتزايد نحو التكنولوجيا. لم تؤد المكاسب المتسارعة التي حققتها اللبرالية الجديدة إلى عمل أقل أو ضغط أقل (Williams and S-nicek 2013).

الخلاصة:

إذا قبلنا وجهة النظر القائلة بأن نشاطنا على وسائل التواصل الاجتماعي يوفر وهم المشاركة النقدية الهادفة، مع تعزيز الربحية المهيمنة وانتشار المنصات العالمية في كل مكان، وأن التعديل المفرط يؤدي إلى نوع من السلبية وعدم اليقين والارتباك الذي يصفه Pettman، فإن أي محاولة لتقويض هذه التأثيرات سيكون مساهمة صغيرة، ولكنها كبيرة في مشروع وسائل تواصل اجتماعية اشتراكية، وبالتالي تراجع عن الظروف العاطفية التي تعمل على إعادة إنتاج الوضع الرأسمالي الراهن للحداثة المعاصرة.

إن وسائل التواصل الاجتماعية الاشتراكية، في الممارسة العملية، هو رفض واع لتثمين ثقافة فردية مدفوعة بالإنتاجية، لأنه رفض للظروف التي تؤدي إلى جمود محموم. وبالتالي، سيعمل التباطؤ الرقمي كمبدأ عملي لضمان أن الإصلاحات للمنصات الرقمية والشبكات وقوانين البيانات سيتم تصميمها مع التزام شامل لتقويض التجربة المربكة للذاتية الرقمية، والحد من التعديل المفرط لمستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي، وبناء علاقة جديدة بين المستهلكين الرقميين وأدواتهم تتعارض مع إعادة الإنتاج الأيديولوجي للمشاعر الرأسمالية.

يرغب المشروع الاشتراكي الرقمي في تعزيز قضية الاشتراكية الديمقراطية، وتقويض العلاقات الرأسمالية بين البشر عندما يتعاملون مع الاتصالات الرقمية، ويخلق ظروفا للاستجواب النقدي للأيديولوجيا على المستوى الفردي والجماعي. يجب أن يقر المشروع الاشتراكي بالدور التأسيسي الذي يلعبه اللهو الرقمي في عملية تكوين الذات ويستجيب له. وبالتالي، فإن وسائل التواصل الاجتماعية الاشتراكية الديمقراطية ستكون "متباطئة" في هذا السياق، مما يعني أنها ستدافع عن تغييرات في الحياة المادية لوسائل التواصل الاجتماعية على وجه الخصوص، والإنترنت بشكل عام، من شأنها أن تقلل فرط التعديل الناجم عن الرقمية. تسريع وتيرة الحياة المتوطنة في ذاتية وسائل التواصل الاجتماعي. لذلك، فإن مبدأ العمل للتباطؤ الرقمي هو مجرد فكرة مفادها أن أي مشروع سياسي اشتراكي موجه نحو الرقمية يجب أن يأخذ في الاعتبار كيف أن تدخلاته المحتملة (سواء كانت منصات بديلة أو أجندات تشريعية أو غير ذلك) تعمل على التأثير على ذاتية مستخدميها، وتذكر بالفكرة القائلة بأن الاتجاهات الحالية لوسائل التواصل الاجتماعي في تصميم المنصات وتأثيرات الشبكة وإنتاج المحتوى تميل نحو تمكين وزيادة الجمود المحموم للذاتية الرأسمالية الحديثة. لذلك، يجب أن تكون وسائل التواصل الاجتماعي الاشتراكية وسيلة تواصل اجتماعي متباطئة.

** جيمي رينجر
جيمي رينجر مرشح لنيل درجة الدكتوراه في St. Hugh's College, University of Oxford قسم السياسة والعلاقات الدولية. يعمل على تقاطع النظرية السياسية وعلم الاجتماع الرقمي. تحاول أطروحته تتبع ظهور "الذاتية المفرطة"، وعواقبها على الأنطولوجيا السياسية، والنقد الإيديولوجي، والسياسة الرقمية الراديكالية، وما إذا كانت تزيد أو تحبط من الشروط المطلوبة لاستخدام رقمي عالمي عام.

References

Bastani, Aaron, 2019. Fully Automated Luxury Communism. London: Verso.
Cohen, Gerald A. 2009. Why Not Socialism? Princeton, NJ: Princeton University Press.
Davies, William. 2015. The Happiness Industry: How Government and Big Business Sold Us Well-Being. London: Verso.
Fisher, Mark. 2009. Capitalism Realism. London: Zero Books.
Fuchs, Christian. 2016. Critical Theory of Communication: New Readings of Lukács, Adorno, Marcuse, Honneth and Habermas in the Age of the Internet. London: University of Westminster Press.
Gilroy-Ware, Marcus. 2017. Filling the Void: Emotion, Capitalism & Social Media. London: Repeater Books.
Lawrence, Matthew and Laybourn-Langton, Laurie. 2018. The Digital Commonwealth: From Private Enclosure to Public Benefit. London: Institute for Public Policy Research, Commission for Economic Justice.
Pettman, Dominic. 2016. Infinite Distraction. Cambridge: Polity Press.
Rosa, Hartmut. 2013. Social Acceleration: A New Theory of Modernity. New York: Columbia University Press.
Rosa, Hartmut. 2010. Alienation and Acceleration: Towards a Critical Theory of Late-Modern Temporality. New York: NSU Press.
Rosa, Hartmut. 2009. Social Acceleration: Ethical and Political Consequences of a Desynchronized High-Speed Society. In High-Speed Society: Social Acceleration, Power and Modernity, ed. Hartmut Rosa and William E. Scheuerman, 77-111. University Park, PA: Pennsylvania State University Press.
Rosa, Hartmut. 2003. Social Acceleration: Ethical and Political Consequences of a Desynchronised High-Speed Society. Constellations 10 (1): 3-33.
Selywn, Neil. 2019. What is Digital Sociology? Cambridge: Polity Press.
Seymour, Richard. 2019. The Twittering Machine. London: The Indigo Press.
Van Dijck, José, Thomas Poell, and Martijn de Waal, 2018. The Platform Society: Public Values in a Connected World. Cambridge: Polity Press.
Wajcman, Judy. 2015. Pressed for Time: The Acceleration of Life in Digital Capitalism. Chicago: University of Chicago Press.
Williams, Alex and Nick Srnicek. 2013. #ACCELERATE Manifesto for an Accelerationist Politics. Accessed 10 January 2020. http://criticallegalthinking.com/2013/05/14/acceleratemanifesto-for-an-accelerationist-politics/ Wolfendale, Pete. 2017. "So, Accelerationism, What's All That about?" DEONTOLOGISTICS.
deontologistics.wordpress.com/2018/02/18/ofta-so-accelerationism-whats-all-that-about/
Zantvoort, Bart. 2017. Political inertia and social acceleration. Philosophy and Social Criticism 43 (7): 707-723.

حـــــــــــوارات

(الثقافة الجديدة) تحاور الأستاذ الدكتور محمد الربيعي

حاوره: سوران قحطان

الاستاذ الدكتور محمد الربيعي، عالم عراقي مغترب. استاذ متمرس في الهندسة البايوكيميائية في جامعة دبلن، وسابقا في جامعة برمنغهام، وباحث اقدم في معهد كونوي للعلوم الطبية، ورئيس شبكة العلماء العراقيين في الخارج (نيسا). عمل خبيراً لعدد كبير من الشركات الطبية والصيدلانية، ولمؤسسات البحث العلمي الاوربية، وأستاذا زائرا لعدد من الجامعات العالمية، وخبيرا في شؤون التعليم العالي في منظمة اليونسكو، ومستشارا فخريا لوزارة التعليم العالي والبحث العلمي. نال العديد من الجوائز المميزة، بسبب اكتشافاته ومؤلفاته العلمية. نشر ما يزيد على 500 بحث وكتاب ودراسة واستعراض وفصل كتاب وبراءة اختراع، واكثر من 100 دراسة ومقالة وكتيب حول التربية والتعليم العالي.

الثقافة الجديدة: تسود قطاعات التعليم بمستوياتها المختلفة، وخصوصا قطاع التعليم العالي في العراق، ظاهرة لا تقل خطورتها عن ظاهرة الأميّة المستفحلة بين شرائح سكانية وعمرية متنوعة. يطلق بعض الكتاب عليها مصطلح "الأمية المقنعة".

يمكننا أن نعرّف هذه الظاهرة، قياسا بمفهوم "البطالة المقنعة" في الاقتصاد، على أنها توصيف لتلك المجاميع التي تخرجت من مؤسسات تعليمية معترف بها، لكنها لم تتحصل على المؤهلات العلمية والاكاديمية والبحثية الفعلية التي من المفترض ان تمنحهم إياها هذه المؤسسات. ونتيجة لذلك ليس لهذه المجاميع الامكانيات المعرفية والمنطقية على التفكير العلمي، او على استخدام ما يفترض انها امتلكته من مؤهلات، في استنباط او تطوير اية معارف جديدة.

طبعا، في هذا السياق يمكن الحديث عن عدة مستويات من الامية المقنعة. فهناك الامية الاكاديمية العلمية، والامية المنهجية الفكرية، والامية التقنية، والامية الثقافية بمعناها العام، وغيرها. كما ان هذا الشكل من الامية سيحيلنا بالضرورة الى اولئك العاملين في مجالات مختلفة خصوصا في مؤسسات الدولة، ممن بقوا اسرى لمعارفهم ومعلوماتهم وخبراتهم القديمة، من دون ان يقدموا على تطويرها.

كما ان مصطلح او - ان جاز لنا القول- مفهوم (الامية المقنعة) سيحيلنا ايضا، الى تلك المجاميع من جيش العاطلين المحسوبة عرفا و"رسميا" على الفئات المؤهلة "اكاديميا" دون ان تحمل من هذه المؤهلات سوى وثائق تخرجها، سواء كانوا خريجي معاهد ام كليات ام حتى من الحاصلين على شهادات عليا. طبعا، لا يمكن عدّ هذه المجاميع باي حال من الاحوال على انها ثروات وذخائر معرفية احتياطية. فأعداد المتعلمين المطلقة لا تعكس واقعا علميا او اكاديميا ولا حتى ثقافيا بالمعنى الحقيقي.

- ما هي رؤيتكم لهذه الظاهرة بتجلياتها المختلفة؟ وهل من الجائز أن نطلق عليها بالقياس مصطلح (الأميّة المقنعة)؟ وبالتالي هل يمكن أن يتبلور الأخير كمفهوم مفتاحي يمكن ان يستخدم في التحليل؟

نتطلع لأن تستعرضوا لنا رؤيتكم عن السبل والآليات الكفيلة بالشروع في مكافحة هذه الظاهرة وما يماثلها؟

د. محمد الربيعي: في البدء أتقدم لكم ولـ(الثقافة الجديدة) بالشكر على استضافتكم لنا للحديث حول التربية والتعليم. وبهذه المناسبة لا بد من الإشارة الى الجهد الكبير الذي يبذله أعضاء هيئة التحرير، وما يقدمونه من عطاء متميز ورعاية للفكر العلمي والثقافة التقدمية.

ذكّرني استعراضك لما اسميته بظاهرة الامية المقنعة بقول الفيلسوف ألفريد نورث وايتهيد: "ليس الجهل، لكن الجهل بالجهل هو موت المعرفة".

هذا النوع من الأميّة يهددنا جميعا. إنها ليست الأمية التقليدية بمفهومها المتعارف عليه، حيث لا يستطيع الشخص القراءة والكتابة. اننا نعيش اليوم تحت تأثير خطير من هذا الشكل الجديد من الأمية. وفقا للمفهوم المتعارف عليه: "يُعامل

الشخص البالغ من العمر سبعة أعوام فما فوق، والقادر على القراءة والكتابة بفهم بأي لغة، على أنه متعلم"، الا اننا نشهد الآن شكلاً من أشكال الأمية يتسلل إلى أولئك المتعلمين. اليوم، تحت تأثير العولمة "العالم قرية صغيرة" والتقنيات الرقمية والثقافة البصرية السائدة، يبدو أننا نقرأ (ونرى) بفهم أقل؟ هذا الشكل الجديد من الأمية له علاقة بنواقص معينة في الفهم. القراءة أكثر من مجرد رؤية الكلمات أو حفظها. انها امر يتعلق بفهم الكلمات، حول اكتشاف وبناء المعنى حيث انه لا يتم جمع معنى الكلمات التي نقرأها من القواميس وحدها. اننا نحتاج الى الفهم لإدارة مهام الحياة اليومية التي تتطلب مهارات قراءة تتجاوز المستوى الأساسي، بحيث تمكننا من المشاركة في جميع الأنشطة التي تتطلب معرفة القراءة والكتابة من أجل الأداء الفعال للمجتمع، وأيضاً لتمكيننا من الاستمرار في استخدام القراءة والكتابة من أجل تطويرنا الشخصي وتطوير مجتمعنا.

ربما تكون الامية المقنعة أخطر أنواع الأمية وأكثرها تدميرا. لقد ذكرت في مستهل سؤالك مصطلحات كالأمية الاكاديمية العلمية والامية المنهجية الفكرية والامية التقنية والأمية الثقافية، وهي التي لا نمتلك فهما وإدراكا جيدين للمشاكل المرتبطة بهذه الأنواع من الأمية. فإذا ما لاحظت أفرادا أميين غير متعلمين وأميين وظيفيا، فأنت على دراية بالإحباط وخيبة الأمل الناجمة عن افتقارهم إلى معرفة القراءة والكتابة. هؤلاء الأفراد يدركون مشكلتهم وكثيرا ما يعزون فشلهم الى هذه المشكلة، وهذا ما يعرف ويعترف المجتمع به. ومع ذلك، هناك نوع آخر من الأميين وهم الافراد الذين يمكن أن يكونوا خطيرين ومدمرين بسبب نوع الأمية لديهم، وهي ما اسميتها بالامية المقنعة. وانا احب تسميتها بـ"الامية المختبئة" ومن يتصف بها أسميه بالامي المختبئ. التسمية ليست بالمهمة، وما يهم هو ان الأميين المقنعين يجهلون أميتهم. أميتهم مخفية عن أنفسهم. ولأنه لم يتم التعرف إليهم مطلقا فهم مخفيون عن الآخرين أيضا. الأميون المقنعون يجهلون جهلهم. لا يعرفون أنهم لا يعرفون. إنهم لا يفهمون تماما المعلومات والأفكار التي يتم تلقيها أو دراستها أو تطبيقها، ولا يدركون أنهم لا يفهمون. تقوم أفعالهم ومشاعرهم ومعتقداتهم على افتراضاتهم وأفكارهم ومفاهيمهم الخاطئة غير المعروفة. يمكن أن تتراوح مشاكل ونتائج كونك أميّا خفيا من الهزل إلى الكارثة.

من هو الأمّي المقنع؟ هناك مثالان عن الامي المقنع: الأول، هو الفرد الذي يعاني من اضطراب في منهجية التفكير من ناحية، وقصور الفكر الجدلي من ناحية ثانية، ما يجعله غير قادر على الفهم، بنوع من العجز، يدفعه أحيانا الى اطلاق الاحكام المسبقة والآراء المتسرعة والادعاء بالقدرة على حل المشاكل من دون أن يجشم نفسه عناء الجهد الفكري، لتحليل الواقع وفهمه. والمثال الثاني، يكمن في الجهل الوظيفي كموظف المكتب الذي لا يعرف الأنظمة واللوائح التي تحدد وظيفته، ولا يعرف واجباته، او الطبيب الذي يصف لك عددا من الوصفات، التي لا علاقة لأي منها

بمرضك، او الميكانيكي الذي "أصلح" سيارتك ثلاث مرات لنفس المشكلة.

تظهر المشاكل التي تسببها الأمّية المقنعة في القوانين التي لم تدرس مضامينها، او المنتجات التي لم تكتمل صناعتها، او الوظائف سيئة الأداء، أو "الثقافة" الضارة. نحن بحاجة إلى مواجهة الحقيقة الصارخة المتمثلة في أن المشكلات التي غالبا ما توصف بأنها مشكلات "الإنتاج" أو "الجودة" أو حتى مشكلات "القهر والتسلط" قد تكون في الواقع مشكلات تعليمية. علامة التعليم الحقيقي هي القدرة على تكوين افراد متعلمين ومثقفين وإنتاج منتجات عالية الجودة بكميات كبيرة. الأمية المقنعة تمنع الإنتاج الجيد مهما كان مجال العمل، وهي كنتيجة لفقدان التعليم الحقيقي الذي يمكنها من ان تؤدي الى حظر تدفق الأفكار في أي مجال تعليمي بطريقة تؤدي بدورها إلى قمع المزيد من الفهم، والى تكوين افراد يمكن وصفهم بأنهم أمّيون مقنّعون.

لربما من الصعوبة تصور وجود أساليب فاعلة لمكافحة هذه الظاهرة، في ظل الانتشار السريع لوسائل الاتصال والحسابات الشخصية وصفحات التواصل التي حولت المثقف والمتعلم الى ممارسين لهواياتهم عبر الرسائل الفيسبوكية والتغريد وانغمارهم في حوارات وهمية وقضايا عامة. بالإضافة الى انتشار الفساد الإداري والمالي والذي يؤدي الى استغلال الموظف لموقعه وصلاحياته، للحصول على مكاسب ومنافع غير مشروعة، وبدون الحاجة الى بذل جهود إضافية للتعلم واكتساب المعرفة والخبرة. مع ذلك، يكمن أسلوب طويل المدى لايقاف انتشار الظاهرة، في التعليم المستمر مدى الحياة، الذي يهدف الى الحصول على خبرات تعليمية من دون ربطها بعمر محدد او فترة زمنية معينة او مرحلة دراسية، ويزيد من الثقة الشخصية عند الفرد ويشجع على تعزيز دور المشاركة الاجتماعية عنده. بالإضافة الى بناء الشخصية المتكاملة، وتفعيل الفعل الثقافي الجاد والمستنير، وتشجيع التفكير النقدي في المدارس والجامعات، والذي يساعد في تعزيز قدرة الدماغ على التحليل المنطقي، من خلال دعم مهارات الافراد الشخصية المرتبطة بالفهم.

الثقافة الجديدة: يقودنا السؤال السابق الى موضوعة شائكة بطبيعتها. يرتبط بها كما أشرت في احدى مقالاتك "فشل نظام التربية والتعليم". الموضوعة هي سيادة نمط التدريس الذي يعتمد بشكل يكاد يكون حصريا على نظام الملخصات والمحاضرات والملزمات. نمط التدريس هذا ربما يمتد في كافة مستويات التعليم العالي في العراق، مع غياب يكاد يكون شاملا للمنهج العلمي الذي ينطلق من أولوية البحث، سواء كان نظريا ام ميدانيا.

وبالتالي، بدلا من اعتماد منهجيات حل المشكلات المستندة الى التفكير النقدي الحر، تفشى منهج حفظ وتلقين تقليدي، لا يعتمد حتى على الكتاب العلمي، انما على محاضرات وملخصات اغلبها قديمة وعامة، ولا تواكب التطور. قسم غير قليل منها مكتوب من قبل اساتذة آخرين،

بعضهم متقاعدون بل وربما حتى متوفين. وبعضها الآخر كُتب بقلم طالب مجتهد، سريع الكتابة. بل إن الكثير منها معتمدة في اكثر من جامعة وكلية بعيدة عن تلك التي كتبت أو أعدّت فيها.

إن اشكالية مضامين مناهج التعليم في العراق كبيرة. فهي بحاجة ماسة إلى مراجعة نقدية شاملة، سواء لأسسها وتوجهاتها التربوية والفكرية، ام للأساليب والطرق المنهجية التي بنيت عليها شكلا ومضمونا. وهذا يتطلب إصلاحا جذريا للجامعة وللتعليم الجامعي عامة، من اجل مواكبة التحولات والمستجدات في المحيط العام، وكي تكون العلاقة به تكاملية وتبادلية.

- قراؤنا ينتظرون من حضرتكم أن تعمق لهم وجهات نظرك التي أعلنتها سابقا، حول مثل هذه الظواهر. وأن يتم تسليط الضوء على أسبابها وسلبياتها وما هي الآليات الملموسة للتخلص منها.

أ. د. محمد الربيعي: التعلم عن ظهر قلب مثل السرطان. إنه يقضي على مستقبل ملايين من التلاميذ، يذهبون إلى المدارس حاليا في العراق. الإحصائيات تشير الى عدم وصول 47 في المئة من تلاميذ المرحلة الابتدائية إلى المرحلة الثانوية، وإلى أن نسبة الذين نجحوا بالوصول إلى الجامعة هي 23 في المئة فقط من طلبة الثانوي. أبرز الصدمات جاءت بعد نشر دراسة لمؤسسة بحثية تضمنت الكشف، بخصوص الموسم الدراسي 2017/ 2018، عن رسوب ما يقارب مليون تلميذ وتلميذة في المرحلة الابتدائية. نسبة كبيرة من التلاميذ الذين تتراوح أعمارهم بين 14 و18 عاما لا يمكنهم كتابة رسالة قصيرة باللغة العربية او الانكليزية. ونسبة عالية منهم لا يعرف شيئا عن أي عالم أو مفكر أو أديب عالمي. حتى كثير من الطلبة في الجامعات ليسوا أفضل حالا. وبالتأكيد يعد العراق من الدول المتأخرة في المعايير الدولية لفهم مفاهيم الرياضيات والعلوم الهامة.

يتعلم معظم الطلبة العراقيين بالتلقين، طوال الطريق من المدرسة حتى الكلية. لذا فهم غير قادرين على التعامل مع مهارات التفكير التي تتطلبها أماكن العمل الحديثة. بالرغم من عدم وجود دراسات حول نسبة المهندسين العراقيين الخريجين القابلين للتوظيف لكن الملاحظات التي جمعتها تبين أن المهندسين لا يمتلكون المهارات التحليلية اللازمة لوظائف هندسة البرمجيات في الشركات الدولية على سبيل المثال.

لكن لماذا يستمر التعلم بالتلقين؟ إن عادة تلقين الأطفال بما هو موجود في الكتب المدرسية حتى يتمكنوا من الحفظ والنجاح في الامتحانات أمر مترسخ في تعليمنا. التلقين، وهو نقل من جانب واحد للمعلومات من المعلم إلى الطالب، هو كيفية عمل كل السنوات الدراسية في العراق. إنه أيضا المعيار السائد لمعظم وسائل التواصل بين البالغين والأطفال في مجتمعنا. يستمر البالغون في توجيه المعلومات للأطفال وتكرارها. وبالتالي، يمتص الأطفال المعلومات دون فهم وتحليل ونقد. إنه يعيق قدرتهم على التعلم بمفردهم.

تركز مناهجنا على الحفظ وترديد

الحقائق والصيغ والتعريفات من الكتب المدرسية. ولا تستخدم المدارس العراقية موادَ تعليمية غير الكتاب المدرسي. بينما يكافئ نظام الامتحان النقل الحرفي لمحتوى الكتاب المدرسي، بدلاً من التفكير المستقل، وتركز أسئلة قليلة فقط على التفكير التحليلي. لا عجب ان يتم "تعليم الطلبة من اجل تحضيرهم للامتحان" بأسلوب التعرف إلى أنماط الأسئلة وحل المسائل.

قلة قد لا توافق على أن ربط جداول الضرب في الذاكرة، يمكن أن يسرّع من حل المسائل الرياضية. يمكن لمعظم الأطفال في العراق أن يرددوا عبارة "ثلاثة توائم هي ستة". لكن قلة منهم يفهمون أن هذا هو نفس الشيء الذي يعني إضافة اثنين ثلاثَ مرات إلى نفسه. لذلك، حتى المسائل الكلامية البسيطة التي تنطوي على الضرب، تُربكهم.

إنّ تجاهل كون التعليم الزائف (وليس التعليم بحد ذاته) كأسلوب ومنهج مميز، له فلسفته وأهدافه وطرقه "التربوية"، أوقع التربويين، ومن ورائهم السياسيين في مأزق، أدى الى هدر الكثير من الجهد والأموال. اعتمد التعليم الزائف على صفة مهمة، وهي حشو الأدمغة بالتلقين، والتي تصبح أكثر ملاءمة وأهمية من عمليات إنشاء المعلومات الجديدة. ويصبح التحدي الرئيس هو مقاومة، ونبذ المعرفة الوافدة التي تعزز المعرفة الحقيقية، واستخدام العقلانية التجريبية، في مقابل الحفظ واجترار المعلومات وتقبل الخرافة والتقاليد البالية من دون اشغال العقل في التمييز بين الغث والسمين، وبين الحقيقة والخرافة.

التلقين جريمة ارتكبت من قبل الأنظمة التعليمية بحق تلاميذنا، وذلك بالتركيز على حشو المعلومات، ومن دون الاهتمام بتنمية المهارات الحقيقية التي تعينهم في الحياة. وكما يذكر حمزة الخوالدة الخبير الأردني في تطوير التعليم بأنها "جريمة حقيقية بكل معنى الكلمة، فإذا كانت إراقة الدماء تقتل الإنسان فجريمة التعليم قتلت الحاضر والمستقبل وأجمل ما في الإنسان. ما الذي نفعله بأبنائنا في مدارسنا وبيوتنا؟ نحن نقمع شغفهم ونقتل روح السؤال عندهم. نكافئهم على إجابة السؤال وليس على قدرتهم على طرح سؤال جيد، بل قد نعاقب أحيانا على كثرة السؤال. ولأجل ذلك أصبح عندنا أزمة وانعدام في الإبداع، بالرغم من أن القدرة على طرح الأسئلة الذكية المبدعة معيار أصدق وأهم بكثير من القدرة على حفظ الأجوبة الصحيحة الجاهزة".

باعتقادي انه لن يتغير هوس التعليم بالتلقين، إلا إذا كانت لدينا قيادة تربوية ومعرفية أقوى في نظامنا التعليمي ومدارسنا. يجب على قادة التعليم – من المسؤولين والمفتشين والمديرين - تحويل تركيزهم من إدارة التعليم إلى "التعليم الرائد". يجب على القادة التأكد من أن جميع المدارس تسهل فهما أعمق للمحتوى، بحيث يتم تجهيز كل تلميذ في كل فصل دراسي بالقدرة على اكتساب المعلومات وتطبيقها عند الضرورة.

"طاح حظك" هذا هو صوت معلم حسين، وهو يوبخه عندما فشل حسين في كتابة الجملة في تعريف كما هو مذكور في

الكتاب المدرسي. حذره المعلم من أنه إذا ارتكب هذه الأنواع من الأخطاء السخيفة، فمن المؤكد بأنه سيرسب في الامتحان! قضى حسين معظم العام الماضي في التحضير لامتحانه، حيث كان يحضر دروسا سبعة أيام في الأسبوع، وحيث كان يتلقى أسئلة الامتحان السابقة، ويحاول حفظ إجابات كل منها. كان الجميع يعلم أن الذين حفظوا أكثر حصلوا على أعلى الدرجات. غالبا ما وجد نفسه في منتصف الليل مستخدماً تقنيات "علم الاستذكار للتعلم عن ظهر قلب"، ولتذكر الكلمات الرئيسية التي كان عليه استخدامها في كل تعريف. ألم يكن من المفترض أن تكون المدرسة حول التعلم والفهم؟ وبدلاً من التركيز على تحليل النصوص، أو وصف الظواهر العلمية، بدا أن مستقبل حسين بأكمله يتوقف على ما إذا كان بإمكانه حفظ التعاريف.

قد يعود التركيز على التعلم بالحفظ عن ظهر قلب إلى الممارسة التقليدية لحفظ النصوص الدينية. او لربما يعود ذلك الى أساليب التعليم الاوربية القديمة. في كلتا الحالتين، كان التعلم عن ظهر قلب هو العنصر الأساسي في نظام التعليم العراقي لسنوات عديدة. في حين أن العديد من العراقيين حققوا النجاح على الرغم من هذا النظام، فإن القدرة على تذكر المعلومات ببساطة ليست كافية في عالم اليوم عندما تكون هذه المعلومات متاحة على الفور لأي شخص لديه هاتف محمول. ولو أجرينا دراسة استقصائية على مخرجات التعليم الاعدادي والجامعي، لتأكدنا أن نسبة قليلة فقط منهم متعلمون بما يكفي، ليشغلوا مناصب وظيفية ملائمة في الشركات العالمية، ويرجع ذلك - إلى حد كبير - إلى أن معظم الخريجين لا يستطيعون تطبيق معارفهم لحل مشاكل العالم الحقيقي.

ودواء هذه المشكلة يكمن في الإعداد والتنشئة والتربية، وفي ضرورة التخلص من التلقين والحفظ، والذي لعب دورا أساسيا في بناء المناهج منذ تأسيس المدرسة الحديثة، فأصبحت العملية التعليمية، سواء في المدرسة ام الجامعة عبارة عن تلقين المعلومات تلقينا اعمى غير واع، وقيام الامتحانات على تذكر المعلومات واجترارها وابداله بأساليب التعليم الحديثة المبنية على التفكير النقدي، بديلا للكسل العقلي الذي يسببه التلقين.

يقوم معظم المعلمين والتدريسيين بتخطيط محدود أو بدون تخطيط قبل بدء الدراسة. هذا يعني أن المعلمين والمدرسين يميلون إلى نقل المعلومات بأسهل طريقة ممكنة - الكتابة على السبورة أو القراءة من كتاب، بينما يقوم الطلاب بنسخها في كتبهم. ما يجب على المسؤولين عمله هو إنشاء أنظمة تدعم المعلم ليس فقط لتخطيط المعلومات التي سيقدمونها للطلاب، ولكن أيضا لكيفية تفاعل الطلاب مع هذا المحتوى. تدفع عملية التفكير في هذا الأمر مسبقا المعلمين إلى دمج ممارسات تتجاوز أسلوب التدريس بالتلقين. ومع ذلك، يجب أيضا أن يكون هناك تركيز على أنواع الأسئلة التي يتم طرحها على طلابنا، سواء في الامتحانات النهائية أو الفصلية أو حتى عندما يطرح المعلم سؤالاً على صفه. يجب تصميم الامتحانات لتزويد

الطلاب بفرصة إظهار قدرتهم على تحليل المحتوى وتوليفه، وتطبيق ما تعلموه على مشاكل العالم الحقيقي.

عند تقييم نجاح المدارس، يجب على المسؤولين ألا يسألوا فقط: "ما الذي تم تقديمه للطلبة؟" أو "ماذا تم تعليم الطلبة؟" ولكن أيضا "ما الذي تعلمه الطلبة؟" يجب على قادة المدرسة تنظيم الوقت في يومهم لملاحظة الصفوف لإثبات تعلم الطلاب. يجب أن يكون لدى المفتشين أنفسهم الوضوح فيما يجب البحث عنه، حتى لا يقبلوا بالتحقق من تعريف كلمة بكلمة لمفهوم علمي، ولكن بدلاً من ذلك يلاحظون ما إذا كان الطالب قد حقق القدرة على استخدام هذا المفهوم.

هناك العديد من الطرق التي يمكن بها تكييف المناهج والمقررات الجامعية مع متطلبات مختلف الظروف التعليمية. على سبيل المثال يقدم للطالب مقالة او كتاب او فصل في كتاب او فيديو، ويطلب منه ان يحللها نقديا. كما يمكن للطالب تعلم الوصول إلى استنتاج خاص من خلال إعداد موقفه الشخصي على قضية مثيرة للجدل في احد مواضيع المقرر. وينبغي أن تكون ورقة تحليل الطالب جزءا رئيسيا من العمل في المقرر. والطريقة الاخرى لتشجيع التفكير النقدي هي السيمنارات النقدية. هذه السيمنارات قد تكون حول أفكار او نتائج من مقالة مختارة من مجلة علمية (والتي يجب على الطالب الدفاع عنها أو مهاجمتها). ملاحظة أخرى مهمة وهي انه عند تصميم مواضيع التعلم لتعزيز التفكير النقدي، ينبغي للتدريسي أن يسعى إلى الطرق التي تمكّن الطلاب من ممارسة التفكير النقدي بدلا من مجرد مراقبة ذلك.

الثقافة الجديدة: لا يرتبط قطاع التعليم برغبات الفرد في التعلم فقط، ولا بحبه للعلم والمعرفة او تعلقه بوظيفة او مهنة ما، وانما هو محكوم اساسا بجملة من الاعتبارات يقع على رأسها حاجات المجتمع ومتطلبات سوق العمل.

ارتباطا بهذا يتجلى ساطعا في العراق سوء التخطيط، المتمثل من جهة بالكم الكبير للقبولات في بعض الفروع والتخصصات، والتي تفوق الحاجة الفعلية. على سبيل المثال لا الحصر: هل يحتاج العراق الى هذه الاعداد الكبيرة من خريجي اقسام الفلك او الفلسفة؟ او من طلبة الدراسات العليا. ومن جهة اخرى يتمثل سوء التخطيط بأعداد الجامعات والكليات الحكومية والاهلية، وطبيعة انتشارها المناطقية.

كان قانون وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ساري المفعول، قد اشار الى ان مهمة الوزارة هي"التخطيط والمتابعة للتعليم العالي والبحث العلمي وتنسيق واقرار الخطط بعد وضعها من الجامعات وهيئة المعاهد الفنية وتوحيدها في خطة واحدة على مستوى الدولة والاشراف على حسن تنفيذها..". والسؤال هنا هو: اذا كانت الوزارة المعنية غير قادرة على القيام بمهمتها الرئيسية وهي التخطيط ... ألا يثير ذلك تساؤلات عن مدى جدوى وجود وزارة للتعليم العالي في العراق؟ وهل البديل هو استقلالية مطلقة للجامعات والمؤسسات الاكاديمية الراقية في رسم

سياساتها ووضع خططها ومتابعتها، أم ثمة بدائل اخرى؟

هل يمكنكم التعليق على هذا التساؤلات عبر اضاءة جوانبها المختلفة.

أ.د. محمد الربيعي: انت تثير هنا مسألتين، قد لا يكون الترابط وثيقا بينهما، وهما تلبية احتياجات السوق من قبل الجامعات والاستقلالية المطلقة لها، أي استقلاليتها الإدارية والمالية والأكاديمية، والسبب أن الجامعات المستقلة قد تسعى الى زيادة أعداد الطلبة رغبة منها في التوسع استجابة لدوافع أخرى بغير تلبية احتياجات المجتمع والسوق، بالضبط كما كان سعي الوزارة المسؤولة عن إدارتها. لذا سأتناول كل منها على حدة.

تتحمل الجامعة جزءا كبيرا من مشكلة توفير القوى العاملة، فهي المؤسسة الرئيسية المسؤولة عن تنمية الموارد البشرية وتدريبها، وهي أيضا المسؤولة عن تخريج أعداد هائلة من العاطلين، حيث بلغت نسبة البطالة عام 2020 بين الشباب المتعلم في العراق، من ذوي المؤهلات العليا 40 %. وحسب الاحصائيات فان أكثر من 50 ألف شخص تخرج في عام 2019 من الجامعات والمعاهد في العراق، وتم تعيين نحو الفين فقط من هذا العدد. ما يثير القلق هو الأعداد الهائلة من الخريجين غير المؤهلين تأهيلاً كاملا أو صحيحا، ولا تتناسب مؤهلات معظمهم مع الحاجيات المتقلبة لسوق العمل. هذا بالإضافة إلى ما تعكسه الاحصائيات بأن نسبة البطالة ترتفع مع ارتفاع مستوى الشهادة الجامعية، حيث تشير إحصائيات وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، إلى أنه في العام 2019 وحده، سجّلَ سبعة آلاف من حملة شهادات الماجستير والدكتوراه أسماءهم ضمن قوائم المعوزين لدى الوزارة.

مع الأسف لم تهتم الجامعات لهذه المشكلة، فظلت أسيرة اهتمامات لا تتعلق كثيرا باحتياجات سوق العمل، منها احتواء الاعداد الكبيرة من مخرجات التعليم الثانوي، ولم ينصب اهتمامها في أن تصبح مؤسسات لتكوين كوادر تلائم عصر اقتصاد المعرفة المدعوم بتكنولوجيا المعلومات وتمتلك مهارات وظيفية وفنية وإنتاجية وإشرافية وإحترافية. بقيت الجامعات تلبي رغبات البرلمانيين وقادة الدولة ومسؤولي الوزارة في التوسع افقيا عن طريق فتح كليات واقسام جديدة وقبول اعداد من الطلبة يفوق قدراتها الاستيعابية وامكانياتها التدريسية وبناها التحتية. وما زاد الطين بلة هو الإصرار على الالتزام بالسياسات القديمة بشأن الاختصاصات التقليدية المتوفرة بكثرة، والتي لا يرغب فيها سوق عمل اليوم. لا ندعو الى إلغاء الاختصاصات الأساسية، ولكن ألا يمكن للجامعة الإبقاء على كثير من هذه الفروع، لكن بعدد محدود جدا من الطلبة مع توفير المرونة في التعلم والتكيف مع طبيعة الوظيفة؟ مع الأسف وبسبب العدد الهائل من التدريسيين في المواضيع التي لا يحتاجها سوق العمل وندرة اعداد التدريسيين في الاختصاصات التي تحتاجها بيئة العمل أصبحت الجامعات مثل المصانع القديمة، تنتج بضائع لا يحتاجها السوق ولا يرغب فيها المستهلك. الجامعة لم تعد تلعب دورا

مهما من خلال توفير الكوادر البشرية المؤهلة بدرجة عالية لإشغال الوظائف التي تتطلب مهارات كثيرة وبنوعية عالية، ولربما هي معذورة بسبب عدم وجود هذه الوظائف حاليا كنتيجة لخمود جذوة الاقتصاد وانعدام التنمية. كما ان دور الجامعات في تطوير اقتصاديات العراق اصبح يشكل تحديا خطيرا لها، ومهمة شبه مستحيلة، بسبب ان تمويل قطاع التعليم العالي لا يحظى بأولوية عالية في سياسة الحكومة العراقية خصوصا في ظل الاوضاع الحالية من انعدام الاستقرار وتفشي الفساد. وهذا الوضع يكبل من دور الجامعات ويعيق حركتها، وهو تحدي يرتبط بواقع المجتمع العراقي الذي يحمل اثقالا كبيرة تحول من دخوله الى عالم مجتمع المعرفة، وبالتالي تحويلها الى قوة اقتصادية واجتماعية ترقى بالبلاد الى مصاف الدول المتطورة.

ويلعب سوء التخطيط او عشوائيته او انعدامه دورا في هذا التخبط الكارثي، وفي صعوبة التعامل مع الواقع والمشكلات والمتغيرات والتحديات لتحقيق الأهداف المستقبلية. لذا يجب ان يتناول التخطيط قضايا تتعلق بأهمية سوق العمل من خلال الاجابة على أسئلة من قبيل ما هي وجهات النظر السياسية حول ملاءمة سوق العمل لبرامج التعليم العالي من قبل الحكومة ومؤسسات التعليم العالي وأصحاب العمل؟ وكيف يتم إدراك التوازن بين العرض والطلب، وما هي التدابير المتخذة في حالة عدم التطابق؟ ما الذي يُنظر إليه على أنه مؤشرات توظيف مناسبة، وإذا وُجدت على أساس أي بيانات، وكيف يتم تحديدها ومراقبتها؟ قد تنطبق قابلية توظيف الخريجين على نوعية الاختلافات بين المؤسسات التعليمية ان وجدت، وكذلك البرامج الاكاديمية المختلفة أو البرامج ذات الصلة المحددة بسوق العمل، وكيفية تقوية جودتها واغلاق البرامج ذات الأداء الضعيف، وهذه الخطوة ضرورية، فكثير من البرامج يتحتم اغلاقها في كثير من الجامعات الا اننا لم نشهد يوما اغلاق أي برنامج في الجامعات العراقية مهما كان ضعيفا ومهما كانت عدم ملائمته لسوق العمل. ويتم تشخيص دور الحكومة لتحقيق ارتباط أكثر تحديدا بين التعليم العالي وسوق العمل، فإذا كان الأمر كذلك، فما هي الأدوات التي تستخدمها الحكومة لتوجيه العرض والطلب نحو عدد الخريجين ونوعية البرامج؟ بمعنى تحديد اعداد الطلاب في كل جامعة، ولكل مجال دراسة من خلال اعتبارات سوق العمل، وإدخال برامج جديدة او اغلاق البرامج القائمة، بناءً على معايير مستمدة من سوق العمل، وتطوير المناهج وإصلاحها. كما يجب معرفة دور أرباب العمل في زيادة سوق العمل وأهمية البرامج لهم، وهل لهم أي تمثيل في مجالس الجامعات والكليات.

ومن هنا يتوجب علينا تحديد التوجه الصحيح الذي يتطلب إخضاع الجامعة لمتطلبات سوق العمل وذلك بالتحكم في نوعية الاختصاصات والمناهج وعدد الطلبة في كل اختصاص والتنظيم والإدارة الجامعية في ضوء هذا المبدأ. وهذا يتطلب إجراءات وتغييرات عميقة في هيكلية

الجامعة، كما يتطلب أيضا دراسات شاملة عن سوق العمل الحاضر والمستقبلي بما فيه حصر أسواق العمل الحقيقية، ومعرفة متطلبات كل وظيفة، وكيفية توفير الكفاءة اللازمة. ومن هذه الإجراءات إعادة تنظيم الكليات والاقسام على اسس ادارية سليمة، وذلك بدمج الكليات والأقسام المتشابهة والغاء تلك الاقسام التي لا يتوفر لها سوق عمل، والفائضة عن الحاجة، وتقليل عدد الاداريين من عمداء ورؤساء اقسام مصحوبة بترشيد النفقات والاعتماد على الخبراء الاقتصاديين لرسم السياسات المالية.

ففي معظم الجامعات العالمية لا يزيد عدد الكليات على 5 - 10 كلية، بينما يصل العدد في الجامعات العراقية الى اكثر من 20 كلية، وهو ما يرهق ميزانية التعليم العالي من رواتب ومخصصات للعمداء ورؤساء الأقسام والموظفين لا ضرورة لها. من الشائع في الجامعات العالمية انه كلما قلّ عدد الكليات كلما تحسنت ادارة الجامعة، وارتفعت الكفاءة الاكاديمية وخفضت التكاليف. وفيها ايضا تنعدم الازدواجية في البرامج والشهادات ويكثر التعاون المشترك في التدريس والبحث العلمي، وتتم الاستجابة بكفاءة لاحتياجات سوق العمل. يختلف هذا التنظيم الاداري عن ممارسات الجامعة في العراق حيث ترى كثرة الكليات والاقسام ذات الاختصاصات المتشابهة، فليس غريبا ان ترى في جامعة واحدة عدة اقسام متشابهة الاختصاص لها اجهزة ادارية متشابهة، وترى كليات لها نفس الاهداف والبرامج، بالاضافة الى مراكز بحثية تفتقر الى ادنى مستلزمات البحث العلمي.

لا بد من التأكيد على أهمية ان يقوم القسم بمهام إدارة اكثر من برنامج تخصصي. فمثلا اذا تم دمج اقسام الكيمياء والفيزياء والرياضيات وغيرها من اقسام العلوم الصرفة فلن تبقى أهمية لوجود عدد من الكليات، وستصبح الكليات المتناظرة عدا واحدة مجرد هياكل فارغة. الحل اذن يكمن في دمج الكليات المتشابهة، وبما يتناسب مع التوجه العالمي في اعتبار الأقسام كوحدة مالية واكاديمية واعتبار الكليات مجرد هيئات تنسيقية لذا فان كليات الطب وطب الاسنان والصيدلة والتمريض والعلوم الطبية الكلينيكية ستندمج في كلية واحدة، هي كلية العلوم الطبية وفيها اقسام او مدارس للطب والاختصاصات الأخرى. من هذا يمكن دمج كلية الآداب واللغات والعلوم الاسلامية والدراسات الاجتماعية والرياضية والفنون في كلية واحدة بحيث يمكن لعدة اقسام متشابهة كاللغة العربية، ان تصبح ضمن قسم واحد وكلية واحدة، وبحيث يمكن تقديم خدماته لكل الكليات والبرامج الأخرى داخل الجامعة. كما يمكن ان تدمج الأقسام الخدمية كالحوسبة وغيرها والموجودة في كليات الجامعة الواحدة.

أما استقلالية الجامعة فهي باعتقادي اهم الركائز لبناء الجامعة في العصر الحديث. وبالنسبة لي هي مفهوم محدود أعني به حرية الجامعات وعدم خضوعها الى السيطرة الخارجية في المسائل المتعلقة بالفعاليات الأكاديمية، وفي صياغة وتنفيذ

السياسات والبرامج الجامعية. ويفترض أن تدار الجامعة المستقلة من قبل ادارة معينة او منتخبة من قبلها بالكامل، وينبغي ألا يكون هناك املاء من خارج الجامعة إلى ما ينبغي أن تكون معاييرها الاكاديمية والعلمية، ما عدا تلك الشروط التي تضعها سلطات التمويل لترشيد ومراقبة صرف الاموال الممنوحة من قبلها.

لو تمعنا في معالم الاستقلالية او كما تسمى في الادبيات العالمية للحكم الذاتي بالجامعات لبدا لنا في حقيقته مشروعا واسعا، ويحمل طابعا متعدد الأبعاد. هناك قائمة واسعة الابعاد، ولكن معظم الكتاب يتفق إلى حد كبير على ثلاثة، هي الاستقلالية المؤسساتية، والاستقلال المالي، والاستقلال الأكاديمي. يشير الحكم الذاتي المؤسساتي إلى قدرة وسلطة مؤسسات التعليم العالي في تحديد أهدافها الخاصة، وتعيين مجلس إدارتها، واختيار وتوظيف التدريسيين والباحثين والموظفين. ويشير الاستقلال المالي إلى قدرة المؤسسات الجامعية على الحصول على التمويل، وتحديد الرسوم الدراسية، وامتلاك وإدارة المباني.

هل يمكن للجامعة العراقية أن تكون مستقلة تماما؟ إن فكرة الحكم الذاتي او الاستقلالية موجودة منذ العام 2003 عندما بدأت شخصيا بطرحها في أروقة الحكم والتعليم العالي، الا انها بقيت "محدودة" وغير مفهومة، وعلى الرغم من تناولي الموضوع في مجموعة واسعة من الكتابات والمحاضرات وغيرها من الأعمال ذات الصلة بموضوع الاستقلالية لم تصبح العديد من الأسئلة، المتعلقة بالتبرير النظري لاستقلالية مؤسسات التعليم العالي، موضوعا لدراسة متعمقة في الوزارة او في الجامعات العراقية حتى الآن. تحليل حالة مؤسسات التعليم العالي في العراق، ليس كاملاً، طالما أن أسئلة الاستقلالية المؤسساتية لا تزال تفهم بشكل سيّئ. لا توجد أبحاث تربوية أساسية للباحثين العراقيين الذين هم على دراية بمشاكل التعليم العالي من الداخل بالرغم من طلبي من الجامعات كجزء من مراجعتي لاداء وتقييم الجامعات، القيام بهذه البحوث.

ومع ذلك توجد تجربة مهمة نفذت في الجامعة التكنولوجية في عهد الوزير عبد الرزاق العيسى، حيث منحت استقلالية مقننة، شملت منح الجامعة لبعض الإجراءات الإدارية والأكاديمية، وبمفهوم تحقيق اللامركزية، لكن التجربة سرعان ما قبرت من قبل الوزير قصي السهيل. في حينها لعبت دورا مهما في تطبيق هذه التجربة، وفي وضع اطار مفاهيمي ونظري للاستقلالية. بنظري انه دون استحداث مؤسسات جديدة انطلاقا من الأسس العامة لأسلوب الحكم الذاتي المتمثل في استقلالية المؤسسات التعليمية، واعتبار كل جامعة حرما ذا حصانة تتمتع بشخصية اعتبارية، لن تكون الاستقلالية حقيقية.

اسمح لي ان استغل هذا اللقاء، لكي اعرض على قراء (الثقافة الجديدة) كوثيقة تاريخية مضامين مشروع الاستقلالية الذي عرضته على الوزارة والجامعة التكنولوجية في الوقت الذي كانت الاستقلالية تحت المناقشة من قبل الطرفين. تضمن مشروعي

لاستقلالية الجامعة التكنولوجية ما يأتي:

1 - تشكيل المجلس الاكاديمي للجامعة: يضم رئيس الجامعة ومساعديه وعمداء الكليات وعددا من الاساتذة المنتخبين، وممثلين عن الموظفين والطلبة. يقوم المجلس بانتخاب رئيس المجلس ورؤساء اللجان المختصة وصياغة السياسة الاكاديمية للجامعة، والمصادقة على السياسة العامة الادارية والمالية للجامعة، ومراقبة الاداء الاكاديمي والاداري، ومنح وحجب الثقة عن المناصب القيادية وإقرار التقرير السنوي والخطة الستراتيجية.

2 - تشكيل مجلس أمناء الجامعة: يتضمن عددا من التدريسيين بدرجة استاذ ورئيس الجامعة ومساعديه وبعض العمداء من درجة استاذ، وعددا من الشخصيات ووجهاء المجتمع والمدينة ومن ذوي الخبرة والاختصاص، ومن بعض علماء الداخل والخارج من غير اساتذة الجامعة. ومسؤولية المجلس هي متابعة والاشراف على اعمال رئاسة الجامعة ومعاونتها في التخطيط وصياغة المشاريع وحماية مصالح الجامعة، والاشراف على عملية اختيار قيادات الجامعة ومسؤولية اعادة هيكلية الجامعة.

3 - مجلس الجامعة: يضم رئيس الجامعة ومساعديه والعمداء وهو السلطة التنفيذية للجامعة، حيث يتم فيه اقرار خطط القبول وخطط البحث العلمي والموافقة على فتح او إلغاء الاقسام والكليات، ومنح المراتب العلمية بناء على توصيات لجنة الترقيات المركزية في الجامعة، ومنح الشهادات والمهمات الادارية الاخرى.

4 - المهمات المالية: الجامعة تكون مستقلة ماليا، وتحصل على المنح المالية من الدولة مباشرة، ومن جهات اخرى بصورة هبات وتبرعات ووقف واكتتاب، وتضع اسسا للتمويل كتحديد اجور دراسية للدراسة (النفقة الخاصة والعامة)، وايرادات مكاتب الخدمات العلمية والاستشارية، بالإضافة الى المنح المالية التي يفوز بها التدريسيون من جهات ومؤسسات اجنبية. ويتحكم مجلس القسم (رئيس القسم وأعضاء الهيئة التدريسية) بمالية القسم، ويشرف على مسائل الصرف، ويقوم بعملية الصرف مسؤول مالي، عضو في الهيئة التدريسية.

5 - يكون قبول الطلبة في الجامعة بصورة مستقلة عن الوزارة، وتحدد شروط القبول من قبل الجامعة، وعلى اساس حاجة السوق والمجتمع، وبما يضمن النوعية وشروط ضمان الجودة.

6 - تتمتع الجامعة باستقلالية في تعيين وطرد منتسبيها وبموافقة مجلس الامناء.

7 - توضع آلية لانتخاب وتعيين العمداء ورؤساء الاقسام على أساس الإعلان، ويشترط التعيين النجاح في مقابلة رسمية، وبتقديم اصولي، وبالشفافية في الاختيار.

8 - تخضع الجامعة واقسامها الى عملية مراجعة خارجية (دولية) كل سنتين.

9 - تحدد سياسة القسم العلمي من قبل مجلس القسم ورئاسته حسب القوانين والانظمة والتعليمات الجامعية. ويكون مسؤولا على تحديد سياسته في اقتراح المناهج او دمجها او الغائها وخطط التدريس وتسمية الممتحنين الخارجين وخطة التعاون الخارجي، واقرار المشاريع

العلمية والبحوث وضمان الجودة.

10 - خطة القبول للدراسات العليا، يحددها المجلس الاكاديمي للجامعة، ولا يزيد العدد عما هو موجود فعلا من اساتذة مشرفين وإمكانات مادية ومختبرية.

11 - تحديد رواتب اعضاء هيئة التدريس والغاء اي نوع من المخصصات للساعات الاضافية وللبحث العلمي والاشراف والامتحانات واعتبار هذه المسائل جزءا من وظائف التدريسي، يحددها القسم، بالإضافة الى وضع جدول لقياس العبء الاكاديمي للتدريسي (متضمنا ذلك الإداريين من رؤساء الأقسام والعمداء)، يتضمن ساعات التدريس والتحضير والاشراف والبحث وخدمة المجتمع والادارة.

12 - دعم مشاركة الباحث في المؤتمرات الدولية والتعاون الدولي بصورة مستقلة عن اجراءات الوزارة، وترسيخ مبدأ الحرية الاكاديمية ومشاركة الاستاذ في اعمال اخرى خارج نطاق الجامعة، على ان لا تزيد على 20 % من وقته الرسمي.

13 - انشاء صناديق للبحث العلمي تودع فيها مبالغ الدعم لكل استاذ على حدة، لكي يستطيع التصرف بها بصورة مستقلة، واستنادا الى تعليمات تحدد إطار واسلوب الصرف.

14 - وضع هدف على مدى طويل للتنفيذ بالزام كل استاذ بالجامعة بالعمل على البحث العلمي كجزء من نشاطاته.

15 - تقوم الجامعة باستقطاب الكفاءات والعلماء والخبراء الخارجيين وتحديد رواتبهم ومصروفاتهم بما يتلاءم مع مصلحة الجامعة ومواردها، وترسيخ مبدأ الاستفادة من الخبراء بتعيين ممتحن خارجي لكل قسم، ومستشارين عالميين للجامعة والاقسام العلمية.

16 - تقع مسؤولية تطبيق شروط ضمان الجودة بكاملها على عاتق الجامعة وأساتذتها.

17 - الاتفاق مع الجامعات الغربية على تنفيذ مشاريع مشتركة تتضمن برامج دراسية مشتركة (وشهادات مشتركة) والاشراف المشترك على الدراسات العليا، بحيث لا تمنح اية شهادة في الدراسات العلمية (الطبية والهندسية والزراعية والعلوم الصرفة) من دون اشراف مشترك وتعاون خارجي.

18 - اعتبار مبدأ التدخل الخارجي من الاحزاب او المرجعيات الدينية او السلطة المركزية أو من اي شخص او جماعة خارجية ولأي سبب كان اعتداءً على حرمة الجامعة وانتهاكا لمبدأ الحرية الاكاديمية ومسّا مرفوضا باستقلالية الجامعة.

19 - القرارات العلمية والاكاديمية والصرف المالي تعود الى مجلس القسم وعلى ووفق مبادئ رسالة واهداف الجامعة والقسم وتتم على أساس إقرارها بالأغلبية وتلتزم بها إدارة الجامعة.

20 - الدوام في الجامعة مفتوح ولا يتطلب اغلاق الجامعة في وقت معين مما يسمح لممارسة البحث العلمي وللنشاطات التدريسية والمختبرية والجامعية الأخرى طوال اليوم وخلال أيام العطل.

لقد اصبح مفهوم استقلالية مؤسسات التعليم العالي أكثر صعوبة بسبب البنية المعقدة لهذا المفهوم. وهذا السبب في عدم وجود الآن وجهة نظر مشتركة حول درجة

الاستقلالية ومعاييرها وأنواعها ومجالات تطبيقها ومتطلبات التنظيم.

وظهر انه من الضروري التعامل بمسؤولية مع الخبرة الأجنبية، لأنها تتميز ليس فقط بالبيئة الاجتماعية والاقتصادية المنفتحة على الفكر التربوي والإداري العالمي، لكن أيضا بالبيئة الفكرية والعقلية المستندة على الحريات الاكاديمية. ويمكن أن يؤدي الإدخال الاصطناعي لنماذج استقلالية مؤسسات التعليم العالي الاجنبية، إلى ارتداد وفشل كبير اذا لم تؤخذ بنظر الاعتبار العوامل البنيوية الموضوعية (الاكاديمية والاجتماعية والثقافية والتاريخية) التي تشكل بيئة الانتقال. بالرغم من وأد التجربة من قبل السلطة العليا المتمثلة في الوزير، الا انه لا تزال هناك احتياطيات كبيرة لتحسين نظام التعليم العالي والحد من سلطات الوزير، على وجه الخصوص، إضعاف الإدارة التوجيهية، وتفويض السلطات الإدارية على المستويات الجامعية الأدنى وإدخال استقلالية حقيقية لمؤسسات التعليم العالي.

الثقافة الجديدة: برزت في بلادنا بعد 2003 ظاهرة التنامي غير المراقب وغير الموجه لقطاع التعليم العالي الخاص، كأحد مظاهر الرهان على الخصخصة. وقد وجد هذا القطاع التعليمي خطابا تربويا ورسميا ساندا، مدعوما بمجموعة مبررات منها: تخفيف العبء عن التعليم الجامعي الرسمي، وفتح الفرص من جديد أمام الطلبة الذين لا تؤهلهم معدلاتهم للدخول الى الفروع المماثلة في الجامعات الرسمية... الخ.

يثار حول قطاع التعليم الاهلي هذا العدد من التساؤلات: سواء حول جودته أم الادوار التي يقوم بها؟ أسباب ومبررات الكلفة الباهظة لبعض أنماط هذا التعليم؟ كيف يتم تحديد برامجه ومناهجه؟ ما هي آليات المراقبة المعتمدة فيه؟ ما هي شروط وأوضاع البحث العلمي والأطر الباحثة فيه؟ ما هو المصير المهني لخريجيه؟ ما هي الحاجات الفعلية والمفترضة أو المطلوبة والمتوقعة لشعبه وتخصصاته؟ هل يستجيب لطلب تربوي واجتماعي حقيقي، أم لطلب افتراضي أو وهمي؟ وبالتالي ما هي حدود وإمكانات ومصاعب مساهمته في التنمية البشرية والاجتماعية وتكوين المواطن العراقي بشكل عام؟.. وغير ذلك الكثير...

- ما هي وجهة نظركم حول إشكاليات التعليم الأهلي في العراق؟

أ.د. محمد الربيعي: يتميز التعليم الأهلي في العالم بتفوقه على التعليم الرسمي، ولذلك يكون الطلب عليه كثيراً بالرغم من تكاليفه العالية. الطالب يبحث عن أحسن تعليم لأنه يمنح احسن الفرص لإشغال افضل الوظائف. التعليم الأهلي وبصورة عامة يوفر تدريبا افضل ومن قبل تدريسيين افضل تأهيلا، وفي بيئة اكاديمية اكثر ملاءمة للتعليم والتعلم، وتطوير المهارات ويظهر ذلك جليا في معدلات التحصيل الدراسي والنجاح والتسرب والفشل وما الى ذلك. الغريب إن ما يحدث في العراق هو عكس ما يمكن توقعه على الصعيد العالمي، حيث يتميز التعليم العالي الأهلي مع وجود بعض التباين والاستثناءات بكون

التدريس فيه ادنى جودة والتأثير السياسي والخارجي اعلى مما هو عليه في التعليم الحكومي، وقد يتصف بصفات أخرى تجعله اقل شأنا اكاديميا، وهذا ما يجعله محط النقد الدائم من قبل عامة الناس وكثير من التربويين، ومنها ما يتعلق بمعدلات القبول الواطئة، مقارنة بالكليات الحكومية، وبجهد الطالب المبذول للحصول على الشهادة، ومسؤولية التدريسي واهتماماته الاكاديمية، والاجور العالية ومستويات التأهيل ومنح الشهادات، والابنية والمرافق والبيئة الاكاديمية، وحجم الفساد والغش.

وما يزيد الطين بِلة أن معظم الكليات الاهلية العراقية هي من الكليات الهادفة للربح، وهذا النوع من الكليات عالميا له سمعة سيّئة للغاية. وبصراحة، الكثير منها يستحق ذلك حيث تحدث الغالبية العظمى من قضايا الفساد البارزة في مشهد التعليم العالي في القطاع الربحي. وتشير الأدلة إلى أن الدوافع والأولويات والتكتيكات الخاصة بالكليات الهادفة للربح غالبا ما تجعلها عرضة بشكل خاص لممارسات الإدارة الخادعة، وضعف الرقابة على الجودة، ومنح شهادات ضعيفة او لا معنى لها.

لكننا يجب ان نتحلى بأكبر قدر من الموضوعية، ولا نتمادى كما يفعل البعض في شجب كل الإجراءات الإدارية والأكاديمية المعمول بها في الكليات الاهلية، لذا نتساءل اذا كان خريج الكلية الحكومية هو افضل تأهيلا من طالب الكلية الاهلية فانه بنفس الكيل، يمكن القول بان خريج الصيدلة هو افضل تأهيلا من خريج الزراعة. هل هذا صحيح بالنسبة للتأهيل؟ وهل امتحان الثانوية العامة كاف وعادل لتحديد قابليات الطلبة؟ وهل نظام القبول في الجامعات ملائم وعادل؟ وهل يوجد فرق معنوي بين مستويات الطلبة الذكائية والعقلية وقابلياتهم الاكاديمية ضمن تحصيل بفرق 10 درجات او اكثر؟ وهل قابلية الحفظ واجترار المعلومات كافية لتحديد أسس القبول في الجامعات؟ اما بشأن جودة التعليم فنطرح أسئلة أخرى تحتاج الى إجابات شافية لغرض وضع أسس موضوعية للفروق بين جودة التعليم بين الكليات الاهلية ونظيراتها الحكومية ومنها: هل يتوجب على الطالب في الكليات الحكومية حضور ساعات تدريسية اكثر من اقرانه في الكليات الاهلية في الدراسة للحصول على نفس الشهادة؟ وهل هناك فروق جوهرية في قياس جهد الطالب والامتحانات بين النوعين من الكليات؟ وهل جهد التدريسي (واجب التدريسي) في الكليات الاهلية يختلف عنه في الكليات الحكومية؟ وهل يبذل التدريسي في الجامعات الحكومية جهدا اكبر في تدريس الطلبة الأضعف؟ وهل تؤثر ممارسة البحث في العراق على كفاءة التدريس؟

وعلينا أن نبحث اكثر لكي نحصل على إجابات شافية، لكي نحدد الصفات التي تجعل خريج الكليات الحكومية يتميز عن نظيره في الكليات الاهلية من ناحية التأهيل، وعما اذا كانت حقا شهادة الكلية الأهلية اقل جودة من شهادة الكلية الحكومية. وبالرغم من عدم وجود دراسات مقارنة وادلة دامغة نلاحظ اتفاقا شبه عام على أن التعليم العالي

في الكليات الاهلية بصورة عامة أسوأ من ناحية النوعية من اقرانه في عدد كبير من الكليات الحكومية. هذا بالإضافة الى وجود ادلة على هيمنة بعض المستثمرين على سلطة القرار الاكاديمي في كلياتهم وتدخلهم في كل صغيرة وكبيرة تخص شؤون التدريسيين، ويصل هذا التدخل الى حد اجبار التدريسيين على إنجاح الطلبة من غير المستحقين، وتدخلهم علنيا وسريا في تغيير درجات الطلبة، ومن منطلق "الطالب الذي يدفع الأجور افضل من التدريسي الذي يأخذ أجور".

إن هناك شوطا طويلا يجب ان يقطعه التعليم الأهلي، لكي يتحسن أداؤه ويطور وسائله ليتمكن من تأهيل الطلبة تأهيلا عاليا، وبما يتناسب مع توقعات سوق العمل والنظرة الشعبوية على حد سواء. ولان التعليم الأهلي وجد ليبقى ويتوسع، ولأن في تركه تنمو خطورة كبيرة من دون وجود نهج إصلاحي يعالج مشاكله، ويضع قيودا صارمة لمراقبة أدائه، والتي من شأنها لو تركت من دون تغيير ان تغرقه في مأزق الانتهازية والربح وتدهور قيمة الشهادات وفقدان أهميتها، لذا من الأمور التي يمكن اجراؤها، والتي نقترحها هي دمج الكليات الصغيرة والمتقاربة في الموقع والتخلص من صفة الربحية؛ فالمشكلة الرئيسية للتعليم الاهلي برأيي تقع في تمتع هذا النوع من التعليم بمميزات لا تليق به كالنفعية والربحية واغتنام الفرص خصوصا في مجتمع، تقلصت فيه ادوار الجامعة في بناء الانسان، ويمر بأزمة اخلاقية واسعة النطاق، وتفكك منظومة الوحدة الوطنية بمفاهيم الطائفية السياسية والعرقية، ويتسع فيه حجم الفساد الاداري والمالي لدرجة رهيبة. ولهذا فإن انقاذ التعليم الأهلي يكمن، في جانب كبير منه، في تخليصه من نفوذ الأحزاب السياسية، والتزام الإدارات بمعالجة جميع العوامل التي تؤثر على جودة التعليم بصورة مستقلة عن تأثير وتدخل المستثمرين.

الثقافة الجديدة: اشرتم في احدى مقالاتكم الى ان المؤسسات العلمية والجامعات العالمية وبالأخص الرصينة منها، تمتاز بالإضافة الى خصائصها ومستوياتها المتقدمة، وكذلك بمواردها البشرية الغنية وثقافتها العالية، بمهماتها واهدافها وبرامجها المحددة والواضحة. في مقابل ذلك نجد ان ابرز ما تتميز به الجامعات العراقية حاليا، وحتى العريقة منها هو كونها عديمة الملامح. فضلا عن ان مواردها البشرية، الكبيرة بالقياس المطلق، لا تمثل باي شكل من الاشكال دلالة على غنى فكري او ثقافي، يرافقها ضعف واضح في مواكبة التطورات العلمية والتقنية.

تثار جملة واسعة من التساؤلات. في مقدمتها السؤال المركزي التالي: هل عدم قدرة المؤسسات العلمية والاكاديمية العراقية على تحديد اهدافها ورسم مخططات واضحة لأهدافها ومهماتها يجد اسبابه ومبرراته في انعدام الخبرة والتأهيل عند كادرها المتقدم فقط؟ أم ان هناك اسبابا اخرى؟ ما هي برأيكم الاسباب والمعوقات الحقيقية التي تمنع او تلغي دور الجامعات في وضع برامجها الملموسة، التي تتلاءم مع واقعها وظروف البلد وآفاق تطوره؟

- وبصورة مباشرة: بحسب رأيكم ما هو أثر القرار السياسي على واقع التعليم العالي في العراق؟

أ.د. محمد الربيعي: لقد وضع القرار السياسي بتأسيس وزارة التعليم العالي والبحث العلمي عام 1970 الجامعات تحت هيمنة الدولة وادارتها. فأصبحت مؤسسات التعليم العالي، ومنذ تأسيس الوزارة تخضع للإشراف المباشر للحكومة، وبعد 2003 لنوع من السيطرة السياسية لحزب الوزير او للجهة الداعمة له؛ فإلى جانب تعيين رئيس الجامعة، يسيطر الوزير على السلطات الإدارية وسلطة اتخاذ القرار في الجامعات. ويعود تدهور النظام التعليمي بالعراق أساسا الى هذا الواقع من الهيمنة، الذي فرض التسلط والتحكم وغياب المنهجية والحريات الاكاديمية في إدارة الشأن التعليمي؛ إذ يكون من الاجحاف تجاهل واقع الاستبداد والتسلط الذي مورس خلال عقود من الزمان على جل التدريسيين في التعليم العالي، حيث أدت هذه الممارسات الى عدد من القرارات والتعيينات الحزبية والتي شكلت احد مظاهر الانحراف الكبير عن المبادئ التربوية المعاصرة المتبناة من قبل الجامعات العالمية.

ويبدو أن السياسات التعليمية للجامعات خصوصا في التخصصات الإنسانية قد تم وضعها وفقا للسياسة والآيديولوجية السائدة، وكما يبدو ايضا أن اهتمام السياسيين بالتأثير على عملية صنع القرار في مؤسسة التعليم العالي يسترشد بنهج أساسي متمثل في الآيديولوجية والأفكار السائدة. لكننا اذ نرى التأثير السياسي على صنع القرار في التعليم العالي بسهولة، لا نرى العكس؛ فتأثير الجامعة على القرارات الاقتصادية والسياسية للدولة ضعيف، لا بل معدوم وهذا ما يعكس التذمر الكبير عند الاكاديميين من حالة العزلة وعدم مشورتهم في وضع السياسات الحكومية.

زاد الاهتمام بالقيادات الجامعية بعد 2003 عندما أصبحت المحاصصة السياسية والتقاسم الوظيفي للمناصب الاكاديمية سمة أساسية للنظام التعليمي. إلا أن التقاسم الوظيفي بالرغم من كونه فعلاً مشيناً بحق الأعراف الاكاديمية يظهر أحيانا بصورة أسوأ عندما ينحاز نحو جهة أو مكون معين. فلم تعد هذه المشكلة، وظيفية فقط، إنما أصبحت تشكل أزمة ذات أبعاد أخرى، سياسية وأكاديمية في غاية الخطورة على الجامعات التي أصبحت بفعل السياسات الحكومية المتعاقبة عقبة كبيرة أمام الإصلاح الأكاديمي، وهو ما يعني انشغال الجامعات والتدريسيين في الصراعات السياسية مما يبعدهم عن مهمة تطوير قابلياتهم الاكاديمية واهتماماتهم الأساسية في التعليم والبحث العلمي، ويعزز الرغبة في المناصب الجامعية، بعيداً عن الاستحقاق الأكاديمي والعلمي.

إن مظاهر التسلط السياسي في إدارة الجامعات تظهر جليا، بجانب طريقة اختيار رؤساء الجامعات وعمداء الكليات ورؤساء الأقسام، في رسم سياسة التعليم العالي، والتي تعتمد اعتمادا كاملا على قرارات الوزارة والسلطة السياسية، وكذلك في تمركز عملية وضع مناهج التعليم واختيار الطلاب وتعيين التدريسيين. وهي

مظاهر تتنافى والحرية الأكاديمية تنافياً مطلقاً. هذه الظاهرة أصبحت اليوم ظاهرة طبيعية اعتاد عليها التدريسيون، فلم يعد أحد يعترض عليها رسمياً أو علنياً لكون التدريسيين محكومين من الحكومة، التي يمثلها الوزير، فهي تدفع راتبهم وتقاعدهم ومكافآتهم، وهم كموظفين يأتمرون بأوامرها، وحالهم لا يختلف عن حال أي موظف آخر في الدولة، سواء كان في أمانة البلديات أم دوائر الجنسية. ولا يهم هنا إن كان التدريسي عالِماً يشار له بالبنان، أو مرجعاً علمياً أو مفكراً أو فيلسوفاً.

وهنا لا بد من التأكيد على ان هذه الممارسات لا تشكل طبيعة المجتمع الاكاديمي العراقي بل هي ممارسات خلقها في البداية فكر الحزب الواحد الاستبدادي، وبعد 2003 ممارسات الدولة المحاصصاتية. والحقيقة ان الجامعات العراقية بالرغم من انها تبدو للوهلة الأولى ككيانات مستقلة، إلا انها بحقيقة إدارتها وتسييرها فروعا لجامعة واحدة، تدار سياسيا من قبل وزير يمثل سلطة سياسية.

لقد أصبحت مؤسسات التعليم العالي مجالا يلعب فيه السياسيون لعبتهم المفضلة، فتجد الأحزاب السياسية المتصارعة على احراز المناصب لمناصريها، أنه من السهل تعبئة مجموعاتها الخاصة من الطلاب أو التدريسيين في الجامعات، من أجل تحقيق أهدافهم السياسية. من خلال لعب هذه اللعبة السياسية في الجامعة، يتمكنون من التأثير على الثقافة والفكر. ولربما لن أكون مخطأ في القول إن سلطة السياسيين على مجال التعليم تعني السلطة على عقول الناس وآرائهم وافعالهم. ولربما هذا أهم من السيطرة على قوتهم المعيشية. لذلك، لا يوجد قطاع آخر ذو أهمية كبيرة للسياسيين لممارسة نفوذهم غير التعليم.

الثقافة الجديدة: أحد ابرز مظاهر ازمة التعليم العالي في العراق، يتمثل في غياب العلاقة بين سلطة المعرفة المفترضة في خطاب البحث العلمي، وبين سلطة السياسة والاقتصاد القائمة في المؤسسات الحكومية ومراكز النفوذ والمآل في المجتمع. علما ان المؤسسات التعليمية من جامعات ومعاهد ومراكز دراسات تقع وسيطا بين هاتين السلطتين.

وفي ظل هذه القطيعة أو الطلاق بين ما يمكن تسميته بـ "القرار العلمي" و"القرار السياسي والاجتماعي" تدهورت مكانة البحث العلمي، وتراجعت الكثير من الشروط المادية والمعنوية التي يتطلبها دعم هذا البحث وإنماؤه والارتقاء به مؤسسيا واجتماعيا، وأطرا باحثة: من طلبة واساتذة. وفي ظل هذا التدهور ايضا افتقد البحث العلمي، الذي يفترض أن تكون مؤسسات التعليم العالي والجامعي معقلا له، دوره التنموي والتحديثي الريادي، ووظيفته التوجيهية في عقلنة القرار السياسي والاجتماعي، وفي ترشيد الممارسة الفكرية والاجتماعية بشكل عام.

- ما هو تعليقكم عن مسببات هذه الهوّة بين سلطة المعرفة وسلطة السياسة. وكيف يمكن ردمها؟

- كيف يمكننا أن نجعل البحث الأكاديمي مفيدا للمجتمع؟

أ.د. محمد الربيعي: للمعرفة من علم وتكنولوجيا تأثير كبير على المجتمع. وتأثيرها آخذ في الازدياد؛ فمن خلال التغيير الجذري لوسائل الاتصال لدينا، والطريقة التي نعمل بها، والبيئة، وحتى طول ونوعية الحياة نفسها، أحدث العلم تغييرات في القيم الأخلاقية والفلسفات الأساسية للبشرية. لكن ومع الأسف يشعر الكثير من الناس أن غالبية الأبحاث الأكاديمية لا تفيد المجتمع ويتم إصدار المنشورات في معظم الأحيان لمجرد الحصول على ترقية أكاديمية. ولعل لهذا الشعور سبب يعود الى ضعف البحث العلمي وبعده عن تلبية حاجات المجتمع وعدم امكانيته من حل مشاكله الاقتصادية والاجتماعية. وتلعب السلطة السياسية هنا دورا رئيسيا في هذه الفرقة فهي لا تضع البحث العلمي في قائمة اهتماماتها، ولا تسعى الى النهوض به من خلال توفير الأموال والمعدات والمواد، ولا الى رفع كفاءة الباحث العلمي او الى تحقيق تعاون علمي مشترك مع الجامعات العالمية. تسببت السلطة السياسية بأنانيتها، ومن خلال حصر اهتماماتها بالصراع السياسي على السلطة، وبشيوع الفساد الإداري والمالي بين مفاصلها الى ازمة تتمثل في الانفصام الهائل بين ما اسميته بسلطة المعرفة وسلطة السياسة. والواقع يرينا أن الفساد لعب دوراً رئيساً في تدهور البحث العلمي، وليكون عائقاً كبيراً أمام كل حل لهذه الأزمة، وليفاقم من مشكلة تدهور المعرفة.

كيف يتم ردم الهوة؟ ليس بالسهولة فلم تعد الحلول الترقيعية أو الإجراءات الجزئية أو القرارات الاعتباطية، وغير المدروسة تنفع في النهوض بأوضاع الجامعات والبحث العلمي، ولا بوسائل بناء المعرفة والاطلاع واكتساب الخبرات والمهارات كي تضطلع المؤسسات التعليمية والمعرفية بأدوارها في بناء الإنسان العراقي. ولن تستطيع من إذابة الجمود المعرفي وإزالة أسوار الحصار الذاتي الداخلي والقضاء على الفساد من دون توفر رؤية استراتيجية للإصلاح، وتكوين مدرسة مهارات وجودة وأخلاق. وهذا يتطلب قيادات نزيهة تمنع المتاجرة بالنفوذ وإساءة استغلال المنصب وسرقة المال العام. ويتطلب قيادات معرفية تعتنق التغيير، والإصلاح وتستمع للتربويين والعلماء والمثقفين، وتتفهم أهمية العقل والانفتاح على الثقافات العالمية. هل هذا حلم مستحيل التحقيق في عراق اليوم؟ لربما يكون ضرباً من ضروب الخيال في ظل ثقافة احتقار حرية الرأي، والعجز المعلوماتي المتمثل في انعدام الشفافية في المؤسسات التربوية، وخصخصة قطاع التعليم بصورة غير معلنة والإلغاء التدريجي لمجانية التعليم في العراق، فضلاً عن عدم استخدام معايير الكفاءة والجودة في تعيين المسؤولين، واستخدام المحاباة والمحاصصة بدلاً من ذلك. من هذا يتضح أن الحل الوحيد والعملي هو إعادة بناء أعمدة المعرفة والتعليم مرة أخرى من خلال القضاء على الفساد أولاً، وتعزيز الاستقرار وإبعاد العناصر الطفيلية والاعتماد على الخبراء والمعرفيين والعلماء لتكوين رصيد معرفي ينتج كحصيلة للبحث العلمي والتفكير الفلسفي

والابتكار والتطوير وغيرها من أشكال الإنتاج العلمي والفكري للإنسان، ومن ثم تحويل هذا الرصيد المعرفي الى قوة حقيقية لاحداث تغيير في السلطة والمجتمع، مع اعترافي بأن هذا الحل صعب التنفيذ، ويقارب الاستحالة.

الثقافة الجديدة: في النهاية، بحسب خبرتكم الطويلة، سواء في العمل في الجامعات العالمية، او مستشاراً لوزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ما هي الخطوط العامة التي يمكن اتباعها من اجل النهوض بالجامعات العراقية واصلاح نظام التعليم العالي في العراق؟

أ.د. محمد الربيعي: لقد كتبت كثيرا ووضعت خططا وسياسات وقدمت برنامجا اصلاحيا للنهوض بالتعليم العالي والجامعات العراقية، ولكني وجدت انه طالما لا تتوفر الإرادة السياسية والقدرة المعرفية لتطبيق مشروع الإصلاح تبقى هذه الخطط مجرد دعوات وطموحات. تركزت الخطوط العامة لمشروعي، لإصلاح التعليم العالي، في عدد من المهمات الرئيسية، منها ضرورة المواءمة مع سوق العمل الضعيف والمتغاير في احتياجاته، من خلال إعادة هيكلة البرامج الدراسية ومحتوياتها، وإعادة النظر في عملية ضمان الجودة وبتغيير طرق التدريس المعتمدة على التلقين والحفظ، وتنمية المهارات الملموسة وغير الملموسة. لقد أصبح تحقيق الجودة بما يتناسب وحاجة السوق مهمة صعبة للجامعات؛ فمن دون توفر تدريسيين على مستوى عال من التدريب والمعرفة، وتوفير مرافق جامعية ملائمة، وبيئة جامعية محفزة للتعلم والتعليم، وسياسات تنموية تتناول الاحتياجات القطاعية بالتفصيل واحتياجات القطاع العام والخاص لن تتمكن الجامعات من تأدية واجباتها بصورة كاملة. ويتطلب الإصلاح تغيير تقاليد التعليم العالي وهذا يعني احداث تغيير جذري في نظرتنا الى اهميته وجدواه، والى اعادة صياغة اولوياته. بما ان سوق العمل يحتاج الى الاختصاصات المهنية والتقنية لذلك فانه يتوجب على التعليم العالي، تلبية احتياجات هذا النوع من التعليم وتوفير الفرص التدريبية لسد الفجوة الناشئة عن تراكم عجز الايدي العاملة، لتلبية الطلب من قبل مختلف النشاطات الاقتصادية الوطنية. ومن اجل تحقيق الإصلاح لا بد أولا من ترسيخ ثقافة التغيير داخل الجامعات، وهي ثقافة تعتمد على الجودة وإدارتها والاهتمام بالأستاذ والطالب وبالبيئة الاكاديمية. انا مؤمن بأن أي برنامج إصلاحي لن يتمكن من النجاح الا بوجود قيادات مؤمنة بالتغيير وأساتذة كفوئين وعلماء، ومن هذا المنطلق اؤكد دائما على شعار "أعطني استاذاً وباحثاً جيداً اعطيك جامعة ناجحة".

أدب
و
فن

دفاع عن المعلم والتعليم

حسب الله يحيى

نحن جميعا خريجو أفواه معلمينا.. وما من احد خط على اللوحة الخشبية او كتب حروف الضاد، أو دوّن اسمه .. من دون معلم .

المعلم.. هو القطرة الاولى في زيت مصباح المعرفة، مثلما هو البذرة البكر في حقولنا، وهو كذلك التلويحة الاساس في التعرف إلى زملائنا ..

هو النهر الذي سبحنا فيه للمرة الاولى في نهر الحياة، مثلما هو العصا التي تلوح بالثواب والعقاب ..

نعم.. المعلم قارورة عطر القراءة والكتابة، فهل كثير عليه ان نحتفي بيومه المجيد في مطلع آذار من كل عام ؟

المعلم.. هذا الكائن المتحرك الذي يبسط امامنا الحروف والارقام، ويملأ بياض الورقة بأجنحة الكلمة، وسواد (السبورة) ببياض الطباشير.. ألا يستحق منّا وقفة اجلال وامتنان لما اسداه إلينا من مفاتيح العالم الجديد، الذي كنا نجهله قبل ان يستقبلنا المعلم بحفاوة الاب والمرشد؟

هذا المعلم الذي عرفناه في ابجدية التعليم، لا يغيب عنا على مدى السنوات وثقلها وآفاقها .

بتنا نجده في الجامعة، والشارع، والدائرة، والكتب، والصحف، والفضائيات، والنقال.. نلتقي وجوههم يوميا..

هو المعلم.. بأشكال وأساليب وخطابات شتى.

واذا كان المعلم هو اللبنة الاولى في بناء ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا؛ اذن لماذا يجافيه البعض من اصحاب الكراسي والبعض من الاباء؟

لماذا يملون عليه مناهج.. لا تنهج السلام ولا المحبة ولا اجنحة المعرفة؟

ولماذا يلزمونه بتدريس لا يحصد منه الطلبة الا الغلظة والثار والانتقام.. بدلا من التسامح والعدل والقانون؟

لماذا يريدون من المعلم ان يقدم تاريخا مشوها، وتراثا داميا، وعلما لا يعلم سوى الجمود والوقوف عند الماضي الى الابد دون تجاوزه؟

لماذا يحرمونه من حق تعريف رجال المستقبل.. بما ينبغي ان يكون عليه هذا المستقبل المفتوح على العلم والمعرفة واللغات الحية، بدلاً من هذا السقم الذي لا يربي ولا يعلم؟

لماذا يهاجر المعلم او يقصى او يهمل او يتعرض لقتل كذلك؟

ثم.. لماذا باتوا ينظرون الى التعليم بوصفه تجارة رابحة بفتح مدارس وجامعات بأموال سخية، ليصبح ضيق الحال من حصة المدارس الرسمية التي تفتقر لأبسط مقومات التعليم، وليصبح ميسور الحال.. هو وحده من يحق له أن يتباهى بشهادات عليا منحت له مقابل المال؟

عيد المعلم.. لا بد ان يعطينا المؤشر الصحيح والسليم، ويدفعنا الى مراجعة التربية والتعليم العالي، بحيث يصبح زاد المعرفة، زاداً يفوق حتى رغيف الخبز، ذلك أن من لا يعرف صناعة رغيفه، ليس بوسعه ان يحصد ثمرة من نخلة باسقة .

الفَارابِي.. يومياته بين العِراق والشَّام *

رشيد الخيُّون **

مقدمة

اشتهر اسم الفارابي، فيلسوفاً وموسيقاراً، مع أن موفق الدِّين أحمد بن القاسم الشَّهير بابن أبي أُصيبعة (تـ: 668هـ) عدّه ضمن طبقات الأطباء، ولم يذكر له كتاباً أو ممارسةً في هذا المجال، وأحيل ذلك إلى شغف ابن أبي أُصيبعة بالفارابي، وكأنه لا يريد لموسوعته أن تصدر خالية مِن أمثال هذا الرَّجل العظيم[1].

لكنَّ ننظر بتعجب مِن مؤرخ في طبقات الرِّجال، أفرد معجمه لمَن عاشوا أو مروا ببغداد، ولم يذكر الفارابي حتى بإشارة، مع أنَّه كان مِن الشَّخصيات التي لا يجرؤ مؤرخٌ على إهمالها، خصوصاً إذا كان الموضوع يخص الكتابة عن تاريخ بغداد عبر سير رجال العلم والفقه والسياسة والأدب مثل "تاريخ مدينة السَّلام" للخطيب البغدادي (تـ: 463هـ)! بطبيعة الحال ليس لأن الخطيب لم يسمع بالفارابي ودوره الفكري ببغداد، إنما يغلب على الظَّن أنّه أهمله لسبب عقائدي، وذلك لأنَّ الفارابي فيلسوف، كثيراً ما أُشير إليه بالضَّلالة والكفر، فالبعض إذا ذَكر اسمه قال "ضل وحار"[2].

هذا، إذا حاول مَن كان ضدّه أن يخفف في قوله عنه، أما المتشدد ضده وضد بقية الفلاسفة والمتكلمين، فنقرأ عنه عند مَن يعدد أسماء الفلاسفة والمقدمات التي تتعارض مع "إفادة كلام الله ورسوله لليقين" وبالتالي التّكفير: "أ عقلُ أرسطو وشيعته، أم عقلُ أفلاطون وشيعته (إلى) أم عقلُ الفارابي"، حتَّى يعدهم بالملحدين كافة[3]. لم نأت بعدم ذكر الخطيب البغدادي له، ولا مَن قال صراحةً في (ضلال الفلاسفة)، وهو كثير جداً، للجدل في الموضوع، وإنما لنفهم كيف أنَّ قوة الفارابي، وغيره مِن الفلاسفة، أن كتبهم وأفكارهم قد شاعت على الرَّغم مما اعترض نشر تلك الأفكار مِن مصاعب ومحن.

حياة خالصة للفكر

نجد في حياة أبي نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان الفارابي (260 - 339 هـ/873 - 950م)، واللَّقب نسبة إلى مسقط رأسه "فاريَاب" من أرض تركستان، حياة كفاح مِن أجل العلم والفلسفة، بدأ بجهوده الذاتيَّة، حتى فتحت له أبواب الدِّراسة والشّهرة بعد وصوله إلى بغداد. بدأ حياته، قبل وصوله

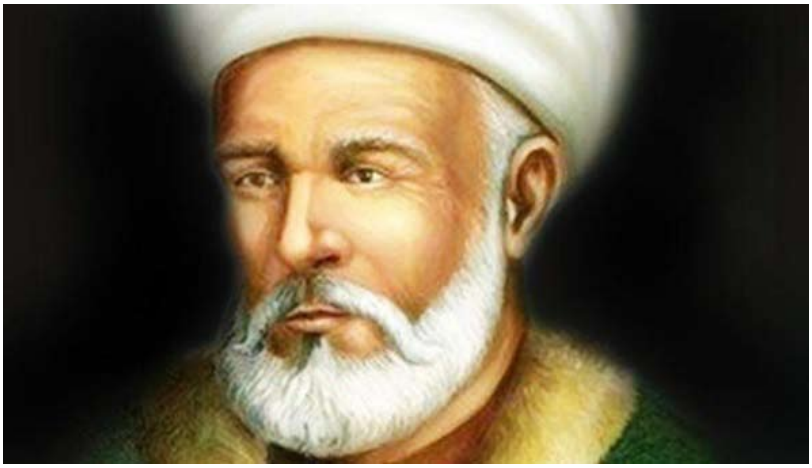

الفارابي

بغداد، يسهر للمطالعة - لضعف حاله - على ضوء مصابيح حراس البساتين[4]. حتَّى اشتهر ولُقب بالمعلم الثَّاني، فأرسطو كان هو الأول، وحتَّى "قيل الحكماء أربعة اثنان قبل الإسلام، وهما أرسطو وأبو قراط، واثنان في الإسلام وهما أبو نصر وأبو علي (ابن سينا) وكان بين وفاة أبي نصر وولادة أبي علي ثلاثون سنة، وكان أبو علي تلميذاً لتصانيفه"[5]. هذا ما ذكره ظهير الدِّين البيهقي (تـ: 565هـ) في "تتمة صوان الحِكمة"، ومعلوم أن "صوان الحكمة" الأصل، هو كتاب المنطقي أبي سليمان السِّجستاني(تـ نحو: 391هـ)، وكان الأخير معاصراً للفارابي، ومع الاهتمام الواحد بينهما، إلا أنَّ السِّجستاني، على الرّغم مِن ذكره للعديد مِن مفكري وفلاسفة عصره وما قبله، لا يذكر الفارابي بشيء، فعمد صاحب تتمة الصُّوان وتوسع في أخبار الفارابي وفكره.

عاش الفارابي متنسكاً بالحياة، لم يعتنِ بهيئة، ولا مكسب ولا منزل، ومع أنَّ المال كان مبذولاً له، مِن قبل سيف الدَّولة الحمداني التَّغلبي، عندما قصده بحلب، بعد بغداد، إلا أنَّه اكتفى منه بأربعة دراهم فضية، رزقاً يومياً له، تُعطى له مِن خزانة سيف الدَّولة، يخرجها في الضَّروري مِن شؤونه المعيشيّة، مع أن الأمير كان يود بذل النّعمة عليه، لعلمه وقربه من بلاطه[6].

يُخطئ مَن قال أنَّ الفارابي قد حلَّ على الوزير البويهي الصَّاحب بن عباد(تـ: 385هـ) ودخل مجلسه، وهو لا يعرفه، عندما مرّ بالرَّي، وكانت على رأسه قلنسوة بلقاء وثياب غير لائقة، فصار وسط سخرية المجلس، فلم ينتبه إليه أحد، وعزف في المجلس، وقام ولم يُقدم نفسه، بعدها جد الصَّاحب بطلبه ولم يجده[7]، إنما كان المقصود مِن قبله أمير حلب سيف الدَّولة وليس الوزير الصَّاحب بن عباد.

يُذكر أنَّ اهتمامه بالمنطق والفلسفة والفكر بشكل عام، بدأ بفارياب، بعد اطلاعه على مجموعة كتب أرسطو التي تركها عنده رجل وديعةً عندما كان قاضياً ببلاده[8]، قبل هجرته إلى بغداد، فـ"اتفق أنْ نظر فيها فوافقت منه

قبولاً، وتحرك إلى قراءتها، ولم يزل إلى أنّ أتقن فهمها، وصار فيلسوفاً بالحقيقة"[9]. جاء عن تركه لوظيفة فاخرة كوظيفة القاضي: "كان في أول أمره قاضياً، فلما شعر بالمعارف نبذ ذلك، وأقبل بكليته على تعلمها، ولم يسكن إلى نحو مِن أمور الدُّنيا البتة، ويُذكر أنه كان يخرج إلى الحراس باللَّيل مِن منزله يستضيء بمصابيحهم فيما يقرؤه"[10]، وقد أوهم ذلك البعض فذكر أنه عمل ناطوراً أو حارساً[11].

يضع الفارابي شروطا بمَن يريد دراسة الفلسفة، أولها الشَّباب والأخلاق: "قال الحكيم أبو نصر الفارابي: ينبغي لمن أراد الشُّرُوع في علم الحكمة أن يكون شاباً، صحيح المزاج، متأدبا بآداب الأخيار، قد تعلم القرآن واللغة وعلم الشرع أولا، ويكون صينا عفيفا متحرجا صدوقا، معرضاً عن الفسق والفجور والغدر والخيانة، والمكر والحيلة، ويكون فارغ البال عن مصالح معاشه، ويكون مقبلا على أداء الوظائف، غير مخل بركن من أركان الشَّريعة، بل غير مخل بآداب من آداب السنة، ويكون معظما للعلم والعلماء، ولم يكن عنده لشيء قدر إلا للعلم وأهله، ولا يتخذ علمه من جملة الحرف والمكاسب، وآلة لكسب الأموال، ومن كان بخلاف فهو حكيم زور..."[12].

كذلك مِن الشُّروط الفكريَّة التي وضعها لتعلم الفلسفة، أن يعرف أسماء الفرق الفلسفيّة، أي تاريخ الفلسفة، وغرض أرسطو مِن كل واحد مِن كتبه، ونوع كلامه، ورياضة العقل على البراهين الهندسيَّة والمنطقيَّة، والإقبال على العِلم بكل همته، لكي يعرف الخالق، ويشبه قدر الطَّاقة البشريَّة به"[13].

كتب أحد المعاصرين، عاتباً أو مستغرباً، مِن عدم ملامسة أبي نصر الفارابي للشعر، على أنَّ عصره كان عصر كبار الشُّعراء، وببغداد، قال: "ومِن الغريب أنَّ الفارابي، في عصر النَّهضة الشّعريَّة، لم يُلامس الشّعر العربي كثيراً، ولا ألف فيه في صنعة الكتابة، إلا أنْ تكون رسالته في الشّعر والقوافي، ذات صِلة بالشِّعر العربي، وكم كنَّا أسعدُ حظاً لو أنَّ شخصاً عميقاً حاد الذَّكاء مثل الفارابي لم يمنعه إجلاله لأرسطو مِن إتمام القول في الشّعر"[14].

مِن حقَّ صاحب هذا التَّمني على الفارابي أن يكتب في الشّعر، كصناعة ونقد وإلى غير ذلك، لكنَّ مَن يدخل الفلسفة لا يخرج منها، ولا تدعه يلتفت لغيرها، فما أنّ لامسها أبو حامد الغزالي(تـ: 505هـ)، بدافع الكراهيَّة والرَّد على الفلاسفة، ومِن بينهم الفارابي، وقد أشار إليهم بالأغبياء[15]، حتَّى قال فيه أحد مجايليه: "دخل في بطون الفلاسفة، ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر" [16]. فكيف مَن كان هو فيلسوف؟! خلاف ذلك، يُشيد ابن حَزم الظَّاهري(تـ: 456هـ) بأبي نصر الفارابي وفكره، أي عمّا ورد في كتابه "إحصاء العلوم"، وهو على ما يبدو نفسه الذي ورد بعنوان "مراتب العلوم"، بأنه يتميز بمقولات كبرى، وترك الجو صالحاً لمزيد مِن "التَّوالد الطَّبيعي في العلوم"[17].

إنَّ عالماً فيلسوفاً مثل أبي نصر الفارابي، مِن الصّعب تحديد المذهب الفقهي له، أو العقيدة المذهبيَّة، فلا نرى لِما طرحه السّيد محسن الأمين(تـ: 1952) عن شيعية الفارابي، صحةً، وأنّ قربه مِن سيف الدَّولة لا يعني أنه كان شيعيًّا إماميًّاً بهذه الصِّلة، كون سيف الدَّولة كان شيعياً، على أنّ الفارابي، حسب الأمين ناقلاً عن آخر، كان "لا يتصل إلا بأهل الفضل مِن الشّيعة لجامعية العقيدة" [18]، وآخرون عدوه سُنيًّاً حنفياً.

أقول: مِن غير الوارد تحديد الفلاسفة والمثقفين بشكل عام بإطار مذهبي وحتَّى ديني، ليكون عنواناً لهم، فالفلسفة والثَّقافة إنسانيَّة، وهنا لا نعترض على أن يكون انتماء هذا المثقف أو ذاك لمذهب معين، لكنّنا نعترض على هذا التَّصنيف بما دخله شعراء وكُتاب ومثقفون على العموم في المذهبيَّة والنّزاعات التي تسفر عنها.

تعلم العربية والفلسفة ببغداد

كانت بغداد، في عصر الفارابي، مركز العلوم والدِّراسة، وكذلك امتاز القرن الذي ورد فيه إلى بغداد (الرَّابع الهجري/العاشر الميلادي) بظهور عباقرة، مِن الفلاسفة والمفكرين والمناطقة والأدباء والشُّعراء الفلاسفة، مِن جيل هذا القرن "إخوان الصّفاء وخلان الوفاء"، ورسائلهم الشَّهيرة، التي كشف أمر مؤلفيها أبو حيان التَّوحيدي(تـ: 414هـ) عندما شاعت في الوراقين، أي أسواق الكُتب [19]، والمنطقي أبو سليمان السجستاني، الذي حمل صاحبه التوحيدي إليه رسائل إخوان الصفاء، ولم تعجبه، لذا لم يذكر شيئاً منها في كتابه "صوان الحكمة"، ونجد الرّسائل متأثرة جداً بفلسفة الفارابي، الواردة في "المدينة الفاضلة"، ومنها القول بالفيض عن العقل الأول، وعدم تدخل العقل الأول، وهو الله، في الطَّبيعة. يقول الفارابي: "عدم عناية الكائن الأول بالعالم" [20]، ويرى إخوان الصفا: "الباري، جل ثناؤه، لا يباشر الأجسام بنفسه، ولا يتولى الأعمال بذاته، بل يأمر ملائكته الموكلين وعباده المؤيدين، فيفعلون ما يؤمرون، كما يأمر الملوك الَّذين هم خلفاء الله في أرضه عبيدهم وخدمهم ورعيتهم، لا يتولون الأفعال بأنفسهم" [21].

كذلك قالوا بأكثر وضوحاً: «ما رأيت قط ورقة زيتون خرجت من شجرة جوز، ولا حبة شعير خرجت من سنبلة حنطة، وعلى هذا المثال والقياس سائر أنواع الحبوب والثّمار والبقول والحشائش، تراها كلها واحدة منها حافظة صورة أبناء جنسها، وشكل نوعها، كأنها صُبت في قوالب مختلفة الأشكال محفوظة الأنواع» [22]. كان كلاهما، الفارابي وإخوان الصفا، ببغداد وفي الزَّمن نفسه.

هذا الرأي مهم جداً، أولاً لا يجد المشعوذون بالدِّين طريقاً إلى استغباء النَّاس ببركاتهم، ولا يتحوّل الدِّين إلى غرض يوظفونه في تدمير العقل، تحت قوة الكرامات، واستخدام الأموات مِن الأولياء الصالحين في هذه التِّجارة، ويركز من خلال هذا الرَّأي على ما ينتجه العقل، الذي خلقه الله وأودعه في الإنسان، وبهذا تسقط حجة الإسلام السِّياسي ومَن يُبشر بالحكم الإلهي، والمعروف لدى الإسلاميين بالحاكمية أو نيابة الإمام، على أنَّ الله تعالى حدد الحكم، أو هو يحكم بذاته عن طريق وكلاء [23]، وهذا الرَّاي معترف به مِن قِبل المعتزلة، في نظرتهم للكون والظهور والخلق المستمر، وابن حزم (تـ:456هـ) في كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنِّحل" أيضاً، فالطَّبيعة خلقها الله مع طبائع الأشياء، وكلّ شيء ينمو حسب طبيعته، فحبة الشَّعير لا تُظهر نبة حنطة على سبيل المثال لا الحصر. ولولا أنَّ الكلام يطول، في هذا المجال، ويخرجنا عن موضوعنا لتبسطنا به.

كذلك في (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) عاش كبار الشُّعراء ومفكروهم، مثل: أبي الطَّيب المتنبي (قُتل: 354هـ)، وأبي العلاء المعري (تـ: 449هـ)، الذي بعد أن عاد إلى الشَّام مِن بغداد تغيرت أفكاره، وأخرج

"لزوم ما لا يلزم"، وعاش مؤرخ الأدب صاحب كتاب "الأغاني" النَّفيس أبو الفرج الأصفهاني (تـ نحو: 356هـ) وفي هذا القرن عاش أبو علي مسكويه (تـ: 421هـ)، فيلسوف الأخلاق، وعاش أبو حيان التوحيدي (تـ: 414هـ)، وكان لهما كتابٌ مشتركٌ، صُنف وطُبع تحت عنوان "الهوامل والشَّوامل" (الإبل السارحة والحيوانات التي تجمعها). عاش في هذا القرن وببغداد أستاذ الفارابي متى بن يونس الحكيم (ت: 328هـ)، وكان يقرأ عليه المنطق، وعاش ببغداد في هذا القرن تلميذ الفارابي يحيى بن عَدي (تـ: 364هـ)، وعيسى بن زرعة (ت: 398هـ) تلميذ يحيى، وغير هؤلاء مِن الفلاسفة والمناطقة كثيرٌ وكثيرٌ جداً. يذكر أبو فرج محمد بن يعقوب النَّديم (تـ: 380هـ) تلميذ الفارابي عدي بن يحيى التكريتي، الذي كان على مذهب النَّصارى اليعاقبة، وإليه انتهت رئاسة أصحابه في القرن الرَّابع الهجري، وقد التقاه صاحب "الفهرست" النَّديم بسوق الكتب، والمعروف أن النَّديم كان وراقاً، وعاتبه على كثرة ما ينسخه مِن الكُتب، ويبدو أنه كان يعيش على النّسخ، ذاكراً للفارابي كتاب "مراتب العلوم" [24].

تلك كانت البيئة البغداديَّة العلمية، وبهؤلاء عُرف القرن الرَّابع الهجري، وكان أبو نصر الفارابي أحد رموزه العظماء. درس الفارابي على يد متى بن يونس، وحينها كان متى شيخاً مُسناً، ويأتي المئات يقرؤون عليه كتاب "المنطق" لأرسطو طاليس، فأخذ الفارابي يحضر حلقته الدِّراسيَّة، وتأثر بمعانيه وألفاظه الجزلة، وكان بين المئات مِن التَّلاميذ، فلم يكن يشتهر بعد [25].

عندما وصل الفارابي بغداد حصل على امتيازين: الأول، أنه تعلم العربية، وإتقانها، وأخذ يكتب بها، فعندما وصلها كان يعرف التُّركيَّة فقط، وهي لغته الأم. والامتياز الثّاني هو تعلم المنطق ومنه إلى الفلسفة [26]. كانت طريقته بالكتابة على الرِّقاع، أي أوراق وصحف متفرقة، مثلما هو نظام الكارتات في البحث اليوم، غير منظمة بكراس أو كتاب، ولم يكتب في الكراريس إلا القليل [27].

ترك بغداد إلى حُرَّان، وهي أرض الآن بين الشَّام والعراق، وفيها التقى بالمنطقي يوحنا بن خيلان (أو جيلان وحيلان) الحكيم، وأخذ عنه طرفاً مِن علم المنطق، ثم قفل عائداً إلى بغداد، فنال قراءة كتب أرسطو طاليس، المترجمة، فيصعب اعتباره عندما وصل بغداد كان يعرف اليونانيَّة، مثلما أشار البعض إلى ذلك، وحصل على المهارة اللائقة بما تعلمه مِن أساتذته وكُتب أرسطو، حتَّى يروى أنَّ هناك مَن عثر على كتاب النَّفس لأرسطو وعليه عبارة بخط الفارابي "إني قرأت هذا الكتاب مائة مرة" [28].

لكنَّ مَن يرى أن الفارابي درس عند يوحنا بن جيلان ببغداد وليس بحران. كتب ابن أُصيبعة يقول عمَّا بين الفارابي ويوحنا الحكيم: تعلق بالفلسفة ببغداد عن طريق يوحنا بن حيلان (هكذا وردت)، قرأ عليه كتاب "البرهان"، أيام الخليفة المقتدر العباسي (حكم: 295 - 320هـ)، وأن الفارابي عاش ببغداد زمن ليس بالقليل بين (323 - 330هـ)[29]. كذلك يؤكد ابن صاعد الأندلسي (تـ: 456هـ)، قبل الجميع، أن يوحنا الحكيم ببغداد وليس بحران، وأن الفارابي نبه إلى ما أغفله الفيلسوف يعقوب بن إسحاق الكندي (تـ: 256هـ) بـ"صناعة التَّحليل وإيحاء التَّعاليم"[30]. حتَّى وصف صاعد الأندلسي الفارابي بالعبارة: "فيلسوف

المسلمين بالحقيقة" [31].

ولعلَّ عن الفارابي شاع معنى "الفلسفة"، فقال هي "إيثار الحكمة"، فالمركب حسب لغة اليونان "فيلا وسوفيا"، وفيلا: إيثار أو حبّ، وسوفيا تعني الحكمة، وأنَّ الفيلسوف مصطلح منحوت مِن الفلسفة، وبلغتهم "فيلسوفس"، ومعناه "اَلْمُؤَثِّر الحكمة" [32]. صنف الفارابي ببغداد أهم كتبه، والذي جمع فيه فلسفته بالوجود، وهو "المدينة الفاضلة"، ولم يتمه فحمله معه إلى دمشق في آخر سنة (330هـ)، واتمه هناك (331هـ)، وكذلك صنّف كتاب "الموسيقى الكبير"، وكان قد ألفه للوزير أبي جعفر محمد بن القاسم الكرخي (وزير الرَّاضي العباسي السّنة 324هـ)، كذلك ببغداد صنّف كتابه الجليل "إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها"، وكتابه "أغراض فلسفة أفلاطون"، وفي العلم الإلهي صنف "السّياسة المدنيَّة" [33]. كذلك اتقن فن العربيَّة ببغداد، وكان يتبادل الدَّرس بالنَّحو مع أبي بكر بن السِّراج، هو يقرأ عليه النّحو والسِّراج يقرأ عليه صناعة المنطق، وكان له في العربية كتاب "الألفاظ والحروف"، وقد شاع هذا الكتاب وأصبح معتمداً لدى دارسي الفلسفة وفقه العربيَّة.

يُنقل عن ابن سينا (تـ: 429- 430هـ) بما نفهم منه علو قدر أبي نصر الفارابي بالفلسفة، وعمق فهمه لها، وهو عندما عصى عليه فهم كتاب "ما وراء الطَّبيعة" لأرسطو، حتَّى ظفر بشرح الفارابي له، أو كتاب له بهذا المعنى [34]. قال ياقوت الحموي (تـ: 626هـ) المعاصر تقريباً لظهير الدِّين البيهقي ناقلاً لابن سينا: "حضرتُ يوماً في الوراقين (سوق الكُتب) والمنادي يُنادي على كتاب في الحكمة، وعرضه عليَّ، فأعرضتُ عنه، فقال لي: اشتره، فصاحبه مُحتاج، فاشتريته بثلاثة دراهم، وإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض ما بعد الطَّبيعة، فطالعته ففهمتُ الكتاب، وتصدقتُ على الفقراء بشيء كثير شكراً لله تعالى على ذلك" [35].

الفارابي بالشَّام

بعد بغداد عاش أبو نصر الفارابي بقية حياته بدمشق، نحو تسعة أعوام (330 - 339هـ)، وهناك توفى بفاجعة مثلما رواها البعض مقتولاً على يد الصُّوص، وسنأتي بخبرها، والأصح عاش بحلب، لأنه اتصل بأميرها سيف الدَّولة الحمداني التَّغلبي (تـ: 356هـ)، وعاش بكنفه، زاهداً بالعطايا، مثلما تقدم [36].

قيل يعود إليه الفضل باختراع آلة القانون [37] الموسيقيَّة الشَّهيرة، والتي ما زالت تصدح بالموسيقى الشَّرقيَّة على وجه الخصوص، ويغلب على الظَّن كان ذلك بالشَّام. قيل دخل على سيف الدَّولة، ولم يعرفه مِن قبل، وبعد التعارف، أخرج آلته الموسيقية، وأخذ يغير في تركيبها، فيعزف، وكل عزف له تأثيره الخاص في المستمعين، فمرة يبكيهم وتارة يضحكهم، ثم عزف وتركهم نياماً وخرج مِن المجلس [38].

أكيد كان سيف الدولة وحراسه ومماليكه ضمن النِّيام! وهذا يصعب تصديقه، والأمير المذكور لا يمر يوماً إلا وخاض حرباً فيها. أقول، ولا أشكُ بقدرات الفارابي في الموسيقى، ولكنَّ هذه الرِّواية يمكن عدها بما يُسمَّى عند العرب بأحماض الكلام [39]، لتنشيط القارئ لا أكثر، وترغيبه بالقراءة، وإمعان في المبالغة، نعم ربَّما حصل أنَّه عزف في مجلس سيف الدَّولة وأجاد، ولكنَّ قضية البكاء والضحك والنَّوم، تلك مِن الأحماض قطعاً. ولأنَّه تفرغ

بكلّه للمنطق والفلسفة والتّأليف فيهما، كان بالشَّام "لا يُجالس النَّاس، منفرداً مشغولاً بالتأليف، وغالباً ما يلتقي عند ماء، أو رياض غناء"[40].

توفي أبو نصر الفارابي بالشَّام، وهو ما زال قريباً مِن سيف الدَّولة، وقيل صلى عليه مع خاصته، بعد أن ناهز الثَّمانين عاماً[41]. لكنَّ الوزير ظهير الدِّين زيد بن علي البيهقي (تـ: 565هـ)، روى فاجعة قتله على يد اللُّصُوصّ، وهو في طريقه مِن الشَّام إلى عسقلان، وربَّما وهو في طريقه إلى مصر، قال: "سمعتُ مِن أستاذي رحمه الله يقول: إنَّ أبا نصر كان يرتحل مِن دمشق إلى عسقلان، فاستغفله جماعة مِن اللُّصُوصّ، الذين يُقال لهم الفتيان، فقال لهم أبو نصر خذوا ما معي مِن الدَّواب والأسلحة والثّياب وخلو سبيلي، فأبو ذلك، وهموا بقتله، فلما صار أبو نصر مضطراً ترجل وحارب، حتى قُتل مع مَن معه، ووقعت هذه المصيبة في أفئدة أمراء الشَّام أسوأ وقع، فطلبوا اللُّصُوصُ، ودفنوا أبا نصر، وصلبوهم على جدوع عند قبره"[42].

أما زكريا القزويني (تـ:682هـ)، فيروي الآتي، بما لا يختلف عن الرّواية الأولى، وربَّما كانت هي مصدر له: "فوقع عليه اللُّصُوصُ، فسلم إليهم ماله وخيله، فأبوا إلا قتله، فنزل عن الدَّابة، وتستر بالمجن (التَّرس)، وكان حاذقاً في الرَّمي، فقاتل حتى قُتل في سنة أربعين وثلاثمائة"[43]. غير الثابت عن أغلب المؤرخين أنَّ موته كان في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة.

ترك الفارابي بغداد، مِن غير كتبه ونظرياته، في المنطق والفلسفة، اسماً شائعاً كعنوان لمستشفيات وكليات ومدارس وأماكن عامة يرتادها الجمهور، منهم مَن عرف ذلك الفيلسوف أبا نصر ومنهم مَن لا يتعدى الاسم، ولا يسأل عن المعنى.

خاتمة:

نجد في حياة أبي نصر الفارابي مفارقات كثيرة، نشأ ببلاده فارياب، ويترك وظيفة القضاء، كي يتفرغ للمطالعة، ولضعف حاله يقصد حراس البساتين ليطالع على ضوء مصابيحهم، كان يقرأ كُتب الفلسفة والمنطق، ثم يُهاجر إلى بغداد، وهناك يبدأ بتعلم اللغة العربيَّة، ويحضر دروس أهم المناطقة والمشتغلين بالفلسفة، فيتجاوزهم ليأخذ لقب "المعلم الثَّانِي" بعد أرسطو الذي عُرف بين فلاسفة المسلمين بالمعلم الأول، ويبدأ بالتأليف، فيكون كتابه في الفلسفة "المدينة الفاضلة"، ويتجاوز به الفيلسوف يعقوب الكندي، ومِن تحت يد الفارابي، ببغداد، يتخرج فيلسوف قدير، وهو يحيى بن عدي التكريتي المسيحي، وهذا الأخير يُشكل مشيخةً له، تخرج منها مناطقة ومفكرون.

يتأثر إخوان الصفا بالفارابي، ويأخذون من مدينته الفاضلة، ليجعلونها دولة إخوان الصّفا وخلان الوفاء، ويلبسون أفكاره في الفيض، من العقل الأول وحتى العلم المادي، ومثله ينزهون الله تعالى عن التدخل في الطبيعة. كذلك ببغداد يصنف كتاب "الألفاظ والحروف" ويجمع به آراء في اللغة والفلسفة. كذلك له تلاميذ غير مباشرين، أي كانوا تلاميذ لكتبه، سارت بأخبارهم الركبان، مثلما يُقال، وكان أبرزهم أبو علي المعروف بابن سينا، الذي تعلم من كتبه، ويعترف أنه لم يفهم كتاب "ما راء الطبيعة" لأرسطو، حتى حصل بالمصادفة، في سوق الوراقين، على كتاب للفارابي في الحكمة.

عاش وتعلم ببغداد لنحو سبع سنوات، خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وما حفل به هذا الزَّمن، من كبار المفكرين والفلاسفة والأدباء والشّعراء، حتَّى يمكن الإشارة إليه بـ "عصر النَّهضة". كانت تلك السنوات نشأته الأولى كفيلسوف، ولأنه كان حاد الذَّكاء برز سريعاً مِن خلال كتبه. ثم رحل إلى الشّام وحل على مجلس سيف الدَّولة الحمداني بحلب، وأكمل ما بدأه من تأليفٍ ببغداد، وكان يكتفي مِن عطاء سيف الدَّولة بأربعة دراهم فضية، يصرفها على حاجاته الضَّروريَّة. كذلك تقول الرِّوايات أنَّه زار مصر، ولكن لم يُذكر عن يومياته شيئاً، مثلما ذكر المؤرخون عن يومياته ببغداد والشَّام.

حاول التوفيق بين أفلاطون وأرسطو، المثل أو النماذج عند الأول والفيض الأشياء عنها، والصور عند أرسطو. ذكر المؤرخين عجائب في حياة هذا الفيلسوف، مثلما تقدم، كان قاضياً ثم فيلسوفاً، ويزهد بكلّ شيء، ولم يستفد مِن عمل والده كأحد قادة الجيش في زمانه. أخيراً يُختلف في سبب وفاته، بين قتيل على يد اللُّصُوص، الذين طمعوا بما لديه مِن أكياس، ولا نظنها تحوي غير الكتب، ووفاته حتف أنفه.

*** خاص بمجلة "الثَّقافة الجديدة"، بحث قُدم في النَّدوة المشتركة بين مركز الملك فيصل للبحوث والدِّراسات الإسلاميَّة بالمملكة العربية السُّعودية وجامعة الفارابي بجمهورية كازاخستان، في (8 - 12 - 2020) لمناسبة الذكرى الـ (1150) لولادته، تحت عنوان "مساهمة أبي نصر الفارابي في تطوير الحضارة الإنسانيَّة".**

**** باحث عراقي معروف معني بشؤون الاديان والتراث.**

المصادر والهوامش :

1. انظر: ابن أبي أُصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت: دار الثَّقافة 1987 3 ص 233 وما بعدها.
2. انظر: الذَّهبي، شمس الدِّين محمد بن أحمد(تـ: 748هـ)، سير أعلام النُّبلاء، تحقيق: شُعيب أرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرِّسالة 1985 الجزء 15 ص 117.
3. انظر: ابن قيم، شمس الدِّين محمد بن أبي بكر (تـ: 751هـ)، الصَّواعق المرسلة في الرَّد على الجَهميَّة والمعطلة، تحقيق: علي بن محمد الدَّخيل، الرياض: دار العاصمة 2 ص 283 – 290.
4. ابن أبي أُصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء 3 ص 223.
5. ظهير الدين علي بن زيد البيهقي (تـ: 565هـ)، تتمة صوان الحِكمة، ص 3، المكتبة الشّاملة، على الرَّابط: https:// al-maktaba.org/book/273/3#p1
6. ابن أبي أُصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مصدر سابق 3 ص 224.
7. ظهير الدِّين البيهقي، تتمة صوان الحكمة، ص32 – 33.
8. شهاب الدِّين أحمد بن عليّ الدَّلجي(تـ: 838هـ)، الفلاكة والمفلوكون، القاهرة: مطبعة الشَّعب 1322هـ، ص 107.
9. ابن أبي أُصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء 3 ص 224.
10. المصدر نفسه.
11. الدَّلجي، الفلاكة والمفلوكون، مصدر سابق، ص 107.
12. البيهقي، تتمة صوان الحكمة، مصدر سابق، ص 4. البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام، مصدر سابق، ص 34 – 35.
13. يوحنا قمير، الفارابي دراسات مختارة، بيروت: المطبعة الكاثوليكيَّة 1 ص 9.
14. إحسان عباس، تاريخ النَّقد الأدبي عند العرب، بيروت: دار الثَّقافة 1983 الطبعة الأولى 1971 ص 227.
15. الغزالي، تهافت الفلاسفة. بيروت: دار الشّروق، الطّبعة الخامسة 2010 ص 38 – 39.
16. تقي الدِّين أحمد بن تيمية (تـ: 728هـ)، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم، الرِّياض: جامعة الإمام

محمد بن سعود الإسلامية 1991 الجزء الأول، ص 5 العبارة للقاضي أبو بكر بن العربي (تـ: 543هـ).
17. انظر: ابن حزم، أحمد بن سعيد الأندلسي الظاهري، الرسائل (رسائل ابن حَزم)، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: المؤسسة العربيَّة للدراسات والنَّشر 1983 4 ص 14 – 15.
18. الأمين، أعيان الشّيعة، تحقيق: حسن الأمين، بيروت: دار المعارف 9 ص 103.
19. أبو حيان التَّوحيدي، الامتاع والمؤانسة، تحقيق: الأحمدين الأمين والزين، بيروت: مكتبة الحياة للطباعة والنَّشر 2 ص 3 - 4.
20. أبو نصر الفارابي، كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق وتقديم: نصري نادر، بيروت دار المشرق، ص 22.
21. اخوان الصفا، الرسائل، بيروت: دار صادر، الرسالة الخامسة من الجسميات الطّبيعيات، في تكوين المعادن (الرسالة: 19) 2 ص 128.
22. المصدر نفسه الرسالة السابعة من الجسميات (الرسالة: 21) 2 ص 153.
23. راجع: المودودي، الحكومة الإسلامية، ترجمة: أحمد إدريس، القاهرة: المختار الإسلامي 1980. والخميني، الحكومة الإسلامية، بيروت: دار الطَّليعة للطباعة والنَّشر، الطبعة الأولى 1979.
24. النَّديم، كتاب الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، بيروت: دار المعرفة 1996 ص 323 - 324.
25. انظر: صاعد الأندلسي(تـ: 456هـ)، ابن صاعد الأندلسي، طبقات الأُمم، تحقيق: حياة العيد بو علوان، بيروت: دار الطَّليعة 1985 ص 140. ابن خِلّكان، شمس الدّين أحمد بن محمد(تـ 681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء الزَّمان، تحقيق: محمد محيي الدّين عبد الحميد، القاهرة: مكتبة النَّهضة 1949 الجزء 4 ص 239. ترجمة رقم: 677.
26. ابن خِلكان، المصدر نفسه.
27. المصدر نفسه 4 ص 241.
28. المصدر نفسه 4 ص 239.
29. ابنُ أبي أُصيبعة، عيون الأنباء، مصدر سابق 3 ص 226.
30. ابن صاعد الأندلسي، طبقات الأُمم، مصدر سابق، ص 138.
31. المصدر نفسه، ص 135.
32. المصدر نفسه 3 ص 224.
33. المصدر نفسه 3 ص 226 – 227.
34. البيهقي، ظهير الدّين (تـ: 565هـ)، تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق: محمد كرد علي، دمشق: مطبعة التَّرقي 1946 ص 30 ترجمة رقم: 17..
35. ياقوت الحموي، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم البلدان)، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار الغَرب الإسلامي 1993 الجزء 3 ص 1071.
36. انظر قصة اتصاله بسيف الدَّولة ابن خِلّكان، وفيات الأعيان، مصدر سابق 4 ص 24 - 241.
37. المصدر نفسه 4 ص 241.
38. المصدر نفسه 4 ص 240 - 241.
39. الأحماض: "الانتقال مِن أُسلوب إلى آخر، مأخوذ مِن أحماض الإبل، وهو انتقالها مِن مرعى نبات حلو إلى مالح" (الحريري، مقامات الحريري، ص 15 الهامش)، والحَمض: ما مَلح وأمرَ من النبات، وهي فاكهة الإبل (الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص 15)، وفي الكلام الانتقال بين الجد والهزل للتشويق وتنشيط القارئ أو السَّامع، فـ"ولا بد في المجاميع من الإحماض، ومزج الهزل بالجد" (ابن خِلكان، وفيات الأعيان 5 ص 152 ضمن ترجمة هلال بن المحسن الصابي الحراني الكاتب).
40. ابن خِلّكان، وفيات الأعيان، مصدر سابق 4 ص 241.
41. ابن أبي أُصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مصدر سابق 3 ص 24. ابن خِلّكان، وفيات الأعيان، مصدر سابق 4 ص 242.
42. البيهقي، تاريخ حُكماء الإسلام ص33 - 34. انظر: البيهقي، تتمة صوان الحكمة، ص 16 – 20.
43. زكريا بن محمد بن محمود القزويني (تـ: 681هـ)، آثار البلاد وأَخبار العِباد. بيروت: دار صادر 1998، ص 548.

مدينة الحلة وهيغل في ذاكرة التاريخ

شريف هاشم الزميلي

يستحضر الأديب والمؤرخ البارز أحمد الناجي, التاريخ وهو يتناول مدينة الحلة الفيحاء, في كتابه الموسوم (التاريخ والحلة في رحاب الفلسفة الهيغلية)، بطبعته الأولى 2007، هيئة التحديث والإحياء الحضاري، وفاء منه للمدينة التي احتضنته صغيراً، وبثت فيه روح السعي والمثابرة فتياً وكبيراً بمقامه وقامته. عبر حديث هنا، ومقال هناك، فضلاً عن الإشارات والشفرات واعتماد أكثر من أربعين مصدراً ومرجعاً من الكتب والمجلات والجرائد إلى جانب الرسائل الجامعية ومواقع الأنترنت حيث عقد العزم على أن يغامر في بحثه مما يحتوي اهتماماته للتعرف إلى مدينته عبر استطلاع آراء عربية وإقليمية ودولية تعزّز بحثه ذلك "ومن المفيد أن نشير إلى مقولة أثيرة للمؤرخ الإنكليزي راوس تستفز الإنسان وتدفعه نحو فهم التاريخ حتى يكون فاعلاً في صناعة تاريخه ومفادها: إذا لم تفهم الدنيا التي تعيش فيها فما أنت إلّا لعبتها أو أن تكون فريستها. – وقد – اتسعت دائرة – اهتمامه بآراء هيغل التي خص بها الحلة والحليين بعد سنوات من هاجس التقصي والبحث في هذا الموضوع وبقدر ما تحمله هذه المحاولة من مشقة فإنها لا تخلو من مغامرة لا سيما في التصدي لدراسة منجز وأفكار فيلسوف كبير وعبقري مثل هيغل". (ص 7 - 8).

وإذا كان لا بد من تمهيد للبحث، لما له من أهداف نبيلة ليس آخرها الوفاء بكل ما تعنيه هذه المفردة فلن يكون بعيداً عن البحث والتقصي لما ورد من "آراء هيغل التي خص بها الحلة والحليين في دراسة للدكتور حسين الهنداوي بعنوان: هيغل وأهل الحلة، وهو أكاديمي متخصص في الفلسفة الهيغلية نشرها على موقع الحوار المتمدن في 25 أيار 2004 موضحا أنّ الدراسة منشورة قبل ما يقارب عشرين سنة في مجلة الاغتراب الأدبي التي كانت تصدر في بريطانيا وضمها كتابه (على ضفاف الفلسفة) الصادر عن بيت الحكمة ببغداد سنة 2005 وأشار الهنداوي إلى أنّ تصورات هيغل عن الشرق، كان قد ألقاها في جامعة برلين وذكر أنّ آراءه عن الحلة والحليين قد وردت في كتاب (محاضرات حول فلسفة التاريخ) ومما جاء في دراسة الهنداوي أنّ هيغل عرف أشياء عن مدينة الحلة الفيحاء وأهلها ورصد أشياء تتعلق بروح التاريخ مشيراً إلى أنّ هيغل كان يتألم فلسفيا". (ص10).

أيّ نوع من الألم هذا الذي يعتصر مفكراً موسوعياً مثل هيغل؟ وما الذي يريد من

الحليين أن يفعلوه مما لم يدُر بخلدهم وما الذي عرفه عنهم؟ "إن هيغل كما جاء في دراسة الهنداوي – حزن على أهل الحلة الفيحاء وكان يخشى عليهم، هم الجدد من أمراض بابل، بابل المظاهر، اللذة، القسوة، بابل التي شَيّدت بآلام أبنائها بروجاً عالية لتروي غليل تطفلها لمعرفة ما وراء حجاب السماء الأزرق.. كان هيغل يريد من أبناء الحلة بناء بيوتهم الجديدة بطابوقات جديدة.. بأيديهم الجديدة لأنهم هكذا يكونون جدداً، كان يؤمن أنّ من يتجدّد يتحرّر وتحرّر كل أمة بتجدّد في شعور كل فرد بفرديته وحريته كذات أولاً ثم بعدئذ الانتماء إلى العائلة فالقرية فالأمة فالإنسانية". (ص10 - 11).

هذا ما ذكره الناجي في مقدمته وتوطئته لينتقل بعدها إلى الفصل الأول الذي أعدّه للبحث في مصطلح التاريخ فمهّد إلى "بداية مسار البحث التاريخي الذي يمتد إلى زمن موغل في أعماق التاريخ حيث انطلق المؤرخون الرواد منذ وقت مبكر في رحلة البحث والتقصي عن حوادث الدنيا والنظر

في وقائع الأيام وصارت دراسة مضامين ما هو متيسر من وثائق بوسائل شتى، كالحدس والتمحيص والاستنباط والتعامل – محاولاً - تأصيل الخطوات التاريخية الأولية في فضاءات الإبداع والمعرفة". (ص 12 - 13).

ولتيسير مصطلح التاريخ يتناول الناجي مباحثه المتمثلة بأصل كلمة التاريخ والتعريف به وبيان العلاقة بينه وبين الفلسفة، فضلاً عن استقصاء رؤية هيغل لمناهج كتابة التاريخ بلغة اعتمدت الوضوح والرصانة، وهو المؤرخ المدرك أهمية ما يطرح من آراء الآخرين وما يجدر بالتعليق عليه، توضيحاً للدقة التي اتخذها منهجاً وسبيلاً، منطلقاً من تشخيص "البروفيسور هرنشو حول الأصل اليوناني لكلمة (إيستوريا) - المتسق مع - رأي جوزف هورس الذي أشار أيضاً إلى أنّ (هستوريا) كلمة يونانية، تعني هو الذي رأى... بيد أنّ كلمة تاريخ في بعض اللغات الحية مثل الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية تستعمل للتعبير عن الماضي ورواية أخباره أو العلم المعني بهذا الموضوع تارة أخرى". (ص14 - 15).

ولم يغفل الناجي عن رصد مفهوم لفظ التاريخ الذي حصره هرنشو في ثلاثة معاني: "الأول: مجرى الحوادث الفعلية، وقصد به صناع التاريخ، وهم بحسب تعبيره موجد تاريخ الذين غيروا بأعمالهم مجرى شؤون العالم، والثاني: التدوين التاريخي لمجرى شؤون العالم كلّه أو بعضه، والثالث: التعلم بواسطة البحث أو المعرفة. وقد رأى هرنشو على سبيل منع الالتباس بين المعاني ضرورة التمييز بين دلالات التاريخ، فاجترح أهل الاختصاص في العربية استعمال الهمزة من عدمها، بحيث تفيد كلمة (تأريخ) بإثبات الهمزة معنى التعريف بالوقت، واستعمال كلمة (تاريخ) بتسهيل الهمزة بمعنى العلم من بحث وكتابة وتحقيق وضبط. ومما يجدر ذكره أن القرآن الكريم احتوى على مادة مقابلة لكلمة التاريخ، يمكن أن تفيد في تفسيرها تاريخاً، مثل: أساطير الأولين" و"أنباء" و"قصص". كما أنّ كلمة التاريخ لم تذكر في الأدبيات العربية في صدر الإسلام, بل وردت متأخرة وحددها البعض أنّها جاءت في أواخر القرن الثاني للهجرة أمّا كلمة مؤرخ فإنّها لم ترد أيضا بينما ورد ما يقابلها كلمة إخباري. (ص16 - 18).

ولم يكن ثمة اتفاق حول أصل كلمة (تاريخ) بل اختلف الباحثون حول تأصيلها "جاءت أولى التفسيرات الاصطلاحية للفظة (التاريخ) عند ابن دريد (ت321هـ/ 933م) الذي أورد استخداماً للمصطلح بقوله ورّخت الكتاب وارّخته، ويضيف أنّ هاتين اللفظتين سمعتا من العرب واستخدمتا لديهم... وأيد عبد الله العروي هذا الاتجاه حين أشار إلى أنّ الكثير من الباحثين يؤكدون عروبة مصطلح التاريخ، وأنّه ليس نقلاً أو اقتباساً أو استعارة من الغير، وذكر أنّ البعض منهم ذهب إلى أنّ كلمة تاريخ كلمة عربية ومن إبداع العرب". (ص22).

مثل تلك الآراء إنّما هي ردّ على أولئك الذين يخالفون عروبة الكلمة ويحاولون إرجاعها إلى لغات أخرى, وقد تناول الناجي "معنى التاريخ من حيث اللغة، أمّا من حيث

الاصطلاح فإنّ لفظ التاريخ يدل على عدة معان منها ما يعني الزمن والحقبة، وظهر هذا المعنى عندما أدخل الخليفة عمر بن الخطاب (رض) التقويم الهجري، فقد ورد هذا الاصطلاح في بردية تاريخها يعود إلى (22هـ /642م) مما يدل على أنّ الكلمة كانت معروفة في ذلك الحين، ثم تطور مدلولها بعد ذلك إلى أن أصبحت الكتب التاريخية". (ص22 - 23).

استقصى الباحث والمؤرخ أحمد الناجي أصل كلمة (التاريخ) والمعاني الخاصة به فضلاً عن تناول المصطلح واختلاف الآراء على ألسنة الرواة وما يفضي ذلك كله إلى إشكالات تمسّ جوهره ومفهومه، فعهد إلى استحضار الآراء بما يشكل إضافة إلى ما بدأه حيث "يمكننا الإحاطة بمفهوم التاريخ من خلال الاطلاع على جملة من التعريفات، ولو انطلقنا من رؤية أرسطو بهدف التعريف وهو: تحديد جوهر الأشياء والعناصر الأساسية التي تتألف منها، لوقعنا في إشكالية تعقيد التعريف التي تنبع من الخلاف المعرفي حول جوهر الشيء لكونه غير ساكن، غالباً ما يغاير ما كان مُسلّماً به طبقاً لاتساع وضيق وتحديد معارفنا – في حين – أشار تشارلز فيزت أحد مؤرخي القرن التاسع عشر الميلادي إلى صعوبة تحديد مفهومه بقوله: التاريخ شيء لا يسهل تعريفه, ولكن يبدو لي أنّه سجل لحياة المجتمعات الإنسانية وللتغييرات التي اجتازتها تلك المجتمعات وللأفكار التي تحكمت في توجيه نشاطاتها. وذكر د. عبد الواحد ذنون طه أنّ المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوتس الذي عاش في القرن الخامس ق.م، أشار إلى أنّ التاريخ في رأيه يشمل البحث والتحقيق في أحداث الماضي وتسجيلها، ولا يتم هذا التحري في نظر هيرودوتس إلا إذا قام المؤرخ نفسه وسافر إلى الأماكن التي يروم دراستها من الناحية التاريخية... فيما لا يورد الطبري (ت 310هـ/922م) تعريفاً محدداً للتاريخ، بل أشار إلى موضوع التاريخ هو الماضي، وذهب ابن خلدون (ت 808هـ/ 1406م) في حديثه عن التاريخ هو في ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول والسوابق من القرون الأول... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها". (ص26 - 29).

ما الذي تمثله نظرة ابن خلدون للتاريخ؟ وما مدى تطابقها مع الآخرين من وجهات نظر؟ وما هي طريقته في تقصي الوقائع والأحداث؟ "يبدو أن التاريخ بالمعنى المستتر في رؤية ابن خلدون أي المعرفة التي يتوصل إليها عن طريق البحث والاستقصاء وطلب الحقيقة، لم يكن معروفاً بصورة واضحة ومحددة لدى المؤرخين القدماء بمن فيهم المؤرخون المسلمون، ولعل ابن خلدون أول من أشار إلى المعنى المذكور، وتبعه المؤرخ فيكو الذي قرر أنّ التاريخ ما هو إلّا حياة البشرية، وكل عصر من العصور مرتبط بما سبقه وما تلاه من العصور.. وعلى ضوء ما تقدم من آراء ورؤى نتلمس بوضوح مدى التباين في اتجاهات تعريف التاريخ، فهناك من يراه البحث عن الحقائق وتدوينها، وهناك من يعتبره تفسيرا للحقائق، فالمؤرخ يبحث عن حقائق معينة، وهذه هي

مادته الأولية ثم يكسبها مفهومها التاريخي. وهكذا يؤكد الصلة بين المؤرخ وحقائق التاريخ فالمؤرخ دون حقائق لا جذور له والحقائق دون مؤرخ مجردة من الحياة والمعنى؛ فالتاريخ هو عملية متصلة للتفاعل بين المؤرخ وحقائقه أو حوار متصل بين الماضي والحاضر". (ص29 - 31).

تبقى الآراء حول ماهية التاريخ ومفهومه وما يسعى إليه من أهداف على مائدة البحث ما دامت رؤى المؤرخين تختلف باختلاف وجهات النظر. "وقد أجمل د. زكي صالح الغرض من التاريخ بأنّه محاولة الإجابة عن خمسة أسئلة يتعلق أربعة منها بتحري الحقائق, ويرمي الخامس إلى التفسير والتعليل, والأسئلة هي (من وماذا ومتى وأين ولماذا)، ويرى أنّ الإجابة عن الأخير من هذه الأسئلة كانت ولا تزال مصدر اختلاف دائم بين المؤرخين... وعلى صعيد تطور معنى التاريخ تستوقفنا مقولة الفيلسوف الإيطالي كروتشه، القائل: إنّ التاريخ كله تاريخ معاصر، وإنّه يتكون في الأساس من رؤية الماضي بمنظار الحاضر، وإنّ عمل المؤرخ الرئيس لن يكون التسجيل بل التقدير. وقد اختصر قسطنطين زريق تعريف التاريخ بخمس كلمات: السعي لإدراك الماضي البشري وإحيائه". (ص31 - 33).

ما سبق ذكره ليس سوى آراء تعين القارئ على فهم واستيعاب ما تعنيه مفردة التاريخ التي توزعت بين رؤى المشتغلين في هذا الميدان وتصوراتهم عن علاقة التاريخ بالفلسفة. "وبالعودة إلى مقولة الفيلسوف الإيطالي كروتشه من أنّ التاريخ كلّه تاريخ معاصر، وملاحظة ما خلص إليه د. حسين مؤنس بأنّ التاريخ علم يتناول دراسة التجربة الإنسانية على الأرض دراسة شاملة. نجد أنّ هذه التصورات وغيرها الكثير الكثير, جاءت مقترنة مع التقدير العلمي والاشتغال على قوانين الطبيعة، فظهر الاتجاه إلى ربط التاريخ بالعلم، وظهرت المدرسة الإيجابية في القرن التاسع عشر، وحاولت أن تجد للتاريخ ومن التاريخ قوانين لتطوّر المجتمعات ونماذج لذلك التطور... وامتدت جسور التواصل بين التاريخ من جهة والفلسفة من جهة ثانية إلى حد اتكاء أحدهما على الآخر، مبلورة ما يعرف اليوم بفلسفة التاريخ. وتجدر هنا الإشارة إلى رأي فيلسوف التاريخ البريطاني أرنولد توينبي الذي يعتقد أنّ ابن خلدون أوّل من أدرك وتصور وأنشأ فلسفة التاريخ. (ص34 – 37).

آنَ لنا أن نتساءل عما يراه المشتغلون في التاريخ ورؤاهم عند تناول علاقته بالفلسفة "لقد حصر الفيلسوف الألماني هيغل مناهج كتابة التاريخ بثلاثة أقسام علاوة على المنهج الفلسفي:

أولاً: التاريخ الأصل، وفيه تنصب رواية المؤرخ على الأشكال الفردية التي عاشها أو سمعها مع اختفاء تصوراته الشخصية.

ثانياً: التاريخ النظري أو التأملي، وفيه لا يعيش المؤرخ الأحداث التي يرويها، وإنما يؤرخ لعصر آخر. ويتفرع إلى: التاريخ الشمولي: وهذا المنهج يتمثل بإبراز الماضي في صورة حيّة واضحة كما لو أنّه عاش الأحداث وهو مشروط بروح الباحث

ومنطلقاته والغايات التي يرسمها للظواهر التاريخية. والتاريخ العملي أو البراغماتي: ويهتم باستخلاص المبادئ والدروس الأخلاقية من أحداث الماضي، وهذا المنهج بنظر هيغل لا يمكن أن يحقق هدفه، لأنّ التاريخ لا يعيد نفسه. والتاريخ النقدي: وهذا النوع من التاريخ هو في الحقيقة (تاريخ التاريخ) لأنه يقوم بتفكيك الرواية التاريخية والتحقق من مصداقيتها، وهناك التاريخ الذي يمثل مرحلة انتقال من الكتابة التجريبية إلى الكتابة الفلسفية وبهذا يشكل مرحلة انتقالية.

ثالثا: التاريخ الشمولي الفلسفي، ويعني دراسة التاريخ من خلال الفكر، ولأن التاريخ هنا لفظ غامض وفضفاض، فلا بد من القول: إن التاريخ بنظر هيغل هو وعي الإنسان لذاته بمعنى صيرورة وعي الروح وهو تاريخ البشر. وما يميزهم عن تاريخ الموجودات الأخرى هو الفكر/ الوعي/ العقل أو الروح، كما أن وجود الإنسان - كإنسان - لا ينفصل عن حريته لأنها ماهية العقل". (ص37 - 41).

ورد الفصل الثاني (هيغل والحلة) باستهلال يشير الى "مفارقة تتضمن أنّ مدينة في العراق تدعى الحلة، كائنة على ضفاف نهر الفرات، قد اجتذبت هيغل الفيلسوف الألماني الكبير، وجعلته شغوفا بالتطلع نحوها, حين وقف مقارناً بين الأزمنة والشواهد، يحدق تارة صوب بابل ناظراً إلى ما فيها من أطلال الأمس، وتارة جائلاً بنظره صوب الحلة المزيدية التي استخدمت في بناء عمرانها حجارة مما بقي من تلك الأطلال". (ص44).

ما الذي أراد أن يقوله هيغل في منجزه هذا؟ وما صداه عند المشتغلين في هذا الميدان؟ نلمح ذلك كله "في تبصرات ميشيل فوكو حين أقرّ بسلطة النموذج الذي فرضته الهيغلية على الفلسفة المعاصرة، ولعل الاتجاه الأبرز في وجهة نظر فوكو تتضح بمقولته التي أشار فيها إلى: أنّ عصرنا يحاول أن يفلت من هيغل... وهذا أمر يقتضي أن نعرف ما الذي لا يزال هيغلياً... لقد سعت الفلسفة الهيغلية نحو تفسير ظواهر العالم الذي تعيش تفسيراً عقلياً حين أقام علاقة وطيدة بين العقل والتاريخ فأعطى للتاريخ محتوى عقلياً كما حدّد للعقل مساراً تاريخياً". (ص45 - 46).

وكعهدنا به دائماً يواصل الناجي استقصاء سيرة هيغل عبر الحديث عن اهتماماته ويومياته ومصادر ثقافته ودراسته، ومنها دراسة التأهيل التي أوجز فيها مبادئ فلسفته، وما حققته المنظومة الهيغلية من نجاحات، وذكر أهم مؤلفاته، وعن مصادره التاريخية التي اعتمدها، فضلاً عن توجيهاته وأنشطته الفكرية والاطّلاع على ما تيسّر من الكتب العربية والإسلامية المترجم منها والمنشور عبر الدراسات عنها, وهذا ما سأتركه للقارئ على الصفحات (47 - 76)، لإدراكي ما يلحق به إيجازه من هدر للمتعة والفائدة.

لنعد إلى الحلة، وما يرى فيها المفكر والفيلسوف هيغل وما هي نظرته إلى ذلك الكيان الذي كان له أحداثه التي دونها التاريخ في أكثر من ميدان ومن خلال هيبتها التي "استطاعت أن تفرض حضوراً

في محاضراته حول فلسفة التاريخ لما جسّده النشاط الإنساني بتحقيق ما امتلكه من ممكنات وقوى, انعكس في منجزها الحضاري... ثمة خصوصية في نشأة مدينة الحلة, ويجب البحث عن الأسباب التي استدعت موقف هيغل صوب الحلة, وهو المعروف عنه بحسب تعبير جان توشار: قلما اهتم بالإمبراطوريات الشرقية القديمة في ترتيبه العام للتاريخ الكوني... وإذا القينا نظرة فاحصة على نشأة الحلة من منظور الفلسفة الهيغلية لوجدنا تجليات نسبية لفكرة هيغل التي تحصر التقدم في وعي الحرية، ولكن نظرته إلى الشرق مبنية على أساس أنّه – أي الشرق - مرحلة تمثلت فيها طفولة التاريخ, فإن ما وجده في نشأة الحلة لا يخرج عن إطار كونها جزئية من جغرافيا أشرق فيها ضوء الروح، وارتحل باتجاه الغرب". (ص77 - 78).

ليس في ما يرى هيغل أيّة حيادية سواء في الشرق أو في التاريخ دائماً "لانسجامه وتوافقه مع سياق منظومته الفلسفية في تفسير التاريخ مركزاً على وشائج التواصل بين بابل القديمة والحلة الجديدة، ومنطلقاً إلى إعادة إنتاج أفكاره عن حضارة الشرق بشكل عام وحضارة بابل بشكل خاص، ومن الملاحظ أنّ في أفكار هيغل تبديات واضحة لإسقاطات الماضي، والإشكاليات المتراكمة بين الشرق والغرب عبر التاريخ، ولا تخلو من خيوط التواصل بين النزاعات القديمة، لاسيما أنّ المركزية الغربية سعت في مراحل مختلفة إلى توظيف فكر هيغل واستغلاله بما يخدم مصالحها, فلم تتردد الدولة الهتلرية في استغلاله، بالتوكؤ على التفوق العرقي، مثلما لم يتردد الغرب في استغلاله باستعادة خصام متجذر مع أبناء ما بين النهرين القدماء، ولعل المفارقة الأبلغ هي أنّ أحد أوجه الحقيقة التي يتعين علينا الإقرار بها كون نمطية التفكير الغربي تجاه الشرق خاضعة إلى منظور وثوابت محددة مرتهنة لفكرة متحجرة قائمة على مركزية استغلالية تسعى إلى إثبات تفوق العقل الغربي على العقل الشرقي، وأن تؤسس ارتكازات على شاكلة أن حضارات الشرق بكل ما قدمته من إنجازات تبقى بدائية ومقلدة وناقلة". (ص80)

من خلال ما تقدم نجد آراء هيغل غير حيادية إن لم نقل متجنّية على الحقيقة حيث تشير إلى "أنّ منجزات الحضارات الشرقية، وهي على قدر كبير من الأهمية في نشوء الحضارات لم تكن معروفة للمتقدمين من فلاسفة التاريخ، ومنهم هيغل، وكونت هذه المعارف المتراكمة فارقاً ملحوظاً بين الأوائل من فلاسفة التاريخ وأولهم ابن خلدون والمتأخرون منهم... والوقائع اشارت إلى أن ما قدمته نتائج التنقيبات عن منجزات الحضارات القديمة في الشرق ظهرت بعد وفاة هيغل بنحو خمسة عقود، لا سيما المتعلقة بقضية الحرية والعدالة الاجتماعية، فقد كشفت تنقيبات الفرنسيين في أطلال مدينة لكش عام 1878 عن أربع نسخ مختلفة الأشكال لوثيقة منقوش فيها إصلاحات الملك السومري أوروكاجينا يرجع تاريخها إلى 2355 ق.م ومحتوياتها تشرح تفاصيل أقدم إصلاح اجتماعي عرفته

البشرية، تنادي صراحة بأهمية حقوق الإنسان مؤكدة حريته, وقد أظهرت هذه الوثيقة كلمة الحرية لأول مرة في التاريخ البشري". (ص82)

بينت المكتشفات الأثرية هناك منظومة من القوانين والشرائع المدونة من قبل الحضارات الشرقية القديمة، تمثلت في: شريعة أورنمو, ولبت عشتار وقانون ايشنونا وشريعة حمورابي, التي تكتسب أهمية استثنائية لما جاء فيها من قوانين "سجلها حمورابي سادس ملوك سلالة بابل الأولى (1792–1750 ق.م) على مسلة كبيرة من حجز الدايوريت، وقد وجدت في مدينة سوسا عاصمة عيلام أثناء حفريات البعثة الفرنسية عام (1901 – 1902)، مكتوبة باللغة البابلية، على غرار شريعة عشتار وبالخط المسماري، وقد جاء في مقدمة شريعة حمورابي: لأوطّد العدل في البلاد/ لأقضي على الخبيث والشر/ لكي لا يستعبد القوي الضعيف/ ولكي يعلو العدل كالشمس/ ولكي ينير البلاد/ من أجل خير البشر". (ص84 - 85).

لقد أثْرت رقيمات ملحمة كلكامش الإرث الإنساني, فضلا عن الكثير من معطيات العمران البشري ومعلومات نشوء الحضارات على قدر من الأهمية, لم يدركها هيغل, تكشفت بعد موته، وسّعت آفاق الفكر وفلسفة التاريخ. ومن أولى الاكتشافات التي صدعت اليقينيات الغربية قد أفصحت عنها رقيمات من ملحمة كلكامش الشهيرة, وهي من بين آلاف القطع والألواح المسمارية التي كانت تنتمي إلى مكتبة آشور بانيبال, أحضرت من نينوى إلى لندن وقام بعرضه الأثري جورج سميث عام 187، وهو من أوائل محللي الرموز المسمارية تغطي حتى في التفاصيل رواية الطوفان الواردة في الكتاب المقدس". (ص 85 - 86).

وفي مختتم هذا الفصل جاء المبحث الأخير تحت عنوان (الحلة المدينة المتوالدة)، ولنا أن نتأمل جذرها التاريخي، ونسأل هل كانت الإمارة المزيدية حلماً؟ وكيف تحقق ذلك الحلم؟ وما مبررات تحقيقه؟

"تبلورت فكرة بحث الإمارة المزيدية عن موطن آمن في بداية العقد الأخير من القرن الهجري الخامس نتيجة للتطورات السياسية، وتعمق التحولات في البنية الاجتماعية والاقتصادية، وترسخت مسيرة مقومات استقلال كيان الإمارة المزيدية باستكمال مقومات مدينة الحلة، المتمثلة في بناء مقر الإمارة والمساكن وبقية المكونات العمرانية كالمساجد والأسواق، فضلا عن وجود القضاء، واتسع نفوذ الإمارة حيث امتدت سيطرتها شمالاً إلى هيت عام 456هـ، وتكريت عام 500هـ، وجنوباً إلى واسط عام 497هـ، والبصرة عام 499هـ، وأطراف البطيحة عام 500هـ، وكانت نشأة الحلة في إقليم بابل قد منحها سمة المدينة المتوالدة وفق معايير الجغرافيا، مثلما أضفى عليها ألقاً عبر الزمن وحضوراً في ذاكرة التاريخ". (ص90 - 91) .

تبقى بابل بأبنيتها الشامخة, وما لها من دلالات لدى الذين تعاقبوا على حكمها تتمثل في ما "روته الأخبار البابلية المتأخرة من قيام سرجون الأكدي (2334 – 1254 ق.م) بنقل تراب بابل أو أخذ من ترابها عندما شيد

عاصمته الجديدة أكد. وعلى الأغلب، التراب هنا دلالة رمزية تعبر عن مظاهر الحياة، ولم تختفِ أبنية بابل العظيمة وما تحتويه من ملايين الآجرّ الجيد عن أنظار الحاكمين الذين تعاقبوا على حكم البلاد كالفرثيين والساسانيين، وهذا ما نجد دليله في الأبنية المتفرقة للعهدين السابقين، وقد نوّه القزويني في سياق وصفه لمدينة بابل – إلى - ما كان يفعله الناس من نقل آجرّها من خرائبها لبناء بيوتهم، حيث شيدت معظم أبنية مدينة الحلة في بداية تمصيرها من أحجار أنقاض مدينة بابل الأثرية... وجاءت هذه المعلومة من تقرير رسمي صادر عن الإدارة البريطانية في العراق عام 1917، ورد فيه أنّ أكثر أبنية الحلة قد شيدت بطابوق قديم جلب من خرائب بابل القديمة". (ص92 - 95).

لنتوقف قليلاً عند رأي الرحالة الأب فيليب الكرملي الذي ذكر: "في رحلته الشرقية عام 1629، أن بغداد أطلق عليها (أحياناً) اسم (بابل الجديدة)، لان الأبنية شيدت بطابوق من خرائب بابل القديمة, وأشار الرحالة الفرنسي أوليفيه عام 1794 إلى أن طابوق بابل لم يقتصر استخدامه على النطاق المحلي في الحلة لوحدها، بل نقلت كميات كبيرة منه إلى بغداد وكربلاء والنجف، الأمر الذي قاد إلى تجارة واسعة ومربحة في هذا المجال, وأوضح الرحالة باكنغهام عام 1816 أن الخانات بين الحلة وبغداد بنيت من طابوق بابل أيضا". (ص97 - 98).

ما الذي أغفله هيغل في وقفته التأملية عند بابل وما تحمله من أسرار؟ فضلا عن معاناة الحليين مما يثقل كاهلهم سواء من الحكومة أو ممن يتربص بهم من الأعداء "إن هيغل – في نشأة الحلة – لم يُعر أهمية إلى عبور الحليين نهر الفرات بوسائلهم المتيسرة، ولم ينظر إلى مكابداتهم وعنائهم في نقل الآجرّ لأبنيتهم.

لقد أدركت الحلة جدلية الموت والحياة واستنجد رجل الغرب والشرق ببابل، حين "انحسر الماء في مجرى النهر، وجرى استعمال أحجار من أطلال بابل في بناء سدة الهندية لإحياء مدينة الحلة أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، بإشراف المهندس الفرنسي شوندرفير, فلم تعد الدلالة في استعمال الطابوق من خرائب بابل محصورة في حدود رأي هيغل حول رمزية الثياب القديمة والجديدة، ومنطقها الآسر للعقل، برغم عدم اكتراثه لضياع إرث حضاري يخص الإنسانية جمعاء، بل أمسى المستقبل رهين بالحياة، والحياة ولّادة في جريان واهب الخصب المتجدّد، فاشترك في ولادة الحلة من جديد نهرها, الجذر الموغل في الجغرافيا مع بابل.. الممتد إلى أعماق التاريخ". (ص 99 - 100)

هكذا هو الأديب والباحث أحمد الناجي، لا بد من شفرة يبعث بها وهو المؤرخ الفطن حيث أنهى بحثه عند (أعماق التاريخ).. فللتاريخ وحده لا لغيره الكلمة العليا والحكم الفيصل في ما فعله الكثيرون في مدينة بابل، وهو بذلك يقدم وثيقة وفاء لمدينته التي تفخر به قامة لها أهميتها في ميداني الادب والتاريخ.

وجهاً لوجه
محمود سعيد :قراءة الرواية تضع لبنة احتجاجية
(ج2)

سماح عادل - عمر القطان - القاهرة / خاص

**** أقرأ لكي أبحث عما يلمع، فأنت تقرأ في النص من أجل شيء يضيء أمامك، وهذا الشيء الذي يضيئك أنت ويجعلك تشعر بأنك استنرت. القراءة مسألة كينونة المرء، ماذا يريد أن يكون)، يقول هارولد بلوم (ناقد). ما هو أول كتاب قرأته وآخر كتاب قرأته، والكتاب الذي أثر فيك والكتاب الذي تنصح الآخرين بقراءته والكتاب الذي تريد قراءته ولم تتح الفرصة لك وكتاب كنت تتمنى أن تكون كاتبه؟**

- منذ بدأت القراءة لم أقرأ لغرض فكري، أو معنوي أو للبحث عن كتاب "يضيء شيئاً أمامي، أو يضيؤني، أو لمسألة تتعلق بكينونتي الخاصة، ونظرتي إلى الوجود". هذه المبادئ تركزت في ذهني بعد نضوجي، أما قبل ذلك فكان سبب القراءة هو المتعة المتأتية إلى الأجواء الجديدة التي يدخلني بها الكتاب، أو إلى الشخصيات التي يقدمني إليها، أو المشاركة في مغامراته، أو اكتشافاته، الأهم هو قضاء وقت طيب. أول كتاب قرأته خارج الإطار المدرسي هو عنترة بن شداد، كان عمري 6 سنوات،

محمود سعيد

وكنت في الابتدائية، لكني تعلمت القراءة وحدها، من دون كتابة في الملا.

كانت أمي تريد التخلص مني فوضعتني عند جارنا في جامع الشيخ محمد، وكتبت عن الجامع والشيخ كثيراً، وصفته في رواية "الدنيا في أعين الملائكة"، وأنت تعلم أن الشتاء يصادف دائما وقت الدراسة في المدرسة، فكانت أمي تجلب الكتب الصفراء شتاءً، كتب مختلفة مثل عنترة، وسيف بن ذي يزن إلخ، من بيت عمها، بيت الملاح،

وفي ليل الشتاء الطويل، كنت أقرأ لمن يتجمع حولي من الأهل، وحينما انتهت هذه الكتب، جمعت من عيديتي ويوميتي مبلغ دينار واحد، وكنت في الرابع الابتدائي، وأظن أن مخلوف اليهودي، جارنا في سوق (العتمي)، ساعدني بذلك، لأنه كان يطلب مني قراءة مجلة (آخر ساعة)، أو (المصور)، اللتين يستعيرهما صديقي الحمال، ابن حارس الخان. يستعيرهما من "فخري شنشل" حيث وصفت ذلك في الرواية أيضاً.

دفعت الدينار إلى المكتبة العامة في الموصل، فأصبح باستطاعتي استعارة ثلاثة كتب أسبوعياً، أقرأها وأرجعها، حتى أنهيت كل ما كان موجوداً في المكتبة العامة، من قصص وروايات في بضع سنين، قرأت حتى رواية "الأم" لمكسيم غوركي.

كانت مكتبة الموصل في أفضل موقع في المدينة،على دجلة، محاذاة لبداية الجسر الحديد، وكان بناؤها في نظري آنذاك أجمل مبنى في الموصل، من المرمر والحلان، وفيه تبريد قديم قبل أن يظهر "الإيركندشن" بربع قرن، شوك في أقفاص ومياه تتساقط من أنبوب مثقب. الأقفاص مثبتة وراء الشبابيك، والهواء يأتي من النهر بارد نسبياً ثم تبرده الأقفاص بما فيها من شوك مبلل، فتبرد القاعات بحيث لا يشعر المرء فيها بالحر قط. كما أن القاعات مؤثثة أثاثاً جيداً، أفضل من رحلات المدارس، وكل قاعة مزينة بصور رائعة ملوّنة للشعراء العراقيين والعرب، كالرصافي وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، والزهاوي.

**** مقص الرقيب في الوطن العربي هل هو أمر صحي أم لا؟ فعندما يقولون بأن الكاتب الفلاني ممنوع فهم يزيدون من شهرته ويدفعون الشباب إلى الاطلاع على نتاجه الأدبي؟ وأنت كروائي لم يكتفِ الرقيب بإتلاف روايتين لك (الإضراب) و(قضية قديمة) سنة 1963، ومنع رواية (الإيقاع والهاجس) 1968 و (زنقة بن بركة) 1970. بل وأكثر من ذلك مُنعت روايتان لك من الطباعة في إحدى مؤسسات وزارة الثقافة العراقية بعد الاحتلال منذ فترة قريبة؟**

- مقص الرقيب، هو وباء ومرض وبيل، أكثر أذىً، وأسوأ عاقبة من السرطان وكوفيد19، ومن الجذام والسل، أو منها مجتمعة، وكنا نتصور أن تغيير النظام السياسي كفيل باستئصاله لكنا كنا مخطئين مع الأسف الشديد، ولا يمكن لأي نظام فيه نسبة خير 1% أو أكثر، أن يخدم شعبه، أو يخدم الإنسانية إن كان فيه شبح رقيب، أو مقص رقيب حتى لو كان في حالته الدنيا، حتى لو كان عمل الرقيب يركّز على أمن البلد يجب منعه.

يجب أن يسمح لأي كتاب أن ينشر، يجب ألّا يوكل أمر منعه لشخص يجلس في دائرة، ويكون وحده من يقرر المنع، هو الأول والأخير في منع أو ترويج الكتاب. نعم، إن كان الكتاب يعلم ارتكاب الجريمة، أو ترويجها أو يسيء إلى الوطن، أو العقيدة أو كان شرٌ كله، لكن في رأيي يجب ألا يترك منعه لإرادة شخص واحد، بل يقدمّ الكتاب إلى لجنة أو مجموعة من العقلاء

يقرأونه، ويقترحون إحالته إلى محكمة، أو مختصين من خبراء، للبتّ في أمره، ثم يصدرون قراراً رسميّاً، يسجّل في المحكمة لإثبات منعه، وتطبيقه.

وحبذا لو نستعير طريقة التعامل مع الكتاب كما في أوربا ومصر، فهم ينشرون الكتب كلّها، وبعد نشرها يرفع شخص ما، أو هيأة مختصة كـ "هيأة تطوير التعليم" أو "لجنة تدقيق التشريع" أو أي تنظيم شرعي. يقوم هذا التنظيم برفع شكوى إلى المحكمة يتهم بها المؤلف بتهمة مثبتة قانوناً، ويستشهد بما ورد في الكتاب. كالإساءة إلى الرأي العام، أو الطفولة، أو المرأة إلخ. بعدئذ يمنع الكتاب، ويطبق القانون في العقوبة.

في سنة 2004 أرسلت رسالة إليكترونية إلى مسؤول الشؤون الثقافية، سألته "هل تقبلون نشر رواية لي؟". أجابني برسالة لطيفة جدا، وهي: "هل تقبل بنشر رواية لك؟". لكن مع ذلك منعت رواية "الطعنة" وكان الرقيب أحد عباقرة الأدب واللغة!، ونشرت الرواية في عمان، ثم قدمت رواية أخرى "بنات يعقوب" بعد سنتين، فمنعت ونشرت في عمان أيضا. منعوا لي ربما أكثر من اثنتي عشرة رواية إلى حد الآن.

منع الكتب يجري في العراق لا بسبب المحتوى، بل بسبب قرار اتخذ مسبقاً حول الكاتب.

في سنة 1994 ألحّ، المرحوم موسى كريدي، أن أقدم أي شيء، قال لي إنه يستطيع أن يتوسط لنشر كتاب لي، لأنه مسؤول (الموسوعة الصغيرة)، ولم يصدقني عندما قلت له أنا ممنوع، وكنت قد قدمت في السبعينات، عندما كنت مدرّساً للغة العربية كتيباً صغيراً، للموسوعة الصغيرة حول كتابة الهمزة، فمنع الكتاب أيضاً، وسمعت من يقول "إن الديكتاتور المسؤول عن إجازة النشر آنذاك كان أعمى"، وعندما اعترضت "ثم ماذا؟ طه حسين أعمى". قالوا لي، طه حسين يكلف من يقرأ له، هذا الأعمى "مالنا" أو "بتاعنا" عنده حافظة رهيبة يتذكر، أسماء كل من نشر، أو طلب النشر في العراق، ولا يهمه ما كتب، هو يمنع من يحفظ اسمه في ذاكرته، يأمرهم بذكر الاسم، فيقول بعدئذ، كلمة واحدة: "ممنوع" أو "مسموح". وعندما ذهبت إلى الخليج، كان اسمي في خانة المنع أيضاً، فوزراء الداخلية العرب يجتمعون ويتخذون قرارات موحدة للإساءة إلى مواطنيهم، ويستثنى ما ندر.

**** (يتعجبون عندما أقول أني أكتب رواياتي كلمة تلو الأخرى. فإذا ألزمت نفسك يوميا بكتابة 500 كلمة فقط. فسوف ينتهي بك الأمر بعد حين إلى كتابة رواية أو كتاب فقط التزم بالكتابة، ستجد نفسك في النهاية صاحب كتب وروايات فليس في الأمر سر عبقري مطمور) يقول ستيفن كينج (روائي).**

ما هي طقوس كتابة الرواية لديك هل السلوك اليومي ينعكس على نتاجك الإبداعي؟ وماذا تنصح الروائيين الشباب حتى يتقدموا في حياتهم المهنية؟ ماذا يحتاج الكاتب العربي ليكون عالميا؟

- أنا لا أنصح أحداً قط، لأني أشعر بأني

أحتاج النصائح، أحتاج من ينير لي الطريق، لكنّ هذا الالتزام بـ 500 كلمة يومياً، هو لكراهام كرين، وهو كاتب إنكليزي جيد، وكرره العشرات بعده، ككنج، وأظنهم وجدوه صحيحاً، أو ملائماً لهم. أنا شخصياً لا ألتزم به، ألتزم بمنهج شخصي، وهو ملائم لي. أقرأ عما يحدث في بلدي ما استطعت، وأحاول أن أسمع ما يحصل لأفراد الشعب قدر الإمكان، ولا أضع فكرة أمامي وألبسها أحداثاً، وأبحث له عن أبطال، لكن لكثرة قراءاتي يتجسد في بالي أحداث معيّنة، فعندما كتبت "هزائم وانتصارات". سمعت من أحد الموجودين في شيكاغو أنه هرب من المعركة، وصل التيبت، فتقربت منه، صادقته، فحكى لي ما جرى له من هربه حتى وصوله هناك، مع أحداث حياته، فسألت عن نظير له، ولقيته، واستنزفته، ثم ثالث، ورابع، وتقريباً كل من وجدته هارباً من العراق.

ليس شرطاً إن وصل التيبت أم لا، لكن كل من سار على طريق إيران، أفغانستان، باكستان، الهند، تايلند، بنغلادش، وسجلت نقاطاً كثيرة، وسألت أسئلة كثيرة، ثم تركت الموضوع، لم أكتب به أيّ كلمة، لكني ظللت أتخيل نفسي منغمساً بالفكرة، حتى ظهرت أحداث أخرى لها علاقة ضئيلة بالموضوع، ثم أكملت الفكرة في رأسي، فبدأت الكتابة حتى انتهت الفكرة، كنت أكتب يوما 500 كلمة، وآخر ألف كلمة، وأزيد وأنقص في أيام أخرى، وأحياناً أقف إن رأيت أن العمل سينزل عن مستواه، أقف حتى أجد ما يجعل عملي متناسقاً، فأعاود الكتابة. هذا يعني أنني كنت لا ألتزم بأي نظام. حين انتهت رواية "هزائم وانتصارات" أصبحت أطول رواياتي نحو 512ص من القطع فوق المتوسط، لكني أظنها أفضل ما كتبت.

لا أوصي الكتاب الشباب بطريقتي كما لا أوصيهم بخطة كراهام كرين أو بأي خطة أخرى، أوصيهم أن يفكروا ويكتبوا فقط، وحسب المنهج الذي يليق بهم، وكثيرا ما سئلت من قبل طلاب جامعة "دي بول"، أو "ليك فورست"، حيث كنت أحاضر، عن الموضوع نفسه، وكنت أقول لهم: تبنوا أي طريقة تظنون أنها توصلكم إلى غايتكم، ليس مهماً طريقة فلان أو علان. جربوا وجربوا وجربوا حتى تصلوا إلى الطريقة المثلى؛ ففي الموصل يعدون حشية الكبة على طريقتين: مع البصل ثم يقلون الجميع بالدهن، وهناك من يعدها من دون قلي. وربما كان هناك فريق ثالث كالسوريين، واللبنانيين، يبقونها نيئة، كلٌ يعدها بطريقته. ما يروق له ويشتهيه. هذه هي الطريقة المثلى.

**** الهجرة كانت حاضرة في أعمالك بوصفك أحد المهاجرين بعد أن تنقلت بين بلدك العراق (الموصل - البصرة)- (المحمدية) المغرب – الإمارات - (شيكاغو) الولايات المتحدة وجسدتها في ثلاثية شيكاغو (حافة التيه)، (أسدورا)، و(زيطة وسعدان). هل ترى أن الموضوع يحتمل المزيد من الكتابة عنه؟**

- هجرتك تعادل إقامتك في وطنك، أو إقامتك في أي مكان آخر، لا فرق بين

الهجرة والمكوث في الوطن، لأنك واحد، ومشاعرك واحدة، وتفكيرك هو هو. فإن كنت مقيماً ستفكر دائماً فيما تكتب، وإن انتقلت ستفعل الشيء نفسه. أفكارك لن تتوقف قط، وحسبما يقول علماء النفس، لا يتوقف التفكير قط، الإنسان يفكر أربعا وعشرين ساعة، حتى عندما تنام تفكر، ولعل تفكيرك في النوم ينعكس على فكرك في أحلامك.

أنا كثير التنقل، ربما زرت أكثر من ثلاثين بلداً، قلمي معي، وكمبيوتري معي. في الحقيقة أنا كتبت أكثر من 30 رواية، فقدت بين خمس وست، لا أتذكر كم بالضبط، وبدأت ببعض الروايات ولم أنهها، وهي كثيرة، ولعلك لا تصدق إن قلت لك أنني كتبت عن الهجرة ما يأتي: ثلاثية شيكاغو، زنقة بن بركة، نطة الضفدع، هزائم وانتصارات، لست الأول، "يعني سبع روايات". وعندي روايتان لم أنشرهما أيضاً، وفي رأسي أفكار غير متكاملة عن روايتين أيضاً، لكني بدأت أشعر بالتعب وثقل العمر، ولا أدري أسأبدأ بهما أم لا.

**** "كلما أطبقت عتمة جديدة على الأمة اشتدت الحاجة لظهور المفكرين الكبار" - يقول يورجن هابرماس (فيلسوف). مع الأزمات المستمرة في الوطن العربي هل ترى أن المشهد الثقافي العربي والعراقي بشكل خاص ولد عدد كاف من الكتاب والأدباء والمفكرين أم أننا نعاني من الفشل في هذا المجال أيضا؟**

- نعم، نعاني من الفشل أيضاً، فكما أن الحياة لا تتوقف، كذلك الحاجة إلى المفكرين والكتاب لا تتوقف. انظر إلى السيارة، أي سيارة طراز جديد، سترى فيها أشياء جديدة، قبل يومين ذهبت لأتسوق بسبب حصار السيدة كورونا، فرأيت سيارة كورية جديدة، استوقفني تصميم الضوئين الأماميين، الضوءان لوحة مبتكرة هائلة، فائقة الجمال: غطاؤهما، سمك الزجاج، زخرفة الزجاج، الطبقات المتعددة الداخلية، تصاميم كل طبقة إلى آخره. كان بإمكان الشركة المنتجة أن تضع تصميم المنتج الخمسيني، بدل هذا التعقيد الهائل، لكنها لو فعلت، لما أعطت ذلك المفهوم الجمالي الجذاب، هذا يعني مصمم جديد، مفكر جديد، كل حقل في الحياة يريد تجديداً، والتجديد يعني مفكراً، فيلسوفاً، كاتباً مصمماً جديداً.

كنت مدعواً لإقامة في ولاية أخرى، وكنت أقضي معظم وقتي في مكتبة الإقامة، وكان معنا معماري مشهور، فسألته: كم فرق تكلفة بناء مثل هذه المكتبة "وكانت مبتكرة رائعة" أو من دون إضافات تحديثية؟ قال الفرق أربعة أمثال التكلفة. هذا المقدار الهائل يعطينا فرقاً في التحديث: بناء مستحدث بتصميم جديد يعادل أربعة أبنية بتصميم قديم.

ولعلك إن نظرت إلى تحديثات زها حديد في المعمار، ستتخيل تكلفة فروقات التحديث والتجديد والابتكار، وأظن أن تكلفة بناء زها مقارنة بتكلفة البناء نفسه تقليدياً، سيفوق عشرة أمثال إن لم يكن أكثر.

أظن أن بنا حاجة إلى مفكرين مجددين بنسبة لا تقل عن عشرة أمثال ما عندنا،

لكي نقود بلدنا وشعبنا نحو التطور، والمعاصرة، والبناء المستقبلي. لهذا أظن أن بنا حاجة إلى كليات تعليمية متطورة، نهتم بالتجديد والتطوير، وإلى مفكرين تجريديين "فلاسفة" يهتمون بالتجديد والتطوير أكثر من أي شيء آخر، فهؤلاء سيحاولون القفز بأوضاع المجتمع.

ولكي أقرب الفكرة للحاجة إلى المفكرين والمطورين، أريك مبنى متطورا لبناية مكتبة، كان يمكن أن يكلف ربع المبلغ إذا بني ببساطة من دون تزيينات "ديكورات" لكن الحياة لا تقف على القديم وتزهد بالنفقات، يجب أن نزين ونطور.

**** نعلم ماذا أضفته إلى عالم الأدب على المستوى الوطني والعربي، ولكن ماذا أضاف الأدب لك كانسان؟**

- الأدب هو وجودي كله، لا استطيع أن أفكر في عالم يخلو من الأدب والرواية بالذات، أعطتني الرواية كل شيء، هي تعادل الحياة عندي، أنا أسافر كل سنتين إلى بلد عربي لأشتري في الأقل خمسين كتاباً، لأن شيكاغو تخلو من مكتبة عربية، والكتب التي نحصل عليها بوساطة الإنترنيت تكلف كثيراً مع الشحن، فالتي ثمنها في بيروت أو القاهرة عشرة دولارات عندما تصلنا تحمّل في الأقل 15 دولاراً إضافياً، وهكذا، لكن الكتب مهما غلت فهي رخيصة، ووجودها أفضل من عدمها، ولولا العناية الصحيّة المجانية المتوفرة هنا لما بقيت لحظة واحدة، فأيّ مدينة في العالم تتوفر فيها الكتب ستكون موطني.

**** العالم يتغير بسرعة، فايروس كوفيد19 (الكورونا) كشف عن مفاهيم اعتمدتها الدول والمجتمعات البشرية بسرعة لاحتواء المرض مثل الحجر المنزلي، التباعد الاجتماعي، التعليم المنزلي الالكتروني والتسوق الالكتروني. كل هذه المفاهيم هل ستنعكس على مراجعة الإنسان لذاته وكشف حساب لما فعله وسيفعله في المستقبل وكيف سيؤثر ذلك على الكتابة والكتّاب؟**

دائماً العالم يتغير بسرعة، لكن القضية تختلف من مكان إلى آخر، في الغرب لا يحسون بالتغيّر، لأن وقع حياتهم السريعة تجعلهم في انتقال دائم، يفوت عليهم ملاحظة فقدان واقعهم المعيشي، والحياتي، فمن كان يسافر للعمل اليومي في الضاحية، ربما يلاحظ أو يغفل أن القطار الذي يتخذه يومياً، قد تغيرت سرعته قبل أسبوع من 60 ميل في الساعة إلى مئة وخمسين ميلاً، ولولا مصادفة رؤيته ازدحام العربة بمناسبة قيام لعبة كرة قدم، في الملعب الجديد، لما لاحظ سرعة القطار الجديدة، لكنه اضطر للوقوف طيلة نصف ساعة هي مدة الرحلة.

أما نحن فجديدنا قليل وضئيل، لكنا نصفق له، ونحتفل به، بعد أن نقضي سنة كاملة نتوقع حدوثه، نتبادل الأخبار عنه، ونفكر طويلاً في خلق مناسبة لافتتاحه، تكون نقطة تجديد نلتهي بها، ثم نلتهي به.

ستتغير أمور كثيرة في الغرب، وستتبدل أنظمة حكم لا تحصى، أما نحن فسننتظر حتى تتحول العاصفة إلى موجة عادية، لكننا سنعاني سلباً وإيجاباً ما دمنا بعيدين عن الديمقراطية الحقة، وحرية الفرد.

**** كيف تقيّم ردات الفعل للأوساط الثقافية العالمية على نتاجكم الأدبي؟ وعلاقتكم بتلك الأوساط الأدبية في الولايات المتحدة التي تعيش فيها؟ وهل أنت راض عن ترجمة بعض أعمالك الأدبية من اللغة العربية إلى لغات أخرى؟**

- نعم، الحدّ الأدنى، لأن شركات النشر، نادراً ما توافق على نشر الكتب غير الأمريكية والأوربية، أو المشهورة جداً لبعض الكتاب اليابانيين وكتاب الدول اللاتينية، أي التي تكتب بالإسبانية والبرتغالية، أما باقي كتب آسيا وأفريقيا فلا تنشر سوى جزء من المشهور الذي يزكيه كتاب أمريكان مشهورون، وإن نشر فتنشره شركات تعود إلى جامعات أو ما يطلقون عليه "الشركات الصغيرة".

أنا وأمثالي لا نحظى حتى بالشركات الصغيرة إلا بشق الأنفس، لأن آلية النشر في الولايات المتحدة وأمريكا لها نظام خاص لا نعرف عنه شيئاً، فحالما ينهي الكاتب الأمريكي مخطوطته الأولى يرسل نسخة منها إلى وكيل أدبي، عندنا لا يوجد وكيل أدبي مثلهم، الوكيل الأدبي يأخذ على عاتقه نشر كتاب ومقالات الأديب، ويأخذ نسبة من الربح بعد النشر. الوكيل يوزع المسودة، وخلاصة المضمون، ويذكر لماذا هذه المخطوطة مهمة، ويرسل المسودة على بضعة كتاب، ومجلات وصحف في أنحاء البلاد، ليكتب كل واحد منهم بضعة أسطر عن الكتاب يضعها على الغلاف. إن وفّق الكاتب إلى كتابة شيء جاذب، حاز رضا شركات النشر، فسينشر الكتاب. الوكيل الأدبي في أمريكا يهودي على الأغلب، ومن المستحيل أن يقبل بتبني نتاج كتاب مسلمين، إلا بوصيّة من كتاب يهود مشهورين وهذا غير وارد.

**** رواية (أنا الذي رأى) التي تغير اسمها عند ترجمتها باللغة الإنكليزية أولاً ثم بالايطالية ولغة المالاليام الهندية إلى (مدينة صدّام) حصلت على تقويم جيد كأحد أفضل نحو 70 رواية منذ سنة 2007، حسب موقع Library thing في نيويورك. هل السبب هو محتواها الإنساني أم ظروف النشر أم أسباب أخرى؟**

- موقع Library thing في نيويورك مكوّن من مثقفين من جميع أنحاء العالم، متطوعين لكتابة تقرير عن مستوى أي رواية تصدر بالانكليزية أو تترجم إلى الإنكليزية في العالم، ويختار هؤلاء المتطوعون من كل قطر في العالم رواية واحدة، حسب معايير: إنسانية، أدبية، تتبنى مبادئ وقضايا مهمة تعزز رغبات وتطلعات الشعوب نحو الأفضل وأشياء أخرى، وحينما يضعون رواية في القائمة تصبح هذه الرواية ممثلة للقطر. فمثلاً قبل سنتين استبدلوا رواية إيرانية كانوا قد أعطوها ثلاث نجوم، بأخرى رواية مصوّرة برسوم توضيحية، أعطوها 5 نجوم، وهي عن سيدة قاومت نظام الملالي في إيران، واستطاعت الهروب من الجحيم، (Pers-polis by Marjane Satrap).

رواية الرسوم التوضيحية لا نعرفها في العالم العربي. فن جديد ظهر قبل نحو

عشر سنين، يكتبون الحوادث ويوضحونها برسوم كاريكتيرية، وبهذا يختصرون 300 كلمة بما لا يزيد على 30 كلمة، وبهذا يقرأون الرواية مهما تكن طويلة بيوم واحد، ويساعدهم على فهمها الرسوم، وهذا الفن بدأ الآن في مصر، لكنه لم يقم على رجليه بعد إلى حد الآن.

أعطت القائمة لسليمان البسام من الكويت خمسة نجوم لمسرحيته "قمة هاملت". وهكذا ترى أن الموقع يعد حكماً عادلاً لجودة الروايات في العالم كله، ولا سبيل للطعن فيه. الرواية التي تحصل على أربعة نجوم يعني أنها من أفضل الروايات في العالم، وقد حصل عليها نحو خمسة عشر روائياً من بينهم جارسيا ماركيز، وماريو يوسا، وساماراكو، وأوهان باموك التركي. أما خمس نجوم فلم يحزها سوى سليمان البسام الكويتي على مسرحتيه قمة هاملت. أما العرب الباقون فحازوا في مصر والأردن ولبنان على ثلاثة نجوم.

****هل هناك دور للأدب الغربي في ترسيخ مفاهيم حقوق الإنسان وأنت تعيش منذ عشرين عاما في الولايات المتحدة؟**

- لا، الأدب الأمريكي يعيش في حرية تامة، ولا يهتم الأدباء بهذا الحزب ومبادئه أو ذاك، ولا بهذه الفكرة أو تلك، لكن الجميع يدعون ويرعون التوجه الديمقراطي، والجميع يسعى لتثبيت حقوق الإنسان بمختلف معانيها، لذلك ترى الكتاب يعملون لحقوق المرأة والأقليات والتحرر من التعسف والاضطهاد، وليس هناك ضغوط من أي جهة، أو أي سلطة حكومية أو أهلية على الأدب والأدباء.

أما في العراق فهناك منظمات تشكلت حديثاً، لكن لا أظن أنها تستطيع أن تمارس نشاطها وسط الفوضى التي يسيطر عليها المليشيات، لأن سيادة الحرية تعني التحرر من ديكتاتورية المليشيات ومنظماتها، وأخطبوطها المسيطر على الحياة العامة، وبخاصة الهيمنة الدينية المزيفة. ولكي تبقى هذه السلطة الهمجية مهيمنة على البلد فهي تخطط للسيطرة على موارد البلد، ومقدراته، وعلى العسكر في العراق.

لا سيما وأن الديكتاتورية سائدة في الدول العربية المحيطة بالعراق، ولهذا لا يمكن أن تترسخ مفاهيم حقوق الإنسان عندنا في العرق. إن كثيراً من المثقفين لا يعرفون معنى المؤسسات الدستورية قط، لأنها معدومة تماماً، وكان من الممكن أن تنشأ وتتوطد قبل 58، لكن حال العسكر دون ذلك وسيطر الضباط على الحياة، ثم ظهر بصيص في زمن حكم عبد الرحمن البزاز، لكن أمريكا وحزب البعث أجهضا التوجه.

**** عندما يفكر المثقفون في سبب تخلفنا لا يتفقون على سبب معيّن، مرة يقولون إنه الاستعمار، لكن معظم دول آسيا وأمريكا اللاتينية رضخ إلى الاستعمار، لكن بعضهم تطور بشكل كبير كماليزيا وسنغافورة ودول الخليج وبخاصة الإمارات، وجنوب أفريقيا، وتايوان، وبعضهم راوح في مكانه مثلنا وسوريا وبقية الدول العربية، وإيران إلخ ما السبب؟**

- لا أظن أن هناك إجابة علمية دقيقة، تستند إلى مقابلات واستطلاعات، لكني أظن أن هناك سبباً يبدو لي معقولاً، عندما هزم العثمانيون وسيطر الانكليز، فرضت القوة المسيطرة مبادئ وقوانين التزمنا بها إلى الآن، كانت هي سبب تخلفنا. هذا رأيي. ما هذه المبادئ؟

1 - فرضت مسز بيل الطائفية كقانون لا يمكن التخلص منه، هي أول من قالت: نسبة الشيعة، السنة، الأكراد كذا بالمئة، وكذا، وكذا. وهذا هراء، فإن لم يكن العثمانيون أو الإنكليز قد أجروا انتخابات واستفتاءات وتعداد سكان فعلى أي أساس قسمت مسز بيل البلاد والسكان والنسب؟ ولحمقنا وقلة ثقافتنا رضينا بما قالت، واعتبرناه قانوناً إلى الآن، وعندما احتلت أمريكا العراق، تكرر فرض الشيء نفسه وأصبحت واقعاً ولم يحتج عليه أحد، ولم يناقشه أحد. فتكرست الطائفية والمحاصصة بالبلد.

2 - عندما وضع الانكليز القانون العراقي، وضعوا أسسا خاطئة مازلنا نتبعها، وكان سبب تخلفنا وتكريسه إلى حد الآن. وتفصيل ذلك كالآتي: السلطة الانكليزية هي التي وضعت درجة 50 في نجاح الإعدادية لمن يدخل الحقوق والعسكرية، وهذا يعني أن السلطتين التشريعية والتنفيذية ستكون من نصيب أغبى أفراد المجتمع، فمن يحصل على خمسين يذهب إلى الجامعة ويتخرج حقوقياً يشرع القانون في المستقبل، ومن سيحافظ على الوطن هم الضباط (درجة ذكائهم خمسون) وهي أقل درجة تحصيل يتخرج في الجامعة. أما السلطة التنفيذية فستكون من تزاوج هاتين السلطتين. فإن كان مشرع القانون ومنفذه وقائد البلد ذوو معدل خمسين فكيف سنتجاوز التخلف؟

الخطوة الأولى للبدء في طريق المستقبل، هي تعديل جدول تحصيل الناجحين في الثانوية، قبل توزيعهم على الكليات، كما في الغرب، لا ينظرون إلا لمستوى الذكاء، ولا يضعون درجة نجاح لمن يتجاوز الثانوية، ويقبلون معدل ذكاء أي كان للمتقدم حتى لو كان الطب والهندسة، فمن ينجح في الثانوية عليه أن يجتاز الرياضيات واللغة فقط، فمن كان معدله ضعيفاً، فسيرسب في الجامعة، أما العسكري والحقوقي الناجح والطبيب والمهندس ووو.. فسينجح الذكي منهم في الكلية.

**** كلمة أخيرة.. ماذا يريد الروائي محمود سعيد أن يقول؟**

- أريد أن أقول إنني أتمنى وجود نظام حكم في وطني، نزيهاً نظيفاً يهتم بالشعب، ويقضي على الفقر والجوع كما نراه الآن في أوربا وأمريكا، ويهتم بالمدارس والطلاب ويخلق نوعاً من العدالة في توزيع الثروة، ويطور البلدان والمدن والقرى، فلعله يوفق في خلق البسمة على الوجوه المدقعين والمعوزين وبخاصة الأطفال، وهذا لا يتحقق ما لم نغير أنفسنا، ونتثقف، ونلفظ الكسل والتخلف، ونقبل على التعليم بشغف.

غوغول الذي فقد وطنه وضحك على كلماته المرة

بقلم: إيغور شوشارين
ترجمة: عادل حبه

نيقولاي غوغول

قبل 210 أعوام وفي مقاطعة بولتافا، وُلد الكاتب الروسي ذو الجذور الأوكرانية البولندية من عائلة غوغول يانوفسكي. قام برفض الجزء الثاني من اللقب، وعاش في سانت بطرسبرغ.

وقد ورث غوغول من أبيه موهبة الراوي واهتمامه بالمسرح وسوء الحالة الصحية. عن الأم ورث، الشك وترديد الخرافات. توفي أكبر طفلين في الأسرة بعد الولادة بوقت قصير، لذلك بذل الزوجان قصارى جهدهما لحماية الوريث الذي طال انتظاره، والذي سمي على اسم القديس نيكولاس العجائب. وقامت الأم الحامل بالصلاة أمام أيقونته، وكانت تقوم بالحج إلى الكنيسة في قرية ديكانكا، التي تبعد 30 ميلاً عن ملكية عائلة فاسيليفكا.

وكان من أصل 12 طفلاً ولدوا لها، نجا خمسة فقط، وهم نيكولاي وأربع من شقيقاته. كانت صدمة الكاتب المستقبلي بوفاة شقيقه الأصغر، الذي تم إرساله معه إلى مدرسة بولتافا. ولكي لا يكون لدى الصبي ذكريات مؤلمة، فقد تم نقله إلى نيژن، إلى ثانوية العلوم العليا.

درس غوغول المرحلة المتوسطة. ولم يتم تعلم اللغات بشكل خاص، على الرغم من أن المعلمين لاحظوا ذاكرته الممتازة. كانت موضوعاته المفضلة هي الأدب والرسم الروسيان، وكانت هوايته الرئيسية مسرح المدرسة. وهنا شعر غوغول وكأنه سمكة في الماء، كان مخرجاً ومصمماً وممثلاً. وذكر شهود عيان أن الجمهور كان يذرف الدموع من شدة الضحك في مسرحيته، ولعب نيكولاشا أدوارا أنثوية. بشكل عام، تم وضع أسس النجاح المقبل لمسرحيات غوغول هنا، على مسرح المدرسة الثانوية. ثم بدأ في التأليف، جنبا إلى جنب مع رفاقه. وصار ينشر يوميات مكتوبة بخط اليد. ومع ذلك، نظر إلى السنوات التي قضاها في نيژين بشكل نقدي، ويشكو لوالدته من أن ست سنوات قد "ضاعت من عمره" في الدراسة. وخلال هذه الفترة، توفي والده في آذار عام 1825، وأضحى نيكولاي الرجل الوحيد في الأسرة، ما فرض عليه القلق والالتزامات الجديدة. لكن الأم كانت تدعم الطفل الأول لفترة طويلة أخلاقياً ومالياً.

وصل غوغول، الذي كان يحلم بالمجد الأدبي، إلى بطرسبرغ عام 1828. وكتب غوغول إلى والدته: "لم تبد لي بطرسبورغ ما كنت أتصوره على الإطلاق، لقد تخيلتها أكثر جمالاً وروعة". وتعرضت مؤلفاته الإبداعية الأولى إلى تقييم سلبي وإلى الإخفاق، فقصيدة " Ganz Kuchelga-ten"، التي كتبها في نيژين، ونُشرت في العاصمة تحت اسم مستعار "ف. ألوف"، تعرضت لانتقادات لا ترحم. واشترى غوغول نسخة وأحرقها في مدفأة غرفة الفندق.

كان هذا أول استعراض لـ "فيروس التضحية بالنفس" الذي سمم روح الكاتب طوال حياته. فعلى سبيل المثال، هناك دليل على أن غوغول قد كتب مسرحية عن القوزاق وأعطاها لجوكوفسكي، الذي استغرق في النوم. وعند رؤية ذلك، غضب غوغول وألقى المسرحية في المدفأة وحرقها...

وإلى جانب ذلك، أحرق غوغول في الفندق إذن، في الفندق، أحرق مع "غانتس" مسودات الشباب، باستثناء "كتاب كل أنواع الأشياء". وقد قدم غوغول فيها وصفاً للأطباق والأمثال والأغاني، من بينها تلك الفواحش المتعلقات بالبيئة الروسية الصغيرة. ويمكن اعتبار ماما، التي طلب منها غوغول وصف العادات والتقاليد المحلية، مؤلفة مشاركة في الكتاب. "وجرى تناول سلوك عامة الناس من المعتقدات والأساطير الرهيبة والحكايات المختلفة في الرسائل المتداولة بيني وبين أمي...". وهكذا جرى التمهيد لرواية: "ديكانكا" و"يرغورود". لكن بسبب الصعوبات المادية التي واجهها، دخل غوغول إلى ميدان الخدمة المدنية: وعمل كادحاً في الإدارات - عمل كاتباً، و"تدرج" إلى كاتب مساعد. كانت رتابة وملل مؤسسات الدولة لا تطاق. لكنها قدمت أيضاً خبرة لغوغول لا تقدر بثمن، والتي أصبحت مفيدة لاحقاً لكتابة سلسلة من "قصص بطرسبورغ" ("الأنف"، "المعطف"، "شارع نيفسكي").

وبعد نشر كتاب "أمسيات في حقل بالقرب

من ديكانكا" تم رسم صورة لأوكرانيا بشكل مجازي، مليئة بالعواطف والتخيلات والحوادث الغامضة والضحك الجامح، حتى انه رآها في أحلامه. لقد قرأت "أمسيات بالقرب من ديكانكا". لقد أذهلتني. لقد استجاب بوشكين لقصص غوغول المتعلقة بالفولكلور الأوكراني. إنه ابتهاج حقيقي، صادق، غير مقيّد... وأحياناً بأسلوب شعري! يا لها من حساسية!. وأثار فيلم "Dikanka" إعجاباً كبيراً، حتى أن زوجة نيكولاس الأول انجذت للكتاب.

التقط المصور الروسي سيرجي ليفيتسكي الصورة الفتوغرافية الوحيدة لغوغول عام 1845 في روما، حيث التقى بمجموعة من الفنانين الروس.

أصبحت القصص الروسية الصغيرة موضع إهتمام للفئات الطموحة في المجتمع الراقي: وأصبح غوغول قريباً من البارون ديلفيج والأمير فيازيمسكي، والشاعر فاسيلي جوكوفسكي. وهذا الأخير الذي كان مفتونا بغوغول، قدم له المساعدة في الحصول على وظيفة معلم في المعهد التكنيكي. وفي عام 1834 أصبح غوغول مساعداً في قسم التاريخ في الجامعة. ومنذ ذلك الوقت يتم التعامل معه بلطف من خلال الشهرة، ومعارف الفئات العليا في المجتمع، وبعد أن وصل إلى الحياة البوهيمية، بدأ في متابعة الموضة، وإهدار المال، وتغيير الشقق.

في عام 1832، في الفترة الفاصلة بين المشاغل في العاصمة، زار غوغول وطنه، وكانت الأسرة تحيى حياة مزرية، كما أصيب غوغول بخيبة أمل من ذكريات الطفولة: فالحقائق الروسية الصغيرة كانت مختلفة بشكل لافت للنظر عن عالم "ديكانكا" الذي فكر به، أو أنه تغير هو نفسه داخلياً. فروحه الأوكرانية تتلاشى "أنا لا أعرف ان كنت - بربرياً أم روسياً؟")، بينما يزدهر طموحه الإبداعي ورغبته في الدوران في حلبة أقوياء هذا العالم.

شحذ غوغول قلمه بجنون، وفي خلال عدة سنوات كتب "ميرغورد" وكأنها استمرار لـ"ديكانكا"، كما كتب مسرحية "المفتش العام" و"العرسان"، "النفوس الميتة"... وكان أداؤه مذهلاً. ونتيجة لذلك تمتع غوغول بالمكانة والشهرة والنجاح. وحضر القيصر نفسه في العرض الأول لـ"المفتش العام" (دعم القيصر نيقولا الأول غوغول مادياً وبالمنح الإمبراطورية التي يسرت له حياته في الخارج. ولكن بعد عرض مسرحية "المفتش العام" الفاضح (1836)، حدث شيء ما مرة أخرى في حياة غوغول، فالكفاءة أخذت بالتراجع، وبدأ يتوقف عن التواصل مع العائلة والأصدقاء، ويشكو للقلائل المتبقين من الهواجس المرتبطة بالخوف من الموت. وظهرت الأعراض الأولى مع كتابة "فييء"، فسافر إلى الخارج متعباً ومدمراً أخلاقياً وهارباً من الواقع الروسي.

بقي غوغول في أوروبا، مع فترات راحة قصيرة لما يقرب من 10 سنوات قضاها في ألمانيا وسويسرا وفرنسا. لكنه قضى الفترة الأطول في إيطاليا، التي أحتلت في روحه مكان "الوطن المفقود - أوكرانيا". ففي رسالة إلى جوكوفسكي من روما،

يقول: "لقد ولدت هنا. في روسيا، سانت بطرسبرغ، حلمت بالثلج، بالأوغاد، بالقسم الدراسي بالمسرح. واستيقظت مرة أخرى في الوطن... "وعاطفياً، في النهاية:" أعمل وأسرع لإكمال عملي بكل ما أوتي من قوة. الحياة الحياة! إنني مازلت على قيد الحياة!".

إن عمله هو المجلد الأول من "الأرواح الميتة"، وهو ما أضافه في روما. وتم نشره في عام 1842؛ الكتاب، واستقبل بشكل متفاوت على غرار مسرحية "المفتش العام". وفي عام 1839، عاد الكاتب إلى وطنه، لكنه عاد إلى إيطاليا في الربيع، وهو يقول "يبدو أن روسيا قبر وإيطاليا جميلة". وجرت العودة النهائية فقط في عام 1848م، بعد وقت قصير من زيارته لفلسطين. ثم عاد مختلفاً تماما إلى روسيا... مريضاً ومنهكاً، بعد أن فقد إمكاناته الإبداعية، ومتدين بشدة. وأصيب بخيبة أمل في الحياة، لكنه مرعوب من الموت.

كتب غوغول مبكراً (الوصايا). وكان يعاني طوال حياته من مشاكل صحية. حتى أن بيلينسكي الناقد صرح بأن غوغول "ليس كل شيء على ما يرام مع رأسه". يعتقد الطبيب النفسي أن مستوى الطب في ذلك الوقت أدى فقط إلى تسريع موته: "لقد وضعوا العلقات عليه، وقاموا بإراقة دمائه، الأمر الذي أدى بجسده الضعيف إلى الإضرار بصحته. نعم، كان غوغول به حاجة إلى مساعدة طبيب نفسي، ولكن قبل 200 عام لم يكن هناك فرع من هذا القبيل في الطب".

كرّس غوغول السنوات الأخيرة من حياته للعمل على المجلد الثاني من "الأرواح الميتة"، وإعادة صياغته باستمرار وبصورة مؤلمة. وكانت النهاية الحزينة لهذا العمل في ليلة 11 شباط 1852، حيث أحرق المخطوطة وتوفي في 21 شباط، قبل بلوغه سن الثالثة والأربعين.

وقد نُقشت كلمات النبي إرميا على النصب: "سأضحك على كلماتي المُرة". في عام 1930 تم إغلاق الدير وتصفية المقبرة. بعد ذلك بعام، تم فتح قبر غوغول ونقل الرفات إلى مقبرة اخرى. وبعد الحرب، أقيم له نصب تذكاري جديد، مع نقش جديد: "إلى الفنان الروسي العظيم، كلمات لنيكولاي فاسيليفيتش غوغول من حكومة الاتحاد السوفيتي". مثل هذه المرثية لا يمكن تخيلها حتى من قبل مفكر استثنائي مثل غوغول.

قصائد زن
للشاعر الكوري كو أون

ترجمة : سهيل نجم

(إن كو أون شاعر مدهش، خليط من البوذي العارف والسياسي ذي العقل التحرري والمؤرخ الطبيعي).

الشاعر الأميركي ألن غينسبرغ

الراهب جيونغو

أنت لست أنت
إن لم تعرف عن النبيذ والنساء.
ناهيك إن كنت لا تعرف عن البقية
لذلك بنى زوج قديم من العقعق
عشهما على رأسك.

ثياب

جلب الملك أشوكا طقم ثياب
فاختفى مانجوشري.
ولا سبيل إلى ذلك.
عاد الملك أشوكا إلى منزله
وارتدى الطقم.
عندها أدرك أن «النهر هو النهر».

مخمور

لم يحدث لي أبداً أن كنت كيانا فردا.
ستون تريليون خلية!
أعيش جماعياً.
أترنح إلى هنا وهناك،
ستون تريليون خلية مخمورة كلها!

قمر منتصف النهار

الوجه الشمسي لبوذا عمره ثمانمائة عام
والوجه القمري لبوذا عمره ليلة واحدة
وجه الشمس ووجه القمر يقال أنهما ليسا اثنين
بل واحد.
إن كان ذلك صحيحاً
فإن القمر يطلع
بعد الغروب.
أنظروا إلى قمر منتصف النهار ذاك.
ليس سوى نكرة!

وابل مفاجئ

انسكب أكثر من بليون بوذا
فطفقت البحيرة تبقبق.
وفضلاً عن جثث بوذا
ثمة جثث تطفو أيضاً.
هذا برد حقيقي.

صديق

مرحا! بالطين الذي أخرجته
صنعت بوذا.
وإذ أمطرت
عاد بوذا ليكون طيناً.
لا ملامح له كما هي السموات بعد المطر.

شبح

إليك أنت يا من تسير عابراً جانب التل!
الغزلان تنمو لها قرون!
وحين أمسكت الرياح بتلك القرون
لم تستطع زحزحتها انجاً واحداً.

المعلم بوجو من غوريو

وقف أحدهم على رأسه
ممارساً اليوغا حتى مات.
وراكم آخر
الخشب وأشعل فيه النار
ثم قفز على قمتها
ليغدو «زهرة لوتس ملتهبة».
المعلم بوجو من غوريو
جلس على منصته
ليجيب بمائة جواب على مائة سؤال
ثم نزل من منصته
وجلس على الأرض...
الأوراق الخضر تتحول حمراً ثم تموت.
آه، كلا، أوقف هذا كله.

ديك

عند الفجر يجلس ثلاثة ديكة جنباً إلى جنب.
لم يقل أحد منهم أية كلمة
عن جمال هذا العالم!
ولا عن جمال ذلك العالم!
كان ديك الأمس منسياً
كما أن الوقت مبكر جداً لديك اليوم.
أحلى أوقات اليوم!

السؤال عن الطريق

أنتم أيها المغفلون يا من تسألون من يكون بوذا
اسألوا على كل حي بدلاً من ذلك.
اسألوا على كل الأحياء.
عندما تجوعون
اسألوا على الطعام.
اسألوا ضوء القمر على الطريق.
ابحثوا عن المرفأ حيث تزهر أزهار الليمون،
حيث تزهر أشجار الليمون.
اسألوا على أماكن للشرب في المرفأ.
اسألوا واسألوا حتى لا يبقى شيء يحتاج إلى سؤال.
طيور العقعق الصغيرة
أنت أيها الأبله، ألا تعلم؟
كان والد شاكيموني جنياً،
وليس الملك سودهودانا.
زقزقة فوضوية لصغار العقعق في الفجر.
أي جمال!

الطريق

اتخذ هذا الطريق. إنه يقود إلى النرفانا.
عذراً.
سأتبع طريقي الخاص.
فوق المنحدرات الصخرية أو تحت الماء.
ذلك هو طريق المعلم القديم، طريق الجثة.

بوذا العجوز

اسمع، ما الذي كنت تقوله عن بوذا العجوز؟
فبوذا العجوز ليس ببوذا.
بوذا الحقيقي سمكة تم اصطيادها للتو
وها هي تثب وتتقافز.

ضفدعة خضراء

معلمي ليس الراهب هيوبونغ.
بل الضفدعة الخضراء
الواقفة منذ عشر سنين بلا حراك
عند نقطة جذب.

بعوض

لقد قرصتني بعوضة.
مليون شكر.
لماذا؟
لأنني حي بالفعل.

اصدقائي من اجل البَشَرَة

للشاعر الايطالي: فنجنسو رومانيوولو
ترجمها عن الايطالية: عبدالوهاب الدايني

مثل ضوء عظيم
يشع في الداخل
من الروح...
القلب
ملفوف بكل آلاف
تناقضاته
لانه موجود وعائش
.....
احياناً في الليل
متعب... مرتبك
بين الوسن والتناوم
يكلمني
مثل صديق
عن الحب
وعن الحياة
.....
هو يطرق
وفرحا يجيبني
ومثل احمق
ينبض بسرعة.... لاهثاً
وبعد هنيهات
يهدأ ويستريح
سعيداً.... لينام
.....
كم هي غريبة الحياة
نولد ونمضي معاً
أنا عجوز حالياً
وهو لا يزال شاباً يشبه طفلا تقريباً
دون أي أثر
لتجعد صغير
مع ركن تملأه المشاعر
ينبض بقوة من اجل ربيعٍ حب مترع
.....
اتفق صديقي...
لنعمل ميثاقا
بين صديقين حقيقيين
"عندما ستكونَ انت
ايضاً متعباَ وتريد ان تتوقف
نبهني.... إصفر لي
وأنا.... من خلفك
سأتبعك... الى اللقاء"
"Ciao"

أنتِ حُرّيتي ..

شاكر السامر

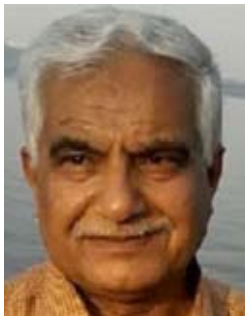

اليوم قررتُ أن أكتب عنكَ وعنها، فلا بُدّ لهذا الوجه البرونزي اللون بملامحه أن تعرفه الناس، فليس هو الحاضر معهم فحسب بل هو ماضٍ مليء بذكريات الحُب واللهفة، هو مشعلٌ متأجّج يضج بالشوق والشعر ولواعج الأسى..

وهو الذي لا يليق به إلّا هذا المكان الذي استقرَّ فيه أخيراً بعد معاناة ثلاثين عاماً قضاها في الركض وراء ديمومة الحياة.. وأي حياة لا يستطيع صاحبها أن يروي نفسه بكأس المحبّة؟ وأي حياة تتكسر الأشواق في صدره فلا يجد غير الدموع والتأسي..

سوف تبكين أيّتها الحبيبة، إذ تعرفين أنّكِ كنتِ يوماً

بل سنينَ شاغلة روحه في أصعب وأعسر سني العمر.. هكذا بحثتُ عنكِ في المصانع التي عملتُ بها، عند السلالم كانت رئتي تستنشق الهواء بقوة، فكل ما كان قريباً مني لا تناله يداي..

أنتِ.. مَن أنتِ ؟.. أنت نغمتي التي أرّقتْ عيني و ارتحلتْ في السراب.. الى مَن أمدّ أصبعي.. الى التي تزينت بالحزن مُبكّراً وهي تحلم بالأنوثة السرمديّة.. عنها بحثتُ في الشوارع، في سوق الشورجة وفي أروقة المباني الحكومية وفي البنوك، وفي سيارات (الكوستر) وبحثتُ عنها أيضاً في مطاعم الدرجة الثالثة، وعندما وقفتُ عند باعة الفلافل أخفيتُ رأسي.. تخيّلت أنها ستراني.. وتسأل عن السبب الذي أحرق رأسي بدخانه الأبيض.. ولقد كان العقل قاب شعرتين أو أدنى من الجنون.. جنونٌ في المساء إذ اعتدتُ أن أقرأ كلماتكِ وهي تتدلّى من شفة الذكريات على صفحةِ العيونِ المحمرّة من أرقٍ لا دواء له.

سأقولُ لها.. أنتِ مثلي صديقة عُمري.. أوّاه من لهفتي اليكِ، سألتاع كثيراً وأفرش عينيّ تحت مجيئكِ الحزين، وأستقدم أسلافي من غيابهم، كما أروّض فيهم الموت ليستنشقوا عبير الحياة ويستقبلوك كما تستقبل العصافير الفجر القادم من أعماق الوجود..

أيّنا ينتظر الآخر؟ أي حزنٍ ينهمر الآن؟ وأي بكاء يطغى؟ وبأي الكلمات تستقبل "شموس" أخاها العائد اليها؟ واليها وحدها..

هكذا تريده سرمديّاً في النفس يقاسمها مستقبل الحياة كما كان يقاسمها راتبه الشهري المتواضع قبل سبعة عشر عاماً ونيف.. وهكذا تمتمتُ سرّاً وأنا أهمُّ بالبحث عن دشداشتي البيضاء كأحسن زي عربي لأرتديه قاصداً قرية العائد "سالم".. قريب عزيز وصديق حميم..

أخبرني أخي الصغير "عامر" بعودته عصر هذا اليوم من الأسر، تكاد الروح تتقدم على القدمين، تقفز من فرحتها نحو البيت الكبير حيث مقرّ الأبوَين.. إنّه مثابة الأخوة السبعة للإنطلاق منه نحو ما تستقر عليه خير الآراء.. يكاد البيت يعجّ بالتسبيح والحمد والشكر والثناء.. وتزدحم الأفكار وتنطلق العجلة التي ضمت الأهل نحو قريته في مساء ريفي متوقّد بالشوق والحنين..

يا أيها السالم إن شاء الله.. اطمئن، فما الذي يشغلكَ الآن وأنتَ بين أخيكَ الوحيد وأمّكَ الثكلى بكَ.. وأنتَ حيّ في الأقفاص البعيدة الغريبة، كادت عيناها أن تبيضّا من الحزن وهي كظيمة لائبة تأكلها السنون العجاف ولا يأكلها اليأس ولا تقنط منه.. بصيص من الأمل يغمر نفسها ويديم عليها حياتها..

وستسألني عنها...

أكنتَ تنتظرها مثل انتظاري لتلكَ التي هجرتَها وهي في ريعان الشباب الى حيث يطلبكَ الوطن؟!

تُرى كيف قضيتَ الليالي البائسة وأنت على أَسرّة الغربة.. أيّ الممرات عَلقتْ في شفتيكَ وأنت تذكر التي شممتَ أناملها بين الأحراش.. ومسدّتَ ضفائرَها بكفيّكَ الطريتين كأنهما ليستا كفيّ فلاحٍ عريق.. أوّاه من لوعتكَ ولوعتها، وأنت تسترق النظر لمنام أهلكَ وتخفي ظلّكَ عنهم وتروغ سائراً على مُهرة أحلامكَ اللائبة بعد منتصف الليل المدجّج بأصوات الأشباحِ وفحيح الثعابين موقظاً كل حواسكَ لتفتح كوّةً من لذّة الأنثى في جسد المعشوقة "فاتن" أي خضرة ستلتهب بين يديكَ، وأي وردة تندى بعطر محبّتكَ الكبرى لها وتفوح شذىً بالشبق الفلاحيّ الهائج، وانتما تسقيان روحيكما من عسل اللذة ودفء الحنين..

هل ستحدثني عنها ثانيةً؟ وكيف تصبر على ذلك ساعات حتى تنتهزَ فرصة من بين عشرات ومئات الأقربين، لتطمئنّ عليها مني بسؤالكَ عنها بعد أن عاشت فائرة في دمكَ تلك السنين الملعونة.. تُرى أي شيبٍ أحرق رأس النسر، هل سأراكَ يا سالمٍ سالماً؟ كيف سيكون لقاؤنا نحن الأثنين ؟ أي عناق، وأي كلمة سأختار..! ستنتحرُ الكلمات على شفة الوفاء والشوق..

أذكرُإذ قلتها مرةً لي: "أن القويّ الشريف مَن لا يطأطئ رأسه للغرباء والأعداء" و"أن المنتصر في معركة الحياة مَن يرتقي بعد نهوض صعب".. ولكن ربّما للجواد أن يكبو.. وها أنتَ أيها الفارس النبيل قد عشتَ أسيراً وبقيتَ كريماً.

أيها الليل كيف لا تشرق بالبشرى؟.. فهذه ليلة ليست ككل الليالي، أيّتها النجوم لا تطفئ ألقكِ، وأنتِ أيّتها الفوانيس الحصاريّة توقّدي وشعّي بالنور حتى نرى ملامح وجهه..، أما زال مشرقاً بالسمرة والفرح..

أزيز الرصاص يعلو بإطلاقة من مسدس أخي "زهير" بعد أن ترجّل من سيارته..

شقّتْ أضواء الطلقات ظلام الليل القابع في أغوار البساتين ويلفّ البيت.. انحدرنا اليه من السدّة الغربيّة من نهر دجلة في منطقة "الزويّة" ذات البيوت الحديثة (على أنقاض البيوت الطينيّة القديمة).، المحاطة بأشجار النخيل والحمضيّات العراقية وأشجار العرموط والزيتون والصفصاف السامقة، لكنّها في الليل كأنّها كسفٌ من الظلام المدلهم في الفيافي، تنثُّ على البيوت برداً ورطوبةً تعوّد عليها أهلها حتى غدت مرتعاً خصباً لأماني مستقبلهم وحياتهم التي ألفوها حلوة هادئة معطّرة بنسائم الحُب والذكريات ومواويل "السويحلي والمحمداوي ونايات الربابة ورقصات الهچع والچوبي" على نغمات وأنين "المطبج والناي الحزين" حيث الدبكات الريفيّة الأصيلة ذات النكهة الفلكلورية العابقة بالفرح والنشوة والحزن أحياناً ولذّة الحياة الجديدة..

- أهلاً يا أبا داود.. أهلاً وسهلاً ومرحباً.. ولكن الروح لا تمتهن في هذه الحياة سوى الحنين.. وأيّ حنين وشوق لا يوصف أبداً..

- حيّاكَ يا أخي.. وحمداً لله على سلامتك..

وإذ يشاطر كلّ واحد من الزائرين صفحة من ذكرياتهم السريعة مصحوبة بإبتسامات ريفيّة عذبة.. ينسلُّ فرحي اليه، الى مَن يجاورني اللهفة والشوق..

وتزدحم أسئلة الحاضرين..بينما تدور إستكانات الشاي على الحاضرين، وكأني به قائلاً وهو يرشف الشاي العراقي بعد فراق سبعة عشر عاماً "سأشربُ الشايَ حتى ينتهي أَرقي،، أَرقي وطنٌ ذابَ في كأسي وأدمُعي"

ها هو الآن على أحسن ما يرام.. شخصيّة وأدباً رفيعاً وثقافة وحكمة رصينة.. وتلك وربّي قمّة القوّة في نفوس الأحرار..

يتذكّر عنّا أدقّ التفاصيل القديمة في شؤون حياتنا، ويسأل عن كل شيء.. ويلوم أخاه بين الفينة والأخرى عن سبب عدم إكمال ترتيب البيت صبغاً وديكوراً.. ثم يتجه صوب رفيق روحه ودربه ليسأله سؤالاً لا يعرف معناه إلّا مَن سكن بين رفيفه هوىً ووفاءً ودمعة.. أشياء وأشياء تقربني اليكَ.. وما بين أن أرسم فرحتي وأكتم أساي تلوح تداعيات الزمن الخبيء حيث تجلس "شموس" قُبّالتي قبل سنوات لتحكي لي عن أساها الطيب، ذلك الفقير المهيب، وحين أنتهي من حكايتي عنه تضرب ساقها براحة يدها اليُمنى أسفاً وجزعاً "عِمتْ عيني عليك يا أخي سالم"، وتصرخ لاطمةً على خدّها الأسمر لتشقّ فيه أُخدوداً من أسىً دفين:(أين أنتَ الآن يا قرّة عيني، أذكرُ تلك الليلة التي أتاني فيها الصابر النبيل جزعاً مهموماً وقصّ عليَّ قصة الألم والحرمان..).

واستمرّت بنشيجها المتوتّر تروي لي ما جرى له على لسان أخيها سالم: (حين خرجتُ من الجامعة مساءً، منتظراً رحمة الله "باص مصلحة نقل الركاب الأحمر" السائر الليلي الوحيد- المجاهد الميكانيكي، وما أن وجدتُ مكاناً منزوياً في وسطه حتى تنفستُ الصعداء، بحثتُ عن أي قطعة نقد في جيوبي كلّها فلم أجد إلّاها نظيفة.. تُرى ماذا سأفعل، هُنا لا يليق بي إلّا السكوت.. وهكذا حين وصلني " الجابي" وجدني هائماً مُغلّساً لائذاً بصمتي.. مُطرقاً برأسي نحو حذائي، غير أنه يبدو بسرعة البرق

قد فهم كل شيء وبطُلَ عجبُه إذ عرف السبب بذكائه العفوي الأصيل دون أن يسألني شيئا، حيث ربتَ على كتفي وقد مسّني سريعاً وهو يجتازني وكأنه يقول لي "لا بأس عليك، الله كريم، وهو أرحم الراحمين"..

ثم طافت بي الذكرى لسنين الفتوّة والصبا.. في تلك الحقول الخضراء وهي تمتدّ على مدّ البصر ولا تقطعها سدّة "ناظم باشا" حيث تتراءى بعد ذلك رؤوس النخيل خلف السدّة التي تلتفُّ حول دجلة الخير في "الداور الغربي" كما يلفّ ذراع ابنٍ بار أمّه الطيّبة وقت المحبّة والصفاء..

نعدو خلف الفراشات البيضاء لنحلّق بين رفيفها فتفرّ الأرانب البريّة نحو مخادعها الترابية ولا نكاد نمسك واحدة منها حتى تفلتَ منزلقة من بين أصابعنا المتمرسات بجني اللذّات وشقائق النعمان والشفلّح الأحمر القاني كدم مُراق..لا أدري أي شجن يثير قارورة أحزاني وأفراحي الوئيدة.. وإذ تقرب الظهيرة لتسلخ وجوهنا بسمومها الحارّة، نترك دشاديشنا على جرف نهر جارٍ، فنغمر أجسادنا بالمياه لتبترد.. لكني لاً أسمع سوى التحذير من الفتى "سالم".. خشيَ أن يغرق ضيفه، ويحفزّني لأتعلم من حركاته أصول السباحة " لا تذهبْ عن الضفاف بعيداً "، يبقى ينادي بها.. وما أن يأتي وقت الغداء حتى نجلس في المضيف العائلي، حيث الحصران المصنوعة من سعف النخيل، والبسط الصوفية الزاهية بالألوان الفلكلوريّة الجميلة، و "الروازين" تلك النوافذ الطينية، فينهمر علينا الهواء الغربي العذب المشبّع برائحة النباتات البرية وعطر الطين العراقيّ الحبيب..

ثم يدعو الرجلَ المسنَّ الذي يسكن قريباً منهم "عبيد العيدان" ليسامر ضيفه الفتى القادم من العاصمة بغداد.. وليشاركه بطرائفه، وليحدّثه عن أخواله وجدّه لأمّه تلك " الحمولة " الغنيّة عن التعريف بين القبائل المجاورة، بشمائلها وسجاياها النبيلة والشجاعة والتي عاش معها "أبو حسان" سنينَ طويلة يستلهم منها أصالة الإنتماء وفخر العشيرة ل " شَمّر"، وهو يعد مثل هذه اللقاءات والمناسبات النادرة فرصة ثمينة للإعتزاز بالأصدقاء والجيران الأعزّاء..

وبين نفثات الدخان من سكائر "أبي حسان" التي لا تنقطع، أذهب بخيالاتي بعيداً عن آلاف الرجال الذين سكنوا هذه الأرض، كثير منهم إنغمروا في بطونها ولم أرَهم.، منهم مَن سمعتُ عنهم ومنهم مَن رأيته متأخّراً.. آهٍ لن أنسى تلك الإبل التي كانت تجول هُنا في مرابع الرجال الأفذاذ " تايه المحمد أبو عيدان ومشرع ومظهر" الذين انحدرت غصون أمّي منهم طيّبةً عريقة، ما زال شذا شموخها يعطر دواوين العرب وحكايات الشيوخ الفرسان في هذه القرية والقرى المجاورة لها.. فذلك " فرحان السرحان، الشيخ المسن أبا عوّاد وسالم" ذو القامة المديدة بالأحزان، والرأس البدوي والوجه الذي تتجسّد بملامحه صفحات خالدة من تاريخ قبيلته العريقة القادمة من الجزيرة العربية حيث تركوا هنالك نخلات لهم في " شُعب وردان ".. ويستمر "سالم الفرحان" بتحفيزنا على أكل المزيد من الطعام المطبوخ على نار الحطب العاقولي بأيدي

أمّه "چماله- خالة أبي، وعمّة أُمّي"..
- الله يساعدكم على هذه الحياة.. حقاً أنكم أبطال..
- أنت البطل يا سالم.. لقد سجّل لك أحد الأصدقاء سلامكَ لنا من المذياع في الأيام الأولى بعد معركة " الشوش".. ولكنّ الصوت كان بعيداً غائراً في الظلمات غير تام الوضوح، ما زلنا نحتفظ به، ووصلتنا أخبارك من الذين وصلوا قبلك.. حيث كان يوماً عصيباً عليكم، ولكن لابُدّ من الرضا بما قدّر الله تعالى لكم.. فهو بلاء عظيم، ولكنّ الرجال من يبقون على حقيقتهم، ولا يزيّفون أنفسهم، وهكذا والحمد لله..
ويواصل أحدنا الحديث معه..
-لقد ناشدكَ أحد جنودك أن تنتزع نجوم الرتبة العسكرية إخفاءً للحقيقة.. ولكي لا تتلقّى من العدو ما يخدش كرامتك.، فأبيتَ وتحمّلتَ كلّ شيء..
ويضيف "أبو ساچت" لحديث من سبقه مُقاطعاً :..
-وقلتَ.. ليس أكبر مهانة لي الآن من أن أنزع رتبتي وليس أكثر خدشاً للكرامة من ذلك..
ولكي يقلل سالم من أهمية الموضوع تواضعاً، قال بسرعة..:
-ليس هذا فحسب.. فهنالك من فعلوا أكثر من ذلك داخل الأقفاص.. رجال عملوا المستحيل حتى يهربوا منها.، حيث كثر الهمس السرّي بيننا ودارت العيون وتجمّدت الوجوه.. فما بين أن يختار المرء أيّ القرارات أصوب.. عليه أن يتخيّل المستقبل القريب في وسط هذا الإمتحان المرير للأكثرية الباقية.. والمستقبل البعيد للنتائج القريبة والبعيدة للذي يختار طريق الانفلات نحو أفق الحرية للذين وافقوا ومهّدوا لتيسير إنجاز هذا العمل..
وبين الموافقة والرفض تمتحن الرجولة، فليس
"نعم" سوف تمرّ دون أن تزدحم الهراوات على الأجساد المنهكة من تعب السنين وغثيان الأرواح، وكان قرار الشجعان..
وقد رُتّب لهذه العملية كل شيء آنيّاً وبعديّاً..
كانت ليلة ليس كأخواتها.. ويسود السكون المضيف الذي امتلأ لمباركة سالم على عودته وهم يصغون السمع لهذه الحكاية الفريدة من قصص الأسر.. ثم يضيف..:
-كان القفص محاطاً بأسلاك شائكة كسياج واقٍ، يحرسها الجنود الإيرانيّون، وخلف هذا مجمّعات من البنايات التابعة كالتواليت والمطبخ والاداريّات الأخرى..
ولمجرد الخلاص من هذا سيتمكن الأسير من التحرر من القيد الرئيسي حيث الفضاء الواسع فوق الأرض الشاسعة.. وكالمعتاد هيّأ الزملاء بعض البطانيات لنشرها على الأسلاك كي تستحمَّ بنور الشمس مثل كل يوم.. وبدأ بعض الأسرى بالإنزواء والإختباء بين البطانيّات والأسلاك لفتح منفذ في الأسلاك.. وبعد الخروج منها بدأ الأسيران المتحرّران بالقفز والتحرّك نحو التواليت المقابل خارج القفص متنكّرين بملابس الجنود الإيرانيين الرسمية.. ثم خرجوا منها كأحسن وأبرع ممثلين..
وهكذا خرجا ولم يعدا كما يقول المثل بعد أن أُعيد تشبيك السياج السلكي كما كان سابقاً..
ومن حُسن الصدف أن التعداد الأول بعد خروجهما سيكون الساعة الثالثة عصراً..
وإذا به لم ينفذ أو يتمّ لأمر يخصّ الإدارة..

وهكذا مضت بضع ساعات اضافية أخرى لعدمِ دراية المسؤولين مما يعطي وقتاً إضافيّاً آخرَ.. حيث الزمن أثمن شيء مساعد لنا..

ولما حلّ المساء رُتّب الوضع بحيث أن الخافرين أحصوهما مع الموجودين بشكل أُستخدم فيه الخدعة الممزوجة بالتصرّف الذكي.. وفي كل مرة تمضي، تمرّ اللحظات بالترقّب والتوجّس خشية أن يكشف الإيرانيّون السرَّ.. يومان مضيا.. فاطمأنت نفوسنا عليهما بعد أن تركا لنا مأثرةً خالدة.. ونسجنا معهما وشاح البطولة لجيل أبى إلّا أن يمتحن نفسه بالبلاء، بعد ذلك ليس من المصلحة العامّة أن لا نخبرهم بالنقص الحاصل بعدد الأفراد، وتم أخبارهم.. وبدهشة واستنفار مفاجئ.

أجبناهم..

- هذه اللحظة.. بذاتها.. وليس قبل الآن..

- وما أن تأكدوا من ذلك حتى قامت قيامتهم.. صفّارات وإنذار، ورؤوس تمرُق وأخرى تمضي، يبحثون، يفتّشون عن الكوّة التي خرجا منها الأسيران الهاربان بإعجوبة فلا يجدون لها أثراً.. ويسألون عن الطريقة فلا يجدون جواباً شافياً لأسئلتهم الكثيرة الماكرة، ولكي يعرفوا أسماءهما وأرقامهما.. أمرنا بالجلوس كلّ على سريره..

وهكذا تيسّر لهم معرفة إسميهما وعناوينهما وأرقامهما.. وبدأ التحقيق سريعاً لمعرفة الذين ساعدوهما.. وبعد الإنكار والإحجام عن إفشاء الأسرار.. استدعوا الذين على يسارِهما ويمينهما لعقوبتهم عقوبة خاصة، ثم أمروا بعقوبة عامة لجميع الموجودين بإعطائهم وجبة واحدة فقط من الطعام كل يوم.، وعدم الخروج الى فناء القفص حيث الشمس لمدة شهر في ذلك الشتاء الآسيوي القارس..

*****

ارتجّت الحافلة رجّاً عنيفاً منبهة الجميع لمطلع الشمس من أقصى أقاليم الشرق.. هُنا ترى الطبيعة كأحلى أُنثى.. ربما هي أجمل من التي أحببتها وراسلتها، وكتبتَ عنها وكنتَ عنيفاً معها يا "ماهر"..

-هل تريد بهذا الكلام يا سالم أن تطلب منها ردّاً..، همى الدمع ساخناً طريّاً ومكث بلله على خدّيه كندى قرية "الداور الغربي" الذي لم ينسه من سبعة عشر عاماً.. ما زال صدى رسائل "ماهر" يأخذه الى المروج الواسطية ويغمره في ضنى الأغاني الفيروزية..

" لا أريد بهذا الكلام أن أطلب منكِ ردّاً لأنكِ مع إحترامي الشديد لأفكاركِ غير قادرة على الرد بسبب واحد هو ظنونكِ السوداء تجاهي، الظنون التي خلقتيها من وهم لا أساس له من الصحة..

-كفى حسرات يا سالم السيفي.. مابك يا سالم.. سالم.. سالم ؟ لقد وصلنا "قصر شيرين".. ستسأل عنها هناك..

" أنا شخصياً لم يكن لدي شعور حتى بحجم الذرّة على إستدراجكِ لمثل ما تظنين، ومع ذلك كان عليكِ أن تكوني عالية الثقة بنفسكِ على الأقل، وتحقّق هذا فعلاً وأنا أشكركِ رغم تأخره وبنائه على مرتكزات خاطئة لأنني لم أسيء اليكِ مُطلقاً.. مُطلقاً"

- هل تخاف من شيء يا سالم..؟

- دَعهُ.. فهو الآن ربّما يحدو بقصيدة بدويّة..
* كان ذلك بكلام موجز وبليغ وذكي دال "خلّيها عادي".. أنا أشكركِ من قلبي.. وكان جوابي أني أتمنى لكِ الخير والسعادة من كل قلبي.. لأنّكِ استطعتِ إقناعي وتركي كأعزّ صديق أو أخ.. وأنا منذ تلك اللحظة كذلك..
"أما هذه الرسالة فسببها لكي أقول لكِ كل شيء بيننا انتهى يا "كاف".. ليس برغبة مني ولكن منذ آخر لقاء بيننا، أحسستُ أنكِ كنتِ تخلقين كبرياءَ من وهم، و وهماً من كبرياء، ولكن القلب أحبّكِ
بشوقِ مُناه زادَكِ الرحمنُ رحماً عاطفاً والأغنياتُ ردّدتْ سرَّ صداه..قلتُ هاتِ يديكِ في مهبِ الهوى علّنا نقطفُ الحبَّ يوماً ونرسمُ في الكونِ أحلى غناه".
-دَعوهُ.. فهو ربما زعلان علينا، " قالها بقية الأسرى وهم يرقبونه هائماً في لجّة عميقة من الذكريات "..
قال في نفسه، بعد أن سمع الهمس ولم يرد عليه..
- لقد كان "الزعل" بيننا جميلاً وفي غاية الروعة، لأنه ينتهي بابتسامة ودٍ، ونظرة حُب وسلام من القلب والعين..
- ولكنّه سوف يندم على هذا الزعل.
"قالها صديق آخر له وهو يمدّ رأسه فوق رؤوس الأسرى الآخرين لينظر الى أيّ مدىً وصلت بهم السيّارة، من خلل الزجاج الأمامي لها".
- أجل سوف تندمين يا "كاف" لأنكِ خسرتِ قلباً كنتِ فيه قصيدة لا تخرج من الروح الّا بنزيف الشوق وأنين الروح..
"قالها ماهر وهو يتطلع الى سالم في المضيف الذي ما زال يغط بالزائرين وهم يتبادلون الأحاديث عن أوضاع الأسرى في إيران"..
- هل سنصل فعلاً ؟، ربّما كان هذا وهماً..
"صاح أحد الأسرى"..
أجابه ماهر وهو يشاهد المشهد في مخيلته:
- هل كان الوهم الذي يعيش في داخلي اسمه "كاف" ليتني.. ليتني أستطيع الإجابة على ذلك..
وما زال التداعي يسحب ماهر الى حيث يشاء ولا يشاء..
-الوداع.. أيتها الأرض التي جنت علينا ولم نجنِ على أحد.. كيف ودعتها يا "ماهر"، هل ستتلوّع في غيرها.. وما أمرّ النوى عليك وعليها..؟، لكنّي لم أودّعها.. فها أنا عائد اليها.. بغير موعد مُسبق..
"في نفسه قال سالم لرفيق وحدته وأنيس غربته ماهر، وما زالت الحدود تفصله عنه، وإبتسم في سرّه، وحاول أن يخلق وهمَ الصوت، صوت ماهر الذي شكّ أنه على قيد الحياة لحدّ الآن فقد حدثتْ في السنوات السابقة العديد من المعارك المصيرية الطاحنة، فأجابه ماهر.. هكذا انسل إليه صوته وهو يناجي حبيبته"..
- الوداع.. لأني لا أريد أن أكون ثقيل الظلّ على مَن أحببتُ، لم أكن أطمع يا "كاف" أكثر من معرفتكِ بصفاء روحي ونقائها، لأن حُبّي لم يكن مُخططاً له عقليّاً.. بل كان شعاعاً روحيّاً نفث في أعماقي تجاهكِ.. فجاء التخطيط لاحقاً،

وهو أن ينتهي أما بالتضحية كي يزدهر، أو الموت شغفاً وحُبّاً..
- أنا أخترتُ التضحية وأنتِ أخترتِ الموت..
- أمي "چماله" هل ما زلتِ تحلبين بقرتنا الحمراء ؟..
- أجريمة ارتكبتُ يا أمي حين أحببتُ.. إن كان ذلك جريمة فحقّاً أنني المتهم الأول.. ولكن سأكون القاضي الأول في محكمة أنا وضعتها وسيكون القرار.. "وداعاً لك يا قلب"..!
- ولكن قلبي ما زال يحترق بنار حُبّين، لابد أن يكون رماداً.. وقلب تطفؤه سكاكين التقاليد والعشائرية والتخلف والظنون والخوف وشهوة الطمع للمظاهر سيكون هشيماً تذروه رياح جحيم القادم من الأيام..
- ولقد قلتها قبلي يا ماهر..
وإذا كان في هذا القلب نبضة تُحبّ فسوف أصفعها بقسوة لتنبض في مراتع أخرى.. أليس هذا أفضل من أن أعذّب آخر نبضة في قلبي الظمآن..
- ترى هل نفّذَ ما وعده لها منذ زمن بعيد..؟
- وداعاً لكَ يا قلب.. وداعاً لكِ يا "كاف".. لن أقولها معكَ يا ماهر..
- والآن ماذا تقول لها؟، بعد أن ودّعتَ العذاب.. أكيد سوف يتعرّى حُبّكَ أمامها كأجمل هوىً في هذا العالم..
- أكيد إنّكَ سوف تجُن.. ماذا دهاك يا سالم..؟ "قالها سالم لنفسه".. ومضى يسترسل في تداعياته:
أين هي الآن، ربما بأحضان رجل آخر.. ربّما تحضن "فاتن" أطفالها العشرة.. وربّما هي تحت ركام ملجأ العامرية ببغداد؟ الذي قصفه صاروخ أمريكي مُبصر هائج..
- ترجّلوا.. لقد عبرنا الحدود..، أفتحوا النوافذ.. "صاح أحد الأسرى بفرح غامر".
- أيتها الشمس الحبيبة.. ها أنا أمدّ يدي اليكِ.. أحضن "أمي چماله وأخي عوّاد وحبيبتي فاتن"،، وكل أهلي وصديقي الطيب "ماهر"، وكل أصدقائي..
- أيّتها الأرض.. لأجثو على ركبتي.. لأغرز في ترابكِ الطيّب شجرة روحي.. لأشم عبير ترابكِ الزكي.. فأنتِ حُرّيتي وملاذي.. وكل حُبّي..
أيّتها الأرض.. أنتِ حملتِ الأحزان في قلب زهرة جميلة.. كلماتكِ أنقى من العسل، وأعبق من رائحة الحُب في قصائد الشعراء جميعاً.. أنتِ حُريتي، أشمّ منها عبير حياتي الجديدة.. غير إنّي أشكُّ أن تكون أيامُكِ الجديدة أفضل مما مضى وأجمل مما نرجو ونتمنى..

جنازة صديق مات بكورونا

عبد الرحيم التوراني *

وصل فقيه قصير القامة، يعتمر طاقية مزوقة ويرتدي جلبابا فقد لونه الأصلي، جلباب خفيف أظهر جسد صاحبه النحيل، وأبان عن فخذين مع ساقين كاريكاتوريين

كان الفقيه يضع على وجهه كمامة. أُقْسِم أنه لم يشترها من صيدلية، على الأرجح أنه التقطها من الأرض، أو أهداها له واحد فقير يرغب في شفاء عاجل أو رحمة على الوالدين، أو في تحسين حالته بكلمات من فقيه يختزن في صدره كلمات الله.

"يس والقرآن الحكيم"، غالبا ما تحضر هذه السورة في الجنائز، وها هي تخرج من بين شفتي الفقيه خافتة مثل حشرجة مصدور.

سأل الفقيه المرأة:

- أين جثمان المرحوم؟

فدلته بإشارة بأصبعها إلى الغرفة المقابلة وابتعدت. هي أيضا تلبس كمامة، لكنها كمامة بيضاء طبية جديدة.

سأل الفقيه السوسي، وقد شمّر عن أكمامه:

- هل هناك من سيساعدنا في تغسيل المرحوم؟

لما لم يتلق جوابا ثنى ركبتيه وجلس قرب الجثمان كأنه منجم، أو بالأحرى واحد من الفقهاء السحرة، محترفي فتح الكنوز في الجبال الأطلسية. فحص مليا عيني الميت فوجدهما "زهريتين".. ها قد اكتملت ولم يعد ينقصه شيء ليشرع في عمله. سلَّ بلطف خاتم ذهب من يسرى الميت، ودسه بسرعة في تكة جيبه متمتما:

"... وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُون، أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ، وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِي."

اختلطت آيات القرآن بكلمات طلبه سطلا آخر من الماء الفاتر والحنوط. ثم سقطت خرقة كمامته على وجه المرحوم. فتركها فوقه، كأنه يحاول وقايته من كورونا المقابر.

*****

خلال هذا الوقت كان نحيب أرملة الفقيد يسمع خافتا من وراء باب الغرفة. والفقيه وقد زادت حماسته، عاد ليخلط آيات الذكر الحكيم بكلامه مع الأرملة، يواسيها بطريقته وأسلوبه الذي لا يتقن غيره.

"يس والقرآن .." (أ باراكا ألّلا من البكا)..

"والقرآن الحكيم" ... (البكا راه حرام.. طيحرق الميت..)

وعينيه على الساق البض للأرملة.. "نَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" (الله يهيدك علينا ألّلا)..

"تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيم، لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ" (الله يجعله ويجعلنا معاه من أهل الجنة.. قولي آمين ألمرا..)..

لم تعبأ به، فأكمل: لـ"قَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ"..

ثم قفز على باقي الآيات ليصل إلى "إِنَّا نَحْنُ

نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ"..

رفع رأسه إلى المرأةً الباكية، هاله جمالها البيّن. استغفر ربه في سره، واقترب منها، عيناه على الثريا المدلاة من السقف، يحاول أن يستنتج من جوابها ما يبحث عنه..

- الحمد لله.. على قدر الله.. وعلى نعم الله.. المرحوم باين خلّاك مستورة.. ما يخصك خير..

لكن المرأة ابتعدت وزاد نحيبها وبكاؤها.

نهض الفقيه وقد انتهي من تجهيز الميت، سأل متى سيصل أصحاب سيارة نقل الموتى؟

جاءه الجواب من سائقها:

- أنا وحدي.. حاضر .. هل نخرج النعش الآن يا السي الفقيه؟

*****

كانت بعض نساء الزقاق من الجارات يراقبن ما يجري من النوافذ، يلوحن بأياديهن إلى السيارة البيضاء لنقل الموتى.

وكأن الميت مقطوع من شجرة، إذ لم يحضر أي أحد من أقربائه، رغم أن أخته تسكن بالحي المجاور. كورونا منعهم. الجميع اكتفوا بالتليفون، اتصلوا بالأرملة يعزونها ويصبرونها، ومنهم من اكتفى برسائل قصيرة على الوتساب:

"صادق العزاء والمواساة، الرحمة والمغفرة للسي ابراهيم والصبر الجميل لك أختنا سارة".

لم يترك الفقيه الأرملة ترافق النعش، لتحضر مراسيم دفن شريك عمرها وحياتها.

قال الفقيه بلكنة لم تتخلص من لغته الأم الأمازيغية:

- عليك يا للّا سارّة البقاء في البيت، الله سبحانه نهى عن إتباع النساء للجنائز ...

لم تهتم الأرملة بكلام الفقيه، لكن فتاة شابة ظهرت عند الباب، كانت ابنة المرحوم وقد وصلت للتو من العاصمة، صرخت:

- باش من حق.. واش من دين تحرمنا.. علاه المرحوم ماشي الوالد ديالي؟!!

تحمست أمها وأيدتها:

- علاش ما عندي حق.. ماشي راجلي أنا وزماني...؟!!

رد الفقيه عليهما مبتسما، فظهرت أنيابه في أعلى فكه مغلفة برقائق من ذهب أصفر وفضة بيضاء:

- الحكمة ديال سيدي ربي هي هذه. النساء فيهن فتنة وصبرهن قليل، فكان من حكمة الله أن

نهاهن عن ذلك سداً لباب الفتنة بهن ومنهن أيضا... وهذا ما كان....

*****

لم أخبركم أن الفقيد كان من أقرب أصدقائي، لذلك لم أتردد في تقديم العزاء لأرملته ولابنته الوحيدة. ركبت سيارتي واتجهت صوب مقبرة الرحمة. كان مسجد المقبرة مغلقا.

قال الفقيه:

- سنصلي على ميتنا أمام قبره. هذا أحسن وأفضل له ولنا وأجزى ثوابا..

لبست قناعي ونزلت من السيارة، بعد أن ركنتها بموقف السيارات عند مدخل المقبرة. كان الموقف مليئا بالأوساخ والأتربة وبقارورات المياه الفارغة وببقايا أكياس النيلون الملونة، وكان هناك أكثر من حارس للموقف.

شاهدت عمليات دفن من دون مشيعين تقريبا، وحدهم حفارو القبور بمعاولهم يفتحون بطن الأرض لاستقبال ضيوفها الأبديين.

وابراهيم كان رياضيا، يحب الكرة، اجتمعنا

معا على حب نادي الوداد البيضاوي، لكننا تفرقنا بين ريال مدريد وبرشلونة. ومات من وباء كوفيد 19 عن عمر يناهز الخامسة والخمسين.

عادة كانت المقبرة تكون مزدحمة بالمشيعين وبالمتسولين وباعة التين المجفف وماء الزهر. لكننا اليوم قلة. قيود الحجر الصحي متشددة، ثم إن الناس تخاف من العدوى بالوباء. إنها فكرة عصية على التخيل، كيف يمضي صديقي إلى الأرض دون مشيعين بلا مراسيم دفن تليق به وبمسيرته النضالية من أجل غد أفضل للجماهير الكادحة.

بقيت بعيدا عن مكان الدفن أراقب ما يحدث. ثم تراجعت خلف نخلة بعد أن ارتفعت الرياح وكادت أن تسقط طربوشي.

تذكرت جنازات مهيبة حضرتها. تذكرت جنازة الشهيد عمر بن جلون، وجنازة الوطني عبد الرحيم بوعبيد، وقد أعادوا ترويجها قبل يومين على قناة اليوتيوب، تذكرت كم من الجنازات التي حضرتها في السنوات الأخيرة.. دائما أعداد هائلة ووازنة من المشيعين. اليوم تبدو تلك الذكرى مثل هراء ومثل افتراء. لقد انتهت الحياة الطبيعية، فلم لا ينته معها أيضا الموت الطبيعي وإكسسواراته.

و رغم أني حضرت جنازة بعض من قضوا في حوادث مرور، أو منتحرين، ومنها جنازة صديق ممثل مسرحي اسمه حوري حسين، الذي من قوة حبه للاشتراكية أقدم على شنق نفسه احتجاجا في مقر الحزب الاشتراكي بمدينة المحمدية، تاركا رسالة صاغها على غرار آخر كلمات الشاعر الروسي فلاديمير يوفيتش مایاكوفسكي، لما وضع حدا لحياته. ختم صديقي حسين دوره في مسرحية الحياة بعبارة شكسبيرية: "أحبكم جميعا". لما قرأت رسالة صديقي الممثل في الصفحة الأخيرة من يومية "المحرر"، لم أتمالك نفسي ولعنته جهرا واصفا إياه بالحمار.. حمار من يشنق نفسه ولا يبقي على حياته سلاحا لمواجهة القتلة واللصوص ومصاصي الدماء.

*****

كنت أود أن ألقي نظرة الوداع على صديقي المرحوم قبل إلقائه في الحفرة. آخر مرة رأيته فيها كانت قبل شهرين، قبل تعميم إجراءات الحجر الصحي وفرضها. كنا نجلس في مقهى "وان لوف" نشرب القهوة وندردش ونتبادل الأخبار والنميمة، ولا ننسى شتم الحاكمين وقادة الأحزاب والنقابات من المرتزقة الخونة.

بعدها حافظت على التواصل مع صديقي عبر الفيس بوك والوتساب. كان الوقت تجاوز الثانية ليلا حين كتبت له ونحن نتكلم عن الوباء اللعين: "سأخجل من موتي إذا حصل على يد كورونا"، ضحك ابراهيم، قال لي لقد قرأت كلامك هذا في مقالك المنشور بموقع "الحوار المتمدن"، ثم أردف: "الموت هو الموت. جاء على يد كورونا أو على يد غيرها. أنسيت حكمة "تعددت الأسباب والموت واحد؟".

كانت هذه آخر جملة سمعتها من صديقي، الآن ألوم نفسي وأقسو عليها بشدة، كيف لم أبق على اتصال به، إذ مرت عشرة أيام لم أهاتفه فيها حتى جاءني خبر نعيه.

*****

كان الحزن يعصر قلبي، لكن القناع الطبي أخفى مشاعري وما ينتابني من ألم. وحافظت على صمتي الداخلي. فكرت كيف سأنجو من الوباء. ثم استدركت استدراك من ضبط نفسه

متلبسا باقتراف ذنب، وبدلت تساؤلي ب: كيف سننجو؟

انتبهت إلى حفار قبر صديقي، كان هو أيضا يضع قناعا على وجهه الملفوح بلسع الشمس والغبار. قلت: على الأقل سيقيه من الغبار.

*****

بعد أن تمت مواراة التراب على قبر ابراهيم، شرع الحفار وسائق سيارة نقل الموتى والفقيه وأنا في التهليل والتكبير، ووجدتني أفرض عليهم تلاوة: "مولانا نسعاو رضاك.. وعلى بابك واقفين.. لا من يرحمنا سواك.. يا أرحم الراحمين"، فتبعوني.

بدا لي أننا نسينا هذا الدعاء الذي يقال قبل وصول الموكب الجنائزي إلى القبر. ثم توقفت عندما رأيت الميت يضحك مشيرا إلي بأن أكف عن العبث. ماذا تفعل أيها الماركسي المرتد.. يا...".

هنا توقفت، وعدت قافلا وأنا أرتجف وأضحك في نفس الآن، لكني كنت ملثما بالقناع فلم ينتبهوا إلي ".

تذكرت عندما كنت مع صديقي الذي مات، لما سمعنا بموت الحسن الثاني، قبل أزيد من عشرين عاما، كيف كانت ردة فعلنا، كان أول شيء عملناه هو أننا توجهنا إلى دكان بيع الخمور، كنا متيقنين أنهم سيمنعون بيع الكحول ويغلقون الحانات، حدادا على الملك أربعين يوما. وهو ما حصل، رغم اضطرارهم إلى اختصار المدة إلى سبعة وعشرين.

*****

عدت إلى بيت الميت، بضعة من النسوة كن يحطن بالأرملة وابنتها، كلهن ملثمات بالأقنعة. يبكين معها بكاء مرا من تحت القناع. والأرملة تحكي لهن وتردد كلاما غامضا حزينا عن ذكرياتها مع شريك حياتها المأسوف على حياته.

غادرت واتجهت صوب مقهى "وان لوف"، كانت مقفلة على غرار باقي المقاهي والمطاعم وأماكن التجمع. تذكرت بوب مارلي الذي سُميَّت مقهانا بعنوان إحدى أغانيه، وكيف قتل مسموما من طرف المخابرات المركزية الأمريكية، لما جاءه في رداء معجب، وأهداه حذاء رياضيا من نوع أحذية "كونفيرس" التي كان يحب نجم موسيقى "الريغي" انتعالها دحرجة الكرة بها.

[كلمات بمعنى.. وهناك سؤال واحد حقاً أحب أن اسأل (قلب واحد)/ كلمات بمعنى: هل هناك مكان لآثام ميؤوس منها/"دعونا معا ويشعر كل منا بالحق/ كلمات بمعنى.. ليس هناك أي مكان للاختباء من "الموت"].

*** **

لم أعرف كيف أخذني النوم، صحوت مذعورا من كابوس، كدت أختنق، أزحت الكمامة من وجهي وشربت الماء.

جاءني الموت في دقائق الكابوس على هيأة رجل، كان يمسك بجهاز الأيباد الخاص بي، قال لي:

- أين هو الخجل الذي وعدتني به. أنا مولاي كورونا.

ثم رمى بالأيباد على وجهي، ومضى تاركا في أذني شتيمته: ما أجهلك.. ما أجهلك...!!!

- حقا..؟!

---

* **كاتب مغربي**

متاهات

عبدالرزاق الربيعي/ عُمان – خاص

موجةٌ تغرقُ
في الزرقةِ
والصانع لمّا
علّم الأسماء
والأشياء
كان البحر
في خارطة الحائط أزرق
ودموع الوقت
كانت...
في الليالي البيض تسودّ
من الحزن
على فجر بعيد
تاه
واللون
على اللوح وحيد
في العراء
والمدى
مدّ لها جسرا
من الأضواء
من أقصى متاهاتهِ
جاء
ورسى في "القيروان"
لفّ حول الخصر الناحل

نورا

فاض من نجم تهادى

في المساء

والمدى مدّ يدا زرقاء

زرقاء..

فراحا يحلمان

وعلى ظهر براق الوجد

طافا في الجنان

ضمّ عينيها

إلى عينيهِ

كفيها إليهِ

وعلى لحن وجيب الروح

باتا يرقصان

ثم حطّا

في مكانٍ غاطسٍ

في اللامكان

بريدُ المُتَرجِمَةِ السَّيّدةْ

صادق الطريحي

إلى بُرجِ بابِلَ يأتي البَريدْ،

بريدُ العَمالةِ..

واللّاقطينَ التّمورَ بفيءِ السَّواد.

إلى بُرجِ بابِلَ..

عَبْرَ الأقاليمَ، واللَّهَجاتِ البَعيدَةِ..

يأتي البَريد،

بريدُ الأمومةِ، والنّاطراتِ مواسِمَهُنّ.

إلى بُرجِ بابِلَ..

عَبْرَ البرامجِ والتّقنيّاتِ، يأتي البَريد،

بَريدُ الطّفولَةِ، والماسِحينَ الزُّجاجَ..

ـ بقَيظِ الظَّهيرةِ ـ

عندَ نُقاطِ المُرورْ.

إلى بُرجِ بابِلَ..

فوقّ الخيولِ السَّريعةِ..

يأتي البَريدْ،

بَريدُ المُعاقينَ..

والفاقدينَ معَ الحَربِ أشياءَهمْ.

إلى بُرجِ بابِلَ..

عَبْرَ قِطارِ الحَداثةِ..

يأتي البَريدْ،

بَريدُ المُصابينَ بالشّعرِ، ..

والسَّرَطانِ المنضّبِ، والجائحاتْ.

إلى بُرجِ بابِلَ..

عَبْرَ القَواربَ يأتي البَريدْ،

بَريدُ المَجلَّةِ، والخائفينَ مِنَ النَّشرِ،

والخائفاتْ.

إلى بُرجِ بابِلَ - في أوَّلِ الفَجرِ - يأتي البَريد،
بَريدُ الحكومَةِ والسُّجناءْ
بَريدُ الشَّريعةِ والعارِفين
إلى بُرجِ بابِلَ يأتي البَريدْ
يُرافقُهُ الزّاجلُ الغَجَريُّ الطَّريد.
إلى بُرجِ بابِلَ - مِن أوَّلِ الدَّهرِ -
يأتي البَريدْ.
بيُسْرٍ، تُفرّقُهُ الكاتباتُ الأنيقاتُ..
كلٌّ إلى أهلِهِ..
رِزمةً..
رِزمةً.
ويسْتنسِخُ العامِلونَ بَياضَ المُسَوَّدَةِ المغْلقةْ.
وبعدَ دَقائقَ، يأتي المُخوَّلُ بالخَتْمِ..
يقرأ إنجيلَ تُمُّوزَ مُسترْسِلًا..
ثُمَّ، تأتي المُترجِمَةُ السَّيّدةْ
بمِشْيتِها مِن مَحلَّةِ إنليلَ×..
بالمَوكبِ المُنتَظرْ
بسَرديَّةِ الأبجديّاتِ، في المُصْحَفِ المُنتَظرْ
بإيقاعِ تَرجمةِ الرَّبّ في صَوتِها..
حِينَها..
يدخُلُ الوَقتُ في بُرجِ بابِلَ..
ينتَشِرُ النّاسُ..
تقتَرِبُ اللّهَجاتُ
تُشكّلُ أيْقونَةً في البَريدْ،
بَريدُ المُترجِمةِ السَّيّدةْ.
بنفسي حَمَلتُ البَريدْ
حمَلتُ وثيقةَ ميلادِ أمّي التي..
فقَدَتْني بمعركَةٍ ما،
وثيقةُ أمّي التي يَعرِفُ الحاكمُونَ مَدى عُمرِها.
بيُسْرٍ، بِخطّ يدِي
كتَبتُ حُروفَ السَّوادِ التي أخطأ اللُّغويّونَ ترتيبَها
حروفَ البلادِ التي علَّمَتنا السَّلام
حمَلتُ بَريدًا لِطِفلٍ يسيرُ بعُكّازةٍ.

بيُسْرٍ ـ كما أدَّعي ـ
صَعِدتُ إلى آخرِ الطّبَقاتْ
إلى المَكتبِ اللُّغويّ المَجيدْ
إلى حيثُ تجلِسُ سيّدةُ الكَلماتْ
بأوراقِها، بالمِدادِ الذي في السَّوادْ
تُترجمُ من لُغةٍ ما
بإيقاعِ لهجتِها في الوجود
نظَرتُ إليها ... نظَرَتْ لي
نظَرتُ إلى صَوتِها البابِليّ النَّبيل
وخاطبتُها، بلساني السَّليم
ـ أودُّ لهذي القصيدةِ ترجمةً..
إنَّني..!!!

ـ أنتَ..
أنتَ الذي يقرأ الآنَ ترجمَتي للقَصيدةِ..
أنتَ الذي يعرِفُ الرَّبُّ
صُورَتَه في القَصيدةِ..
كيفَ صَعِدتَ، وأنتَ بلا قدَمين!!
فقُلتُ:
ـ ألا يَعرفُ الرَّبُّ..
أنّي أحِبُّ المُترجِمةَ السَّيّدةْ!!.

———

* نهرُ إنليل، موضعٌ في بغدادَ العبّاسيّة.

2020 /11 /14

باب الوداع

بيان الصفدي/ دمشق – خاص

بهدوءٍ هنا
أَتأمَّلُ قِرميدَ عُمْري
بقايا الثلوجِ على سَطحِهِ
الأصيصَ الذي تحتَ نافذةٍ
كيف تَذبُل أزهارُهُ؟
كيف يُوحِشُ هذا السكونُ
هناكَ على شُرْفةٍ في الظِّلالْ؟
...
...
أَتأمَّلُ هذا المَدى
كيف أقبِضُ سقفَ السماءِ؟
وأمسكُ بالأرض ألَّا تَميدَ؟
إلى أين تُفضي المَتاهةُ؟
ثَمَّةَ غيمٌ يكلِّلُ تلكَ الجبالَ
التلالَ
السهولَ البعيداتِ
أسئلةٌ مُرَّةٌ تَقْتفي عُنُقي كالحِبالْ
وأكثرُها حُرْقةً:
مَنْ أنا؟
فأراهُ أصابعَ معقوفةً في الرمالْ
...

...
أتأمَّل ظِلي الذي يتضاءلُ
هذي الظهيرةُ مقفرةٌ
ليس فيها سوى رجلٍ
يتأمَّلُ ما حولَهُ
أين تلك العرائشُ؟
أين الخُطا؟
والموائدُ؟
أين المَها
والرُّصافةُ
والجسرُ؟
يهمس في سِرِّه:
«آنَ لي أنْ ألوِّحَ للواقفينَ على الجسرِ
بَعْدَ الليالي الطِّوالْ
قبضُ ريحٍ هو العمْرُ
لا شيءَ، لا شيءَ لي
آنَ لي أنْ أشُدَّ الرِّحالْ!»
الوصية الأخيرة
أحِبُّوا!
ففي الحبِّ سبعُ سنابلَ خضراءَ
لا تنحني

المسرح وضده
محاورات ذاتية للفنان د. فاضل خليل

د. فاضل سوداني *

على الرغم من ان الدراسات التي يحتويها كتاب د. فاضل خليل }مسرح ضد مسرح {(*) هي دراسات كتبت في اوقات مختلفة الا انها كانت تعبيراً لما كان يناقش انذاك سواء في العراق او في الثقافة العربية حول المسرح ومشاكله، ولكنها مازالت تمتلك أهميتها لأنها تطرح سؤالا مهماً هو: هل عرف العرب المسرح؟ وكيف قدموه؟ ولماذا لا يمتلكوا ما يطوره الآن؟

ولأن د. فاضل خليل مخرجاً وفناناً مختصاً بالعرض المسرحي يعالج الأمر دائماً من وجهة نظر الباحث – المختص – فيستعرض لنا الكثير من الآراء لأهم رجالات الثقافة والفن مثل زكي طليمات، وتوفيق الحكيم، زكي نجيب محمود، عباس محمود العقاد... وغيرهم ممن ناقش موضوع معرفة العرب بالمسرح، ويتوصل الى ان الاسباب التي طرحت حتى الآن غير كافية او مقنعة مثلاً أن أحد الأسباب المهمة هي عدم استقرار العرب وترحالهم تاريخياً منعهم من ممارسة المسرح وهذا فيه شيء من الصواب لأن المسرح يحتاج الى هذا الاستقرار.

ولكن د. فاضل يؤكد أن الحضارة الأموية والعباسية وغيرهما كانت عصراً نموذجياً

للاستقرار وانتشاراً للثقافة وتنوعها، وكذلك فأنه لم يقتنع بأن أسباب أخرى منعت المسرح مثل ما طُرح آنذاك بأن الدين حرّم المسرح.. اذ ليس هناك اية آية قرآنية صريحة لهذا التحريم وهذا شيء مؤكد ولكن الفقه الديني والعادات والتقاليد العربية منعت ليس فقط المسرح، وانما الكثير من انواع الفنون الاخرى، واحد الادلة المهمة هي: حرق المكان الذي كان يقدم به (ابو خليل القباني) عروضه المسرحية في دمشق في القرن التاسع عشر.

ولا يقتنع د. فاضل ايضا بأن عدم وجود نصوص مسرحية يؤكد بعدم وجود مسرح ويدلل على عدم ممارسة المسرح، ولكنه يأتي بأمثلة مختلفة على الكثير من الظواهر والممارسات المسرحية او شبه المسرحية ظلت بدون نصوص مكتوبة مثل الكوميديا

ديلارتي، او اشكال مسرحية اخرى مثل: البهلوان المشعوذ في فرنسا والشيبل مان في المانيا، والسكاراموش في روسيا – وبالرغم من ممارستها في بلدانها الا أنها لم تترك نصوصاً لهذه الاشكال.

ولكن حقيقة الأمر هي ان هذه الاشكال هي ظواهر وطقوس تعتمد على الارتجال ودرامية اللحظة وعلاقتها هي ومؤديها على استجابة الجمهور وحماسته في لحظة الأداء والكثير منها لا يعتمد على نص مكتوب، ولكن ما طرحه د. فاضل خليل في هذه الالتفاتة فهو مهم جداً لتقييم المسرح العربي او العراقي وأسباب تأخر نشوء المسرح.

ومن الاسباب التي ذكرها المؤلف كونها ادت الى تأخير تطور المسرح في العراق او البلدان العربية في زمن الاستعمار بالرغم من أن هذه المجتمعات قد تجاوزها هي:

- عانت الظاهرة المسرحية العربية من ضعف الخصوصية بسبب الفوضى وعدم الإستقرار.
- حُرمَ المسرح في اغلب الدول العربية والاسلامية باعتباره وسطاً يساعد على اختلاط المرأة بالرجل في مجتمع ذكوري.
- في العراق مثلاً اقترن المسرح بالكاباريه (الملهى الليلي) التي يقدم على خشباتها الرقص وبعض الفعاليات التي تدعو الى المتعة الرخيصة. ففي عام 1886م انتشرت في بغداد الكثير من المقاهي التي استثمرت فيها فرقاً موسيقية شعبية واستقدام راقصات من الخارج، وفي هذه المقاهي – الملاهي قدمت وصلات مسرحية كانت تسمى (الاخباري) الذي يداعب بشكل فاضح مشاعر الجمهور ما جعل المسرح يوصم بسمعة غير جيدة، وانعكس هذا على رأي الجمهور بالمسرح.

وفي السؤال المهم الذي ناقشه المؤلف (د. فاضل خليل) استناداً الى ما ذكره الفيلسوف الالماني "جوته" هو: من الذي يصنع المسرح؟ وما هو دور الممثل فيه؟

وهل يمكن ان تدعونا دعوة "جوته" التي اكد فيها (من الضروري أن نحصل على ممثلين جيدين بدلاً من الحصول على عرض مسرحي جيد) الى طرح ومناقشة السؤال التالي:

من هو القادر على صنع الممثل؟

وقبل الإجابة على مثل هذا السؤال، يؤكد المؤلف على السرد التاريخي للعلاقة او الصراع بين مكانة الممثل والمخرج فيسرد لنا أهم افكار اول مخرج مسرحي في تاريخ المسرح وهو (ساكس ماينغن) مؤسس الفكر الإخراجي في القرن التاسع عشر واهمية دور المخرج في العالم وبالذات في المانيا، ويتطرق الى اسباب ظهور المخرج وتأكيد افكاره في قيادة المسرح.

وبالتأكيد فإن د فاضل ينحاز الى دور المخرج في قيادة في ذلك الذي يصنع العرض المسرحي، وهنا يمكن القول بأن العرض المسرحي يتميز بخاصية مهمة جدا وهي هارمونية الوسائل الإبداعية والتقنية فيه، فمكونات العرض من ديكور وانارة وتمثيل والفكر الاخراجي وجميع الوسائل الأخرى لوحدها لا يمكن ان تشكل الرؤيا المتكاملة لكن بالتأكيد ان الممثل يمتلك خصوصيته لأنه الوحيد الذي يتقن وسائله المبدعة الكامنة في جسده الإبداعي وفي فكره وبالتأكيد فإن العلاقة بينهما تشكل

ذلك التصور المبدع لخلق الروح الانسانية (الشخصية) التي يؤديها ممثل يمتلك تكامل وسائله الابداعية.

ينطلق المؤلف لمناقشة موضوعة مهمة أخرى بعنوان (جاهزية التلقي والنقد المسرحي) وكيفية تقييم الجمهور وحيوية التلقي من خلال مقولة الفنان بيتر بروك التي يؤكد فيها أن (جمهورِ المسرح المعتاد ليس دائما جمهورا حياً) وبالتأكيد فان مثل هذه المقولة تمتلك واقعيتها عندما يكون الجمهور غير مثقف، كما هو الحال لدى جمهورنا العربي لأن الجمهور الذي يحضر العروض والمهرجانات المسرحية هو جمهور نخبوي، وهذه حقيقة يجب الا ننساها لأن الجمهور العربي مثلاً منشغل بمعيشته اليومية، ولا يمتلك وقتاً للذهاب الى المسرح، وعلى هذا الأساس هناك مهام ضرورية أمام فنان وناقد المسرح اللذين يجبل ان يعملا ضمن منهج يؤدي الى التأثير على الجمهور بحيث يصبح المسرح جزءاً من اهتماماته وهنا ينبثق السؤال الاكثر أهمية: من هو الجمهور وكيف يمكن اغراؤه للمشاهدة؟

بالتأكيد سيكون جوابنا فيه الكثير من الواقعية عندما تكون المشاهدة فناً ولذة وتذوقاً، اي عندما يفهم الجمهور دوره في العرض المسرحي. وبالتأكيد فان هذا مرتبط بفكرة العرض ووضوح رؤيا العاملين فيه جميعا. وعندما تكون الموضوعة التي يناقشها العرض ملكا وجزءاً من اهتمام المتفرج اي قريبة من واقعه وروحه بحيث يشكل المسرح تعبيراً عن حاجات الإنسان المادية وهي، مرادفات مهمة لفن المشاهدة، وبالتأكيد فإن هذه المهمة ترتبط

فاضل خليل

وبشكل جوهري بالمتغيرات الأساسية في بنية المجتمع.

والسؤال الجوهري الذي اثار المؤلف وناقشه بفكر نيّر وحُر ويمتلك ضرورته هو: هل بإمكان المسرح ان يكون سبيلاً للخروج من المحنة التي يعانيها الانسان ومن ضمنها الحروب المجانية كما ذلك الذي حدث في العراق؟

يمكنني القول هنا كمختص أيضاً بأن المسرح لا يقدم حلولاً جاهزة وانما هو يساهم في تطوير وعي الانسان من خلال طرح تلك الاسئلة الجوهرية في حياته عموماً، فضلاً عن انه يناقش ازمة الانسان في عالمه الاستلابي الغامض.

حتى يستطيع ان يؤشر له اسباب استقلاله ومأساته وهو يعيش كوارثه وهذا هو المهم في دور المسرح.

وهذا ما أكده د. فاضل أيضاً هو "ان كل امة تستفيق من هول صدمة او كارثة لابد لها ان تبحث عن وجود من نوع خاص، يتفق وحجم المأساة التي تعيشها، فكيف

بأمة دخلت محنتها من دون أن تخرج منها مثل العراق".

وبالتأكيد، فان المسرح يمكن ان يناقش مثل هكذا سبات او تلك الثغرات التي تعاني منها المجتمعات او الانسان كفرد بعيداً عن التأثير الأيديولوجي الذي يخلق ثغرات جديدة في حياة وفكر الانسان, فإذن كان للسؤال دائماً هو جوهر أو وظيفة مهمة في المسرح.

عندما يناقش المؤلف د. فاضل موضوعاً مهماً وهو تكنولوجيا المسرح فإنه يؤكد أن المسارح التي عملت قبل هذا التطور الهائل لتكنولوجيا المسرح كانت مسارح حوارية اي كانت الكلمة تلعب فيها الدور الأساسي في النص والعرض فالكلام والحوار ليس من الافعال المرئية والكلمة تؤثر في سماعها والمسرح عادة هو فعل منذ المفهوم الأرسطوي الذي اكد أنه فِعل يشاهد، له أبعاده المكانية والزمانية، لكن المؤلف يرشدنا الى ان الذي يهمنا في المسرح هو "الممثل الفاعل" اذن الكلمة لا تُرى أما فعل واداء الممثل هو الذي يُرى. وتبدو هذه حقيقة معروفة ولكن يمكن طرح ومناقشة المؤلف بهذا الخصوص على الشكل أليس هناك كلمة مرئية؟ بالتأكيد أن طرح هذا السؤال على المؤلف ومناقشته بالرغم من أنه يعرف جوابه ومثل هذا السؤال يمتلك أهميته لأنه يحيلنا الى موضوعة مهمة في المسرح المعاصر الآن، وهي من هو الذي يكتب النص الذي يتناسب مع فضاء المسرح وليس الأدب. بمعنى آخر ان مجمل النصوص التي تُكَتب للمسرح هي نصوص ادبية بعيدة عن استيعاب ومعرفة فضاء المسرح. اي انها نصوص كتبت حسب متطلبات فضاء الورقة وليس فضاء المسرح، ولهذا فان مثل هذا النص يمكن ان يكون معبراً عن اي نوع من انواع الأدب لكنه بعيداً عن فضاء المسرح الذي يبنى على الفعل وعلاقة امكانيات الجسد الديناميكية وايقاعها بالفضاء. اذن النص يجب ان يكتب بحسب شروط فضاء الفعل وديناميكية فضاء خشبة المسرح، وليس الشروط الأدبية (وهذا موضوع يحتاج مناقشة مطولة).

وفي معالجة المؤلف (د.فاضل خليل) لموضوعة (المونودراما وأهميتها في المسرح المعاصر) وبالرغم من انها نشأت مع ولادة المسرح منذ بداياته فهو يشير الى أن المونودراما هي البداية لاول حركة في المسرح، يقف فيها انسان ليستعرض حالة ما امام الجمهور، منذ ان بدأ الاغريقي "ثيسبيس" الذي يعتبر اول من قدم المونودراما وحتى تطور المسرح بعد ذلك ومن ضمنها وجود بعض الظواهر المسرحية عند العرب قبل الاسلام وبعده التي تعتمد على المؤدي الواحد سواء كان شاعراً ام حكواتياً، ومن ضمنهم القصاصون الذين هم الإمتداد الطبيعي للمحاكي الذين تفننوا ببعض نوادر الأخبار وغرائبها وما صاحبهم من المضحكين المتغنين بطرائف الهزل وتقليد اللهجات لأهالي بغداد وزوارها، وكذلك البدايات الأولى لما قبل المسرح التي اعتمدت الممثل الواحد "كالمخايل" وكذلك الأشكال الأخرى التي يزخر بها الأدب العربي مثل السماجة وغيرهم اما المونودراما المعاصرة فإنها تتميز بنص الجسد الأدائي.

وهناك الكثير من الأسباب أدت الى الإقبال على تقديم المونودراما عربياً منها السهولة في انتاجها وكذلك في تقديمها في اي مكان وبلا خشبة مسرح، ان الممثل الواحد يسهل ادارته والتعامل معه قياساً الى مجموعة ممثلين وغيرها من الأسباب الأخرى.

ولكن هناك أسباب عديدة اثارتها ظاهرة الاخفاق في عروض المونودراما لكن يمكن ان يكون راجعاً لأسباب كونها عروضا مملة بسبب ضعف امكانياتها التعبيرية، وكذلك محدودية القدرة التعبيرية لدى الممثل الواحد. وخلو عروضها من التشويق بالرغم من حجم الجماليات المتميزة في بعضها، ومثل هذه الاسباب يمكن ان تكون هي العائق امام الجمهور في حضوره لمشاهدتها، وهذا يعتبر إشكالية أمام تطور فن الوحدانية في المونودراما.

ويتطرق المؤلف أيضا عن اخلاقيات المسرح وأهمية التنظيم الإبداعي ما شكّل جوهر العلاقة الروحية بين المسرح والجمهور وخاصة عندما يحاول الفنان أن يحول خياله ابداعاً في الحياة يؤثر على الجمهور، وهذا يعتمد على اداة الممثل مثلاً، وعلى الرؤيا الاخراجية اضافة الى خيال كاتب النص الذي من خلاله يمتلك القدرة على التنبؤ بمستقبل الاحداث.

لا يمكن للمسرح أن يتطور من دون جمهور واع وذائقة جمالية لذلك فاذا كان يستحيل وجود المسرح من غير الممثل كذلك يستحيل وجود اي مسرح بدون متفرج، ولهذا فان الجمهور يؤثر على تطور المسرح وكذلك فان المسرح يؤثر على تطور جمهوره، وهذه جدلية تفرض دراسة سايكولوجية وبسيكولوجية للجمهور، بل للجميع عموماً من اجل اكتشاف ماهية جوهر المشكلة التي تهم المشاهد في اللحظة الراهنة، وكيف يمكن ادراك حساسية الجمهور ازاء اهم اهتماماته وما هي خصوصيات الجمهور التي يمكن التعامل معها؟ وغيرها الكثير من الاسئلة التي توصلنا الى دراسة معمقة للجمهور مما يساعد فهم طبيعة التلقي في المسرح.

إن كتاب د. فاضل خليل (مسرح ضد مسرح) يمتلك أهميته لأنه يعبر عن فكر اختصاصي في المسرح، ومحاولة من المؤلف لمناقشة أهم المشاكل التي يعاني منها المسرح في العراق والعالم العربي.

*** ناقد واكاديمي ومخرج مسرحي.**

---

1. د. فاضل خليل – مسرح ضد مسرح – اصدارات مجلة المسرح (شانو)/ كردستان العراق – 2010م .

فضاء الصورة والمدونات البصرية العراقية

د.جواد الزيدي

يرتبط النشاط الانساني ـ بمجمل فعالياته ـ بظروف الواقع المعيش، ويتسم هذا النشاط بخصائص الواقع نفسه في أغلب الأحيان التي تنفتح على مديات أوسع حين يفقد المكان وجوده الفعلي، ويتحرك الى مدلول رمزي في حضوره الروحي، لذلك لا يمكن أن يصبح الحضور الفكري والروحي مهيمنا على الحدود الجغرافية المكانية. ومن هنا اتخذت الحلقات اللغوية والجماعات التجديدية من المدينة منطلقا لها لتعبر به الحدود الجغرافية المألوفة، ولم يكن الاسم الا اشارة لطبيعة التفكير ومرجعياته. وهذا يصح على حلقتي براغ وموسكو اللسانيتين وجماعة الشكلانيين الروس وتجاوزها النزعة المحلية الى عالمية المعرفة وأساسا في بلورة خطاب لساني ونقدي يؤثر بمن حوله سواء اقترب منه أم ابتعد بمسافة معينة، فضلا عن بؤر الحداثات في باريس ولندن وروما التي أضحت منطلقات تؤثر في حداثات غربية

وشرقية وحركة التحديث الفني. وفي ضوء هذا الفهم ما زالت مدرستا الكوفة وبغداد النحويتان ماثلتين في الدرس اللغوي العربي حتى هذه اللحظة، وقد اسهمت مكتشفات المدن في صياغات اسلوبية وفكرية مهمة على صعيد التوصلات الجمالية، اذ قدمت مدينة سامراء قديما مدرستين فنيتين؛ الأولى مدرسة الخزف الملون في الألف الرابع قبل الميلاد. والثانية في القرن السادس الهجري حين توصل الفنان الى تطوير النسق الواقعي في الزخرفة الى بنية مجردة عن طريق الأطوار الثلاثة لزخارف سامراء التي ما زالت قوانينها حاضرة في الرقش العربي أو (الأرابسك) على وجه التحديد.

وبعد تأسيس مدينة بغداد في القرن الثاني للهجرة بدأت محاولات البحث عن الهوية أو توطينها التي ارتسمت ظلالها على الجدار الحضاري، وبهذا ارتبطت بهذه المدينة أولى المدونات البصرية الجمالية ممثلة بأولى المدارس الخطية التي اقترنت باسم بغداد وتكونت اساساتها وقواعدها على يد لغويين وخطاطين عراقيين يتقدمهم الشاعر الوزير ابن مقلة، وابن البواب، وياقوت المستعصمي، فضلا عن التحول من الخطوط اليابسة الى الخطوط اللينة حين ظهرت خطوط النسخ والثلث. ومن أجل تكريس رمزية المدينة وبعد زوال المحظور الديني على جنس آخر من الفنون الجميلة تأسست (مدرسة بغداد للتصوير الاسلامي) بوصفها اطارا منهجيا لحركة الرسم، اتسعت حدودها الى فضاءات أخرى نتج عنها أربع مدارس للتصوير الاسلامي هي (الفارسية، المغولية، الهندية، الصينية). وبهذا لم تكن مدرسة بغداد للتصوير مدرسة بغدادية أو عراقية أو تحمل ملامح محلية محددة، بل اجترحت هوية لفن شرقي واسلامي ما زالت جذوره ماثلة حتى هذا اليوم وتأثيراته أطرت فنا حديثا ظهر في منتصف القرن العشرين، عندما بدأت نهضة جديدة بعد القطيعة المعرفية التي لحقت ببغداد منذ سقوطها في القرن الثالث عشر الميلادي، وحتى بداية تأسيس الدولة العراقية الحديثة في عشرينيات القرن الماضي. وضمن حركية النشاط التدريجي والظروف المحيطة توصل جيل من الريادات الفنية والأدبية العراقية، واتخذ من بغداد مرة اخرى اسما لجماعة فنية هي (جماعة بغداد للفن الحديث 1951) وهي محاكاة لما أنجزه الواسطي في مدرسة التصوير سابقا، اذ انضوت تحت هذا المسمى أسماء كبيرة من الاجناس الابداعية المختلفة، فبالإضافة الى الفنان جواد سليم قائد الجماعة وعرابها كان هناك (شاكر حسن آل سعيد، بلند الحيدري، فؤاد التكرلي، مظفر النواب، جبرا ابراهيم جبرا) وغيرهم ضمن المنطق المجموعي الذي يحكم فعل الجماعات كل ضمن توجهه واختصاصه لأسباب

قديمة متجددة، تبحث في توطين الهوية وتأطير ظلالها القديمة.
وعلى الرغم من الهواجس الدافعة نفسها، الا أن طبيعة الخطاب اختلفت والرؤية الى الواقع والتعبير عنه اتخذت مسارات مختلفة لأن التصوير الاسلامي مختلف الأصل المرجعي عن الرسم الحديث، بيد أن هذا لا يلغي المشتركات التي قامت عليها الجماعات المعاصرة، اذ اتخذ الاثنان الواقعة المحلية والحكاية مشتركا لاشتغالاتهم وانتموا الى البؤر الشعبية في قراءاتهم البصرية، وهكذا كانت جماعة بغداد للفن الحديث تصور واقع المدينة ومحيطها بكل ما يحمله المناخ المحلي من ملامح مرئية وجوهر يمكن أن يوجد هوية خاصة وسمات لفن قادم يقيم علاقات وطيدة بين الفن العراقي القديم والتصوير الاسلامي وبين طروحات الحداثة أو أنظمتها في التشكل المرئي. ولعل الشواهد ما زالت ماثلة في نصب بغداد (نصب الحرية) التي اتسعت رؤيته لتصل الى عمق التاريخ الانساني والعراقي واستجلاب رموزه لتمثل نضال شعب من اجل الحرية، أو حين رسم (جواد سليم) مدينة الكوفة فأنه رسم المدينة الرمز. بمعنى المدينة المتخيلة الحاضرة في العمق الروحي لدى جواد نفسه أو الآخرين.
وعندما تنشأ جماعات أخرى على مسميات مدن وقصبات بعيدة فأنها تعيد تكريس بغداد وحضورها الرمزي في ضوء ثنائية (المركز والهامش) التي تحكم نظم وآليات التفكير أو الغياب والحضور؛ اذ أن الغياب يشير الى الحضور في التصور والمقارنة. وفي بعض عمل الجماعات التي حملت أسماء تبتعد عن المكان، وتبحث في الرؤى كنهج لاشتغالها البصري، فالأمر يصب في النهاية في خدمة الغرض ذاته، أما تكريس الهوية والبحث عن الفرادة كما فعلت (جماعة الحروفيين)، أو النزوع نحو الموضوع المحلي كما فعلت (جماعة الانطباعيين) التي عملت على تصوير الطبيعة العراقية.
فضلاً عن ذلك فإن منتج الحواضر الأخرى يعود في اصوله الى بغداد أيضا، فما أنجز في سامراء والبصرة والكوفة وواسط يتسع مداه الى فضاءات تتجاوز حدود المركز نفسه. وبامتلاك المركز مقومات الهيمنة الثقافية فأنه يعيد ترحيل الأسماء ومنجزها من الهوامش اليه ليصبح منجز وطن وليس مدينة، حتى وأن تحدد باطار مؤسساتي. وقد تنازع على هذه الصياغات جماعات لها اهدافها ومشتركاتها في البحث العياني، حددت نفسها في البحث عنه، يجاورها فعل فرداني أسهم هو الآخر في اضافة حلقات هامة على مجمل فضاء الصورة العراقية وخطابها البصري. فكانت طروحات (كاظم حيدر، محمود صبري، ضياء العزاوي، صالح القرةغولي، محمد مهر الدين، اسماعيل فتاح الترك) ورهط طويل تعدد في اصوله والتقى

في خطاب يحمل خصوصيته المحلية استمرارا لاكتشاف الجديد والمغاير في التوصلات التي رسخت تجربة امتازت عن محيطها الاقليمي، حتى بفعل مؤثرات الصراع التي نالت من حرية الفنان في التعبير واليات السلطة التعبوية في تسخير الفن لخدمة اغراضها، حيث اصبحت توصلات (جواد سليم وشاكر حسن ال سعيد واسماعيل فتاح الترك ومحمد غني حكمت) درسا تعليميا لجيل من التشكيليين العرب مثل الكويتي سامي محمد والسوري احمد معلا وتبعيتهم للخطاب البصري العراقي. وان ظروف الصراع الفعلي التي مرت بها بغداد، بوصفها ذاكرة وطن ورمزا لثقافته الوطنية نتج عنها نزوع التشكيل العراقي الى التجريد الخالص والمشفر في ثمانينات القرن العشرين وتسعينياته وصولا الى المنعرج الأكبر عام 2003 وما بعده، وبدأ سؤال ملح يطرح حول امكانية استجابة الفن للمتغير الخارجي أم لا؟

وعلى الرغم من الاستجابات السريعة للفنانين العراقيين منذ اللحظة الأولى ورفضهم العنف الموجه نحو الذات العراقية وآليات الخراب المحيط بها، الا أن ذلك لم يفض الى ملامح جديدة لفن المرحلة بفعل بقاء الظروف المؤثرة ذاتها في عقد التغيير الأول المرتبك. بيد أن بعض الاشارات في حركية هذا الفن استطاعت أن تؤكد فعل الاستجابة واتخاذ معطيات الواقع أساسا في تكريس خصائص جديدة اتضح بعضها في سنوات لاحقة تمثلت في الراهن الحالي، وباجتماع كل هذه التوصلات الفردية يمكن ان تتشكل سمات جمعية، اذ اقيم معرض مشترك على انقاض مركز الفنون في لحظة تدميره واحراق محتوياته. وبعد ثلاثة أشهر أقام خمسة فنانين معرضا على قاعة حوار للفنون نعتوه (تضاريس الذاكرة) بوصفه أملا لانعاش الذاكرة بطقوسية جمالية سابقة. وصور شداد عبدالقهار بغداد في معرض شخصي أسماه (حرائق بغداد) بوصفها حرائق وطن، وما بغداد الا رمز لذلك ضمن مشاهدات الفنان لما حصل، وكانت محاولة الرسام (أحمد نصيف) تصب في ذات الأهداف عندما رسم الحواجز الكونكريتية وآثار أحذية العسكر في معرض شخصي. ووظف البعض قطع العجلات الملغمة وشظايا المقذوفات المستخدمة في الحرب كجزء من الاستجابة للمعطى الموضوعي الخارجي ضمن فرضياته الملحة.

ومثلما حاول فنانو المركز كانت هناك قدرات لفناني المدن الأخرى (الأطراف) ومحاكاتهم لتلك التحولات والوقائع المادية، حيث قدم عدد من فناني من البصرة (هاشم تايه، ياسين وامي) معرضا يقترب من فنون ما بعد الحداثة في جوهره لتوظيفهم اليومي والمهمل وقطع الكارتون لإنتاج خطاب جمالي يستند الى مقولات فكرية تتداخل

فيها الأساليب والتقنيات، وتكريسا لآلية العمل والاشتغال السابق استطاع (هاشم تايه) أن يقيم معرضا شخصيا تطويرا لما اقدم عليه وزميله من قبل، بيد أن بغداد المركز ظلت هي الواجهة التي ينظر اليها في انتاج الخطاب الجديد الموائم لحركة الحدث والسيرورات التاريخية طبقا لتلك المسببات، لأنها ما زالت تمتلك تلك المقومات التي تفرض هيمنتها على الهامش الذي ما زال مقصيا وبعيدا. وقد افضت السنوات الأخيرة عن عودة حركة النتاج الابداعي في معاقل الفن سواء كانت مؤسسات رسمية أو غير رسمية، اسهمت فيها المعارض الجماعية والشخصية التي كان بعضها يجيب على سؤال السمات الشخصية ومواءمتها للحدث الخارجي وصولا الى تجليات الفن الكرافيتي المرافق للحراك التشريني وتجسيد مظاهر كانت غائبة عن التشكيل العراقي ليضحى ظاهرة امتدت افاقها الى مدن أخرى مثل البصرة وكربلاء وأصبح بالامكان الاجابة على سؤال تشكل سمات لفن عراقي جديد تلاقحت فيه آثار ظروف موضوعية تمثل دوامة العنف والتصفيات أو بشكلها الاحتجاجي الرافض لسلطة العنف ومقاومتها على صعيد الفن.

منمنمات وسماء الاغا... تحولات في زمن الابداع

د. معتز عناد غزوان

تعد الفنانة العراقية وسماء الاغا من الفنانات اللواتي وضعن لهن اسلوباً خاصاً من خلال طبيعة التكوين البنائي للعمل الفني من جهة، وطبيعة العلاقات ما بين عناصر العمل الفني من جهة اخرى. ان وسماء الاغا لم تكن رسامة واقعية حسب بل كانت تتحول من الواقعية الى الواقعية التجريدية، واحيانا الى الرمزية. فقد كانت تعمل ومنذ ان بدأت مشوارها الفني الطويل تتجول بين رسومات يحيى الواسطي ومنمنماته التي تنوعت من خلال طبيعة الاشكال المركبة الادمية والطبيعية لاسيما تلك التي تمتلك ثراء كبيراً من حيث طبيعة التزويق وملء المساحات داخل العمل الفني. لقد تأثرت الاغا برسومات الواسطي كما تأثر بها العديد من الفنانين الذين سبقوها كجواد سليم ونزار سليم وفؤاد جهاد وحسن عبد علوان ونزار الهنداوي، اذ شكلت من خلال هندسية بناء لوحتها تناصاً معاصراً مع لوحات الواسطي، لاسيما مدرسة بغداد الفنية التي تميزت بأسلوبها الحر البسيط، وعلى الرغم من بساطة الاسلوب فان رسومات هذه المدرسة اتسمت بالواقعية والتعبيرية، كما انها كانت ذات سمة وهوية

خاصة لا تنتمي الى تأثيرات اجنبية. لقد كانت دراسة وسماء الاغا لرسومات يحيى الواسطي واساليب بناء وتكوين اللوحة الفنية لديه، الاثر الكبير في تطور اسلوبها الفني، فضلاً عن دراسة الجوانب الحياتية اليومية كمشاهد الاسواق والقصور والمآذن والجوامع والمكتبات والحقول، والحياة الشعبية والمهن السائدة آنذاك. لقد كان للواسطي من خلال رسوماته التعبيرية والانسانية ومحاكاة التراث بماضيه المشرق الذي كان يتميز به العرب والمسلمون آنذاك، اثره الكبير في تنامي رغبة الاغا في تشكيل وولادة اسلوبها الفني المتميز.

لقد كانت للمدرسة الواقعية اثرها الكبير في بناء شخصية وسماء الاغا كرسامة تعاملت بحرفية عالية وتقنية متميزة في بدايات عملها الفني منذ نهايات السبعينيات وبداية الثمانينيات من القرن الماضي، اذ كانت تبحث عن ذات تشكلها بأنامل جديدة على وفق رؤية تختلف عن ما سبقها من الفنانات العراقيات، اذ تقول الاغا في تأكيد لحضور التراث والرمزية الحضارية في استنباط افكارها وتشكيل لوحتها الفنية، بان معظم نصوصها الفنية اتسمت بطابع اجواء الماضي، وتؤكد ذلك بقولها ((اجد في الماضي ملاذاً ووعاءً جميلاً اراه اكثر صدقاً وبراءة فالتجئ اليه ليحميني من قبح الواقع الذي نعيشه اليوم، ان العودة الى التراث والفنون الرافدينية والاسلامية يظهر عندي بشكل غير ارادي وبصورة غير مباشرة، ومن خلال عملية استيعاب وطرح من حيث لا اعرف كيف ولماذا ومتى)).

كان لأعمال وسماء الاغا الاولى تأثير

وسماء الاغا

واضح بالواقعية الجديدة، انها محاولات جادة في تشكيل اللوحة العراقية الجديدة لاسيما اللوحة النسوية، التي كانت قد برزت من خلال اساليب مهمة وجديرة بالاهتمام كتجربة مديحة عمر في حروفياتها، وتجربة نزيهة سليم في تأثيرات اساليب جماعة بغداد للفن الحديث، وتجربة الانطباعية التي قادها الفنان خالد الجادر ومن تتلمذ على يديه من فنانات كانت منهن الفنانة نعمت محمود حكمت التي ظلت متمسكة بأسلوبها الانطباعي المتميز، لذلك فقد كانت تجربة وسماء الاغا من التجارب الفنية الجديدة في اسلوبها وطريقة تعبير مكوناتها وعناصرها الفنية والجمالية. لقد اخذت الاغا تلك التجارب النسوية التي سبقتها بشكل جاد، ما اضاف لتجربتها الفنية نوعاً من التميز عن طريق الاسلوب الذي انتهجته في معظم اعمالها الفنية الاخيرة، وكما يقال بان وصول الفنان الى

تحديد اسلوب جديد وخاص له هو نوع من الحكم الابداعي في تجربة هذا الفنان الذي اختط نمطاً جديداً في التعامل مع المضمون والواقع؛ فالأسلوب هو التعبير الصادق عن شخصية صاحبه. لقد كانت اولى تجاربها في الرسم بتأثرها الكبير بالواقعية ومحاولة ايجاد شخصية متميزة حاضرة بقوة في اللوحة التشكيلية العراقية المعاصرة، اذ رسمت نفسها بتعدد مكاني اختلف باختلاف تداولية الموضوع، اذ تارة تكون امام نفسها في محاكاة لذاتها ومحاولة لإبراز معالم وجهها الذي اتسم بالحيرة، فهو الوجه الصامت والجامد بحركة تنحو منحى الهدوء والسكينة، ونظرات تبدو عليها ارهاصات غير معلنة ترتبط بقلق المكان، انها رسامة انسانة، تعشق تراثها حيث تكون الى جانب ملكة الحضر، تجسيداً لكبرياء المرأة العراقية على مر التاريخ، باحثة عن مجد لا يقبل الجدل، وهي ملكة بألوان التراث تمسك بزهرة حمراء، او تمسك بفرشاة رسم، او بوجه قطع عن جسده.. وكأنه تمثال اصم قد غادرته الحياة، او حلم كان يدور بين مفردات تبحث عن اصرة موضوعية..، فالرأس بمفرده غادر طاولة اوراق النرد، ليظهر نابضاً بحركة الحياة بعيون تبصر بعيداً في فضاء قادم جديد يسوده الغموض.

لم يكن اسلوب وسماء الاغا قد استقر على نحو ثابت في بداية الثمانينيات من القرن الماضي حتى بدأ هذا الاسلوب يتغير ويتحول الى نوع جديد من العرض الجمالي، اذ تحولت تلك المقاطع الفنية الى ما يشبه الملصق من حيث وجود الصراع الدرامي والانساني بهدف توجيهي مقصود، انها محاكاة الشهيد ورحيل الجسد وبقاء القيم النبيلة الانسانية، مع التأكيد على تلك القيم بوجود ايقونات تقود الى الكشف عن معاناة ذاتية للفنانة مع فقدها للشهيد، فبقاياه ظلت في ذاكرتها من خلال الصورة، والمقتنيات، وحتى الملابس، انها صورة جسدت عذابات فقدان الاخ والخل والامل والحبيب، تأكيداً لمرحلة زمنية مؤلمة عاشها العراق وهي فترة الحرب العراقية الايرانية. جاء التحول الثاني في مسيرة الفنانة وسماء الاغا بتأثرها بالواقعية الروسية التي ظهرت بشكل جلي في اعمالها الاولى (العالم مقلوباً) و(الحلم)، اذ برزت تلك التأثيرات بأسلوب زوجها الفنان د. ماهود احمد.

لقد برزت وسماء الاغا كإحدى اهم الرسامات العراقيات بقوة حضور اسلوبها الذي مثل نوعاً من التحول الواسع النطاق في حياتها الفنية الطويلة، اذ بدأت تتعامل مع الواقع الحياتي العراقي من حيث التراث والحياة الشعبية والفلكلور والالعاب والاغاني والعمارة البغدادية حتى بدأت تدخل الخط العربي من حيث بعض الكتابات التراثية والشعبية السائدة في المجتمع العراقي. وكان جل اهتمامها بمعالجة شؤون المرأة العراقية وشجونها وحياتها وعلاقتها مع الرجل، اذ مثلت لوحاتها العديد من الحالات الاجتماعية التي تعيشها المرأة مع محيطها العائلي، فقد كانت المرأة هي المحور الرئيس في معظم اعمالها الاخيرة، فهي مركز الاسرة ومانحة الحب والحنان لبيتها وزوجها وابنائها، كما كانت لتلك الاعمال خصيصة متميزة تكمن في محاكاة التقنية

من جهة والموضوع من جهة اخرى، فقد ادخلت تقنيات جديدة في اللوحة التشكيلية كفن التلصيق او ما يصطلح عليه (الكولاج) اذ قامت بلصق العديد من الخامات المختلفة كالأقمشة والاوراق الملونة وخامات اخرى لتزين بها ملابس النساء وجعلها اكثر بهجة وجمالاً لاسيما في تعدد الالوان ما بين الاحمر والازرق والاخضر والاصفر لتقدم فرشة تتباين فيها درجات التضاد اللوني والانسجام ايضا، بل غدت اللوحة عنصر جذب كبير في ابراز الحركة والايماءة التي تقوم بها المرأة في لوحاتها، فتارة تكون مستلقية تستمع الى المذياع، وتارة اخرى تكون في حمام النساء، وتارة ثالثة تعزف على الربابة او ترقص فرحاً، انها المرأة العراقية التي تبحث عن الحرية، المرأة البغدادية التي اعتادت على سماع اغاني التراث الى جانب الرجل الذي وضعته الاغا بملابسه التراثية مرتدياً السدارة البغدادية تشبه القبعة.

لم تكن وسماء الاغا تلك الفنانة البغدادية المولد فحسب والجبلية الاصول، فنانة ارتبطت بذاكرة مكانها ونشأتها في بغداد، بل تعدى ذلك الى قدرتها التعبيرية الواسعة في الكشف عن ذاكرة المكان العراقي او ما يمكن ان نطلق عليه المكان الشامل، انه الوطن.. انه الانتماء الى الحياة... فقد رسمت المرأة في شمال العراق بأسلوب تجردت فيه بإبراز جمال المرأة ومفاتن جسدها وملابسها الجبلية ذات الألوان المتعددة وجعلها في سعادة كامنة بالحركة، والرقص الشعبي في اعياد الربيع التي يطلق عليها (الدبكات الكردية)، والتي يتميز بها أبناء كردستان مع تعانق حركات هؤلاء النساء والرجال مع البيئة بخصوصيتها الجبلية وسهولها ومراعيها الخضراء الخلابة مثيرة في ناظرها السعادة والفرح في ابراز العلاقة الوجدانية ما بين البيئة والتراث، والاهتمام بفن البانوراما اذ استطاعت الولوج في هذا الفضاء الواسع محاكية لتاريخ وابراز الادوار البطولية لاسيما التاريخ الاسلامي كما في لوحتها الشهيرة (عين جالوت) التي بينت فيها قيم البطولة والانتصار للمسلمين امام غزو وتقدم التتار، كما اهتمت الاغا ايضا بالميثولوجيا والاساطير القديمة ومنها اسطورة (كاوه الحداد) التي اظهرت لنا هذه الشخصية وهو يحمل المشغل بيده داعيا الى الثورة.

رحلت وسماء الاغا وهي في اوج تألقها بعد مسيرة حافلة من الانجازات المهمة في فن الرسم العراقي المعاصر وفي حقل التجريب الذي ظل يمثل لها نوعاً من البحث عن الجديد في مطاوعة الخامة بمختلف تركيبها من اجل تقديم اعمال تتسم بالنضج والمغامرة ومحاكاة الذات التي اصبحت اليوم في ظل تيارات ما بعد الحداثة، التي بدأت تتنامى في ظل معطيات لا تحدها انظمة او مدارس او قوالب نظرية اعتاد الفكر على التقولب بها، بل شكلت لنفسها لغة خطاب وفلسفة خاصة.

رؤوف مُسعد يشهد نُعاس البحر فيمشي فوق الماء

عدنان حسين أحمد/ لندن - خاص

بشجاعة كبيرة وصراحة غير معهودة يستعيد الروائي المصري رؤوف مُسعد لمحاتٍ ومقاطع متناثرة من سيرته الذاتية التي انضوت تحت عنوان "لمَّا البحر ينعس" والصادرة عن دار "النسيم" في القاهرة. لا يسمّي رؤوف هذا الكتاب باليوميات أو حتى بالمُذكرّات الشخصية التي تُكتب بشكل متباعد نسبيا وإنما يحلو له أن يسمّيها بالذكريات الناجمة عن فعل التذكّر الانتقائي لأحداث مهمّة بقيت عالقة في شريط الذاكرة ولا تقوى على مغادرته أبدا. وعلى رغم من بعض الأخطاء في الأسماء والتوارًيخ فإن ذاكرة رؤوف مُسعد متيقّظة وقادرة على فعل الاستذكار لأحداث وقعت على مدى ثمانية عقود. ما يهمنا في طفولته التي أمضاها في مدينة "ود مدني" السودانية أنه بدأ في الخامسة من عمره في الروضة والتحضيري، وفي السابعة شرع بالمرحلة الابتدائية التي أكملها بنجاح وهو في سنّ الحادية عشرة لكنه سيتعثّر في المرحلة الثانوية قليلاً ثم يلتحق بقسم الصحافة في جامعة القاهرة ويتخرّج فيها عام 1960، وكان ضمن دُفعته حمدي قنديل، وسامي خشبة، ويحيى مختار الذين تعيّنوا في الصحف ووسائل الإعلام الرسمية باستثناء رؤوف مُسعد الذي شعر بالإقصاء المُتعمَّد. تُرى، ما سرُّ تهميشه وإبعاده؟ هل لأنه كان شيوعيا، أم أنَّ هناك سببا آخر لتنحيته عن المشهد الثقافي والإعلامي في مصر؟

لا يتبّع رؤوف مُسعد نسقا خطيّا في سرد الأحداث، فهو منذ بداياته الأدبية الأولى كان حُرا، ومتمردا على الأنماط السرديّة التقليدية لذلك فهو يتنقّل بين الأزمنة والأمكنة والأحداث، فلا غرابة أن يقطع سير الحدث ثم يعود إليه بعد مدة من الزمن. فقد نوّه عن اكتشافه الشيوعية في سنّ الخامسة عشرة، ثم انتمائه بعد سنتين إلى تنظيم "طليعة العمال" لكنه لم يجد حرجا في القول بأنه لم يقرأ أيا من كتب ماركس ولينين ولم يفهم كتاب "المادية الجدلية" لجوزيف ستالين ربما لوعورة الترجمة أو لعدم قدرته على هضم الأفكار والمفاهيم الفلسفية آنذاك.

كثيرة هي الأسماء الأدبية التي تمرّ في هذه السيرة لكنَّ أهمّها على الإطلاق بالنسبة إليه هما صنع الله ابراهيم وكمال القلش، فهو يعترف بالفم الملآن:(لولا وجود صنع الله في حياتي لما كتبت أصلاً، ولولا تشجيع كمال لما أنهيت "بيضة النعامة") وهذا يعني أنّ رؤوف مُسعد كان كاتبا خاملاً وكسلانَاً وقد عبّر عن هذا التقاعس والفتور حين قال: "كنتُ فاقد الثقة فيما أكتب. . . كنتُ أكتب ببطء... وأحيانًا بدون مزاج" والأغرب

من ذلك أنه كان يطالب صنع الله وكمال دائما بقراءة ما يكتب وأن يعرف رأيهما في كتابته. وكان رؤوف وصنع الله لا يؤمنان بشيء اسمه الإلهام أو المَلَكَة الإبداعية، وإنما بالدأب، والانتظام، والمثابرة على الكتابة. وبفضل صنع الله الذي كان بمثابة السوط الذي يلسع ظهور الكسالى تعلّم رؤوف التأمل، والنظام، والانغماس في الكتابة الإبداعية التي يحبها ويؤمن بها لأنها تستغور أعماقه وتلافيف عقله. وسوف ينضمّ إلى هذه المجموعة في السجن عبدالحكيم قاسم ويؤسس الأربعة مجموعة متمردة، ويبدأون بكتابة نماذج قصصية وروائية بنَفَس حداثي مغاير لما كان شائعا في ستينات القرن الماضي. وسوف يتعرّف رؤوف لاحقا إلى أدوار الخرّاط الذي كان منغمسا بنظرية "الحسّاسيّة الجديدة" التي طبّقها على أدب السبعينات فأنارت لرؤوف بعض الجوانب المُعتمة في رؤيته الإبداعية وطبيعة الأعمال الأدبية التي يمكن أن يقدّمها للقرّاء العرب.

لم يَشهد رؤوف مُسعد التعذيب المُمنهج في السجون السياسية فبعد حادثة تعذيب شهدي عطية وقتله الذي أحرجَ الرئيس جمال عبدالناصر حين كان في زيارة رسمية إلى يوغسلافيا حيث وقف أحد نوّاب البرلمان ووجّه التحيّة إلى شهدي عطية الذي مات تحت التعذيب الأمر الذي دفع عبدالناصر لإرسال برقية عاجلة يطلب فيها وقف التعذيب والتحقيق مع الجلادين. ومن أبرز وسائل التعذيب التي كانت شائعة في زمن عبدالناصر هي الضرب، والإهانة، والعمل الشّاق بتكسير الحجارة، والهتاف القسري بحياة عبدالناصر.

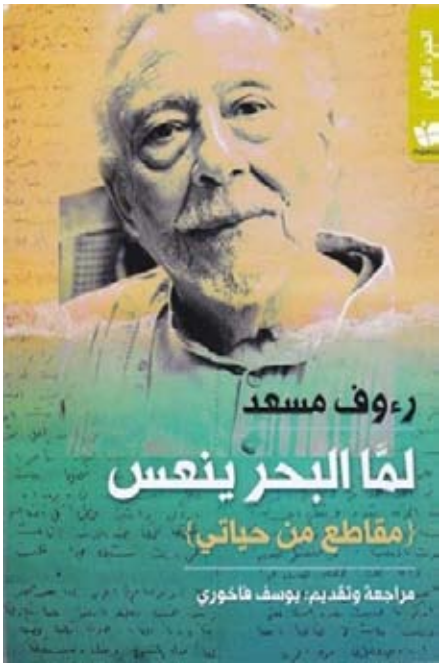

يؤكد رؤوف بحسب تجربته كسجين سياسي أن السيادة داخل السجن هي للأقوياء بدنيًا وللمتمكنين ماديا فكلاهما يكسب الاحترام، ويحافظ على كرامته.

تحتفي هذه السيرة بعدد كبير من النساء اللواتي أحبّهن رؤوف وعاش معهنّ أحلى أوقاته لكننا سنختار اللواتي تزوجنَ منه ودخلنَ في رواياته بأسمائهن الصريحة أو المُحوّرة. فرؤوف، كما هو معروف لأصدقائه المقرّبين جدا، لا يؤمن بديانة أو مذهب ورغم أنه ابن قسيّس بروتستانتي، لكنه سرعان ما أسلم حين طلبت منه السيدة إيمان فتحي قبل الزواج أن يتحوّل من المسيحية إلى الإسلام، وقد كتب عنها فصلاً في رواية "بيضة النعامة" أسماه "يمامة"، كما فشل في زيجته الثانية من بربارا البولندية، لكنه سوف ينجح مع بولندية أخرى تُدعى ميشا التي احتلت

حيّزا هاما من الرواية نفسها. تتوالى النساء العابرات والمعجبات في حياته إلى أن تأتي آناماريكا، المرأة الهولندية التي أنجبت له يارا وديدريك وتحمّلته على علاته تاركة إياه منزويا في مكتبه المنزلي، منقطعا لكتابة القصص والروايات، وخوض بعض المنازعات الفكرية والثقافية في الصحافة المكتوبة.

يؤمن رؤوف بالحقوق الفردية والجماعية ويقاتل حتى النفس الأخير من أجلها وقد دفع ضريبة باهظة الثمن من أجل أن يعيش حياة حُرّة وكريمة حيث أمضى أربع سنوات في سجون عبدالناصر فلا غرابة أن يجازف بالسفر إلى "الأرض المحرّمة" ويقاطعه الجميع تقريبا وعلى رأسهم صديقه الحميم صنع الله ابراهيم، بينما اكتفى القلش بمعاتبته على هذه الرحلة المتهوّرة التي فتحت عليه أبواب الجحيم، ولم تنتهِ تداعياتها حتى يومنا هذا.

يشتبك رؤوف مُسعد مع بعض الشخصيات الأدبية ويتهمها بالتناصّ مثل جمال الغيطاني في رواية "الزويل" وعلاء الأسواني في "نادي السيارات". ولم يرتح رؤوف إلى شخصيات ثقافية متعددة من بينها عبدالرحمن الأبنودي، ومحمود أمين العالم، ويوسف ادريس لكنّ موقفه النبيل يتجلى حين يقول لن أكتب عن الأموات منهم لأنهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

يتوقف رؤوف مُسعد عند الكتاب الذي ألّفه مع د. نصر حامد أبو زيد واختلفا عليه فنشره رؤوف بعنوان "الإسلام لابني"، كما نشره في مصر بعنوانين مختلفين بعد أن انقطعت علاقته مع أبي زيد في حينه.

يعد رؤوف قصصه ورواياته التي كتبها في أمستردام وهي "بيضة النعامة"، "صانعة المطر"، "مزاج التماسيح"، "الإسلام لابني"، "السودان... قرون من القهر وستون عاما من الحنين"، "في انتظار المخلّص"، "غواية الوصال"، "إيثاكا"، "زجاج مُعشّق"، أما "صباح الخير يا وطن: شهادة من بيروت المُحاصرة" فقد كتبها في القاهرة بتشجيع من صنع الله ابراهيم.

يُنهي رؤوف مُسعد كتابه ببيت شعري مقتبس من الشاعر البريطاني وليم إرنست هينلي الذي يقول: "أنا سيد مصيري... وأنا كابتن روحي". أما العنوان الشاعري "لمَّا البحر ينعس" فيعني أن المتصوفة المصريين الذين يجلسون أمام البحر (النيل) يعتقدون أنه ينعس في وقت غير معروف، ومَنْ يشهد هذا "النُعاس" تتحقق أمنيته كأن يمشي فوق الماء أو يكون في مكانين في وقت واحد.

وفي الختام لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الروائي الليبي مجاهد اليوسفي هو الذي حفّز رؤوف مُسعد على إنجاز هذه السيرة الذاتية وتحمّلَ تكاليف نشرها كاملة.